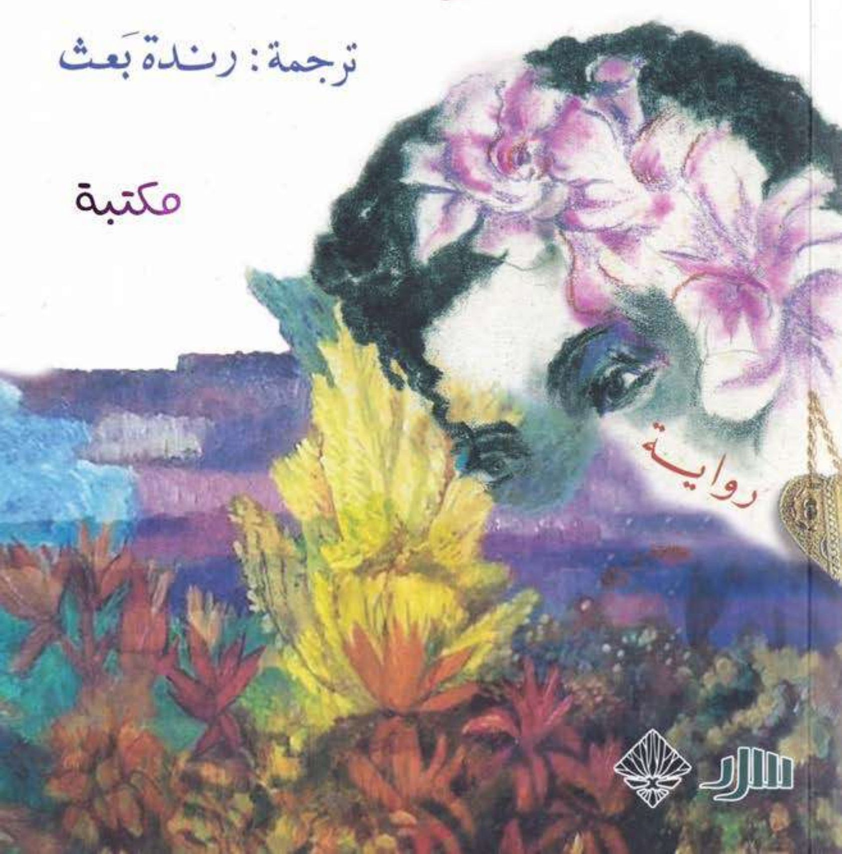
ماريز كونديه

الحياة الآثمة

ترجمة: رندة بعث

مكتبة



الحياة الآثمة

الحياة الآثمة - رواية

تأليف: ماريز كونديه

ترجمتها عن الفرنسية: رندة بعث

La vie scélérate

Maryse Condé

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

ISBN: 4 - 50 - 641 - 9933 - 978

الطبعة الأولى: 2021



سوريا - دمشق - ص ب: 9838

هاتف-فاكس: 6133856 11 963+

جوال: 557195187 971+

البريد الإلكتروني:

addar@mamdouhadwan.net

الموقع الإلكتروني:

addar.mamdouhadwan.net

fb.com /Adwan.Publishing.House

twitter.com /AdwanPH



دار سرد للنشر

جوال: 81756938 961+

البريد الإلكتروني:

info@darsard.net

الموقع الإلكتروني:

www.darsard.net

facebook.com /Sard.Publishing

twitter.com /SardPublishing

ماريز كونديه

الحياة الآثمة

رواية

ترجمتها عن الفرنسية:

رندة بعث

جميع شخصيات هذه الرواية، ويضمنها الراوية، متخيّلة.
كلّ تشابهٍ مع أشخاصٍ أحياء أو متوفّين هو بمحض المصادفة.


mohamed khatab

الإهداء

إلى ألبير

القسم الأول



.1

سلَفي ألبير لوي، وهو لم يكن بعدُ سلَفاً لأحد، بل زنجياً وسيماً في نحو الثانية والثلاثين من العمر، وأقول نحو لأنّه كما يعرف الجميع لم يكن أحدٌ يهتمّ في ذلك الزمان بالسجلّات المدنية، بل كان الناس في المزرعة يتذكّرون أنّه وُلد في عام الإعصار الرهيب الذي أطاح بالأشجار والأكواخ في أرجاء جزيرة باس تير (Basse-Terre) كافةً وكذلك جزيرة غراند تير (Grande-Terre)، وعصفَ حتى فاض نهر سانغين (Sanguine) الهادئ، النهر الذي اقتصر ما فعله في تاريخه على تزويد كلّ شخصٍ بما يكفي من الماء لملء أوعيته وغسل ملاءاته الناصعة البياض، سلَفي الذي كان وسيماً، وأكرّر ذلك، برأسه الذي يشبه شكل البيضة، وذقنه المزدانة بغمّازة، وفمه الواسع الذي يكشف عن عددٍ لا متناهٍ من الأسنان تكفي لافتراس العالم، نظر إلى حفنة القروش التي حصل عليها من مدير المزرعة ورفع عينيه إلى السماء وكأنه يطلب الشجاعة من الشمس، وهدر قائلاً: «انتهى الأمر! هذه آخر مرّةٍ آتي فيها إلى هنا للحصول على أجري ككلب!».

واصل مدير المزرعة إيزودور، وقد اعتاد على صرخات ألبير لوي، مناداته العمّال وكأنّ شيئاً لم يكن: «لويزون فيس إيميه!».

لكنّ الناس شعروا جيّداً أنّ ألبير لم يكن هذه المرة يتحدّث بخفّة،

لمجرّد إثارة ضجيجٍ مثلما كانوا يلومونه في كثيرٍ من الأحيان، وأنّ في صوته حزماً وجزماً لم يسمعوه من قبل. فتابعوه بنظرةٍ متفكّرة وهو ينزل الدرب المؤدّي إلى الأكواخ، بعد أن مشى بحذاء بركةٍ تشرب من مائها الموحل حميرٌ هزيلة قصيرة. اغرورقت عينا ألبير بالدموع. كان يحبّذ أن ينهي عمله في مزرعة بوايِه دوليتان (Boyer-de-l'Étang) بأمرٍ جللٍ، كأنْ يمسك بخنّاق إيزودور ويلقي به مع سجلّه القذر ومحبرته وريشته الرفيعة على التراب، وربما أن يقتله، وأخافه هذا العنف فيه. شعر أنّه لن يكون له عدوٌّ أسوأ من هذا العنف طيلة حياته. وكي يتحرّر، أخذ يقضي على الأعشاب المحاذية للدرب، ثمّ انحنى لالتقاط ثلاثة أحجارٍ، رماها بكلّ قوّته.

لا بدّ أنّ الناس تذكّروا ذلك اليوم لأسبابٍ كثيرة. فقد كان يوم الجمعة السابق لأحد الشعانين. في الكوخ الذي تسكنه أودورا مع ابنها ذي الأعوام الثمانية والذي لا يعرف أحدٌ أباه، ورآه بعضهم يبتسم ذات صباحٍ جميلٍ في مهدٍ من القصب، بدأت آلامها التي لن تنتهي إلا مع انتهاء آلام السيّد المسيح. تموت معه وتُبعث بمجدٍ معه، وآنذاك، يتوافد أهل القرية جميعاً إلى كوخها للاحتفال. لذلك، ظلَّ رحيل سلَفي مرتبطاً بفكرة الألم الذي يسبق سعادةً غامرة. بعد بضع سنوات، عندما أتى ليخلّص أمّه تيودورا من جحيم المزرعة، لم يُدهَش أولئك الذين رأوه يرحل، وقالوا بصوتٍ مرتفعٍ إنّهم انتظروه على الدوام.

لم يدخل ألبير إلى القرية. لم يشأ توديع تيودورا لعلمه أنّه لن يتحمّل رؤيتها تبكي. تبكي ثانيةً بسببه.

لطالما قالت تيودورا إنّه أسال من عينيها ما يكفي من الماء لملء نهر سانغين وبركة بوا سان سواف (Bois-Sans-Soif) التي تشرب المواشي

منها. كانت تكرّر أنّه لم يتوقّف عن إبكائها منذ أن خرج من بطنها وهو يركل كمهر، وعلى رأسه قلنسوةٌ دبقةٌ تعصب شعره وجبهته. في الرابعة من عمره، ولشدّة ما عذّب حمار الأب ساتورنان القصير، تلقّى من تلك الدابّة، رغم أنها لطيفةٌ عادةً، رفسة حافرٍ في صدره كادت تميته. ولولا مساعدة أودورا، التي لم تكن آنذاك قد بدأت تدخل في آلامها بعدُ لكن لم يكن لها مثيلٌ في المداواة، لمات بالتأكيد من دون أن يتمكّن من فتح عينيه مجدداً. وفي الثامنة من عمره، رمى بنفسه من الغصن الرئيس لإحدى أشجار فاكهة الخبز(*)، لأنّه صمّم على الطيران. انتشلوه مدمّىً بين الأوراق اليابسة. ولم يتخلّص من رغبته في الطيران إلّا عند البلوغ، كما لو أنّه أدرك فجأةً أنّ الرجال مربوطون من أرجلهم بالأرض، فانغمس في فراش النساء. لم يكن يهمّه ما إن كنّ شاباتٍ أم عجائز أم بين بين. في وقتٍ ما، ضاجع أماً وابنتها في الوقت عينه. وفي وقتٍ آخر، ضاجع أختين توءم. ولحسن الحظ، لم يكن بذاره يخصب آنذاك، فبقيت بطون عشيقاته ملساء. ولولا ذلك، لكان لقطاؤه ملؤوا المنطقة. وكان فضلاً عن ذلك ميّالاً للشجار، لا يستسلم للهزيمة، قادراً على ضرب شركائه في اللعب بكعب زجاجةٍ من أجل بضعة قروشٍ خسرها في اللعب. لم يكن لتيودورا ابنٌ آخر، مع أنّه كانت لديها أربع بنات، كبيراتٍ وأنجبن هنّ أيضاً. لذلك كانت شديدة الحرص على ألبير.

الساعة الرابعة من بعد الظهر، ولم تغيّر الشمس لونها منذ شروقها. الآن، بات المرء يشعر أنّها سئمت من غضبها وتستعدّ للانسحاب من السماء لتنال قسطاً من الراحة. الأشجار منتصبةٌ كحرف الألف. ما من نسمة

(*) نوع من الأشجار المزهرة من عائلة التوتيات، وقد اكتسبت الثمرة اسمها من لبّها النشوي الصالح للأكل، إذ وجد فيه بعض الناس طعم الخبز. [م].

هواءٍ واحدة. وحده البحر يهيج وهو بنفسجيّ، ويتفكّك أسفل الصخور الرماديّة. عبرت دجاجةٌ وصيصانها الدرب الذي يتسافد وسطه كلبان وهما يلهثان. ودفع ذلك ألبير إلى أن يتذكّر عدم وداعه ليتيسيا، عشيقته المفضّلة، تلك التي تخلّت من أجله عن صبيانها الثلاثة في كوخ أبيهم الخالي من نار التدفئة. فكّر في أن يعود أدراجه، فهو يستسيغها حقاً، ثمّ قال في نفسه إنّه لا وقت لديه لذلك. لم يكن المركب لينتظره.

منذ أن شهد ألبير موت مانو، أبيه الذي كان هزيلاً إلى حدّ أنّ طفلاً كان أثقل منه وزناً، وكانت ذراعاه وساقاه مشوّهةً كأغصان شجر الجوافة، عاهد نفسه على الهرب.

كم كان دفن مانو جميلاً! الله أعلم من أين أتت بالمال تيودورا التي تراكمت عليها ديون لمدة أشهر للمتجر! لكنّ الكوخ أُضيء بالشموع حتى ليخال المرء أنّ الوقت نهار. وبلغ الحرّ فيه مبلغاً جعل القادمين يتصبّبون عرقاً ويجفّفون جباههم باستمرار، لأنهم أتوا من أماكن بعيدة مثل غروس مونتان (Grosse-Montagne) وبيل إبين (Belle-Épine) لإلقاء التحية الأخيرة على رجلٍ ترك العالم وهو يحتفظ رغم كلّ شيءٍ بابتسامةٍ وبأغنيةٍ على شفتيه، ولم تكن مفاجأةً قليلة الشأن أن يورث تيودورا مثل هذا الابن. مُدّد مانو على سريره في بزّته السوداء. كم كان عمر ألبير آنذاك؟ نحو اثني عشر عاماً. جلس الصبيّ باكياً في زاويةٍ وهو يحدّق بأبيه، والناس يعتقدون أنّه يتأسف على دفعه للغضب الشديد كلّ تلك المرّات. لم يخطر في بالهم أنّه يعاهد نفسه على أمرٍ محدّد: ألّا يعيش ويموت مثل مانو. أن يترك المزرعة. أن يستقرّ في مكانٍ آخر.

لم يتمكّن من الوفاء بهذا العهد الذي قطعه على نفسه آنذاك قبل مرور زمنٍ طويل. وقد اضطرّ للاحتفاظ بتلك الرغبات حبيسةً في ذهنه وصدره.

يتحرّر منها أحياناً في دفقٍ من اللعنات الفاحشة والشتائم والتهديدات تجاه الحياة الآثمة، إلى درجة أنّه نال لقب «شدق الجحيم». لم تأتِ فرصة تلبية تلك الرغبات إلا قبل بضعة أسابيع. ففي أحد مواخير لابوانت(*)، وكان نصف مخمورٍ من الكحول والرغبة في خلاسيةٍ لم ترغب فيه، التقى شخصاً يدعى صموئيل يرمي في الهواء قطعاً نقديةً معدنيةً وورقية. بعد بُرهة، سأله قائلاً: «ما الذي تحتفل به يا صديق؟».

أجاب صموئيل من فوره دونما حاجةٍ إلى الإلحاح، فباح بما لديه بفضل السُّكر. الأميركيون لا يخشون شيئاً. ها هم يمسّون ببنية العالم ويقطعون قارّاتٍ إلى قسمين. يحفرون في بنما (Panama) قناةً ستسمح لسفنهم بالإبحار على نحوٍ أسرع من نيويورك إلى سان فرانسيسكو على ساحل المحيط الهادئ. ومن أجل تحقيق هذا الهدف الخارق، يلجؤون إلى عمّالٍ من العالم بأسره. هكذا أسّسوا مكتب توظيفٍ وسط السافانا في فور دوفرانس (Fort-de-France). وقد بلغ عدد الرجال الذين ذهبوا ألفين وسبعمئة وثمانين رجلاً.

- العقد لسنتين والراتب تسعون سنتاً من عملتهم في الساعة. مع الطعام والمسكن. الناس يتحدّثون كثيراً عن هذا الأمر يا زنجي، يتحدّثون كثيراً!

كلّ هذه الكلمات، بنما ونيويورك وسان فرانسيسكو، طرقت مسامع ألبير للمرة الأولى وبدأت تحوم في رأسه كحلم. ثمّ انتهى المطاف بالحلم إلى أن تصلّب كما تتصلّب الحمم على سفح جبل سوفرير (Soufrière) ولم يترك مكاناً للتفكير. ألم يكن ذلك الرجل، صموئيل، إصبع القدر المصوّب بالاتجاه الذي ينبغي اتباعه؟ استفسر ألبير. كلّ أسبوع، يغادر

(*) Lapwent التسمية المحلية (بالكريولية) لبلدة بوانت آبيتر Pointe-à-Pitre. [م].

ميناءَ دارس (Darse) مركبُ «ماري ملكة كلّ الفضائل» المزركش بلونَيْ العذراء، الأبيض والأزرق، مع خطٍّ رفيعٍ ذهبيّ على طول جسمه وأشرعته وبصورةٍ للأم الإلهية. يبحر نحو جزر المارتينيك، فيصل إليها في بضعة أيام. وسعر التذكرة مقبول. ثمّ ما هي التضحيات التي يمكن أن يمتنع عن تقديمها رجلٌ يريد تغيير حياته؟

بين تردّدٍ وتفكّر، وجد ألبير نفسه الآن على طريق لابوانت ومسكن بوابيه دوليتان خلفه، والشمس تميل فوق رأسه، وحزن أمّه يلحق به أيضاً من دون أن يدرك ذلك، لأنّ تيودورا علمت على نحوٍ غامضٍ بأنّ فتاها سيعبر البحر، وبأنّ سنواتٍ طويلةً ستنقضي قبل أن تضمّ إليها جذعه الطويل بلون خشب الماهوجني.

استغرق وصول ألبير إلى لابوانت ثلاثة أيام. ففي ذلك الزمان، لم تكن هنالك كاليوم طرقٌ معبّدة، وكان الناس يمشون على لحم أقدامهم. عبَر دونما توقّفٍ بلداتٍ وقرىً ومحلّاتٍ ليس فيها سوى كوخين أو ثلاثة أكواخ تنتصب في ظلّ شجرة كابوك أو شجرة الرنف الملكي. عندما كان الصبيان الصغار، العراة تماماً وقضبانهم في الهواء، يرون ذلك الغريب ذا الوجه المغلق كباب سجن، يتوقّفون عن اللعب ويسارعون بخوفٍ إلى أمهاتهم ذوات الثياب الرثّة، المشغولات بتمشيط شعر البنيّات الأصهب. وفي الليل، عندما يرضى ألبير بأن ينال قسطاً من الراحة، يستلقي على كومٍ من أوراق الشجر وتأتي حيوانات الليل تشتمّه. في نهاية أحد الصباحات، ظهرت لابوانت، مستلقيةً بين الأرض والبحر. الأجراس تدقّ بأقصى قوّتها قبل أن تدخل في ذلك الصمت المطبق الذي لن تخرج منه قبل قيامة المسيح. في ميناء دارس، الرجال يهجمون على سفينة ماري ملكة كل الفضائل، فانتبه ألبير آنذاك إلى أنّ صموئيل لم يكن الوحيد الذي

ينشر البشرى. فقد رأى جميع ما تعدّه الجزيرة من زنوجٍ تعبوا من العبث بالساطور أو من قيادة عرباتٍ تجرّها الأبقار أو من التعرّق في مصنعٍ للسكّر يتزاحمون عبر هذا الباب الضيّق الموارب على الأمل.

- تسعون ستاً من عملتهم في الساعة، الناس يتحدّثون كثيراً عن هذا الأمر!

شقّ ألبير درباً لنفسه عبر هذه الجمهرة بضرباتٍ قويةٍ من منكبه القوي، فلم يتجرّأ أحدٌ على الاحتجاج، ووجد نفسه في الصفّ الأوّل. هكذا، عندما قرّر الخلاسي النحيل الذي يبيع تذاكر العبور أن يتوقّف عن تنظيف أسنانه ويقوم بعمله، كان ألبير أوّل من داس الأرضية المبقّعة بالقطران والزيت. سقط كثيرٌ من الرجال في الماء في ذلك اليوم وهم يحاولون بقبضاتهم أو مرافقهم أو أقدامهم الصعود على متن ماري ملكة كلّ الفضائل. حاول بعضهم أن يتبعوا السفينة أملاً في أن يشفق الربّان على مصيرهم ويتوقّف لالتقاطهم. وصل سبّاحٌ بارعٌ إلى وسط القناة في الدومينيك، لكنّه اختفى هناك من دون أن يترك أثراً على سطح البحر بعد أن جرفته الأمواج. رأى أكثر المسافرين تطيّراً في ذلك نذير شؤم، فرسموا إشارة الصليب على صدورهم. أمّا ألبير، فقد تملّكه نومٌ عميقٌ لم يقطعه سوى الوصول إلى ميناء فور دوفرانس.

كان مكتب التشغيل مصنوعاً من أربعة أطباقٍ من الصفيح، تتقاطع بزوايا حادة تحت سقفٍ من القشّ، فيه أميركيّان بوجهين صبوحين وكأنهما وجها طفلين غُسلا جيداً يحيطان بهنديٍّ يقوم لديهما مقام المترجم. بعد أن رميا ألبير بنظرةٍ سريعة، مدّا إليه ورقة وقالا:

- *Can you write?*
- *Ou sa ékri?*



هزّ ألبير برأسه إيجاباً. لم يكن عبثاً أن استنزفت تيودورا نفسها لإرساله إلى المدرسة في البلدة! وقّع بفخرٍ بأحرفٍ أولى جميلة، وهذه أوّل وثيقةٍ له أحوزها. اسمه مكتوبٌ أسفل عقدٍ لمدّة عامين لحفر قناة بنما. كانت السنة 1904، والشهر آذار، واليوم الثلاثاء. الثلاثاء 14 آذار 1904.

كان وجودي لا يزال في علم الغيب. وكذلك وجود أمي. حتى جدّي يعقوب لم يكن قد بدأ يتكوّر في بطن أمّه.

تلبيةً لنداء الأميركيين، توافد رجالٌ من الأعراق كافةً لحفر قناة بنما، مثلما فعلوا في السنوات السابقة لبناء الستين كيلومتراً من السكك الحديدية التي تحاذي البرزخ. ومثلما فعلوا تلبيةً لنداء فرنسيّي السيّد دوليسيبس (de Lesseps) الذين حاولوا هم أيضاً أن يقطعوا قاراتٍ إلى اثنتين، لكنّهم تسربلوا بالوحل والفشل. رجالٌ من الأعراق والألوان كافةً. بيض. سود. صفر. خلاسيون. ماتوا بعشرات الألوف. وتعدّد صحيفة «لوجورنال دوكانال»(*) بحيادية:

– جوشوا ستيل، من باربادوس، رقم التسجيل 23646، قُتل في انفجار في كوليبرا (Culebra)؛

– صموئيل توماس من مونتسيرات (Montserrat)، رقم التسجيل 456185، قُتل في انفجار في ساتون (Satun)؛

– جوزيف جان جوزيف من هاييتي، رقم التسجيل 565481، دُفن حياً في تشاغريس (Chagres).

عُيّن سلَفي ألبير لوي في فريق مفجّري الديناميت بسبب طول قامته وقوّة بنيته. إذ انتشرت أشجارٌ عملاقة كيفما شاءت طيلة قرونٍ بحيث تقطع

(*) *Journal du Canal*: صحيفة القناة. [م].

الطريق أمام الشمس أو القمر مالئةً مسار القناة المرسوم، من كولون التي لم يكن اسمها أسبينوول إلى مدينة بنما، أي من محيطٍ إلى محيط. لذلك كان يجب حفر جوانبها، حيث توضع شحنة الديناميت وتغطّى بالوحل مع ترك الفتيل في الهواء. ثمّ عندما يحلّ الليل، يهاجم العمّال تلك الأشجار المخيفة المعمّرة وهم يصلّون كي لا تجرفهم معها إلى الموت. كان الإنسان يتصارع مع الشجرة جسداً لجسد، وكثيراً ما تتغلّب عليه الشجرة في تلك المصارعة.

تغلّف مدينةَ بنما لمدة ستة أشهر من السنة أبخرةُ مطرٍ متواصل، في حين تغرق ستة أشهرٍ أخرى بوابل المطر. في جوّ الدفيئة هذا، لا يقتصر ما ينمو على الأيكة الساحلية أو المنشينيل القاتل أو الماهوجني، بل يشمل أيضاً الحشرات التي تنقل الحمّى الوخيمة والزحار والطاعون. بنما قبرٌ تمدّد فيه عشرات الألوف من البشر ولم ينهضوا بعد ذلك أبداً.

تحمي مدينتا كولون (Colón) وبنما بوابتَيْ قناة بنما من المحيط إلى المحيط.

أحدثهما هي كولون، وقد بُنيت على جزيرة مانزانيو (Manzanillo) على الرأس الشمالي الشرقي من منطقة نيفي باي (Navy Bay). هناك، ترسّبت بقوةٍ على أساسٍ من المرجان مواد عضوية تضغط عليها باستمرار أمواج الأطلسي، ما أدّى إلى تربةٍ خصبةٍ وإسفنجية. أمّا مدينة بنما التي يعود تاريخها إلى عدّة قرونٍ مضت، فقد بُنيت للدفاع عن كنوز الإسبان من شراهة القراصنة، وهي تتشبّث برأس صخرةٍ تطلّ على شواطئ من الرمل الأبيض أو على تجمّعٍ من الجزر. ما من وجه شبهٍ بين هاتين الحارستين. فإحداهما متمرّغةٌ في الوحل والثانية تحتفظ بذكرى روائعها.

إحداهما بشعةٌ وغير صحّية. الثانية فخورةٌ وذات منبتٍ نبيل، ولو أنّها خسرت كرامتها، كأهل بنما الذين لم يعودوا سادةً على شيء، لكنّهم تخلّوا عن سيادتهم أمام الأميركيين. أمام بناة القناة.

نعم، مدينة بنما خسرت كرامتها.

قبل وضع مسار سكّة الحديد، كان أربعة آلاف إلى خمسة آلاف نسمة يزرعون فيها، ويعيش الكريول(*) والخلاسيون الميسورون داخل الأسوار، في حين يتكدّس الملوّنون في ضاحية إل فارال (El Varal)، على حدود السور المحصّن. في أديرةٍ قديمةٍ باتت متداعية، تنمو أشجار نخيلٍ في الأروقة في حين تتعلّق نباتاتٌ متسلّقةٌ بالأحجار. وفي البيوت نصف المهجورة، تسود الجرذان والعناكب الضخمة والنمل المفترس والصراصير.

ثمّ استعادت هذه المنطقة من العالم أهميّةً وحياةً بفضل ذهب كاليفورنيا وتشييد سكة الحديد قبل حفر القناة، لكن لم تسترجع مدينة بنما عظَمتها الماضية أبداً.

.2

سرعان ما لاحظ ألبير أنّ ما فعله لم يتجاوز تغيير لون ملابس بؤسه.

لم تكن شركة القناة تهتمّ إلّا بعامليها الأميركيين. فمن أجلهم تجلب الذهب سبائكَ من وول ستريت. من أجلهم تنظّف الساحل وتبني أكواخاً

(*) Créole: شخص أبيض وُلد في المستعمرات المدارية، وفي المناطق جنوبي خط الاستواء، ويمكن أن يشير المصطلح أيضاً إلى شخصٍ ملوّنٍ أو خلاسي له سلَفٌ أبيض. [م].

جميلة مزوّدة بالمياه الجارية. من أجلهم تضع على الأرض لوحاتٍ كُتب عليها: «مخصّص للبيض»، «البيض فحسب».

فعل ألبير مثلما فعل مواطنوه الذين يشيّدون ملاجئ من الطين والقشّ في ضواحي غاتون (Gatun) وبوهيو (Bohio) وبا أوبيسبو (Bas Obispo) وكوليبرا، واستقرّ غير بعيدٍ عن مياه نهر تشاغريس الراكدة.

كلّ صباح، يستقلّ قطار العمّال إلى غاتون. يعود منها مساءً ويستلقي على فراشه البارد كقبر، فيجرفه على الفور موت النعاس المريح. لم يره أحدٌ يوماً يشتري شيئاً من المتجر، إذ يتغذّى بالسمك الذي يصيده بنفسه ومن نباتاتٍ يزرعها خلف كوخه. لا يخالط أحداً، لا من غوادلوب ولا من المارتينيك ولا من جامايكا ولا من ترينيداد، كما لو أنّه لا يعرف لغةً سوى تلك التي نحتها لنفسه في صمت كينونته. وكلّ يوم سبت، ينزع عنه ملابس العمل ويذهب إلى كولون وعلى رأسه قبعة بنما. وهناك، يقف في الطابور أمام ماخورٍ في فرونت ستريت (Front Street). كان ذلك المبلغ الأسبوعي المجالَ الوحيد لإنفاقه، وأخذ الناس يخمّنون مقدار مدّخراته.

– تسعون سنتاً في الساعة! الناس يتحدّثون كثيراً عن هذا الأمر يا زنجي!

استمرّ ذلك نحو سنة.

ذات يوم، أثناء عودة ألبير بعد انتهائه من غسيل ملابسه البالية في نهر تشاغريس، صادف فتاةً تحمل دلواً من الماء متوازناً على رأسها. كان يعبر من دون أن يتوقّف أو يحيّيها عندما قلبت دلوها لشدّة ما ضحكت. نظر إليها ألبير مذهولاً، فصعقه كلّ هذا الصِّبا والجمال. قال متلعثماً: «ما هو الاسم الذي يطلقونه عليكِ؟».

لم تتوقّف الفتاة عن الضحك: «وأنت؟ أتعلم ما هو الاسم الذي يطلقونه عليك؟ مودونغ(*) أو سوبارو(**)».

كرّر ألبير كلامها: «مودونغ أو سوبارو؟».

ثمّ انفجر هو أيضاً ضاحكاً.

- مودونغ أو سوبارو؟

شيئاً فشيئاً، أخذت نظرته، المعتادة على البغايا المجرّدات من السحر، وعلى رائحة فرونت ستريت القوية، تثمل بالفتاة، وكرّر وقد توقّف عن الضحك: «قولي لي، ما هو الاسم الذي يطلقونه عليكِ؟».

لكنّ الفتاة لم تُجب، وأخذت تركض على طول الدرب وقد رفعت طرف ثوبها، كاشفةً عن ساقين منسابتين، أشبه بساقَيْ راقصة.

منذ ذلك اليوم، جافى النوم ألبير. لم يعد بوسعه أن يأكل أو يشرب. وعندما يأتي يوم السبت، يجده قابعاً في كوخه، وقضيبه بين فخذيه. وفي النهاية، لم يعد يستطيع الصبر، فطرق باب جيرانه الذين لم يتكلّم إليهم البتّة طيلة السنة.

- آسف على الإزعاج! ابنة مَنْ تلك الفتاة ذات الستة عشر عاماً تقريباً، سوداء لكنها ليست سوداء غامقة، خدّها الأيمن ممتلئ بالشامات ولها عينان تعِدان المرء بالجنة؟

لم يتأخر الردّ.

- أنت تتحدّث عن ليزا، ابنة أمبروسيوس سيوول، ذلك الجامايكي الذي يحكي دائماً قصصاً عن المنقّبين عن الذهب!

(*) Moudongue: عرقٌ من العبيد الذين اشتُهروا بمزاجهم الصموت.

(**) Soubarou: متوحّش.

صباح يوم أحد، كوى ألبير أفضل ملابسه وارتداها، وفرك عنقه بكولونيا باي روم، ثمّ سلك طريق كوخ أمبروسيوس سيوول.

عندما رأته ليزا، التي كانت تمشّط شعر إحدى أخواتها الصغيرات في الحديقة، هربت لتختبئ في طيّات ثوب أمها. انهارت كلّ جرأتها. لم تعد سوى طفلة، أخافتها رغبة الرجل.

سُمح لألبير بالعودة كلّ يومٍ بعد انتهائه من عمله، وبعد وقتٍ قصيرٍ شوهد وهو يستعجل لدى هبوطه من القطار على طول الطريق الموحل. نمَّ الناس كثيراً عندما أعطى الأب سيوول ابنته لشخصٍ من غوادلوب. فالغوادلوبيون لا يعرفون حتّى التحدّث بالإنكليزية، ويعتقدون رغم ذلك أنّهم متفوّقون على الآخرين!

لكنّ ما أثار حنقهم إلى أقصى حدٍّ هو السعادة الجليّة لدى العروسين.

تأخذ ليزا في الغناء من الصباح حتى المساء. يبدأ ذلك وهي تحضّر الزوّادة التي سيأخذها رجلها إلى العمل، ويستمرّ حتى إيقادها نار عشائه. وعندما يعود ألبير، تسود الضحكات والصرخات الصغيرة وزقزقة عصافير محتفلة. لا، ليس من حقّ الناس أن يشعروا بهذا القدر من السعادة! توقّع الآخرون الانكسار، القطيعة. توقّع الناس أن يعود ألبير إلى طريق ماخور كولون، بل أن ينظر إلى امرأةٍ أخرى في القرية. توقّعوا أن يورّم وجه ليزا الجميل بعد أن يثمل. لا شيء من هذا كلّه! وليزا تواصل الغناء!

بعد بضعة أشهر، لاحظ الناس أنّ بطنها يتكوّر، وفهموا أنّ شخصاً ثالثاً سينضمّ إلى ساكنَي الكوخ. آنذاك، بدأ ألبير نفسه يغنّي! غير ممكن!

قبل أن ينزل من القطار ويغوص في بطن الغابة الإسفنجي، بقيادة رؤساء عمّالٍ مسلّحين بالبنادق الرشّاشة، يغنّي! ولدى عودته ليلاً،

ورائحة احتراقٍ تحوم حوله، يغنّي! سرعان ما بدأ باستصلاح أرضٍ رباعية الأضلاع في الغابة، وبناء منزلٍ صغيرٍ على نمط منازل الموظّفين الأميركيين في القناة بدلاً من الكوخ. لم يبادر أحدٌ من الناس لمساعدته، بل نظروا إليه وهو ينشر ألواح الخشب وينعّمها ويجمّعها. وعندما صار للمنزل هيكل، دهنه بالأبيض ووضع وسط الشرفة كرسيّاً هزازاً مصنوعاً من خشب الماهوجني، اشتراه من متجرٍ في كولون، تجلس عليه ليزا في ساعات الحرّ الشديد بعد الظهر عندما تنتابها الحاجة إلى قيلولةٍ قصيرة.

باتت ليزا الحامل أشبه بساق نبتة الماراكويا المتسلّقة المرنة عندما تثقلها وعود الفاكهة. وأخذ خرَقٌ جديدٌ تماماً يعدّل السرعة المعتادة في حركاتها. تمضي أحياناً لملاقاة رجُلها على الطريق، فتغوص قدماها الصغيرتان بخرَقٍ في الوحل، وتتركان خلفهما أثراً متعرّجاً. آهٍ كم كانت ليزا جميلةً في بدايات حملها هذه!

كانت جميع النساء يضعن مواليدهنّ في أكواخهنّ بمساعدة امرأةٍ خبيرة، وتتمّ الأمور بسلاسةٍ في حال لم يمت الوِلدان بالملاريا أو الزحار أو الداء العلّيقي. لكنّ ألبير وضع في رأسه فكرة أن تضع ليزا مولودهما في مستشفى أنكون (Ancon)، بإشراف أطباء أميركيّين! ماذا دار في خلده حول ما ستنجبه امرأته؟ أستنجب طفلاً أبيض؟ ليس حسناً أن ينسى المرء لونَه. وكذا الأمر بالنسبة إلى المهد الذي اشتراه من رجلٍ صيني في كولون، وغطّاه بمستطيلٍ من النسيج الرقيق مثلما ينصح بذلك الأميركيّون. هذا كلّه حماقةٌ! حماقةٌ وتفاخر!

عندما عجز سيوول العجوز، وهو لم يكن عجوزاً حقاً، لكنّه كان يُكنّى بهذا الوصف لأنّه أتى أيام الشركة العالمية للقناة بين المحيطين التابعة

للفرنسيين، عن العثور على ما يكفي من المال للعودة إلى دياره بعد رحيل السيّد دوليسيبس، تدبّر أمره ليعيش حتى يستأنف الأميركيّون الأشغال. يضع غليونه في طرف فمه ويبدأ قائلاً: «يربا بوينا (Yerba Buena)، هكذا كانت تُدعى. أتعلم ماذا يعني ذلك؟ العشب الجيّد، هذا ما يعنيه! ثمّ وصل الأميركيّون ببنادقهم ورفعوا علَمهم، وهم الذين عثروا على الذهب الذي لم يتمكّن الإسبان قبلهم من العثور عليه. فبدأت السفن تتكدّس في الخليج وأخذ الفرسان يذرعون الطرقات. يانكي، كاليفورنيّون، تشيليّون، كاناك من جزيرة هاواي، صينيّون، مالاويّون، كانت عصبة المغامرين تسارع نحو حصون سييرا نيفادا (Sierra Nevada). إذ يكفي يا صاحِ أن تحفر التراب بسكينٍ لتمسك الذهب بيديك».

ويقاطعه ألبير أحياناً: «الذهب؟ أتقول الذهب؟».

فيومئ سيوول العجوز برأسه.

– أقول حقاً الذهب. على شكل مسحوق. أو على شكل كتلٍ يعادل حجم بعضها حجم قبضة اليد. عندما تخلّى عنّا فرنسيّو السيّد دوليسيبس كأننا كلاب، أردت الرحيل أنا أيضاً. كنت أكسب قوتي بحمل أمتعة الأميركيّين الذين يستقلّون السفن في مدينة بنما، وقد أوشكت أن ألحق بهم أكثر من مرّة. ثمّ...

– ثمّ ماذا؟

– انتابني الخوف. يقال إنّهم يستعبدون السود في أميركا. لاحِظ أنّهم لا يجعلونهم يزرعون قصب السكّر، بل القطن. هكتارات وهكتارات من القطن الذي يُجنى، ثمّ يوضع في سلالٍ صغيرةٍ مثبّتة في الظهر. يقولون إنّ هذا العمل أصعب حتّى من العمل في قصب السكّر.

فيهزّ ألبير كتفيه:

- هيّا! العبودية تاريخٌ قديم. حتى إنّ أمّي نفسها لم تعرفها. أنتم الزنوج تجترّون الماضي على الدوام. عندما لا يعود في طرف القصبة عصير، يجب رميها!

- تاريخ قديم، تاريخ قديم! هو ليس تاريخاً قديماً بالنسبة إلى الأميركيّين، والزنجي هو دائماً عبدٌ في نظرهم. هذا هو السبب في أنّني لم أرحل ولم يكن الأمر سهلاً، فكأنّها كانت تناديني. هي...!

ويعود إلى الثرثرة:

- تحوّل اسمها من ييربا بوينا إلى سان فرانسيسكو، وجميع من رأوها سقطوا صرعى هواها. تستقر في آخر خليجها الذي مرّت أمامه السفن الإنكليزية والإسبانية مئات ومئات المرات قبل أن تكتشف مدخله. كعذراء تخفي وعاء حرق العطور الصغير الخاص بها. ثمّ، كما في كلّ الحكايات المشابهة، أتى مرتزقةٌ لينهبوها.

في البداية، كان ألبير يصغي لسيوول العجوز مثلما يصغي المرء لحكّاءٍ مليءٍ بالحماسة، ماهرٍ في الربط بين الفكاهي والخيالي. مثل بيه تيوتيم الذي يجاور كوخه كوخ تيودورا على سبيل المثال.

«ذات ليلة، كان تيرتوليان عائداً إلى بيته محمّلاً بالروم، وبعد أن كسب بلعبة النرد راتب رفيقه القديم جيرنيفال (كان لا يزال يضحك لذلك بمفرده في العتمة)، رأى تحت شجرة قرعٍ صبياً لا يزيد طوله عن ثلاث صخورٍ موضوعةٍ فوق بعضها وهو يبكي، يبكي بدموعٍ ساخنة:

- ضائع، ضائع! لم أعد أعرف طريق كوخ أمي!

اقترب تيرتوليان متعاطفاً وقال:

- لا تبكِ، أيها الزنجيّ الضئيل. قل لي ما هو اسمك؟!

- اسمي؟ تي-سابوتي!».

وكانت تلك بدايةَ مغامراتٍ خارقة استمع إليها ألبير حين كان طفلاً، وفي قلبه انفعالٌ عذب!

نعم، لم تكن قصص سيوول العجوز غير ذلك في البداية! أكاذيب تفيد في تجميل أسى الحياة. ثمّ تبرعمت في رأسه أفكار. هل يمكن أن تكون هذه المرّة أيضاً صوت القدَر الغامض، يدفعه ليسافر من جديد؟ كان ابنه على وشك الولادة (إذ كان صبياً، علِم ذلك بكلّ انتظاره، كما أنّ الأم سيوول أكّدت ذلك وهي تتلمّس بطن ابنتها)، إذاً كان ابنه على وشك الولادة وهو قابعٌ هنا، فاشلاً في هذا الطمي، مخاطراً بالموت مئة مرّة! صحيحٌ أنّه يدّخر سنتاً سنتاً، وحتى إذا جدّد عقده مرّةً بعد أخرى، فلن تنتهي متاعبه أبداً. وذات يوم، سيقع كدابّةٍ منهكةٍ تاركاً على الأرض شابّةً دونما رجُلٍ وطفلاً دونما أبٍ وأربعة عيونٍ للبكاء. هل لهذا هربَ من مزرعة بوابيه دوليتان؟

فبدأ يضغط على العجوز سيوول بالأسئلة:

- تقول إنّه يكفي أن يحفر المرء الأرض بسكّين؟

- لم أقل يحفر، يا زنجيّ! بل يحكّ! يكفيك أن تحكّ برأس النصل. وسيظهر الذهب لك أصفر تحت القشرة...

لم تكن ليزا تحبّ أن يضيع ألبير وقته في الاستماع إلى ترّهات أبيها. فقد سمعتها بما يكفي مع أمها وأخواتها! حين كنّ يستلقين وبطونهن الخاوية تقرقر، يسمعن الأب يصيح: «ذهب! ذهب!».

وتصفعهنّ الأمّ بعد أن ينفد صبرها كي يخلدن إلى النوم.

لذلك، كلّما اتّخذ ألبير لنفسه وجهة كوخ سيوول العجوز بدلاً من أن يبقى قربها ليقرأ لوجورنال دوكانال مرّةً بعد أخرى، بما فيها من إعلانات وفيات، كانت تستشيط غضباً. وإذا ما بقي هناك أكثر من ربع ساعة، تخاطبه بعنفٍ وفجاجة، فيستلقي ألبير الذي لم يعد «شدق الجحيم» بوداعةٍ عند قدميها.

كم تُغيّر المرأة رجُلها!

لم يكن ألبير يجرؤ أبداً على معاندة ليزا أو إغضابها! فماذا لو وضعت صبياً مشوّهاً، كالصبي الذي انتهى الأمر بأوجينيا تشارلز إلى طرده من بطنها وهي تعاني آلاماً شديدة ولم يعِش أكثر من ثلاثة أيام، وللّه الحمد؟ كانت كلّ أفكار ألبير تدور دائماً حول طفله، وأحياناً يستغرب من حبّه له بأشدّ من حبّه لحبيبته ليزا. هل هذا ممكن؟ هل من الطبيعي أن يطرد الطفل الأمَّ من قلب الأب؟

لكن بدءاً من الشهر الخامس للحمل، تغيّر كلّ شيء! بدأت ليزا تذوي. اختفت الأغاني المجنّحة، وحلّت محلّها تأوّهاتٌ وشكايات. وانصباب العرق. والإغماءات. سرعان ما صار الناس يشفقون عليها وهي تدفع أمامها كرة بطنها الهائلة. اتّخذت سحنتها لون ثمرة جوافةٍ نضجت أكثر مما يجب. طغت عيناها على كامل وجهها. وعندما يحضنها ألبير مساءً، هي التي كانت حارة جداً في الحب، تدفعه عنها وترجوه بصوتٍ منهكٍ وخفيض أن يدعها بسلام.

اقترحت ماماه بياه، صاحبة التجربة، أن تعالجها بالنباتات، لكنّ غضباً شديداً انتاب ألبير:

– أنتم الزنوج لا تخرجون من إطار أوراقكم وجذوركم! من لبخاتكم

وكمّاداتكم! هذا هو السبب في أنّ البيض يدوسون رؤوسكم. هل رأيتم أطباء الأميركيّين؟

طلب من رئيس العمّال إجازةً لبضعة أيام، ولم ينل الموافقة بسهولة، ثمّ استعار حماراً من حميّه الذي يملك حمارين، ووضع على ظهره زوجته المتألمة بين سلّتين من المؤن، وفي مطلع النهار المزرقّ بدأ السير. أربعة أيامٍ بلياليها! يحتاج السفر من غاتون إلى مدينة بنما، التي ينتصب في أوّلها مستشفى الأميركيّين المبني بالحجارة البيضاء، أربعة أيامٍ بلياليها. أربعة أيامٍ بلياليها لرجلٍ سليم البنية، تلبّي أعضاؤه الأوامرَ. أربعة أيامٍ بلياليها سيكون عليه أثناءها تجنّب أفخاخ الغابة الليلية حيث تتبع الحيوانات المفترسة بعضها بعضاً وهي تصرخ، وأن يحتمي من لدغات الحشرات مصّاصة الدماء التي تجتذبها رائحته. في أماكن محدّدة، سيضطر لاتباع سكّة الحديد التي تحاذي مياه تشاغريس الثقيلة، لكن حين تجاوزت السكّة النهرَ على جذوعٍ هائلة الحجم من خشب الصنوبر، بزغ القطار وفمه فاغر، ووجب الالتصاق بالحواجز لكيلا يلتهمنا أحياءً.

كم أتخيّل محنة ألبير وليزا!

إنّها تبقي بصعوبةٍ شديدة رأسها المتعب مرفوعاً، لكنّه يقع مجدداً على صدرها الذي يبرز بطنها أسفله. لم تعد تتمكّن من تناول الطعام وألبير يعصر برتقالاً يسرّب عصيره قطرةً قطرة بين شفتيها الشاحبتين. وفي الليل، تتأوه كطفلٍ صغير، فيضمّها إلى صدره وهو يُجنّ ألماً!

– تشجّعي يا حلوتي! قريباً سنصل وستنير شمسُ طفلِنا أيامَنا!

وذات صباح، وصلا إلى مستشفى أنكون.

ما الذي جرى هناك؟ لم يشرح ألبير أبداً ما حدث، وكلّ الافتراضات مسموحة.

هل رفضوا أن يسمحوا له بالدخول إلى هذا المستشفى المشيّد لاستقبال عمّال القناة البيض؟

هل قُبلت فيه ليزا بعد مماطلةٍ وتردّدٍ لا ينتهيان، ما تسبّب في أضرارٍ في حالتها لا يمكن استدراكها؟

هل قُبلت على نحوٍ طبيعي وفقدت حياتها على الرغم من جهود الأطباء؟

على كلّ حالٍ وبعد ثلاثة أسابيع، رأى سيوول العجوز الذي كان يترقّب عودة الزوجين كلّ يومٍ زومبي يمشي متعثراً، طغت اللحية على وجهه ويمسك على ارتفاع قلبه رزمةً صغيرةً مغلّفةً بالأوراق وبقطعةٍ من نسيج الخيش. دخل الزومبي بيته وصفق الباب خلفه، ثمّ سمعت الجمهرة الصغيرة التي أخذت تتبعه على الفور تأوّهاً يفطر الفؤاد ويجمّد الدماء في العروق.

تأوّه ألبير ثلاثة أيامٍ بلياليها وفارق النومُ القرية.

في آخر الليلة الثالثة، حملت أمّ ليزا بلطة زوجها وأتت لتكسر باب البيت. وجدت ألبير ممدّداً على السرير المصنوع من خشب الماهوجني الذي اشتراه من أجل ليزا، والرزمة لا تزال غير مفتوحة على صدره. أزاحت الخِرق التي تغلّفها واكتشفت وجهاً بحجم قبضة اليد، متنبّهاً لحزن الأب. امتلأت عيناها بالدموع وهزّت ألبير:

– أفهم ما تعانيه. أنا نفسي عندما أفكّر في أنّ ابنتي ليزا انتقلت إلى الجانب الآخر، أرغب حقاً في أن أترك كلّ شيءٍ وأذهب في أثرها! لكن عليك أن تعيش. من أجله!

انتصب ألبير وجلس على السرير، بشعرٍ ابيضّ دفعةً واحدة، متوّجاً وجه عجوزٍ منهك. أخذ يبكي بصوتٍ مرتفع: «لقد ماتت، لقد ماتت!».

ضمّته والدة ليزا إليها وكأنّه رضيعٌ آخر، أثقل وزناً وأكثر يأساً، وهمست قائلةً: «هي لم تمت ما دام هو هنا.. ما الاسم الذي أطلقتَه عليه؟».

بدا واضحاً أنّ ألبير لم يطرح السؤال على نفسه البتّة. قال متلعثماً: «ألبير...».

تغذّى الطفل بعصيدة الذرة الزرقاء التي يشتريها الأب من هنود سان بلاس (San Blas). لم يعتقد أحدٌ يوماً أنّ بإمكان رجلٍ أن يعتني بمولود، وكان الناس، مصدومين إلى حدٍّ كبير، يتجمهرون على الشرفة ليروا ألبير يغذّي ابنه بالملعقة. كما كانوا مصدومين من عدم عودة ألبير إلى عمله. هل ظنّ أنّ الأميركيّين سينتظرونه، في حين أنّ الطوابير واصلت الامتداد أمام مكاتب التشغيل؟ وماذا؟ هل ألبير أوّل رجلٍ يفقد زوجته؟ هل يعلم كم من أمهات الأطفال يرقدن في طمي تشاغريس؟ بنما مجرّد مقبرةٍ هائلة تحت الشمس والمطر، الشمس والقمر.

عاد ألبير أخيراً إلى العمل.

كان لا يزال يشبه الزومبي. وبعد أن كان في الماضي جسوراً وأوّل من يبادر لمهاجمة الأشجار الضخمة وهو يمسك بمصباحٍ يدويّ، بات يمشي متعرّجاً عبر الغابة وقدماه غائصتان في الوحل. ما من شكٍّ في أنّه كان ليُطرد لو لم يكن رئيس عمّال فريقه زنجياً هو أيضاً، واسمه يعقوب. أخيراً شخصٌ أسود. أسود أميركيّ! هل تفهمون شيئاً؟ هائل الحجم، نحو مترين طولاً، عريض المنكبين، قرابة مئة كيلوغرام، لكنّه أسود. يخنّ عندما يتكلّم، وإصبعه على زناد البندقية الرشّاشة، لكنّه أسود.

في المجمل، لم يفهم الجامايكيّون أو المارتينيكيّون أو الغوادلوبيّون قطّ كيف يمكن أن يوجد سودٌ بين الأميركيّين.

وعندما يسألون، يضحك ألبير والعجوز سيوول:

- يا لكم من جهلة! كم أنتم أغبياء! المراكب عينها التي توقّفت في ديارنا لبيع أسلافكم واصلت حتى ديارهم واشتراهم بيضٌ آخرون.

- هكذا يكونون إخوتكم!

فيهزّ الناس رؤوسهم من دون كثير اقتناع:

- إخوتنا؟ إخوتنا؟ أرأيت الرشّاش الذي يحمله هؤلاء الزنوج؟ هؤلاء ليسوا إخوة!

غير أنّ يعقوب ذاك صار أخاً لألبير، صوت القدر الغامض الذي يشير إلى الدرب الجديد ليسلكه.

في حدود تلك السنة، 1906، رأى أهالي مزرعة بوايه دوليتان ألبير يعود وهو يحمل بين ذراعيه طفلاً هزيلاً شاحباً، يبدي للعيان تلك الهشاشة الناجمة عن غياب حليب الأم.

ظهر ألبير مرتدياً بزّةً من النسيج المبرد الأسود، وجزمةً ملمّعةً باللون عينه، وقبّعة بنما يظهر تحتها شعره المجعّد الأبيض. فوجئ الناس بأنّه شاخ إلى هذا الحدّ في هذا الوقت القصير على الرغم من أنّه لمّا يتجاوز الرابعة والثلاثين أو الخامسة والثلاثين من عمره. غير أنّهم بُهروا بروعة هندامه بحيث لم ينتبهوا إلى قسماته. لاحظ بعض الناس الأشدّ تنبّهاً طيّة شفتيه المريرة، وخفّة بريق عينيه المغلّفتين بوسادات حداد الحزن. غير أنّ معظم الناس خمّنوا بخاصةٍ مقدار مدّخراته. لابدّ أنّه جمع ثروةً طائلة طيلة هذا الزمن!

بات الشكّ يقيناً عندما علموا أنّ تيودورا ستترك المزرعة لتقيم في

لابوانت. بيتٌ واطئٌ بأربع غرفٍ في حوض إصلاح السفن، في فنائه ماءٌ فوق حوضٍ حجري.

بدأت الحكايات تنتشر.

أكّد بعضهم أنّ ألبير دفع ثمن البيت نقداً بدولارات أميركيّة خضراء. أنّه سلّم تيودورا مبلغاً من المال يفوق ما رأته طيلة حياتها المنحوسة، ولرعبها كدّسته في سلةٍ كاريبيّة تحت فراشها. أنّه وعدها بأن يرسل لها أكثر من ذلك بكثيرٍ شرط أن تتفرّغ لابنه تماماً.

هكذا، بين ليلةٍ وضحاها، غادرت تيودورا عالمها، القرية التي ذرعتها طولاً وعرضاً طيلة ستةٍ وأربعين عاماً، حيث وُلد أبناؤها، حيث يرقد زوجها مانو تحت التراب في قبرٍ صغير تحدّه قواقع جُلاهِب(*) وردية وصفراء غامقة. بكت كثيراً. لكن فور أن وصلت إلى بيتها الواطئ الأنيق في لابوانت، حبست أصابع قدميها المعرّضة عادةً للهواء في حذاءٍ، وأوصت على دزينةٍ من فساتين ماتادور(**) وحاولت بخاصةٍ التحدّث بالفرنسية، وهي لغةٌ لطالما جرحت فمها. هكذا تولد طبقاتنا البرجوازية!

.3

كانت تيودورا تُجلِس على ركبتها أول ابنٍ لابنها، الرضيع الهزيل الذي يرمز لآمالها. لم تكن تصغي قطّ لألبير وهو يتحدّث متلعثماً من الجانب الآخر للطاولة المطلية بطبقةٍ من الشمع، والتي وُضعت عليها زجاجة روم من ماركة «فينيتو ليغراب بلانش» وكأسٌ مغسولة بعناية:

(*) رخوي كبير الحجم.

(**) فستان كريوليّ.

- لا أحد يعلم البتّة لماذا يحبّ امرأةً مثلما لم يحبّ غيرها قبلها. فهي ليست أفتح بشرةً ولا أكثر نحولاً ولا أجمل. ولكن أمامها، يصبح المرء مثل عبدٍ للزمن لمدّةٍ طويلة أمام سيّده. يصبح مستعدّاً للرقص لتسليتها. مستعدّاً لخفض الرأس للاعتذار منها. كلّ شيءٍ بدأ لأنّها سخرت مني: «أتعلم ما هو الاسم الذي يطلقونه عليك؟ مودونغ أو سوبارو!» لم تسخر مني قبلها أيّ امرأةٍ قطّ. كلباتٍ ينمن تحت قدميّ، هذا ما كنّه جميعاً. ولذلك، كنت أحتقرهنّ. أمّا ليزا، ليزا، فكان الأمر مختلفاً معها. لقد كانت، كانت...

- اشرب شراباً صرفاً! سيفيدك ذلك.

- ذهبت إلى متجر الصينيّ في كولون واشتريت منه سريراً وكرسيّاً هزّازاً وطاولةً دائريةً للزينة وحقائب لترتيب أغراضها. وكان الناس يسخرون مني ويقولون: «أيها الزنجيّ، إلى أين تمضي بهذا كلّه؟»، أردت أن أصحبها بعيداً عن غاتون، غاتون هي الوحل، الوحل والمعاناة، الوحل والأمراض. سمعتُ أنّ البيض الأميركيّين يحفرون القناة، وهو ما لم يتوصّل البيض الفرنسيّون إلى فعله، ليُظهروا أنّهم الأقوى بين البيض. لكن دعيني أقول لك، إنّ أيدينا، قوائم الغوريلا الخاصة بنا، مثلما يسمّونها، هي التي تقوم بالعمل. هي التي تحفر. هي التي تقطع. هي التي تحمل. هي التي تصل الأشياء بعضها ببعض. ماما، التقيت هناك زنوجاً يتكلّمون بالإنكليزية، يتكلّمون بالبرتغالية، بالإسبانية، يتكلّمون بالهولندية! لكنّ اللغة المشتركة يا ماما هي البؤس! لذلك أردت أن أرحل بها بعيداً عن غاتون، ربما إلى هنا، وأن أمنحها منزلها على الهضبة. عندما كنت أتحدّث إليها هكذا، كانت تسخر، كانت تسخر! «انزع هذه الأفكار من رأسك! من تظنّ نفسك؟ هل نسيت لونك؟». والآن، فات الأوان!

مرّةً أخرى، انتزع البكاء تيودورا من الهيام المذهول الذي تُغرقها

فيه رؤية أوّل صبيٍّ لصبيّها. كرّرت بنفاد صبر: «خذ جرعةً من الشراب الصرف، أقول لك!».

الغريب أنّ حزن ألبير لم يؤثّر فيها. فسبب ذلك الحزن امرأةٌ لم تعرفها. بل إنّ الاستماع إلى ابنها القاسي دائماً مع الآخرين يتحسّر مثل شخصٍ ضعيفٍ أثار حنقها!

سكب ألبير لنفسه جرعة شرابٍ تكفي لإثارة ثلاثة ديوك مصارعة، ووضع خدّه على سطح الطاولة.

- أمي، ابني هو مقلة عينيّ. أريد أن يرتاد أفضل مدرسة، أن تكون لديه أجمل الملابس، أن يرتدي أحذيةً جلديةً في قدميه، وأن يتكلّم الفرنسية الصحيحة مثل شخصٍ أبيض. هل تسمعينني؟

أشارت تيودورا بموافقتها وأخذ ألبير يشخر، وفمه مفتوح.

في تلك الليلة، نام ألبير الصغير ملتصقاً بخاصرة جدّته العريضة. لم يسمع دويّ الريح التي تعدو وهي تهبّ على البحر. لم يسمع في منتصف الليل خبب حوافر الدابة المتعطّشة لمصّ دم الأطفال. لم ينم قبل ذلك إلا في خضمّ رائحة أبيه اللاذعة والكئيبة، تلك الرائحة التي لم تحمِه من الكوابيس، فحظي يومذاك بأوّل نومٍ هانئ.

أمّا تيودورا، فقد عاد بها الزمن ثلاثةً وثلاثين عاماً، وظنّت أنها تستعيد الزمن الذي كانت فيه تحمل ذلك الجنين الذي منذ أن كان عمره لا يتجاوز أربعة أشهر، أخذ يضرب برأسه وبقدميه جدران بطنها ويجعلها تتوقّع أنّها ستحظى بالصبي الذي سينتقم لها من كلّ قذارات الحياة. لم يحدث شيءٌ من ذلك. كلّ ما فعله ألبير هو أن فطر قلبها الذي أثخنته ألف طعنة. لكنها كانت متأكّدة! ستعثر على خلاصها في الرضيع الذي أحضره لها.

عندما تبددت أبخرة الكحول، ووصل ألبير إلى تلك المنطقة الهادئة حيث ليس للأحلام تجاعيد، ظنّ أنّه عاد إلى زمن الطفولة، عندما لم يكن يسعى بعدُ إلى إغراق خيبات أمله وضغائنه في أجساد النساء، بل يعتقد أنّ الحياة هي سلسلةٌ من الروائع المدهشة.

.4

- المدينة بأكملها دُمِّرت بسبب زلزالٍ تبعه حريق!

- من الذي حكى لك هذه الترّهات؟

- إنها ليست ترّهات. لقد قرأتها منشورةً في الصحيفة والمسافرون لا يتحدّثون إلا عن ذلك. لم تعد سان فرانسيسكو سوى كومةٍ من الأنقاض.

هربت الكلمات من فم ألبير. بدا له أنّه يخسر حبيبته ليزا مرّةً ثانية لأنّ المرأة والمدينة، الأختين كلتيهما، ولدتا من سيوول العجوز. نطفةٌ من جهة، وخيالٌ خلّاقٌ من جهةٍ أخرى!

قال متلعثماً: «ما الذي سنفعله بحيواتنا؟».

هزّ يعقوب كتفيه:

- على كلّ حال، حكايتك لا تستقيم، إذ لم يعد هنالك ذهبٌ في كاليفورنيا. حلمة ماذر لود(*) ناشفة ومتشقّقة كحلمة عجوز، ولم يعد ممكناً أن يجد الزنجيّ ثروته بمجرّد أن ينحني.

كرّر ألبير وعيناه غارقتان بخيبة الأمل: «ما الذي سنفعله بحيواتنا؟

(*) Mother Lode: منطقة وسط ولاية كاليفورنيا تُدعى حزام الذهب، كانت في الماضي حلم الباحثين عن الذهب. [م].

بماذا سنحلم لننسى أنّ البعوض يمصّ دمنا، وأنّ الديدان واليرقات تنخرنا حتى العظام، وأنّ الشمس والمطر يُذهبان عنّا لوننا كما لو كنا ملاءة؟».

لم يُجب يعقوب لأنّه لم يكن لديه ما يقدّمه بديلاً للمرأة - المدينة المتوفاة.

بعد ثلاث سنوات من مرور رأس ألبير من بين فخذي تيودورا المعذّبتين، وهي ترجو الله: «فليكن صبيّاً! صبيّاً!»، على بُعد كيلومترات من مزرعة بوابيه دوليتان، أطلق يعقوب أولى صرخاته تحت شجرةٍ في غابةٍ من غابات ماساتشوستس. هربت أمه سيسيليا من الاضطهاد في الجنوب وصعدت نحو الشمال، لكنها لم تتمكّن من حمله أبعد من ذلك فاستلقت هنا، على سرير إبر الصنوبر هذا. خلافاً لألبير، لم يكن يعقوب وغداً ولا سليط اللسان، بل عاقلاً، تلميذاً مجتهداً. وأخيراً، كان أحد السود النادرين الذين يشغّلهم الأميركيّون في القناة، ويدفعون لهم راتباً يقلّ عن راتب البيض، لكنّه مع ذلك راتبٌ محترمٌ في نظر ألبير الذي كان لا يزال يتعرّق من أجل السنتات التسعين التي يتلقّاها مقابل ساعة العمل.

نشأت هذه الصداقة غير المتوقّعة بين يعقوب وألبير، بين أميركيّ وغوادلوبيّ، بين رئيس عمّالٍ وعاملٍ بسيط، ذات يومٍ تقدّم فيه ألبير في منطقة حريقٍ وقد أعمى ألم فقدان الزوجة عينيه. آنذاك، سارع يعقوب لإنقاذه بعد أن وضع رشّاشه جانباً:

- هيه، يا رجل! هل تسعى إلى الموت، أم ماذا؟

هكذا حدث! من المفترض ألّا يتصادق رئيس عمّالٍ أميركيّ حتى لو كان أسود مع عاملٍ غوادلوبيّ يشتغل في تفجير الديناميت. وعلى الرغم من ذلك، حدثت المعجزة ولم يفترق الرجلان بعد ذلك.

بعد انتهاء العمل، لم يكن يعقوب أقلّ ثرثرةً من العجوز سيوول. طاحونة كلمات، كيس كلمات! لم تكن تنتهي حكاياته عن لويزيانا والمستنقعات والكلاب المعلّقة بأرداف العبيد الهاربين الذين يقطرون ماءً ورعباً. يهتاج ويغنّي بصحبة آلة البانجو:

اركض يا زنجي، اركض، الدورية تمسك بك
اركض يا زنجي، ها هو النهار يطلع
اركض يا زنجي، اركض، لا تسمح بأن يمسكوا بك
اركض يا زنجي، اركض، حاول الهرب...(*)

فيتنهّد ألبير:

– نعم، لقد كانت حياتكم صعبة مثلما هي الحال عندنا. بل ربما أصعب! لكنّ أميركا ليست هذا وحده. اسمع...

ويشرع في سرد تخريفات العجوز سيوول التي ظلّت تدور في رأسه:

– من ييربا بوينا أصبحت سان فرانسيسكو، ولا أجمل من هذه المدينة. تنام في قاع خليجها المغلق بغولدن غيت، البوّابة الذهبية. البوّابة الذهبية! أتسمع هذا يا رجل؟ يقولون إنّه لا يوجد هناك بيضٌ ولا سود! فالزنجي يصبح غنياً بمجرد حكّ الأرض برأس نصله. يصل إلى هناك وردفاه مكشوفان في أسماله. ويرحل بعربةٍ تجرّها الأحصنة!

فيهزّ يعقوب كتفيه:

– هذا كلّه إشاعات! ما يصلح للسود ليس كاليفورنيا، بل الشمال...

بعد أن عاد ألبير من غوادلوب حيث عهد بابنه إلى أمّه، ألغى من حياته كلّ سبل الرفاهية التي أدخلها إليها في زمن ليزا. باع مجدّداً أثاثه للصينيّ

(*) أغنية من الفلكلور الأميركي الأسود.

في كولون وبات ينام على الأرضية القذرة، ملفوفاً في غطاءٍ هنديٍّ قديم. أصبح البيت جنةً للقوارض والحشرات والنباتات الطفيلية. اخترقت شجرة موزٍ ألواح الشرفة وأبرزت أزهارها وثمارها القزمة. وعندما تصبح النباتات كثيفةً إلى درجة استحالة شقّ طريقٍ في الحديقة، يقصّها ألبير بضرباتٍ كبيرةٍ من ساطوره. لم يكن يمضي بعض الوقت الممتع إلا في عطلة نهاية الأسبوع مع صديقه يعقوب. فمنذ صباح السبت، يظهر يعقوب في شوارع القرية، وعلى الرغم من كونه أميركياً، يتمرّغ مع ألبير بالقذارة ويأكل الميغان(*) في قصعةٍ من القرع(**)، وبخاصةٍ يشرب الروم والبراندي حتى يسكر ويشخر وهو مغطّىً بالقيء في أرجوحةٍ شبكيةٍ مثقوبة. في البداية، كان ألبير ينزل إلى كريستوبال، الضاحية الأنيقة المزهرة التي يسكنها يعقوب على مسافةٍ صحيةٍ من مواطنيه. لكن سرعان ما أبلغه البيض بأنهم لن يتسامحوا مع وجود هذا الشخص السيّئ الهندام.

عاش ألبير أربع سنوات في وحل ضواحي غاتون وهو يعمل كدابّة، مقتصداً كلّ سنتٍ يحصل عليه.

وذات صباح، اختفى من دون أن يقول شيئاً لأحد. فهل هنالك حاجةٌ لتوضيح أنّه عدا الحوارات التي لا تنتهي بينه وبين يعقوب، عاد كما كان قبل لقائه بليزا، المودونغ أو السوبارو؟ في البداية، توقّع الناس أنّه ذهب لزيارة أمّه ورؤية ابنه في غوادلوب. لكنّ الأسابيع مرّت، ثمّ الشهور... ولم يعد ألبير. استولت الطبيعة على بيته بالكامل، فنبتت شجرة كابوك في المدخل وشجرات مانغا في النوافذ، في حين تشابكت شجيرة الجهنمية على قائمة الشرفة.

(*) طبق من جزر الأنتيل.
(**) ثمرة قرعٍ مقطوعة إلى نصفين ومفرغة من لبّها، تُستخدم كأداة مطبخ.

شعر العجوز سيوول وزوجته بالغضب، يصرخان غضبهما لكلّ من يريد الاستماع إليهما. في رأيهما، ألبير هو حقاً زنجيٌّ سيّئ، زنجيٌّ لا قلب لديه! أليست الأم سيوول هي التي اهتمّت في البداية بالرضيع، ثمرة بطن ابنتها؟ وهذه مكافأته لهما!

صباح ذات أحد، ظهر رجلٌ مشعّث الشعر وسط القرية، وضرب بقبضتيه المضمومتين باب آل سيوول. في اليوم السابق، التقى في كولون بألبير ويعقوب. انتبهوا، لقد أسّس هذان الاثنان مشروعاً ويسيران بفضله على الذهب! مشروعاً؟ أيّ مشروع؟ شركة لدفن الموتى! مع عدد الموتى في كولون كلّ يوم بسبب حوادث العمل والأوبئة والهذيان الارتعاشي، لا يوجد مشروعٌ أفضل مردوداً! ففي السنة المنصرمة، أدّت الكوليرا وحدها إلى جمع عشرين ألف تابوت...

بات جميع من ينزلون إلى كولون يحوّلون طريقهم ليروا متجر ألبير ويعقوب غير بعيدٍ عن نهاية سكّة الحديد. في الحقيقة، لم يكن مظهر المتجر يدلّ على قيمته! فهو أشبه بممرٍّ تتكدّس فيه توابيت، بعضها غير متقن الصنع وبعضها الآخر أكثر تزييناً بقبضاتٍ مذهّبة. أمام الباب حصانان هزيلان مربوطان بعربةٍ، وعندما لا يجرّان جسداً نحو مثواه الأخير، يُخرجان غائطاً كئيباً وأسود بقدر كآبة الشارع وسواده. وفي المشروع رجلٌ ثالث اسمه مانويل، خلاسيٌّ بنمي يوحي بأنّه اغتال أباه وأمّه. وكذلك امرأةٌ اسمها ستينيلا، الأرجح أنّها هربت من ماخورٍ ما، تدير البيت المكوّن من طابقٍ معلّقٍ فوق مصلحة دفن الموتى (إن لم يكن في هذه التسمية تبجّح).

أحدث تحوّل ألبير إلى ناقلٍ للجثامين صدمةً عميقة. فالمهمة غير صحية وأرواح الموتى تتشبّث بمن يتعاملون مع أجسادهم. وهؤلاء الناس

لا ينجبون سوى المسوخ، كما تصِم تجارتهم رائحةٌ حامضة تتصاعد من لحم الجثث التالفة.

لكنّ وباءً جديداً تفشّى في كولون، كما لو أنّ ذلك حدث لبعث السرور في نفس ألبير وشريكيه وزيادة أرباحهم. أخذ الناس يموتون وهم نائمون، بعد أن تخرج من كلّ فوهاتهم مفرزاتٌ بنفسجية ومثيرة للغثيان. باتت الجثث تتكدّس في المشارح ووظّف الأميركيّون فرقاً لحرق الجثث، غلّف أفرادها أيديهم بكفوفٍ مطاطية. وارتفعت أعمدة الدخان البنفسجية الطويلة من محارق الجثث نحو السماء ليلاً نهاراً.

في الحقيقة، كسب ألبير ويعقوب ومانويل المال!

آنذاك، أتى جامايكي اسمه ماركوس غارفي لزيارة مواطنيه التعسين الذين يبذلون حياتهم في حفر القناة. غادر الرجل بلده في وقتٍ مبكرٍ جداً وجاب أرجاء أميركا اللاتينية. وقد اجتذب لنفسه المتاعب في كوستاريكا حيث شجب بشدّةٍ وضع إخوته في المزارع. قيل إنّ كلماته تتدفق مثل سيلٍ من الحمم وهي تهبط منحدرات بركان، وإنّه بعد خطاباته المسهبة، يرفع مجدداً أولئك الذين خفضوا حتى ذلك الحين رؤوسهم تحت ثقل تعاسة هذه الحياة، فيشعرون فجأةً بأنّهم قُدّوا لمغامرة التمرّد.

ضمن جمهرةٍ من العمّال، ذهب ألبير إلى باهيا سولدادو (Bahia Soldado) ليستمع إليه.

كان ماركوس غارفي أسود وقصير الساقين كثور حلَبة. قفز على مصطبةٍ وبدأ في الحديث. حوّلت كلماته شكل الحاضر وبَنَت المستقبل.

– ذات يوم، ذات يوم، سوف يُدهِش العرق الأسود العالمَ...

اندفع ألبير، من دون أن يحاول يوماً التحدّث إلى ماركوس غارفي، فتبعه

إلى فريجول (Frijoles) وغورغون (Gorgones) وبا أوبيسبو وبارايسو (Paraiso)، إلى كلّ مكانٍ يتوجّه فيه بالكلام إلى إخوته. في العنابر، تحت أكواخٍ يحرسها بشراسةٍ رجال شرطة منطقة القناة والرشاشات موجّهة مسبقاً إلى بطون المشاغبين، كان ماركوس غارفي يتلفّظ بكلماتٍ لم يسمعوها من أحدٍ قبله. العدالة. الحرية. اشترك ألبير بصحيفة لابرنسا (*La Prensa*) التي كان غارفي يصدرها بصعوبة، وبات يرفض تناول الكحول مع يعقوب يوم السبت ويستغرق في قراءتها. ذات مرة، ذهب يحوم قرب مكتب غارفي المتواضع حيث تباع منشورات مجعّدة مثل أفريكا تايمز (*Africa Times*) وأورينت ريڤيو (*Orient Review*)، وبعد تردّدٍ طويل، دخل إلى المكتب. لسوء الحظ، لم يكن غارفي نفسه موجوداً فيه، ووضع أحد العاملين بين يدي ألبير مقالةً نقديةً سعرها دولار.

لم تفت ماركوس غارفي ملاحظة هذا الزنجي الطويل ذي الشعر الأبيض، الغامض والصامت، الأنيق أناقةً تتباين مع مظهر عمّال القناة الموحلة. إذ بدأ ألبير يُظهِر هذا التأنق الذي صدم بقوةٍ من يقتربون منه. وعندما سعى ماركوس غارفي لمعرفة شيءٍ عنه، علم من المحيطين به أنّه غوادلوبيّ، شريكٌ لمستغلٍّ أميركيّ يعتاش على المرض والموت. لذلك تحوّل عنه ولم يحدث الحوار الذي كان يمكن أن يغيّر تماماً مصير سلَفي.

في نهاية المطاف، طُرد ماركوس من بنما بسبب تدخّله للفت نظر القنصل البريطاني إلى وضع الأنتيليّين المأساوي. تبع ألبير من بعيد الفرقة الصغيرة الآسفة التي رافقته إلى المركب. بعد ذلك، توقّف عند الصينيّ واشترى ريشةً رفيعةً جداً وحبراً ولفافة من الورق. ثمّ رآه يعقوب ومانويل يعبر متجر دفن الموتى ركضاً قبل أن يحبس نفسه في غرفته في الطابق

الثاني. بعد ساعة، نادى يعقوب وجعله يهجّئ الملصق الذي ثبّته على الحائط: *I shall teach the Black Man to see beauty in himself*[*].

أمسك يعقوب بخاصرتيه من شدّة الضحك، إذ لم يكن يرى حوله سوى البشاعة والانحطاط!

– هيّا يا رجل! الأحرى بك أن تأتي لتشرب معي كأساً. فقد كانت الرائحة البشعة تنبعث من قدمَي الجثمان الذي أغلقت عليه باب غرفته الأخيرة!

تبعه ألبير عاقد الحاجبين، وأفرغ بصمتٍ طيلة السهرة كأساً بعد كأس.

اعتباراً من ذلك اليوم، لم يعد سلَفي ألبير مثلما كان. توقّف عن الشرب والسُّكر، صادّاً يعقوب الذي يفرط دائماً في الشرب. حسّن لغته الإنكليزية ولغته الإسبانية إلى درجة الاعتقاد أحياناً بأنّه جامايكيّ وأحياناً أخرى بأنّه بنميّ. بل رُئي وهو يفتح كتب رياضيات وعلوم طبيعية...

سعى لمعرفة مصير ماركوس غارفي. لكنّه لم يفلح في ذلك لأنّه قطع كلّ علاقةٍ له بالجالية الجامايكية. لذلك في المساء، عندما تنتهي التجارة مع الموتى، يسأل يعقوب: «أين يمكن أن يكون في رأيك؟».

أخبره أحدهم أنّ ماركوس غارفي موجود في هارلم في الولايات المتحدة، حيث يحرض جماهير السود، لكنّ يعقوب أبدى استياءه وأكّد عدم إمكانية تصديق هذا الخبر: «جامايكي؟ عندنا؟».

كما أنّه بدءاً من ذلك الزمن، أخذ ألبير يُظهِر أشدّ الكراهية تجاه البيض. وبعد أن كان لا يعير كثير انتباهٍ إلى حكايات يعقوب، أخذ يمطره بالأسئلة: «احكِ! احكِ!».

(*) «سوف أعلّم الرجل الأسود أن يرى الجمال الكامن فيه».

بعد ذلك، يشرح له كيف يجب ألّا تُنسب إلى البيض المآسي التي تصيب العرق الأسود فحسب، بل كذلك تلك التي تُصيب العرق الآسيوي الأصفر والعرق الهندي. ويُصيب يعقوب بالاشمئزاز وهو يُغرقه بالتوصيفات المفصّلة لحالات انتحار الصينيين القادمين لبناء سكّة الحديد قبل بضع سنوات:

- خنق بعضهم أنفسهم بجدائلهم. وآخرون عقدوها حول العنق وشنقوا أنفسهم بالتدلّي من الأشجار. ومنهم أيضاً من ألقوا بأنفسهم في نهر تشاغريس وقد حشوا جيوبهم بالحجارة ليتمكّنوا من الانحدار إلى الأسفل. ومنهم من فتحوا بطونهم بسواطيرهم وآخرون دفعوا مالاً للملاويين كي يقتلوهم.

صحيحٌ أنّ يعقوب لم يكن يحبّ البيض أكثر مما يحبهم ألبير، لكنّه تعلّم بحكم الضرورة أن يعيش معهم، فاعتبر كلامه حماقةً ظريفة. ولم يغضب إلّا حين وضع ألبير في رأسه فكرة تخصيص خدمات شركة دفن الموتى لغير البيض.

- لا! أنت تفسد العمل! ثمّ إنّ الجثمان لا يعود له لون!

عاد ألبير إلى طريق المواخير لأنّ للجسد قوانينه التي لا يجعلها باليةً كلّ حبّ العالم لامرأةٍ توفيت. وكان الماخور الذي يفضّله يعود لزمن السيّد دوليسيبس. ففي المخمل الأحمر المهلهل، كان الحبّ يُمارَس بالفرنسية، لأنّ الماخور يؤوي عاهراتٍ من بريست (Brest)، لسن فاتنات الجمال، بدأن يتقدّمن في العمر، لكنّهنّ ماهرات في جلب المتعة وفي تضميد جروح قلوب جميع أولئك الرجال الذين ليست لديهم أثداء أمهات ولا زوجات.

كانت مارت إحداهنّ، ولم تخفِ يوماً ضعفها تجاه ألبير. وبعد أن تمتّعه، تحب أن تسمعه يحلم. بطفولته.

– كانت الأرض تبدو لي منخفضة جداً ورخوة. فتدمع عيناي وأنا أحدّق في الشمس في السماء وأقول في نفسي: «حسب ظني، الوضع في الأعلى مريحٌ جداً! ما من بيضٍ مستعمرين، ولا مدير مزرعة، ولا أب سكّير». ذات يوم، صنعت لنفسي جناحين بسعفات شجرة نخيل ورميت بنفسي من شجرة كابوك. بوم، أرضاً! مستعداً لأن أغرق بدمي!

وبحبيبته ليزا.

– تلك المرأة كانت «عذاب الحب»(*). كلّ شيءٍ فيها يذوب، من فمها إلى أطراف أصابع قدميها. لم أكن أستطيع أن أشبع. أقول لها: «يا زهرة حياتي، هل تعبتِ؟». تضحك، تضحك طوال الوقت، وبحلاوةٍ فائقة. زقزقة عصفورٍ على الغصن. «هيّا! أعطي ما لديك لتعطيه. سآخذه!».

وبسان فرانسيسكو.

– أنا أعلم أنني لن أذهب إلى هناك أبداً! فمن أين سأجد المال؟ لكن يجب أن أقول في نفسي إنّها موجودة، إنّها مضطجعةٌ في قاع خليجها الذي تغلقه البوّابة الذهبية. هي معروضة، لكن لا يمكن الوصول إليها، كأميرةٍ على أريكةٍ مغطّاةٍ بالمخمل الأرجواني. بفضلها أتحمّل كولون وتشاغريس وغاتون... كلّ أماكن البؤس والضياع هذه. لقد جئت إلى هنا لأجعل الذهب ينمو، ولم أجد سوى شجر الأيكة الساحلية.

لكن ذات مساء، دعت ألبير بألفةٍ إلى الصعود معها، فارتمى عليها وضربها ضرباً مبرحاً وهو يصيح:

(*) *Tourment d'amour*، نوع من الحلويات الأنتيلية.

- شيطان! أنت من جنس الشياطين! لكننا سوف نتخلّص منكم جميعاً في نهاية المطاف!

أثارت القضية كثيراً من الضجة.

فقد فتحت صحيفتا «ستار أند هيرالد» و«لا إستريلا دي بنما»، وهما من الصحف الرئيسية آنذاك وتصدر أولاهما بالإنكليزية والثانية بالإسبانية، صفحاتهما لكثيرٍ من القرّاء. بل إنّ أحد أولئك القرّاء ناشد القنصل الأميركي أن ينظّف بنما من الزنوج الأنتيليين الذين يلوّثونها والذين تنافس عاهراتهم أوروبيّين شرفاء (كذا).

لكن بما أنّ الإدارة الأميركية والإدارة البنمية لم تبدوا مستعدّتين لإبداء ردّ فعل، فقد هاجم رجالٌ ألبير ذات مساءٍ وتركوه دونما حراكٍ على سرير الزجاجات الفارغة التي تملأ وحل شوارع كولون. توصّل ألبير إلى معارضة نقله إلى المستشفى. وعالجه في المنزل يعقوب ومانويل وستينيلا التي بكت عندما رأت حاله. وعندما بدا على وشك الموت، ذهبت ستينيلا إلى هنود سان بلاس في خليج ليمون وجلبت منهم أذرعاً من الأوراق والجذور والنباتات المجفّفة، وصنعت منها شراباتٍ ومراهم ولزقات.

بعد أربعة أشهر، شوهد ألبير وهو يظهر مجدداً في المتجر الذي ازدهرت أشغاله في تلك الأثناء، بفضل وباء الجدري. كُسرت ساقه اليمنى في ثلاثة أماكن بفعل الضربات التي تلقّاها ولم تلتحم بصورةٍ صحيحة، فبات عليه أن يستند إلى عكّاز. وفي وجهه توزّعت بعض الندبات، لكنّها وعلى نحوٍ مفارقٍ لم تجعل وجهه مخيفاً، بل أبرزت الجانب الضعيف لديه. بات على ألبير أن يعاني طيلة حياته من عواقب تلك الكسور والجروح. وبما أنّ منقوع جذور نبتة زهرة الآلام أفاده كثيراً، إذ نقّى دمه من الأمزجة التي

كانت تختلط به، فقد حرص على زرعها في كلّ مكانٍ سكنَه لاحقاً. أزهار زهرة الآلام الليلكية اللون ذات رائحة خفيفة وليست لها قيمة طبّية كبيرة. غصيناتها، وبخاصةٍ جذورها، هي التي تتمتّع بتلك القيمة.

.5

في هذه الأثناء في لابوانت، داخل البيت الواطئ الواقع في حوض بناء السفن المشبع برائحة القطران والبحر الجافة، كان الطفل يترعرع.

لم يكن قويّ البنية، وكان نحيلاً. غير أنّه كان مفعماً بالحيوية والنشاط وكأنّه طائر الفرقاطة الرائع. بات مبعث سعادة تيودورا، إذ تحمّمه المرأة العجوز في ماءٍ وضعته في الشمس ليصبح فاتراً، ونقعت فيه كمشةً من أوراق شجر القشطة الشائكة التي تضمن قيلولةً هانئة ونوماً طويلاً. خصلةً خصلة، تدهن عشب شعره الجاف بزيت الخروع، قبل أن تفرك جسمه كلّه بكولونيا باي روم. وهو يضحك بكلّ أسنانه الصغيرة عندما يلسعه السائل بقبلته المتجمّدة، فتلتهمه تيودورا بقبلاتها. نذرته لمريم العذراء لتجنّبه ذات الجنب، وكان يمضي متسربلاً بالأبيض والأزرق.

ويذهب بعد الظهر وهو مزيّنٌ كأميرٍ صغيرٍ ليلعب في ساحة فيكتوار بين أطفال البرجوازية.

.6

تباينت ألوان أحلام ألبير ويعقوب. فكلّ ما يرغب فيه يعقوب، بعد أن تمتلئ جعبته بالدولارات، هو أن يتزوّج بفتاةٍ من كولون. إذ هنالك عددٌ

كبيرٌ من الخلاسيات، وهنّ لا يأبهن كثيراً بلون الرجل! لقد نوى حقاً الاستقرار في بنما لأنّ الأخبار التي يتلقّاها من دياره شجعته على ذلك. ففي بضعة أشهر، نُفّذ تسعة وستّون إعداماً بلا محاكمة في الجنوب الذي يهرب السود منه، ويتدفقون بموجاتٍ كبيرةٍ خائفة على مدن الشمال: نيويورك، ديترويت، شيكاغو...

أمّا ألبير، فيواصل التطلّع في ذهنه إلى مدينة العجوز سيوول! وهكذا، يخوض الرفيقان نقاشاتٍ لا تنتهي:

- من بيربا بوينا...

- توقّف يا رجل! لم يعد هنالك ذهب! لم يبقَ سوى الغبار الأبيض تحت حوافر الأحصنة!

ما أدّى بهما إلى اتفاقٍ وأرغمهما على حزم أمتعتهما ظاهرةٌ تُعرف باسم «اليد الزرقاء»، تحيّر المؤرّخين منذ أجيال.

فعلى طول منطقة القناة، بدأ اغتيال العمّال الأنتيليين. ليلاً، تُحرق قراهم. وفي الصباح، في خضمّ الدخان ورائحة الحريق، يُنبش من الوحل رجالٌ انتُزعت ألسنتهم وأعضاؤهم التناسلية، ونساءٌ اغتُصبن قبل قتلهنّ وأطفالٌ قُطعوا من منتصف أجسامهم. ثمّ ضربت «اليد الزرقاء» في كولون وفي مدينة بنما. تجرّأ كاهنٌ بنمي اسمه غونسالفو بوبو على تقديم موعظةٍ من على المنبر، يدين فيها تلك الجرائم ويذكّر بأنّ جميع البشر إخوة، فقُتل أسفل المذبح الرئيسي. وبما أنّ قليلين جداً من الأنتيليين كان بإمكانهم دفع كلفة العودة إلى بلادهم، فقد شيّدوا حول قراهم جدراناً من الحجارة والطين، ووضعوا أعلاها زجاجاتٍ مكسورة. تذكّر بعضهم أسلافَهم العبيد وحفروا خنادق وضعوا فيها أوتاداً مسمومة وغطّوها بالعشب.

ذات ليلةٍ في كولون، ذُبح الممرضون الجامايكيّون في المستشفى جميعهم. وبعد ذلك، بلغ الرعب أقصاه.

صباح يومٍ من أيلول 1911، صعد ألبير ويعقوب إذاً على متن سفينة إس إس أوريغون. وعلى رصيف المرفأ، أخذ مانويل وستينيلا يلوّحان بمنديليهما. امتلأت عيونهما بالملح والماء، ولا سيما ستينيلا التي ضاجعت رجالنا الثلاثة وشعرت بأنّها ترمّلت مرّتين.

لئن لم يكن ألبير قد التقى سابقاً هذا السيّد جيم كرو(*) على الرغم من أنّ يعقوب قد حدّثه عنه مرّاتٍ عديدة، فقد تعرّف إليه مباشرةً عندما نُبذ مع رفيقه من القمرة التي دفعا أجرتها بأوراقٍ نقديةٍ خضراء حقيقية. إذ لم يتحمّل المسافرون البيض وجود هذين الزنجيين في السريرين المجاورين. أمضى ألبير إذاً وقت الرحلة في زاويةٍ من سطح السفينة، مثبّتاً نظره في جدران البحر الرصاصية اللون. يلتهم بقايا الطعام التي يحضرها يعقوب له بهدوءٍ من المطبخ، بعد أن ينتهي المسافرون وطاقم السفينة من تناول وجباتهم. ويلبي حاجاته في دلوٍ يفرغه في البحر وينام وعيناه مفتوحتان تحدّقان في السماء الصافية أو المضطربة. في منتصف الرحلة، أتى يعقوب بأغطيةٍ مغربيةٍ أعطاها إياه ركّابٌ مشفِقون، لأنّ الهواء أخذ يبرد. لكن رفض ألبير استخدامها وبقي متعالياً، متصلّباً، ودمه يتجمّد في عروقه.

استمرّت الرحلة أسابيع.

الماء. السماء. الماء. الهواء العاصف الذي يحفر خنادق في البحر المجنون حنَقاً، أو الذي يسقط بكلّ ثقل صمته.

أخيراً، شوهدت حيتانٌ وفقمات، فعلم الناس أنّ اليابسة لم تعد بعيدة.

(*) Jim Crow: مجموع قوانين التمييز العنصري الأميركية. [م].

عندما دخلت السفينة خليج سان فرانسيسكو، كان الضباب كثيفاً، يكاد يمكن قطعه بسكّين، يمشي ببطءٍ على سطح الماء. سارع المسافرون الذين فقدوا صبرهم إلى سطح السفينة وأخذوا يتفحّصون دونما جدوى الاكفهرار القطني حولهم. فجأةً، وأثناء وصول السفينة إلى رصيف الميناء، تمزّقت الأغشية الضبابية. ظهرت الشمس والمدينة وكاد ألبير يخرّ على ركبتيه. لقد أُعيد إليه جمال امرأته التي خسرها.

يربا بوينا. سان فرانسيسكو.

لقد أصلح محبّو المدينة الأضرار التي تكبّدتها قبل سنوات، عندما هاجمتها الأرض والنيران بشراسة. بدت البيوت الوردية والحمراء والبيضاء وهي تتدرّج على سفوح الهضبات حتّى السماء الليلكية.

قفز ألبير إلى الرصيف لاهثاً، من دون أن يأبه بيعقوب، وأعمل مرفقيه بين المتجمهرين، ثمّ سار في شارعٍ مزدحمٍ يهتزّ بفعل ترامواي. يربا بوينا. سان فرانسيسكو. أخيراً! لقد وصل إلى أرض الجمال التي ستغسله من الإهانات كلّها. الأرض التي ستعيده إلى الحياة، نظيفاً كأنّه غُسل من رأسه حتى قدميه. تسلّق وهو يعرج أعلى فأعلى، وفجأةً وجد نفسه فوق ما يشبه المصطبة، مقابل بابٍ ضيّقٍ كان جون فريمونت(*) يحلم أن يرى كلّ ثروات الشرق تتكدّس عبره. غولدن غيت. عادت كلمات العجوز سيوول لتدور في ذاكرته: «مرّت سفنٌ إنكليزية وإسبانية أمام مدخل الخليج مئات ومئات المرات. هو كعذراء تخفي وعاء حرق العطور الصغير الخاص بها».

في هذه الأثناء، شعر يعقوب بالخوف من ضجيج عربات الترامواي

(*) John Frémont (1813–1890): ضابط وسياسي ومستكشف أميركي مناهض للعبودية. [م].

وخبب الأحصنة وهيئة الدوريات المسلّحة، وأخذ يبحث على نحوٍ أكثر ابتذالاً عن النُّزل الخاص بالسود، وصاحبه يُدعى ماكون دينيس. لم توحِ له هذه المدينة بشيءٍ حسن. إنّها مدينةٌ للبيض. لا وجود فيها لحيٍّ للسود دافئٍ وأخويّ. إنّها عاهرةٌ باردة تبيع نفسها لمن يدفع أكثر. تفوح برائحة الفخامة والخيرات المنهوبة.

يعلم الله كيف التقى الصديقان في ساحة بورتسموث سكوير، الأول مبهور والآخر خائب الأمل، لأنّ بحثه لم يفضِ إلى شيء. لا أثر لهذا الماكون دينيس في متاهة الشوارع هذه! وبما أنّ الليل كاد يخيّم، دامساً على الخليج الذي تنيره إنارةً خفيفة مصابيحُ غاز، أخذ الرجلان يبحثان عن غرفة. كانت ساحة بورتسموث سكوير ملاصقةً للحيّ الصيني، ودخلا إلى «إمبراطورية السماء».

الصينيّون كثيرو العدد في بنما. لذلك، لم يشعر ألبير ويعقوب بالغربة بين أولئك الرجال الخجولين، اللبقين، ذوي العيون المُطرِقة والجبهة الحليقة، بأفعى سمينة ولمّاعة ملفوفة على المنكب! بل على العكس. لقد وجدا نفسيهما بطريقةٍ طبيعية جداً يتحادثان مع شخصٍ اسمه تشي لو لي، وهو صينيٌّ طويلٌ ذو شاربين يرتدي ثوباً من البروكار، حكى لهما وهو يدير زبدية طعامه مراراً وتكراراً بين يديه حكايةً قابلتها أصداء كثيرة في رأس ألبير. أليست هذه حكايته؟ أوَليس هو نفسه صينياً؟

لا يعرف المرء أبداً إلّا بؤسه وبؤس المحيطين به. يجهل وجود بؤسٍ يكاد يكون مشابهاً، يجفّ كروث البقر، تحت الشمس القاسية في البلدان الخالية من الفرح. هناك أيضاً، على بُعد كيلومتراتٍ مملوءةٍ بالمحيط، يحمل البشرُ القلبَ عينه!

- والدي، وجدّي ووالد جدّي قبله، زرعوا الأرز في مقاطعة كوانغ

تونغ التي عاصمتها كانتون. انحنت ظهورهم واخشوشنت راحاتهم وخسرت حياتهم سنواتٍ ممّا كان يُقدّر لهم أن يعيشوا عند الولادة. أنا أيضاً بدأت مثلهم في جحيم مزرعة الأرز. ثمّ فاض بي الكيل ذات يوم. رفعت رأسي نحو الشمس وقلت لها: «ألا تشعّين من أجلي أنا أيضاً؟ امنحيني القوّة إذاً، فأنا لم أعد أريد هذه الحياة!». استدنت مالاً وركبت سفينةً متجهةً إلى كوم شان...

- كوم شان؟

- أجل، هذا هو الاسم الذي نطلقه في بلادنا على سان فرانسيسكو! عندما سأجمع أوراق النقد الخضراء الكافية، سأعود إلى دياري. ثمة امرأةٌ تنتظرني ولديّ طفل! صبيّ!

مع تطوّر الحديث، دعا تشي لو لي ألبير ويعقوب لتدخين غليون في بيته.

في اليوم التالي، وعبر ضباب الصباح، غادر يعقوب منزل تشي لو لي وهو مصمّمٌ على إيجاد نزُل ماكون دينيس، تاركاً ألبير غارقاً في خدرٍ سعيد. أمّا ألبير، فقد اتّخذ قراره: لن يترك الحيّ الصيني. سيكون هذا الحيّ هو البطن الذي سيولد منه مجدّداً. سيبقى هناك. سوف يستأجر غرفةً تطلّ على الخليج في الطابق الأول من منزلٍ خشبي ذي شرفة مع درابزون مشغول تحت سطحٍ على شكل باغودا(*). يستنشق رائحة الزنجبيل والسمك الفاسد والبصل الأخضر تلك. يتأرجح على وقع تلك الأصوات المرتفعة والغامضة في ودّيتها. لن يملّ من تلك الكتابات الهيروغليفية في واجهات المتاجر. عندما عاد يعقوب محصّناً بماكون دينيس، وهو نجّارٌ لم

(*) pagoda: المعبد البوذي. [م].

تكن أشغاله سيّئة، رفض مصاحبتهما رفضاً قطعياً. بعيد ذلك، تشارك مع تشي لو لي الذي يمتلك مصبغةً في شارع واشنطن. كان الصينيون يديرون كلّ أشغال التبييض والكيّ، يهرولون من بيتٍ إلى بيت وسلّاتهم على ظهورهم. لكن خطرت أفكارٌ على بال ألبير. لم يذهب تمرّنه في بنما عبثاً! دفع تشي لو لي إلى شراء حصانٍ نحيل وعربةٍ لتسليم البياضات، ما أدّى إلى جعلهما سبّاقَين دائماً وإلى تنبّه وجهاء المدينة إلى ذلك. كان تشي لو لي يوظّف ثلاثة «إخوة» لا تزيد أجرتهم عن وعاءٍ من الأرز وخمسة أوعية من الشاي. أرفق بهم ألبير ثلاثةً آخرين وألغى الأرز.

اغتنى الشريكان.

عاش ألبير سعيداً في سان فرانسيسكو. لم يتوقّف عن الشعور بأنّ جمال المدينة يشمله!

كلّ صباح، يتمشّى وهو مستندٌ إلى عكازه في الواجهة البحرية، يسرح بفكره في غابة الصواري ويملأ منخريه بروائح البحر والقطران والشحم وخمر البوربون، المنبعثة من أرصفة الميناء. لا يدخل أياً من الحانات العديدة في شاطئ بارباري. يمرّ معتزاً بنفسه وفخوراً، فيلتفت الناس لدى مرور هذا الزنجي الضخم، ذي الملابس التي لا غبار عليها. حتى أولئك الذين كانوا يعتقدون أنّه ثمة تسامح أكثر ممّا يجب بخصوص عدد الزنوج على أرض كاليفورنيا، وأنّهم لم يقطعوا كلّ تلك المسافة ليجدوا أنفسهم معهم وجهاً لوجه، لم يكونوا يجرؤون على رميه بسخريةٍ أو شتيمة، إذ يتملّكهم نوعٌ من الخشية. كان ألبير يذرع الواجهة البحرية أربع مراتٍ، ثمّ يذهب وقد حمي دمه ليشرب ليموناضة في فندق بالاس. وهناك، في ذلك القصر المرمري ذي السبعة آلاف نافذة، والذي وصل صيت

روعته إلى نيويورك وواشنطن، تلكما المدينتين الواقعتين على الشاطئ الشرقي، وحيث نام أحد أباطرة البرازيل، يدفع ثمن تلقّي خدمةٍ فاخرة، كسيّدٍ، بما أنّه لم تكن لأمواله رائحة قذرة. فينظر إليه شزراً الخدمُ السود الذين يمتلئ الفندق بهم، من ندُلٍ وبوّابين وسعاةٍ وحجّابٍ وسائسين، وهو يهوي في المقاعد المخملية. هل نسي أنّ زنجيةً هي أمّه؟ لم تصدر عنه يوماً ابتسامةٌ أو ملاطفةٌ للتذكير بالجانب الذي ينتمي إليه! في الواقع، لم يكن ألبير وقحاً ولا أنانياً مثلما اعتقدوا. ببساطة، لم يكن يراهم بسبب استغراقه في الاستمتاع بعودة قواه إليه لتجعل دمه كلّه يغلي. أحياناً، يكمل ألبير نزهته متسلّقاً هضبة تلغراف قبل أن يعود إلى المصبغة في شارع واشنطن. كلّ أحد، يرافق يعقوب إلى الكنيسة المعمدانية السوداء الواقعة على زاوية شارعي كلاي وهايد. حتى ذلك الحين، كان ألبير يعُدّ الله سيّداً للمستغِلّين البيض. وفجأةً، تعلّم أنّه يمكن أن يكون أسود. لذلك، يضع طوعاً ركبتيه على الأرض ليطلب منه أن يبارك حياته. ينحدر المبجّل كيلي الذي يقيم القدّاس ويجعل خشب القبّة يهتزّ وهو يغنّي سوينغ لو، سويت شاريوت(*)... من فيرجينيا، مثل ماكون دينيس، وعندما يجتمع الصحب عنده بعد القدّاس، يبكي بحرارةٍ وهو يقرأ بصوتٍ مرتفع الرسائل التي يتلقاها من أبويه.

– لم تنفع الحرب الأهلية. لم يتغيّر شيء...

فتواسيه زوجته هارييت، ثمّ تقدّم وجبةً سخية تنتهي دائماً بحلوى مصنوعة من اليام(**)، ولم يلاحظ أحدٌ النظرات التي تغمر ألبير بها.

(*) Swing low, sweet chariot: أغنية روحانية زنجية أصلها من الولايات المتحدة. [م].

(**) igname، البطاطا الحلوة. [م].

.7

«سان فرانسيسكو، 15 حزيران **19

السيّد المبجّل ماركوس غارفي

لقد تبعتك عندما كنتَ في بنما، وأنا من بين الزنوج العديدين على سطح هذا الكوكب الحزين الذين يتفاعلون بقوّةٍ مع كلماتك. إنني أحمل إحدى جُمَلك في رأسي وفي قلبي:

«I shall teach the Black Man to see beauty in himself».

علمتُ بأنّك أقمت مؤسسةً للنهوض بالعرق الأسود. أرجو منك تزويدي بالتفاصيل. أناديك من داخل صحرائي».

هذه هي الوثيقة الثانية التي أمتلكها من سلَفي. هذه الرسالة التي لم يرسلها قطّ، والتي عثرت عليها مصفرّة، شبه مفتّتة في بعض المناطق، ضمن رزمةٍ من الفواتير الشكلية.

وهي تبرهن لي على أنّه لم يتخلَّ عن أحلامه، وعلى أنّ الاضطراب بقي كامناً فيه تحت هيئته المتعافية.

.8

كان يعقوب أرمسترونغ، صديق سلَفي ألبير، رجلاً هادئاً. صمّم على الزواج من لويز غراسهوبر، الشقيقة الصغرى لزوجة ماكون دينيس، المعلّمة في أوّل مدرسةٍ للأطفال السود في شارع كلاي. انتهت جولات لعب الورق التي اعتاد عليها في كولون، والتي يخسر أثناءها في كثيرٍ من

الأحيان ثروةً صغيرة. انتهى عهد العشيقات اللواتي يغدق عليهنّ المال. بات يهرع كلّ يوم اثنين إلى مصرف ويلز فارغو لإيداع كامل أجره.

لم يبقَ لديه سوى نقطة ضعفٍ واحدة: ولعه بالكحول. فبين حينٍ وآخر، يدفع باب واحدةٍ من الحانات العديدة في شاطئ بارباري، ويطلب كأساً تلو أخرى من مشروب ميكي فين. يولّد الجين فقاعاتٍ من الشمس في رأسه ويصبح البحر وردياً كما في حلمٍ طفولي. يرى نفسه وهو يضع خاتم زواجٍ في إصبع لويز الممشوقة، والتي تنتهي بظفرٍ على هيئة صدفة قبل أن يدخل إلى سريرٍ معها ويغطس عمودياً وسط المحيط وهو متشبّثٌ بنهديها. ثمّ سيكون لهما خمسة أطفال، ثلاثة صبيان وبنتان سيسمّيهما سابرينا وفابيانا، لأنّه مولعٌ بالأسماء الإيطالية.

ذات نهارٍ بدأ مثلما يبدأ في الأيام الأخرى، بما أنّ الشمس لم تبزغ في وقتٍ أسرع من المعتاد منذ خروجها من الضباب، دخل يعقوب مسرعاً إلى حانة وارف، وهي حانةٌ ليست أكثر خطراً من الحانات الأخرى، كما أنّه فضلاً عن ذلك معروفٌ فيها.

لم يكد يجلس إلى طاولةٍ حتى لاحظ مجموعةً من الرجال الأقوياء الذين يمسح كلٌّ منهم فمه بظاهر يدٍ تصرع البقر، وعلى جزماتهم التصق غبار مدينة ساكرامنتو الأصفر. لم يحتج يعقوب، وهو الذي ترعرع في أميركا السوداء، إلى دروسٍ كي يعلم أنّه في مواجهة عنصريّين خطرين. كيف يمكن معرفة ذلك؟ في الحالة التي تشغلنا، من ضيق الجبهة المستطيلة أسفل قبّعةٍ متسخة، من الشعر فوق عينين متلصّصتين أشبه بعينَي الخنزير.

حنى يعقوب ظهره في محاولةٍ لأن يختفي عن الأنظار. ابتلع كأسه المحتوية على ميكي فين بحيث حرق بلعومه، وركض نحو باب الخروج.

خاطب واحدٌ من الأقوياء، وكان مستنداً إلى الباب، الحضور في الصالة: «هل يعجبكم أن تروا هنا وجوهاً بلون الجحيم والبؤس؟».

أطبق الصمت كملاءةٍ مبلولةٍ ولم يعد أحدٌ يفكّر في تحسّس النادلات ذوات الأثداء العارية. ارتفعت ضحكة يعقوب الحادة:

- ها، ها، ها! لون الجحيم والبؤس، هذه بالضبط كلمات أمي المسكينة!

- أمّك القحبة؟

بعد صمت، ارتفع ضحك يعقوب مجدّداً، ربما ليصبح أكثر حدّة. لمس القويّ ذراعه قائلاً: «قل إنّ أمّك كانت قحبة. قلها!».

تردّد يعقوب. ربما لم يفهم هو نفسه ما يجري في قرارة نفسه. تلاشى الاهتمام الحذر بالبقاء والنصائح المتلقّاة مراراً وتكراراً منذ الطفولة عن ضرورة إخفاء المرء مشاعره عن البيض! تلاشت بفعل دوّامةٍ نزلت إلى أعماق كينونته! قفزت الدوّامة وأزبدت على الصخور، وصفعت يميناً ويساراً بلآلئ تصطبغ بألوان قوس قزح. أطاحت بالمخاوف القديمة! رفضٌ وتمرّدٌ وحنق! هاجم كرش القويّ ورأسه يتقدمه.

عُثر على جسده الممتلئ بالرصاصات، ووجهه مشوّهٌ ببشاعةٍ بفعل كعوب الأحذية، في وحل حفرةٍ في شارع كيرني.

أثارت القضية ضجّةً كبيرة. وطالبت الجمعية الوطنية للنهوض بالملوّنين، وقد تأسّس فرعٌ لها قبل مدةٍ وجيزة في لوس أنجلس، حكومةَ كاليفورنيا بفتح تحقيق. وأرسلت الجالية السوداء الصغيرة في سان فرانسيسكو وفداً إلى رئيس البلدية الذي أكّد أنّ القضية ستُحلّ. كما وضع محامٍ أبيض شهير اسمُه رودولف دويندل نفسَه في خدمة هذه القضية العادلة. لكنّ ذلك كله لم يجدِ نفعاً. إذ لم يُعثر أبداً على قتلة يعقوب.

بات الخوف من الأسوأ يحيط بألبير.

وجب تقييده لمنعه من النزول إلى الشارع ليفرغ بندقيته في أجساد جميع البيض المتحرّكين. كتب إلى تيودور روزفلت، وعندما لم يحصل على ردّ، سأل كيف يمكن اغتيال الرؤساء. ثمّ ترك نفسه يموت جوعاً. أغلق فكّيه إلى حدّ أنّ الشاي الذي كان يسكبه تشي لو لي المتفاني لم يتمكّن من شقّ طريقٍ بينهما. لم يعد يتغذّى إلّا بالأفيون، ربما ليظهر الصديق العزيز الذي خسره في دخان المخدّر.

ذات صباح، أوصلت هارييت دينيس أبناءها إلى المدرسة ودخلت غرفة ألبير.

في الحقيقة، لم تكن تلك المرة الأولى التي تنفرد فيها به. ولا المرّة الأولى التي تنزع عنها ملابسها لتنزلق تحت غطاء السرير الثقيل وتلتصق به وهي عارية. لكن في اللقاءات الأخرى، تعلّق الأمر بتشارك المتعة وليس بتهدئة الآلام فحسب.

لم يكن أحد، باستثناء يعقوب، يخمّن ما يجري حقاً بينهما.

في الأوقات الأولى، اتّخذ ألبير، مخلصاً لعاداته، طريق دور البغاء. اختار مبغى شارع دوبونت حيث يتكلّم بالفرنسية مع عاهراتٍ من تشيربورغ، انتقلن عبر ليما وفالبارايسو. ذات يوم، وبعد قدّاس الأحد، رفعت هارييت إليه عينيها اللائمتين السوداوين بعد أن قطعت في المطبخ الحلوى باليام وقالت: «ألا تخجل من مضاجعة نساءٍ بيض؟».

جمد ألبير في مكانه. واصلت هارييت: «البيض يضربوننا ويقتلوننا وأنت تداعب نساءهم!».

استطاع ألبير أن يقول متلعثماً: «أنا أدفع، أنا أدفع...».

- حسناً، سأمنحك ذلك الأمر مجاناً!

بعد ذلك الحديث، أخذت هارييت تنتهز فرصة تعليم زوجها المبجّل لكورس الأطفال على دقائق الأناشيد المقدّسة، فتعلّم ألبير مرّتين في الأسبوع بعض الملامسات الأميركية حقاً، على الرغم من كونه منفلتاً إلى حدٍّ ما. وكان يخرج من تلك الجلسات متعباً ويقول: «يا إلهي، يا لها من امرأةٍ شريرة!».

بعد أن يلتقطا أنفاسهما، تحكي له هارييت ورأسها مستقرٌّ في حفرة كتفه عن التمرّد الكبير الذي قاده نات ترنر(*) في مقاطعة ساوثهامبتون في فرجينيا.

- كان قدّيساً وعادلاً. كانت الروح القدس فيه.

في المقابل، لم تكن هارييت قد سمعت بماركوس غارفي.

عندما ضمّت هارييت ألبير إليها مثلما يُضمّ مولودٌ جديد، انفجر بكاءً وسالت دموعه المحتبسة على طول وجنتيه.

- لقد دخل حياتي عندما خسرت كلّ ما يجعل الشمس تشرق عليها. «هيه، يا رجل! هل تسعى إلى الموت أم ماذا؟» هذه هي الكلمات التي بادر إلى مخاطبتي بها، ولم يكن يعلم أنني كنت أسعى إليه حقاً. الحياة، الحياة بالنسبة إليّ كانت بركةً من الوحل لم يكن بوسعي أن أروي عطشي منها. لماذا يجب أن يقتلوا كلّ مرةٍ أثمن ما لديّ؟!

- هوّن عليك، هوّن عليك!

يوم الأحد التالي، في وقت القدّاس، رأى مؤمنو الكنيسة المعمدانية

(*) Nat Truner (1800-1831): عبد أميركي وقائد الثورة الفعّالة الوحيدة للسود في التاريخ الأميركي. [م].

الصغيرة هاريت تصل وهي تسند، بل تجرّ جسداً ضخماً مزّقه الألم، لكنّه وافق على أن يخلط صوته بالمزامير.



الربّ يمتحن الصدّيق؛
يمطر على الأشرار
فخاخاً، ناراً وكبريتاً،
وريح السموم نصيب كأسهم!

لكن عندما أقنع ألبير نفسه بأنّ نار الله لن تحرق من قتلوا صديقه، أخاه، وبأنّ تلك الجريمة لن تكون أكثر من جزءٍ ضئيلٍ من الظلم في دوّامةٍ كبيرة، صفّى حسابه في ويلز فارغو، وذهب إلى مكاتب شركة باسيفيك ليشتري بطاقةً بالدرجة الأولى إلى كولون، ناوياً أن يستقلّ منها باخرةً إلى غوادلوب.

عشية رحيله، مشى بقدمه العرجاء للمرة الأولى حتى أعلى هضبة تلغراف وودّع المدينة. آه، لقد نالت منه حقاً! كان يتوقّع أن يعيد بناء نفسه فيها، وأن يعثر بعد ولادته الجديدة على طريق السعادة. لقد خدعته، خانته! ليت زلزالاً جديداً يدمّرها رأساً على عقب ويمحو ذكراها من ذاكرة البشر! في الوقت عينه، انتصر نسر نار الشمس أخيراً على الضباب وبات يسيطر على الخليج، فمزّق كلّ هذا الجمال قلبه المتألّم! قاسية! قاسية!

مضت الرحلة دونما مشكلة. هذه المرة، لم يُلفظ ألبير من قمرته التي تشارك فيها مع مجموعة تجّارٍ فرنسيين، يعودون خائبين من رحلة عمل.

في حوزتي المذكّرات التي كتبها سلَفي وهو جالسٌ وسط رذاذ سطح المركب، ومحبرته التي تحتوي على الحبر البنفسجي موضوعةٌ على كومٍ من الحبال. ليست لهذه المذكّرات أيّ قيمةٍ أدبية. صياغتها ثقيلةٌ وأخطاؤها

كثيرة. لذلك لن أتكبد عناء نقل مقتطفاتٍ منها. لقد سمحت لي فحسب بمعرفة أيّ رجلٍ كان ألبير لوي.

ذكاءٌ فوق الوسط بكثير، لكن لسوء الحظ لم يتعزّز بأيّ قراءة. حساسية من سُلخ جلده. ألمعية من علّم نفسه بنفسه. ما من موجِّه. ما من نموذج، ما خلا ماركوس غارفي الذي رآه خلسةً من بعيد. باختصار، هذه المذكّرات مجموعةٌ من التساؤلات والأفكار التي يمكن أن تدفع متعلّماً للابتسام.

أثناء توقّف ألبير في كولون، ذهب لمقابلة مانويل، شريكه السابق. لكنّ المشروع فشل بعد رحيله ولم يعرف أحدٌ ما آل إليه البنمي. ثمّ استقلّ ألبير قطار العمّال ومضى في طريق غاتون.

في القرية حيث لم يتذكّره أحد، علم أنّ العجوز سيوول مات، وأنّ زوجته تسكن في با أوبيسبو مع إحدى بناتها.

ذهب ليبحث عن قبر ليزا في المقبرة الصغيرة التي تغرقها دورياً مياه نهر تشاغريس، حاملةً معها صلبان اللؤلؤ والأزهار الاصطناعية وشمعدانات السيراميك التي وضعتها أيادٍ ورعة. هناك، جلس على الأرض ومدّد أمامه ساقه المتصلّبة، وبدأ يصف للميّتة مذاق حياته الشبيه بمذاق الشراب المرّ. لحسن الحظ، كان هنالك الطفل.

– سأجعل منه رجلاً. متيناً مثل شجرة الكابوك(*). ملكياً مثل شجرة نخيل من سيغو(**). سيتجاوز رأسه رؤوس الجميع، وأنتِ، أنتِ التي سترين ذلك، ستكونين سعيدة...

عندما مزّقت الهواءَ المكتنز صافرةُ القطار الذي يجرجر نفسه مللاً من

(*) شجرة من فصيلة الخبازيات.

(**) Ségou، مدينة في مالي، وهي عنوان إحدى روايات ماريز كونديه. [م].

تعب جميع أولئك الرجال المقتلعين من جذورهم، سحب ألبير من جيبه كيساً جلدياً صغيراً ملأه بالتراب. ثمّ نهض بخراقة، وزاد من ارتباكه ألمُه.

شهدت تلك السنة إنجاز القناة وتعجّب العالم أجمع من عمل الأميركيين الجبار.

.9

شبَّ الطفل على حكاياتٍ رائعةٍ عن هذا الأب الذي يعيش في مكانٍ لم يذهب إليه أحد، ولا حتّى تي جان(*) وهو يتعقّب الدابّة: أميركا. هناك، يعلّق رجالٌ ذوو بشرةٍ حمراء، صدورهم وشعورهم مطليّة بالزيت، أرجوحاتٍ شبكية على الأشجار، أو يسبحون نزولاً مع المياه البطيئة في الأنهر الكبيرة. وأحياناً يطلقون سهاماً على حيواناتٍ لها أجساد البشر.

ذات يوم، أُلبس ملابس داخلية مبهرة لشدّة نظافتها وتفوح منها رائحة النجيل، ثمّ سروالاً قصيراً من المخمل الأزرق، وقميصاً ذا كشكش من الدانتيل، وفي آخر الكمّين أزرار أكمام حقيقية. ثمّ رُسم بصعوبةٍ شديدة فرقٌ في شعره المشعث. لكنّه لم يضحك وهو يرى نفسه بهذا الجمال في تلك المرآة. شعر بالخوف. علِم أنّ أباه عائد.

قرابة الساعة الرابعة، سلك مع تيودورا طريق أرصفة الميناء. أخذت تمشي في المقدّمة تحت مظلّتها ويسألها الناس: «*Sé jodi la?*»(**).

فتهزّ رأسها وتسير متباهيةً وحقيبتها المخملية تتأرجح على طرف

(*) Ti-Jean (جان الصغير): شخصية من الأدب الشعبي الكندي. [م].
(**) «هذا اليوم؟».

ذراعها. في ميناء دارس، رست سفينةٌ هائلة الحجم، سوداء وحمراء، ووُصلت باليابسة بمعابر اسودّت بفعل الرجال والنساء والأطفال والحمّالين... الآن، أخذت تيودورا تتأوّه كما لو أنّها تعاني المخاض:

– Pitite-mwen! Pitite-mwen!(*)

شعر الطفل بالحرّ الشديد. سال من جبينه عرقٌ حامضٌ أغرق عينيه ولم يجرؤ على مسحه بطرف كمّه خشية أن يلوّث نفسه. كان يعاني بشدّةٍ لأنّ تيودورا، في خضمّ انفعالها، نسيت أن تُجلِسه على المبولة الترابية التي تحتفظ بها خلف ستارةٍ مزهّرةٍ هندية.

وفجأةً، رأى رجلاً كلّ ملابسه سوداء، باستثناء قميصٍ أبيض ذي ياقةٍ مرتفعة تشدّ عنقه مثل مطاطةٍ عاصبة، شعره محلوقٌ حلاقةً قصيرة إلى درجة رؤية جلدة رأسه ويستند بوزنٍ بدا معتبراً على عكازةٍ ذات مقبضٍ فضّي. نزل الرجل العبّارة بخطواتٍ ثقيلة، في حين أخذ نظره يكنس كمنارةٍ دونما توقّفٍ محيط العائلات الولهانة. ارتعش الطفل عندما توقّفت تلك المنارة عليه، فحصرته في ضوئها، متلمّسةً تفاصيل وجهه والندبات التي خلّفتها كلّ تلك الألعاب والشجارات على ذراعيه أو على ساقيه. اقترب منه الرجل حتى كاد يلمسه، وقال وهو ينظر أخيراً إلى تيودورا التي أجهشت بكاءً في منديلها: «إنّه صغيرٌ حقاً!».

يحكي الناس إنّ ألبير لوي حين عاد من إقامته في الخارج لمدة عشر سنوات، أودع في المصرف من الدولارات الأميركية مبلغاً دفع المدير الأبيض نفسه للخروج من مكتبه لتأمّل هذا النهر الأخضر. كما يحكون

(*) «صغيري! يا صغيري!».

أنّه اشترى بمبلغٍ زهيدٍ مجموعةً من الأراضي غير المستصلحة غربي لابوانت وبنى فيها لاكو(*) هائل الحجم، وأخذ يراقب بنفسه الأشغال، ويعنّف العمّال فور توقّفهم عن العمل ليأكلوا قليلاً من طحين المنيهوت والأفوكادو المبلول بالزيت. لم يعد هذا النمط من السكن موجوداً البتّة في أيامنا. أمّا في زمن حدوث هذه الحكاية، فقد وفّر ملاذاً لكلّ من غادر المزارع للبحث عن الارتقاء الاجتماعي المرتبط بالمدينة. ثمّ استحوذ ألبير على متجرٍ للاستيراد والتصدير كان لرجلٍ أبيض من سان مارتان أثقل كاهله موتُ زوجته بحيث لم يعد يهتمّ بلون خليفته. أسود في مجال الاستيراد والتصدير! حسبما يتذكّر أهالي بوانت آبيتر، لم يحدث مثل ذلك قطّ، وتدفّق الناس إلى رصيف لوي فيليب لرؤية ألبير وهو يستقبل مع موظّفيه الثلاثة صناديق سمك القدّ المملّح أو أكياس الأرز أو براميل الزيت التي ستضمن ازدياد ثروته.

أخيراً، اشترى أرضاً في مواجهة البحر في منطقةٍ من لابوانت لم تكن قد استُصلحت بعد إلا قليلاً، ونقل إليها عمّالاً بشاحناتٍ كاملة، ورفع فيها من الأرض بيتاً من طابقين مع مكان إقامةٍ قابلٍ للسكن وشرفة في كلّ طابق، وهو البيت عينه الذي ترعرعت فيه أمي.

ذات صباحٍ هادئٍ من شهر أيلول، رأى أهالي لابوانت قافلةً من الحمّالين تمتد عبر الشوارع الصاخبة، بأرجلٍ مقوّسة وظهورٍ حنتها أوزان صناديق ضخمة. كان ذلك أثاثَ ألبير لوي القادم مباشرةً من بوردو(**)، يجرّونه بالعربات من جوف باخرةٍ راسية في الميناء. وبموجب تعليماته،

(*) Lakou: مجمّع سكني تقليدي. [م].

(**) Bordeaux، مدينة في فرنسا. [م].

وضعوه في غرف المسكن الجديد الاثنتي عشرة. وعندما زرع ألبير على الشرفات نبات الجهنمية في أوعية و«ستة أشهر - ستة أشهر»(*)، تصاعد الحنَق وفاض.

صحيحٌ أنّه لم يكن ينقص في لابوانت زنوجٌ ذوو مقاماتٍ رفيعة ويقرّرون مسار الأمور في مجال السياسة. لكنّهم أطباء ومحامون، بل معلّمون، أي أشخاصٌ تسلّقوا إلى المكان الذي وصلوا إليه بفضل التعليم. من هو ألبير لوي؟ قاطع قصب سكر سابق كانت أمه تعمل في الماضي في الميناء وترتدي بزة الماتادور(**) ولا تعرف القراءة. مسكينة تيودورا! أخذت تُهزّأ في كلّ الصالونات. ووسط الضحكات، يكرّر الحاضرون أخطاءها في اللغة الفرنسية، إذ تحرّف الكلمات. كانت تقول:

- Bon Dié, je suis faillie m'estromain!

- Les matins je fais un petit pé té...

- Je suis restée mofoise!(***)

كما تناولت الألسن أخوات ألبير العديدات اللواتي أُخرجن من البيوت التي يعملن فيها، ومن الأسرّة التي يبعن أنفسهنّ فيها، ومن الحانات التي ينظّفن طاولاتها وهنّ يقدّمن بين حينٍ وآخر خدماتهنّ لزبائن مستعجلين. وأُشيرَ إلى أنّ الأخت الوحيدة المقبولة هي ماروسيا المتزوّجة من معلّم في صنع الأشرعة في بورت لويس. ذات يوم أحد، أتى أحدهم بخبرٍ مهمّ.

(*) نبتة نجمة الميلاد.

(**) زيّ كريوليّ.

(***) «يا إلهي، كدت أؤذي يدي!».

«كلّ صباح، أصنع لنفسي قليلاً من الشاي!».

«هرب الكلام مني!».

أقسم بشرفه إنّ ألبير يمارس السحر الأسود! لقد رآه، رآه بعينيه الاثنتين، يجلس في زاويةٍ بعيدةٍ في المقبرة حيث لم يقبر أحداً ويروي بالدموع ساقاً من نبات مسك الروم الدرني، قبل أن يقبّل التراب حوله ويدندن بنشيدٍ وفمه مغلق. لم يكن هنالك سوى خطوة... بين ذلك وبين تفسير مصدر ثروته بإجراءاتٍ غامضةٍ وسحرية!

لم يبدُ أنّ ألبير يدرك شيئاً من ذلك كلّه، إذ كان يمشي منتصب القامة كحرف الألف من متجره على أرصفة الميناء، وقد أعاد طلاء واجهة المتجر وزيّنها بلوحةٍ كُتب فيها:

ألبير لوي

استيراد وتصدير

يمشي إلى بيته في شارع فوبور دينري، بعد أن يعرّج على مكتب البريد ليرسل منه كلّ يومٍ رسالةً إلى سان فرانسيسكو، موجّهةً إلى السيّدة هارييت دينيس. أمّا تيودورا، فتشعر بسعادةٍ غامرة، ولا سيما حين تجلس على الشرفة عندما يكون الجوّ صحواً لتهدهد حفيدها وتحشو ذهنه بحكاياتٍ يتلذّذ بها زنوج المزارع. لم يشُب سعادتها سوى منغّصٍ واحد! فعملياً، لم يكن ابنها يهتمّ بها! إذ يجلس أثناء الوجبات مقابلها على الطرف الآخر من الطاولة المصنوعة من السنديان ويمضغ طعامه بفظاظة. ولدى عودته من المتجر، يغلق على نفسه باب غرفةٍ في الطابق الأوّل يطلق عليها اسم مكتبه، وعندما تَطرق بخجلٍ على قوائم الباب المصنوعة من خشب الماهوجني لتطالب ببعض المال، تجده سكران، محتمياً خلف صحيفة «طريق الشعب». لا، لم يكن هذا نوع الحياة الذي انتظرته!

ما غفلت عنه تيودورا هو أنّ ابنها يعيش أيامه عبر ضبابٍ من الألم،

مجبولٍ من الإهانة والندم، ويوجّه على الدوام خلف سور الشفتين المزمومتين تحت الشارب طلباً للطفل:

- انتقم لي! انتقم لي من هذا كلّه! هل ذنبي أنْ تعلّم آباؤهم القراءة قبل أبي؟ ألم نخرج جميعاً من البطن عينه، عبيداً متتالين غير معمّدين، قبل أن نتفرّق لنُخصِب التلال؟ انتقم لي من ضحكاتهم! لماذا عدتُ إلى هذا البلد الخالي من امرأةٍ أو صديق؟ هما ينامان تحت التراب، هذان اللذان أحببتهما.

«كنت أسكن في الحيّ الصيني وسط رائحة الزنجبيل والفلفل. كانت نافذتي تطلّ على متاجر ذات أسماء سماوية: السلام والزحام، الإيمان والإحسان. وفي المساء، أتمرّغ في لذّات الأفيون أو أذهب لأخسر نقودي في دخان التونغ تويز(*). أمّا هنا، فأنا أطوف في العزلة!».

.10

كان الطفل النحيل يقترب من سنواته العشر. ذات يوم، وأثناء عودته من المدرسة، رأى صفاً من الرجال يسيرون على طول قناة فاتابل. جميعهم من الشباب، يبدون في عمرٍ متماثل، يرتدون ملابس موحّدة خاكية اللون، ويقودهم بعض البيض بآذانهم الحمر كما ينبغي أن تكون. شعر بالدهشة، فسأل متسكّعاً كان واقفاً إلى جانبه: «ما هذا؟».

نظر إليه الرجل: «هؤلاء جنود!».

- جنود!

(*) Tong toys: نوعٌ من اليانصيب.

- نعم أيها الأحمق الصغير، جنود! ألا تعلم أنه ثمة حربٌ في البلد الأم؟

أجل، كان الطفل قد رأى في كتابه عن تاريخ فرنسا جنوداً في ميادين معارك نابوليون. لكنهم لم يكونوا سوداً أوّلاً، ولم يكونوا يشبهون مطلقاً أولئك الشباب الصغار الذين يعرجون وهم يمشون بانتظام!

دخل إلى البيت راكضاً وصاح: «جدّتي، رأيت جنوداً! هنالك حربٌ في البلد الأم...».

لسوء الحظ، وبدلاً من أن يكون ألبير في مثل هذه الساعة في متجره يحصي ما يملكه، كان يتحدّث مع نجّار الأثاث نارسيس ليوصيه على خزانة. عندما سمع الطفل، استدار بالسرعة التي تسمح بها ساقه المعطوبة وأمسكه من جلد ظهره ووجّه إليه ثلاث صفعات:

- حرب أو لا حرب، هذا الأمر كلّه من شأن البيض! ثمّ إيّاك أن أسمعك مرةً أخرى تصف فرنسا بالبلد الأمّ.

مسح الطفل الدم الذي سال من فمه. ولأوّل مرّة، تجرّأ على التحديق بعيني أبيه قبل أن يسارع إلى الدرج المؤدي إلى الطابق الثاني. وفي غرفته، رمى بنفسه على سريره وهو يعضّ مخدّته وينشج: «أنا أكرهه! أكرهه!».

.11

«سان فرانسيسكو، 24 آذار 19**

الغالي ألبير،

لقد ازداد حجم جاليتنا مرةً أخرى. إذ وصلت ثلاث عائلاتٍ جديدة

من ألاباما. عبروا البلد كلّه بعربةٍ تجرّها البغال، مسافرين ليلاً ومختبئين نهاراً خشيةً على حياتهم. في الأسبوع الماضي، قام المبجّل كيلي بنحو اثني عشر تعميداً، وكان رائعاً مشهدُ التجمّع بالأثواب البيضاء، مصفّقين ومنشدين ذلك النشيد الذي لطالما أحببته كثيراً: سيدي يسوع.

لكن عدا ذلك، الأمور سيّئة نسبياً بالنسبة إلينا. فقد طُرد جميع العاملين السود من فندق بالاس، بسبب قرارٍ عنصريٍّ أصدرته الإدارة الجديدة. لم يعد لدى رجالنا موارد وبات واجباً على نسائنا أن يعملن خارج البيت أيضاً. وبما أنّه أصبح مستحيلاً أن نجد مكاناً نسكنه في المدينة، فقد اضطررنا لعبور الخليج والاستقرار في أوكلاند(*). الموقع مستنقعي في بعض الأماكن، وكثيف الأشجار في أماكن أخرى، لكننا لا نتراجع أمام الصعوبات. لقد بنينا كنيسةً ومدرسةً لأطفالنا ومستوصفاً لمرضانا. أتى ممثّلٌ عن الجمعية الوطنية للنهوض بالملوّنين من لوس أنجلس وشجّع جهودنا. ذكّرنا بأنّه نظراً إلى ما يجري في بقية البلاد، فإنّ كاليفورنيا تبقى جنّة. هل سمعت بمجازر سان لويس الشرقية حيث قُتل مئاتٌ من أهلنا؟ ربما ليس لمثل هذه الأحداث أيّ صدىً في غوادلوب البعيدة!

أصلّي من أجلك كلّ يومٍ من أيام حياتي. إذا كان رجلٌ يستحقّ بعض السعادة، فهو بالتأكيد أنت.

هاريت المُحبّة لك».

هذه هي الرسالة الوحيدة التي عثرت عليها في أوراق سلَفي من هاريت. لكن يبدو أنّهما تراسلا حتى وفاتها المبكرة في عام 1936.

(*) Oakland، المهد المستقبلي لحركة الفهود السود.

.12

ذات صباحٍ من شهر آذار، بعد عودة ألبير إلى لابوانت بما يزيد قليلاً عن السنة، دخل إلى غرفة تيودورا التي كانت تستنشق مادةً طيّارةً قلويةً لتغسل دم رأسها، وقال لها: «ماما، سأتزوّج».

ما من شكٍّ في أنّ تيودورا شعرت بأنها «mofoise»(*)! قالت متلعثمةً: «كيف ذلك؟».

لم يجب ألبير حقاً عن السؤال، وواصل قائلاً: «اسمها إيلاييز سوفوكل. هي معلّمة».

عندما عاد الطفل من المدرسة في الساعة الرابعة، وجد تيودورا بعينين محمرّتين ومنتفختين كبيض البطّ. ارتجف وقال: «ماذا فعل لك؟».

- الزواج! يريد الزواج!

أتت إيلاييز سوفوكل في تمام السادسة من اليوم التالي لتتعرّف بحماتها المستقبلية وابن زوجها المستقبلي. رافقتها أمها وهي تحمل منديلاً، لكنّ ثوبها كان على الطراز الأوروبي. لم يكن عمرها يتجاوز عشرين عاماً وللوهلة الأولى، بدت قبيحةً ولا تلفت النظر، بجسدها المحبوس في ثوبٍ لونه أزرق غير جذّاب، وشعرها الكثيف المدهون بعناية، المشدود إلى الوراء والملفوف على شكل كعكةٍ مليئةٍ بالدبابيس الصدَفية. لكن عندما تتشجّع فترفع رأسها وتعرض لون لحظها البني الفاتح مقارنةً بجلدها الحالك السواد، وعندما ينفتح فمها عن ابتسامةٍ مفعمةٍ بالظلّ والعذوبة، يعلم المرء أنّ من يستولي عليه سيتزوّد بجوهرة.

(*) مصدومة.

عندما بدأت لويز سوفوكل، الأم، الحديث باللغة الكريولية، أعادتها تيودورا إلى طريق اللغة الفرنسية لتذكيرها بالعائلة التي تدخلها ابنتها. وبدءاً من تلك اللحظة، تبادلت المرأتان الكراهية، وسينشب صراعٌ حتى الموت حول مهد الأطفال الذين سيولدون.

كانت إيلاييز سوفوكل ابنةً طبيعيةً لأحد أوائل السياسيين في بلدنا، ذاك الذي ألحق به ليجيتيموس(*) عندما انتُخب نائباً هزيمةً نكراء، فشعر بالخيبة إلى درجة الانسحاب إلى كابستير (Capesterre) لتربية الدجاج. لم يهتم أبوها بها قطّ وربّتها لويز بجدارة، ببيع حلوى اليام والكعكة الرخامية(**) خلف كاتدرائية القديسين بطرس وبولس. يُدهش المرء من كون هذا النوع من التجارة يدرّ من المال ما يحوّل بنتاً إلى معلّمة! على كلّ حال، تُعدّ إيلاييز سوفوكل واحدةً من أوليات بنات جيلها في الحصول على الشهادة الإعدادية التي كانت تتيح المجال آنذاك للتعليم.

قابلت لويز، الأم، وهي جالسةٌ في كرسيّها الهزّاز في الصالون الصغير ببيتها الواقع في شارع روجيه دوليل (Rouget-de-Lisle) رجالاً عديدين يطلبون منها يد ابنتها. استمعت إليهم بتهذيبٍ قبل أن تجري تحقيقها عن حساباتهم المصرفية وعمّا ينتظرهم في المستقبل. ثمّ قدّمت لهم إجابتها. وكانت الإجابة سلبيةً على الدوام. كانت هذه اللعبة تدوم منذ سنتين، وبدأ

(*) Hégésippe Jean Légitimus (1868-1944): سياسي فرنسي، نائب ومستشار عام ورئيس بلدية بوانت أبيتر. أسس الحركة الاشتراكية في غوادلوب، وكان له أثرٌ عظيم في الحياة السياسية الفرنسية في مطلع القرن العشرين، فقد نال لقب «جوريس الأسود». كان أول نائب أسود في المجمع البرلماني منذ 1848، وجاور فيه جول غيسد وجان جوريس وليون بلوم. [م].

(**) تُعرف أيضاً باسم «كعكة الماربل»، وهي تُصنع بمزج خليط الكعك الفاتح والداكن معاً، لتغدو ذات مظهر مخطّط أو مرقّش شبيه بالرخام. [م].

الناس يضحكون وهم يتوقّعون أن تُحضِر إيلايز في نهاية المطاف لأمّها لقيطاً، عندما أتى ألبير ليحتلّ مكاناً في الصالون المتواضع والمزدحم بالأغراض. لم يستشر أحدٌ إيلايز. وفي يوم أحدٍ سمحت لنفسها فيه أن تتأخر في الاستيقاظ، قالت لها لويز وهي تجلب لها وعاء قهوتها: «في الساعة الرابعة، سيأتي ألبير لوي ليتحدّث إليك».

وفهمت معنى ذلك الكلام.

استمرّ تودّد ألبير ثلاثة أشهر بالضبط. يعود إلى بيته في ضاحية فريبو (Frébault) لتبديل ملابسه، لأنّه تعرّق طيلة النهار في بزّاته السوداء، ويعود بخطواتٍ صغيرة نحو شارع روجيه دوليل، متوقّفاً في مخزن ميلاني لشراء البوملي أو «الفستق» المحمّص جيداً الذي تحبّه لويز، الأم.

لم يكن يوجّه كلمةً واحدة إلى إيلايز، لمعرفته بأنّه سيمضي قربها سنواتٍ تتكوّن من أشهرٍ وأسابيع وأيامٍ وساعاتٍ ودقائق وثوانٍ، يجب ملؤها بالكلمات. ولم تكن تجرؤ على التفكير في اللحظة الرهيبة التي سيكون عليها أن تتعرّى فيها أمام هذا المجهول المخيف وتتركه يمزّق لحم فخذيها الخائف.

أطلق إعلان خطوبة إيلايز وألبير لوي العنان للتعليقات. إذ كانت سمعة ألبير مريبةً إلى حدّ أنّ الأب المبجّل ألتماير، الذي حضّر إيلايز للمناولة الأولى وتلقّى كلّ خميس، أسبوعاً بعد أسبوع، اعترافاتها كفتاةٍ شابة، خرج من صومعته ليحذّر لويز، الأم، من إغواء بيع طفلتها. أمّا فيكتور أشيل، الموظّف في هيئة الضرائب المباشرة المولّه بالابنة، والذي فقد الأمل في أن يقدّم للأمّ حساباً في المصرف يرضيها، فقد سقط أرضاً بعد أن صعقته جلطة، ونُسب الشلل الذي أصابه إلى السحر الأسود الذي يمارسه ألبير.

في الأسبوع السابق للزواج، هطل المطر دونما توقّف، فامتلأ نهر الحشائش الذي يقطع لابوانت بخيطٍ بائسٍ من الماء، وأتى ليصبّ في البحر سيولاً موحلة. ثمّ امتدت السماء يوم العرس، الأحد، فوق البيوت دونما غيمةٍ واحدة، في حين أتى مولود الشمس الجديد ليضحك بفمه الخالي من الأسنان والذي يسيل منه اللعاب.

على أحد جدران صالون البيت الواقع في شارع فوبور دينري، البيت عينه الذي ترعرعت فيه أمي، عُلّقت صورةٌ لهذا الزواج، وأعتقد أنّها نظرت إليها من دون أن تراها، مثل تلك الأشياء المألوفة جداً والتي لا نوليها أيّ اهتمام. ألبير الطويل جداً إلى جانب إيلاييز القصيرة جداً. ألبير القاتم اللون إلى جانبها هي المنيرة، المزوّدة بذلك الجمال الذي لن يغادرها. ألبير المتسربل بذكريات الإهانات والآلام. وهي تأمل رغم كلّ شيءٍ في أن ترى فجر زقزقة الأطفال يبتسم.

قرب حلول المساء، أثناء تفريغ حمولة الروم من ماركة «فينيتو ليغراب بلانش» باستخدام الدمجانات، صعد ألبير مع إيلاييز في عربةٍ خفيفة، وسلك طريق بورت لويس حيث تمتلك أخته ماروسيا وزوجها معلّم صنع الأشرعة بيتاً.

والحال أنّ المنزل المواجه كان في حدادٍ بعد وصول برقيةٍ من وزارة الحرب تخبر أصحابه بموت الابن البكر.

غاستون فيليبير. ثلاثة وعشرون عاماً.

واحدٌ من 1637 مواطناً من غوادلوب طمرهم وحل خنادق حرب 14-18، من دون أن يعرفوا السبب.

عندما علم ألبير سبب وضع الأوشحة السوداء على ذلك المنزل وبكاء

النساء في حين يسكر الرجال بحزن، ذهب باتجاه البحر كالمجنون. لم يعد إلّا بعد انتصاف الليل، تفوح منه رائحة الروم الفلاحي، وهجم على جسد إيلاييز الهشّ والمتمرّد تمرّداً غريزياً. لطّخ دمٌ أحمر جميلٌ وسط السرير، وفي الآن عينه حملت بجدّي يعقوب! يعقوب! اسمٌ لبناني وينبغي أن يكون المرء مخلوقاً من الاستثناء مثل ألبير ليطلق مثل هذا الاسم على بكره! يعقوب، بكر الصبيان الذين ستحمل بهم إيلاييز، والذين حملوا على التتالي بعده أسماء: سيرج ورينيه وجان!

غضبت ليزا الميّتة وبكت كثيراً في تلك الليلة، هي التي لم تخشَ شيئاً أبداً. فقد أحسّت بذلك، أحسّت بالحبّ يولد بين هذين الزوجين غير المتناسبين، وهو حبٌّ لم يكن له أن يفصح عن نفسه بكلمات، ولا أن يتجلى في المشاعر. لكنّه الحب، القوي كالحياة!

.13

حتى ذلك الحين، كان الطفل نحيلاً وقصير القامة. وفجأةً بدأ يقوى ويزداد طولاً. تجاوز تيودورا برأسين وإيلاييز برأس، وأتى ليقف مستقيماً مثل إيروكو(*) بارتفاع ألبير، فهو لم يعد يحتاج إلى رفع نظره تجاهه. والمفارقة أنّه في هذه اللحظة تحديداً بدأ الجميع يطلقون عليه ذلك اللقب الذي نحتته له مودّة إيلاييز: بيرت.

استندت تربية بيرت إلى مبادئ صارمة تتمتع بميزة عدم النطق بها أبداً، لكن عليها أن توجّهه، مثلها في ذلك مثل كثيرٍ من الإشارات غير المرئية.

(*) Iroko: نوعٌ من الأشجار.

ينبغي ألّا يختلط بالبيض ولا بالخلاسيين. بالبيض لأنّهم الأعداء الطبيعيون، وبالخلاسيين لأنّهم لقطاء مشينون، ورثوا الوقاحة عن آبائهم ونسوا أنّهم خرجوا من بطون زنجيات.

لكن الأهمّ هو عدم مخالطة الزنوج الآخرين، لأنّ الزنوج كرهوا أشباههم منذ الأزل، وسعوا للإضرار بهم بكلّ قواهم!

يجب عليه إذاً أن يعيش وحيداً. وحيداً بطريقةٍ رائعة.

لذلك، التجأ بيرت إلى القراءة. منذ الصباح حين يفتح نافذته لكيلا يفوته أيّ شعاعٍ من الشمس، حتى اللحظة التي تناديه فيها تيودورا: «دودو، ti di té[*]!».

ويقرأ فور عودته من المدرسة، عوض أن يحفظ تلك التصريفات الغريبة «Rosa Rosam Rosae...»، حتى تناديه إيلاييز: «هل أنهيت واجباتك؟».

وبعد العشاء الذي يجتهد فيه لتجاهل حركة فكّي والده المنهجية وهو يهرس، من دون أن ينبس بكلمة، السمكَ المقلي أو طبق الشايوت بالفرن أو الدجاج المحمّر، ويحدّق في بطن إيلاييز المفعم بالوعود وابتسامتها الشمس.

في ذلك العام، أتى حدثان لم يعد بيرت بعدهما كما كان قبلاً، ودخل في المراهقة شيئاً فشيئاً.

كلّ أسبوع، تذهب تيودورا لتقبض إيجارات لاكو ابنها، وتجلب له الحصيلة مباشرةً إلى المخزن الذي يمتلك فيه صندوقاً حديدياً. وتنقل إليه أيضاً شكاوى السكّان، وهي شكاوى لم يكن يأبه بها البتّة. ذات يوم سبت، بحجّة أنّ ساقيها العجوزتين لم تعودا تستطيعان حملها، أرسلت بيرت بدلاً

(*) «صنعتُ بعض الشاي».

منها. لم يكن بيرت يعلم أنّ أباه يمتلك لاكو وعبَر المدينة عرضانياً، مفعماً بتخوّفٍ غريب، من دون أن يهتمّ بدعوات بائعي المثلّجات، ثمّ توقّف في ميناء دارس ليتأمّل سفن جزيرة ماري غالانت (Marie-Galante) الشراعية، وبعد ذلك انطلق مجدّداً وهو يركل حصاة.

كان اللاكو يتصل بالشارع عبر ممرٍّ تفوح منه رائحةٌ سيّئة، يحدّه من جانبيه كوخان. وبما أنّ المطر هطل في اليوم السابق، فقد رُميت عبّارةٌ من ألواح الخشب على الوحل، وويلٌ لمن تزلّ قدمه! يؤدّي الممرّ إلى مضلّعٍ من طابقين مصنوعٍ من صناديق صابون، تزنّره شرفةٌ تعلو فيها أصوات نساءٍ مشغولاتٍ بإعداد الطعام، على أثدائهنّ أو بين سيقانهنّ أطفال، سليطات اللسان وقد فقدن عدداً من أسنانهنّ، نادين رجالهنّ القابعين في الداخل بقمصانهم الداخلية لدى رؤية بيرت. اختنق بيرت. انطلقت الصيحات والضحكات والشتائم:

– Vini pou mwen kasé grin-aw![*]

ما حدث بعد ذلك استدعى لدى بيرت، وهو قليل التديّن أصلاً، صوراً من درب صليب يسوع، ابن الإنسان. وجب عليه تلقّي المال عندما يرضى الآخرون تقديمه له، ثمّ عدُّه وتوزيع الإيصالات المحضّرة مسبقاً تحت وابلٍ قاسٍ من الاعتراضات والشتائم. كاد بيرت يفقد الوعي عشر مرات. كاد ينحني عشر مراتٍ من على الدرابزين ليتقيّأ اشمئزازه وكراهيته لأبيه. تمكّن من التحكّم بنفسه. وعندما بدأ السير في الممرّ المؤدّي إلى الشارع المتلألئ مثل الأرض الموعودة بعد إنهاء المهمة، ضربه أحدهم بحجرٍ في ظهره فأصابه بفواقٍ دامٍ. التفت ورأى شخصاً قوياً يتقدّم نحوه، فهرب راكضاً.

(*) «اقترب كي أحطّم لك خصيتيك!».

– يجب أن أقتله. أن أقتله! وحده دمه سيغسلني ممّا فعله بي اليوم!

لكن هل يستطيع صبيٌّ في الحادية عشرة من العمر أن يقتل أباه؟

دخل بيرت إلى منزل الأب بسرعةٍ شديدة، يسيطر عليه الحنق والألم؛ تسلّق الدرج، وعلى عتبة الطابق الأول، اصطدم بالسيّدة لاباستير، القابلة، وبتيودورا التي شفيت ساقاها المسكينتان بأعجوبة وعرضت بابتسامةٍ عريضةٍ أسنانها الذهبية: «تعالَ لتراه!».

استسلم لها وهي تقوده إلى غرفة نوم ألبير وإيلاييز للمرة الأولى، ولم يكن يعلم أنّ الأثاث المصنوع من خشب الكورباريل يحتلّ كل مساحتها، وأنّ الخوانات ممتلئة بصورٍ تمثّل إحداها أباه شابّاً وحاسر الرأس، قرب رجلٍ ذي وجهٍ منفتحٍ ومبتسم، في شارعٍ مجهولٍ يقف فيه أطفالٌ آسيويون يرتدون ملابس كملابس يسوع المسيح الملك. على السرير، الواسع كشارع فريبو، على صدر إيلاييز المتعبة والجميلة في تعبها نفسه، رأى في غلافٍ من الدانتيل والتطريز الإنكليزي وقماش الكتّان وجهاً لطيفاً مثلّثاً وحزيناً لهُريرٍ مبلّل الأوبار. همست إيلاييز: «قبّله!».

لم يستطع، ووجب عليه أن يحمل في داخله طيلة حياته الندم على هذه القبلة التي رفض منحها لأخيه المولود توّاً.

.14

حتى ذلك الحين، كانت ليزا قد تركت ابنها وشأنه. وفجأةً بدأت تعذّبه. أخذ يستيقظ ليلاً فيجدها أسفل سريره، تتنهّد وتُصدِر نحيباً يفطر القلب. وعندما يحاول أن يُغرق نفسه في قراءةٍ ما، تمدّ يدها عبر الصفحة فتغيم

الأحرف أمام عينيه. عندما يضحك، تضربه بخبثٍ في جوف معدته، فتتبدّل ضحكته إلى انتحاب. بات يخشى الظلام. أخذ يملأ الصمت بأصواتٍ لا يسمعها أحدٌ غيره. وبات يُرى متشنّجاً ومتنبّهاً، يجفل لكلّ صوت، يترقّب جلّاده غير المرئي. نحل جسده وازداد طولاً. غارت قسماته ونسب الجميع تحوّلاته إلى البلوغ.

سوف أجازف في وضع تفسير. لم تستأ ليزا من حبّ ابنها لتيودورا. بل على العكس، إذ كانت تبتهج لرؤية ما يتمتع به من دلالٍ وتزيين، ما لديه من أهواءٍ طارئةٍ ومزاجية. فعلى الرغم من تقدّم تيودورا في العمر، كانت تركع وتحمل على ظهرها الطفل الذي يجلدها بقهقهاتٍ مدوية. لكنّ ليزا لم تتمكّن من تحمّل عاطفة ابنها لتلك التي أخذت رجُلها. إذ كان بيرت يعشق إيلاييز.

وكيف بوسعه ألا يفعل؟ عمر زوجها ضعف عمرها. يضاجعها من دون أن يتكلّم إليها إلّا أثناء النهار. وكلّ أسبوع، يسلّمها مبلغاً زهيداً لسدّ حاجات أسرةٍ لا تني تكبر، وعليها أن تستخدم راتبها كمعلّمةٍ للصف الرابع الابتدائي حتى آخر فلسٍ منه. لكن على الرغم من ذلك كلّه، تفيض إيلاييز حناناً مثلما يفيض العطر من زهرة. يكفيها أن تضع على مريضٍ يديها النحيلتين اللتين تبرز عروقهما حتى يختفي كلّ ألمٍ وتحلّ السكينة. ويوم الأحد، تغنّي في الكنيسة التي تذهب إليها بمفردها مع أطفالها، لأنّ ألبير يرفض مرافقتها، بصوتٍ عذبٍ إلى درجة أنّه طُلب منها وضع موهبتها تحت تصرّف المجتمع، والمشاركة في تلك الجمعيات الفنّية التي بدأت تتشكّل في الجهاز التعليمي، كجمعيتي «المصباح» و«الشعلة».

كانت إيلاييز ماء النبع، النسمة التي تتشكّل فوق البحر وتأتي لتبثّ

برودتها على الجباه المتعرّقة. كانت ناي الهضاب المقصوص من الخيزران النامي على ضفة النهر. أجل، لقد عشقها بيرت!

تماماً مثلما عشقها جميع الناس في لابوانت!

عندما ماتت، صاحوا معاً: «نعم، زوجة ألبير لوي كانت ملاكاً من عند الله!».

وامتلأت الشوارع بأطفالٍ بأرديةٍ بيضاء، امتلأت أيديهم بورود وزنابق المدرسة التي تحمل اليوم اسمها.

- أجل، كانت ابنة الله! لكلّ شيطانٍ في الجحيم ملاكه. وهي كانت ملاك ألبير.

ها هي ذي ليزا، في شرّها الغيور كمتوفّاة، تملأ حبّ بيرت بأحلام لحمٍ وزنا، تجعله يسترق النظر إلى الثديين الجميلين اللذين تعرّيهما إيلاييز لترضع يعقوب، ويترقّب جسدها عندما تستحمّ كلّ خميسٍ في الباحة، وتيودورا تفرك كتفيها وظهرها بحزمةٍ من أوراق النباتات، ويستفيق وفخذاه مبلّلان بعد انسياقاتٍ محمومة. وإذ لم يعد بيرت المسكين قادراً على الاستمرار وقد أنهكته رغبات الجسد الذي لم يعد يستمع لصوت العقل، فقد تأوّه ذات يومٍ وقال: «يا للأسى لأنّك لستِ أمي!».

استدارت إيلاييز وقد اختلط عليها الأمر، وقالت: «اصمت! أمّك كانت... أمّك كانت...».

- من كانت في الحقيقة؟

فوجئت إيلاييز واستجمعت العناصر النادرة للمعرفة المتوافرة لديها، وهمست: «كانت زنجيةً إنكليزيةً عرفها أبوك في بنما».

بدت الجملة سحرية. ومنذ ذلك الحين، دخلت الميّتة في حياة ابنها

الذي وزّع أحلامه بين امرأتين. ولئن كانت تلك التي على قيد الحياة هانئةً، تضع يدها على جبهته لتهدئة مخاوفه، فقد كانت الميّتة عنيفةً، مستثارةً دائماً، وضاع المراهق تماماً بين الوداعة والتحمّس، بين الطاعة والتمرّد.

عندما علم ألبير من صحيفته المفضّلة بانعقاد مؤتمرٍ واسعٍ في باريس، يجمع مندوبين عن كلّ الشعوب السوداء في الأرض، من إفريقيا إلى الأميركيتين، طاش صوابه وحُسن تقديره. وبعد أن التزم طويلاً بتحفّظٍ فخورٍ وحذِرٍ في آنٍ معاً، كتب للسياسيين الذين يُفترَض بهم الذهاب إلى ذلك المؤتمر ليؤكّد دعمه لهم في هذه المهمة المثيرة، مهمة إعادة تأهيل العرق الضعيف، وليعرض عليهم بتواضعٍ أن يرافقهم، على الرغم من قلّة تعلّمه. لكن بقيت رسائله دونما صدىً لأسبوعين طويلين.

ثمّ ظهرت على نحوٍ متزامن في كبريات الصحف آنذاك، «لافيريتيه»، «لوليبرال»، «لوسيتوايان»، «لوبوبل»(*)، من كلّ الاتجاهات، مقالاتٌ نادرة العنف، تشجب شخصاً أشبه بشايلوك يؤكّد أنّه يرتدي رداء صديق الشعب، مستغلاً يزعم تغيير معسكره. لم تسمِّ تلك الصحف ألبير، لكنّها وصفت المتجر الذي يكدّ فيه ثلاثة موظّفين يتلقّون أجراً زهيداً، والاكتظاظ البائس في اللاكو الذي يرشح الماء من أسقفه ويغزو سوس الخشب أسواره، مقارِنةً إياه بفخامة المنزل في شارع فوبور دينري.

ختم كاتب افتتاحية صحيفة لوبوبل بالكلمات التالية: «من يعتقد أنّه يخدع؟ ليس للمستغلّ لون. إنّه ليس أسود ولا أبيض ولا خلاسي. ولن

(*) على التالي: La Vérité (الحقيقة)، Le Libéral (الليبرالي)، Le Citoyen (المواطن)، Le Peuple (الشعب). [م].

يسمح الغوادلوبيون بأن تخدعهم مساخر، إذ لطالما قدّموا البراهين على نضجهم السياسي منذ أن غادروا ليل العبودية. سلاماً للسامعين!».

وكما لو لم يكن ذلك كافياً، قبل جهجهة ضوء النهار، عندما لم تكن تمشي في الشوارع بعدُ سوى عوانس وعجائز اعتدن على ارتياد الكنيسة، يسرعن لإيداع آلامهنّ عند الأزلي، أتى رجالٌ مأمورون لإفراغ دلو ممتلئٍ حتى الحافة بالفضلات أمام المتجر. ولوّثت يدٌ سامّةٌ لوحة الباكيليت بالكامل. عندما أتى أوّل موظّفٍ ليرفع الستارة، غاصت قدماه في الخراء، وسارع لتحذير ألبير الذي كان لا يزال يحتسي قهوته في بيته، مجنّباً إياه أن يفعل مثله.

مثلما فعل ألبير بعد موت صديقه يعقوب، أنزل بندقيته الصدئة من مكانها، وتحدّث عن قتل السياسيين والصحافيين. ثمّ اختفت الحمّى وحبس نفسه. طيلة أسبوعٍ كامل، اضطرّت إيلاييز إلى الطرق على باب مكتبه والتوسّل إليه كي يقبل بعض الطعام. ثمّ خرج من جحره.

أنهت حملة 1920 الصحفية تعديل طباع سلَفي الذي استحقّ مجدّداً وبالكامل لقب سوبارو. لم يعد أحدٌ يسمع نبرة صوته. واختُزلت محادثاته بزمجرتين أو ثلاثٍ متفاوتةٍ في إيجازها، وتعني رضاه أو نفاد صبره أو غضبه. في هذه الحقبة، وللمفارقة، اعتاد بعد أن يضع رسالته إلى هارييت دينيس في البريد أن يدخل إلى «دونا فلور»، متجر الزهور الجديد، ويشتري لإيلاييزه باقةً من الأوركيد.

نادراً ما يتدخّل الأطفال بشجارات البالغين.

في المدرسة الثانوية، كان بيرت يُترك وشأنه، على الرغم من أنّه كان يُخصَّص بموقعٍ خاص. لكن عندما شاع خبر وضع كيلوغرامات من

القاذورات على رصيف متجر أبيه على يد رجالٍ مأمورين، قُطعت تلك الهدنة. فما إن ظهر تحت أشجار المانجو في الباحة، حتّى صاح التلاميذ بصوتٍ واحد: «آه، يا للرائحة المقرفة!».

تزعزع بيرت، ثمّ ذهب ليجلس على مقعدٍ وعيناه ضائعتان في المدى. نهض عندما رنّ الجرس. وعندما اقترب من المكان المخصّص لصفه، تبعثر الفتيان في كلّ الاتجاهات وهم يسدّون أنوفهم ويصرخون: «آه، يا للرائحة المقرفة!».

توجّه بيرت نحو باب الخروج مهزوماً وقد تقوّست كتفاه تحت ثقل عار أبيه، لكنّ جيلبير دوسان سنفوريان انفصل عن المجموعة ودوّى صوته قائلاً: «الرائحة المقرفة لا تنبعث منه! بل منكم، من أهلكم الأوباش!».

وكانت تلك بداية صداقةٍ كان من المفترض أن تستمر طيلة الحياة. كان جيلبير دوسان سنفوريان خلاسياً، ابن محامٍ محبوبٍ إلى حدّ أنّ البلد بأكمله كان يطلق عليه اسم «سنفو». وقد شاع عنه أنّه ليبرالي، لأنّه جنّب بؤساء سرقوا ثيراناً أو ثمار يام دخولَ السجن، وأحاط برعايته بيكيه(*) متهماً باغتصاب خادمةٍ وقتْلها. في نهاية المطاف، تبيّن أنّ الرجل عاشقٌ ولهان، ارتكب الجريمة، لكنّ جرأة «سنفو» بقيت أسطورية. وعلى العكس ممّا يمكن أن يتوقّعه المرء، لم يراقب أحدٌ تصرفات جيلبير، فأصبح وغداً. متسكّعاً، كما كانت تقول متنهّدةً تلك التي أطلقت عليه اسمه. فيوم الخميس، يخفي محفظته وكمانه خلف حاوية رملٍ في ساحة فيكتوار، وبدلاً من أن يحبس نفسه عند الآنسة أرتيميس، يمضي عرضانياً أو مواجهةً. ها هو ذا وقد صار سيّد الأرصفة، كرايةٍ ترفرف في ريح الشوارع، وسرعان ما يتلطّخ سرواله الكتاني القصير، ويلتفّ جورباه على نحوٍ لولبي

(*) شخص أبيض كريولي، متحدّر من المزارعين.

ويتحوّل شعره الجميل المموّج إلى شعرٍ أشعث أشبه بشعر فتىً عربي، في حين تضحك أسنانه الحليبية في وجهه المسمرّ اسمراراً خفيفاً. وبعد أن كان بيرت يلتزم بالصرامة في هندامه، بدأ يتراخى، ولحق به وفي داخله رعبٌ من أن يقع على أحد أصدقاء أبيه أو أصدقاء إيلاييز.

أعثر على هذين المستهترين عند لوريتا، وهي سيّدة غابرييل(*) ناضجة، لكنّها تحبّهم مراهقين. أوه، إنها تتذكّر!

- كان بيرت خجولاً إلى درجة أنّه يدخل السرير برأسٍ ومؤخرةٍ منخفضين! عانيت كثيراً لأدفعه إلى أن يكون جسده بزاوية قائمة! فأدفعه إلى الخجل وأقول له: «يا إلهي! أنت تنسى إذاً أنّك زنجي!».

ما لم تعلمه لوريتا هو أنّ بيرت كان يمارس معها الحبّ وهو يفكّر بإيلاييز، فاقداً الأمل من الحلول محلّ الأب والارتواء من ذلك النبع.

- آه! يا للطعم الذي سيتسم به الحب معها! بين ملاءاتها، بملامسة جلدها! بدل هذا الجسد الذي يتهدّل من كل جانب، جسدها متماسكٌ على الرغم من الولادات ومن كبر حجم ثدييها!

كما أعثر أيضاً على أثرهما في غوزييه. من الحانات التي يغسل فيها الصيّادون حلوقهم بمشروبٍ درجته الكحولية 55 ويلوكون بقايا سجائر بنّيةٍ بقدر لون بقايا أسنانهم حتى حلبات الملاكمة، جيلبير، ابن المحامي وحفيد كاتب المحكمة، الحالم بأن يكون له مستقبل في هذا المجال. افهموا شيئاً إذا استطعتم! وبيرت وقد تقوّى، لكنّه ليس مربوع القامة بعد، ينظر إلى صديقه الذي بدّل اسمه من أجل المباراة إلى سوني، يتحطّم أنفه ويمسح بمنديله الدم عنه.

(*) عاهرة.

أراهما أخيراً في مركبٍ محمّلٍ بالمؤونة يجذّف نحو الجزيرة الصغيرة.

ثمّ أرى السيّد والسيّدة سنفوريان، وقد سئما من أصفار ابنهما المكتوبة بالحبر الأحمر، وتوقّعا أن يتلطّخ اسمهما بالعار، يرسلان جيلبير إلى ثانويةٍ في باريس. الصديقان يكتبان أحدهما للآخر كلّ يوم.

«عزيزي بيرت،

لا تستطيع أن تتخيّل أيّ مدينةٍ هي باريس. لابوانت الصغيرة التي تحتل مكانةً كبيرةً في قلوبنا جميعاً تكاد تكون مجرّد حيٍّ من أحيائها. ثمة نهرٌ عريضٌ يقسمها قسمين، تتزاحم فيه مراكب. كما تقف على أوابدها حمائمُ أتت من العالم أجمع. الليل لا يخيّم عليها. وبعد منتصف الليل، النور يعبر السماء. كم أشتاق إليك!».

بات بيرت ينام وتلك الرسائل أسفل وسادته خشية أن تقع بين يدي الأب. إذ ستكون تلك قضيةً وأيّما قضية! أن يكون هو صديقاً لخلاسي، وأيّ خلاسي! لا شك في أنّه واحدٌ من أولئك الذين أفلتوا كلاب الصحافة المحليّة!

في تلك الحقبة، اشترى ألبير من مزارعٍ مفلس، بسبب انخفاض أسعار السكر بُعيد الحرب، نصف دزينةٍ من الهكتارات في جوستون. كان في الأرض كوخٌ مصنوعٌ من خشب الغابات الشمالية، وبات ألبير يصطحب بيرت كلّ سبت لصيد الجرذان التي اختارته مسكناً لها. وجب اجتذابها وتحطيم رؤوسها بهراوة حالما تمدّ أنفها خارج مكمنها. ثمّ حرق جثثها. وفي كلّ مرة، يكاد بيرت يفقد الوعي، فيصرّ أسنانه لكيلا يتقيّأ أحشاءه. ومهما ركض حتى نهر سانغين الذي يمرّ أيضاً بجوستون، لا يستطيع إزالة هذه الرائحة، رائحة احتراق الهوام والدم واللحم.

أثناء ليالي جوستون تلك، الخالية من القمر ومن الصمت، والمملوءة بنقيق الضفادع وبنشيد البحر الهائج، تخوض ليزا وإيلاييز صراعاً شرساً. فعندما يكون بيرت محموماً ويستلقي ملاصقاً لإيلاييز ويستعد للاتحاد بها، توجّه إليه ليزا الخارجة عن طورها ضربةً لعينةً أسفل ظهره، وتنتزع منه أيّ فكرةٍ عن المتعة. وعندما يتقوقع على نفسه ملتصقاً بكتف إيلاييز ليتحدّث متلعثماً عن كآبة أيامه، تدمي ليزا فمه بضربةٍ من مرفقها، فيقبع في العتمة لاهثاً. أحياناً، يصاب بالأرق فيخرج تحت الرواق. تقبض العتمة قلبه. وتدور حكايات المزارع التي غذّته بها تيودورا في رأسه، ولا يعود يثق بعينيه ولا بأذنيه. أهو صوت الغووكا(*) أم أنّه صوت أجنحة الحيوانات الطائرة؟ وهذا الضوء المتقطّع، هل هو ضوء وحشٍ ناري أم ضوء روحٍ ضلّت الدرب؟ ما الذي يقبع في قمة شجرة الكالنغا العطرية؟ فجأةً تأتي ثلاثة ضفادع، فيسارع وقد انقطع نفَسه إلى الداخل حيث أفرغ ألبير في جوفه كميةً من الروم الفلاحي لاختصار الوقت، فنام بعمقٍ وهو يشخر. لا يطمئنه هذا الضجيج فينتظر ظهور نجمات الصباح البيضاء.

.15

خلافاً لأبناء نيرفا، إحدى أخوات ألبير، الاثني عشر الذين ليس لهم أبٌ معترفٌ به، كانت لها ابنة اسمها ليتيسيا، أنجبتها من الطبّاع جان روبنتير، وهو نفسه ابن الطبّاع جان روبنتير. وبما أنّ زوجته لم تتمكّن من أن تجعله

(*) Gwoka: أسلوب موسيقي في غوادلوب أساسه هو الإيقاع، يدخل فيه الرقص والغناء، وُلد أثناء حقبة العبودية. وهو حالياً مكوّنٌ لا يستغنى عنه في إضرابات هذا البلد. [م].

أباً شرعياً، على الرغم من رحلتي حجٍّ إلى مدينة لورد (Lourdes) الفرنسية ومن أداء الصلاة التاسوعية عدة مرات في نوتردام دوغران روتور، فضلاً عن الأشربة والمناقيع المتنوّعة التي تصنعها من نباتات حديقتها، فقد تمسّك بليتيسيا مثلما يتمسّك المرء ببؤبؤ عينيه. وباستثناء اسمه، منحها كلّ شيءٍ وجعل منها في السادسة عشرة من عمرها طالبةً، كسولةً في الحقيقة إلى حدٍّ ما، في ثانوية الفتيات في لابوانت. ذات يومٍ كانت فيه ليتيسيا تتسكّع أثناء عودتها من المدرسة، غير مستعجلةٍ العودة إلى بيتها وسماع تبرّم نيرفا التي أخذ جسدها يأفل، صادفت فتىً قال لها: «اسمك أو سأموت!».

حثّت خطاها.

كان هذا الفتى، واسمه كميل ديزير، الأخَ الأصغر لمستشارٍ في البلدية وأستاذاً في المدرسة. وكان ماسونياً في محفل «مختارو الغرب» مثل أخيه وأبيه.

يعيّن زواجه بليتيسيا بداية توقّف الأعمال العدائية ضدّ سلَفي ألبير.

أُقيم العرس في المنزل الواقع في شارع فوبور دينري، فاحتلّ منذ ذلك اليوم مكانه بين المساكن البارزة في مدينتنا. إذ جمع لأوّل مرّةٍ في شخص أنسباء وأصدقاء آل روبنتير وديزير وجهاء معترفاً بهم، لديهم مقعدٌ في الكاتدرائية وقبرٌ في المقبرة. أتى ذلك بعد فوات الأوان بالنسبة إلى ألبير الذي صعد إلى مكتبه وأغلق بابه عليه. في الماضي، شكّل كميل ديزير في رأسه صورةً عن الشخص أساسها الافتراءات التي سمعها عنه، فلحق به إلى المكتب ووجده يشرب الروم من الزجاجة مباشرةً، وقبّة قميصه مفتوحة. والغريب أنّ صداقةً نشأت بين هذين الرجلين اللذين لم يكونا

يبدوان متلائمين بحيث يتفقان، واللذين تفصل بينهما سنواتٌ كثيرةٌ من العمر. استهلّ كميل ديزير منذ ذلك اليوم وظيفته كمرشدٍ يتلقّى الأسرار.

- أنا لست في مكاني بين هؤلاء الذين يدخّنون السيجار الكوبي وينمّقون كلامهم بالفرنسية ويتزوّجون النساء ذوات البشرة الفاتحة! أنا حبّة يام من غروس كاي (Grosse Caye)، سوداء كالأرض التي خرجت منها. أحبّ عرقي وأريده أن يدوم...

- أنا أيضاً لا أشعر بأنني مثلهم، مهما كان رأيك. أنا شيوعي. هل قرأت ماركس؟

لم يسبق أن سمع ألبير ذلك الاسم أبداً، ورأى نفسه ينصت دونما تصديقٍ إليه وهو يقول إنّ العرق غير مهمّ، لأنّ الطبقة وحدها هي المهمّة. هزّ رأسه بقوةٍ وقال: «لا، لا، لا! هم يكرهونني لأنّني زنجي!».

آذن ذلك الحديث ببداية مشادّاتٍ كلاميةٍ لا تنتهي بين الرجلين.

مؤقتاً، عمّدا صداقتهما الوليدة بالروم الفلاحي، ونزل كميل ديزير مجدّداً وهو ثملٌ تماماً لتسلُّم زوجته الجديدة. لكن ليس قبل أن يسمع خطاباً طويلاً عن ماركوس غارفي.

- كان ذلك الرجل يقول أشياء لم أسمع أحداً غيره يقولها. «*I shall teach the Black Man to see beauty in himself*». هل تعرف الإنكليزية؟ هل تعلم ما يعني ذلك؟ أنّ العرق الأسود جميل. أنّه عظيم. أنّه سيُدهِش العالم.

هزّ كميل كتفيه وقال: «ما الذي تهرف به؟ البروليتاريون من كلّ الأعراق هم الذين سينتقمون ذات يومٍ ويُدهِشون الكون!» (وهذا سجالٌ لم يُحلّ بعد!).

لم يتحمّل قلب تيودورا العجوز الفخرَ الناجم عن زواج حفيدتها برجلٍ لديه مثل هذه الذخيرة الفكرية، فاستسلم. بعد يومين من العرس، سقطت على سريرها ولم تتمكّن من الوقوف ثانيةً. أُصيبت إيلاييز بالذعر، فهمست تيودورا وهي تهمل تمزيق فمها باللغة الفرنسية:

- *Sé douvan zot kalé à pwezen. Mwen pé pati!*(*)

وانتقلت بابتسامة سعادة.

ظنّ الناس أنّ ألبير سيصاب بالجنون.

فهو الذي توقّف عن التوجّه بالكلام إلى تيودورا منذ زواجه، لأنّه لم يعد بحاجةٍ إلى تسليمها المصروف الأسبوعي، امتطى عندما توفيت صهوة حصانٍ واختفى مسرعاً. بحثوا عنه عبثاً في جوستون. ذرعوا الأكمات. صعدوا درب فيكتور هوغ(**) حتى سفح جبل سوفرير وهم يفتّشون كلّ شبرٍ من الأرض الخصبة أسفل السراخس الشجرية. أحرقوا حقولاً من قصب السكّر ليخرجوه منها في حال كان قابعاً هناك كدابّةٍ شريرة. وكانوا قد فقدوا الأمل عندما ظهر مجدّداً، بعينين حمراوين كالفلفل الحارّ ورائحة فمٍ تقتل الذبابة، وسط الأقارب والأنسباء والأصدقاء المرتدين ثياب الحداد اللائقة!

لأنّ إيلاييز تعرف رجُلها، أصرّت على أن يبقى التابوت مفتوحاً وأُغلق بحضوره. وقع على ركبتيه أثناء دقّ آخر مسمارٍ في النعش وغياب الوجه العجوز الطيّب إلى الأبد.

(*) «أنتم تمضون إلى الأمام. أريد الرحيل!».

(**) Victor Hugues: زعيم استعماري فرنسي حكم غوادلوب (1794-1798) ثم غوايانا (1799-1801) وشارك في تطبيق إلغاء العبودية في غوادلوب، ثم في إعادتها في غوايانا. والدرب المذكور هو دربٌ تاريخي واستراتيجي، يعبر كامل جنوب منطقة باس تير. [م].

لم يتنبّه أحدٌ لبيرت الواقف في زاوية، تحيط شارةٌ بكمّه اليمين.

آنذاك، كان المراهق يعيش حياته في وحدةٍ قصوى. فقد وضعت إيلاييز لتوّها مولودها الثاني، عمّ أمّي سيرج، وتوزّع وقتها بين رضاعات ماء الأرز لمنع الإسهال، ونثر دقيق المنيهوت لتجنّب الشّرى. لذلك لم يعد لديها وقتٌ سوى لملامسة جبهته بقبلاتٍ خفيفةٍ وعرَضيةٍ مثل الطيور الطنّانة المتوّجة.

وفي الثانوية، بما أنّ الأساتذة نادراً ما كانوا يسألونه، كان يمضي ساعاتٍ من دون أن يفتح فمه. لم يكن لديه صديقٌ واحد. أمّا جيلبير، فيذوي في مدرسته الداخلية في باريس، ولم تكن رسائله تعوّض غيابه، على الرغم من أنّها كانت من عشر صفحات.

لم يبقَ له سوى حضور المرأة العجوز المتولّهة باستمرار. وها هي ذي تتخلّى عنه أيضاً، ها هو ذا يصبح وحيداً.

وحيداً في العالم.

لذلك، حاول أن يتغلّب على النفور الذي يثيره أبوه فيه، وأن يقترب منه. يوم السبت، يقتل الجرذان، متحمّلاً الألم بصمت. وذات ليلةٍ عذّبته فيها ليزا أكثر من المعتاد، ذهب لاستنشاق الهواء على الرواق قرب ألبير الذي بدا غليونه محمرّاً في الظلمة. لم يلتفت ألبير إليه. لكنّ صوته انطلق بعد قليلٍ قائلاً:

– عندما تراني هنا أمامك، هل تعتقد أنّ في قلبي صخرة؟ هذا لأنّك لا تعلم ما مررت به! لقد قتلوا زوجتي، أمّك. قتلوا صديقي، أخي! من هم؟ البيض! إنّهم شياطين، لا تقترب منهم أبداً! لا تلوّث دمك أبداً بدمهم! آه! لقد كنتُ مثل زومبي! إيلاييز هي التي وضعت على لساني قليلاً من الملح

الصخري، فبدأت أتصرّف مجدّداً كالأحياء! أموال! أطفال! هل تدرس الإنكليزية في المدرسة؟ ترجم إذاً: *«I shall teach the Black Man to see beauty in himself...»*.

ثمّ نهض ألبير وترك بيرت مصعوقاً، متسائلاً ما إن كان الليل يخادعه! سارع ليكتب إلى جيلبير الذي ردّ من فوره:

«عزيزي بيرت،

لا أعلم من أين نبشت هذه الجملة. على كلّ حال، إنّها جميلة وذات دلالة. هل تريد أن نجعلها شعارنا؟

صديقك الذي يحبك

جيلبير».

لم يدم التقارب بين الأب والابن طويلاً.

فقد أتى سجالٌ ردّدت صداه الصحف بكثرةٍ، فأذكى جمر آمال ألبير وجعله فظّاً، لا يهتمّ سوى بنفسه. إذ كان المثقف الأميركي الأسود دوبوا، والنائب السنغالي بليز دياني، ونائبٌ غوادلوبي يتنازعون على الدعم الذي سيقدّمونه لأفكار ماركوس غارفي. ماركوس غارفي! هكذا علِم ألبير أنّ مثَله الأعلى لا يزال حيّاً، حيّاً يُرزق! لم يكن لكلّ ما تبقّى كثير أهمية، المؤتمر الإفريقي في لندن، بروكسل، باريس، سيول المديح المنهالة على النائب الغوادلوبي، «زعيم الفرنسيين السود» وهكذا دواليك. كلّ ما يهمّ هو المعلومة التالية: ماركوس غارفي حيٌّ يُرزق في نيويورك. ألحّ على كميل ديزير ليجمع مزيداً من المعلومات، بفضل صِلاته مع العالم السياسي، فأخبره كميل بأنّ غارفي يُصدِر صحيفة، بل إنّه حصل على عددٍ

منها، اسمها *The Negro World*، ويمتلك شركة ملاحةٍ يفترض بها أن تعيد جميع الزنوج إلى إفريقيا.

في هذه النقطة من المحادثة، رمش ألبير بجفنيه:

- إلى إفريقيا؟ لماذا؟!

رفع كميل ديزير عينيه إلى السماء:

- أليست الأرضَ التي أتى منها أسلافنا؟ إنّ السيّد غارفي خاصّتك، وقد سمعت أنّه ملهَمٌ خطير، ينسى بسذاجةٍ مرور ثلاثة قرونٍ، وأنّ مياهاً كثيرةً مرّت تحت الجسور!

في الحقيقة، لم يربك ألبير نفسه بهذه الاعتبارات كلّها. كان مجروفاً بسيل فرحه. يقفز كالطفل. كتب من فوره رسالةً شعريةً فياضة إلى ماركوس غارفي، مذكّراً إيّاه بأنّه تبعه في بنما، وحكى له عن موت أخيه، الموت الذي لم يُشفَ منه، واقترح عليه مساعدةً ماليةً لتحقيق مهمته المثيرة.

هل وصلت تلك الرسالة إلى صاحبها؟ الشكّ بذلك مسموح.

على كلّ حال، انتظر ألبير عبثاً ردّاً طيلة أسابيع، كان فيها وجهه، مع تتالي الأيام، أكثر غموضاً والهمهمات أكثر ندرةً وغير مسموعة. ذات مساءٍ استجمع بيرت قواه واقترب منه ليطلب منه مرافقته إلى جوستون، فضربه بحنقٍ بعكّازه وكسر قوس حاجبه. آنذاك، غضبت إيلاييز. وبعد أن وضعت على جبين بيرت الذي أصبح بوله دامياً جبيرةً صغيرةً من أوراق الفليفلة، سحبت فراشاً إلى غرفة الصبيان، حيث نامت أسبوعين. وفي نهاية الأسبوع الثاني، عاد ألبير من المتجر وهو يحمل باقةً من أزهار اللوف، بصمتٍ وجمود. فأجهشت بالبكاء وعادت إلى غرفة الزوجية. في تلك الليلة، حملت إيلاييز بشقيق جدّي: رينيه الذي لم يعش طويلاً.

.16

في هذه الأثناء، كان جدّي يعقوب في طريقه ليبلغ من عمره ستّ سنوات. كان صبيّاً صموتاً وشرساً، يخمش الخادمة ويدوس على ألعابه أثناء ممارسة أمه لوظيفتها في التعليم في دوبوشاج (Dubouchage). تعرّف الناس في سلوكه على طباع أبيه، ولم يجازفوا في أيٍّ من تلك المداعبات أو الكلمات المتصنّعة التي تقال للأطفال.

لشدّة قباحته، تساءل الناس من أين أتى بهذه القباحة! قبيحٌ وأسود. أسود مزرقّ مثل بعض البرقوق. وربما بسبب ذلك، بات المفضّل لدى إيلاييز التي كانت تغمر الوجه الصغير الخالي من الحُسن بين ثدييها وتدندن:

Ti Kongo à manman
Ola Ti Kongo an mwen?(*)

وفي المقابل، يزقزق الصبي الصغير ببيتٍ من الكلمات الحنونة وهو يمرّر أصابعه على عيني أمه وأنفها وفمها.

«ماما دودو حبيبتي كوكوت شوبولوت...».

.17

نجح بيرت بتقديرٍ جيدٍ في القسم الأول من البكالوريا العلميّة.

ذرفت إيلاييز كلّ دموع جسدها لأنّ تيودورا لم تشهد ذلك اليوم المجيد. آه، لقد قطعت سلالة تلك المرأة التي كانت تعمل في ربط الحزم

(*) «كونغو ماما الصغير/ أين كونغو الصغير الخاص بي؟».

شوطاً طويلاً، وتركت القصب بعيداً خلفها! لم يعد أحدٌ يلاحظ التضخّم غير الصحي لأكواخ الزنوج التي ساء وضعها بسبب بؤس الإنسان إلى درجة أنّ جوينات أشجار الكاذي لم تعد تستطيع تجميلها! ها قد أخذوا يرتقون بأنفسهم في مجال المسكن، يصلون إلى رأس الجبل الصغير! زنجي حاصل على البكالوريا! كم زنجياً حصل على البكالوريا في لابوانت، بل في غوادلوب؟ أوصت نيرفا على إقامة قدّاس أفخارستيا. ألبير نفسه كلّف إيلاييز بتسليم الحاصل على الشهادة ساعة جيبٍ ذهبيةً معلّقة بسلسلةٍ طولها خمسون سنتيمتراً وحُفرت عليها الأحرف الأولى: .J. H. A، في حين قدّم له كميل ديزير «الأعمال الكاملة» لماركس وإنجلز، بعد أن حرص على وضع خطٍّ أحمر تحت بعض المقاطع. لكنّ بيرت لم يفتح صفحات هذه المجلّدات الكالحة والمجلّدة بالورق المقوّى. والسبب هو جيلبير! كان جيلبير دوسان سنفوريان، الكسول الراضي الراسب في البكالوريا، يمضي العطلة في مونتيبيللو (Montebello) في بيت أهله الاصطيافي. تحدّى جيلبير أحكام العائلتين المسبقة، فعبر عتبة المتجر الذي تفوح منه رائحة سمك الرنجة المملّح والمدخّن وسمك القدّ المملّح، ليدعو بيرت إلى بيته، وانتزعت جسارة هذا الخلاسي الشاب النحيل الذي يرتدي زيّاً حريرياً فاخراً من ألبير زمجرةً سارع الآخر لتفسيرها بوصفها موافقة.

مونتيبيللو!

بزواج جيلبير دوسان سنفوريان، والد جيلبير، من أدرين غريسبان، الابنة غير الشرعية لصاحب مصنع السكر هياسانت دوبيلو، حصل في سلّة البائنة الكاريبية الخاصة بزوجته على اثني عشر هكتاراً من أرضٍ مزروعةٍ باليام، وعلى بيتٍ يقع عند التقاطع مع كارير. لم يكن جيلبير ينوي أبداً أن يبقى محتجزاً في معقل الخلاسيين هذا، وسرعان ما عبّر عن ذلك لبيرت،

الذي دُهش تماماً لأنّ السيّدة دوسان سنفوريان تغني مساءً وهي تعزف على البيانو الخاص بها، ولأنّ قريباتٍ عذراواتٍ ذوات شعرٍ طويلٍ ينمن في الكوخ، داخل تحويطةٍ محتشمةٍ من الناموسيات.

يتسلّل الصبيّان والقمر الساخر بعينه الوحيدة عبر باب المطبخ، مثيرين نباحاً تحذيرياً من كلابٍ من نوع الراعي الألماني. في منتصف الهضبة، يدير أومير حانة مشروبات حيث ينادي جيلبير كلّ شخصٍ باسمه:

- *Ti-Pol, saou fè?*(*)

أسفل الهضبة، فراش سيلوتا واسعٌ بما يكفي ليتقلّب عليه شخصان. في ضاحية بوتي بور (Petit-Bourg)، توجد زنجيةٌ سوداء اسمها ديليس، يصعق بظرها البركاني بدلاً من الحمم ماءً بحرياً حارقاً. بعد أن أخذ بيرت يتعافى شيئاً فشيئاً من إيلاييز، اكتشف موت المتعة الوجيز تحت سقفها الواطئ الذي تدوسه أمطار أيلول. وديليس تتذكّر!

- كان كحصان سباقٍ يبدأ في إدراك براعة عدْوه، أو كديك مصارعةٍ يبدأ في إدراك قوّة شوكات قائمتيه. أقول له: «ما هذا يا زنجي! هل تريد أن تقتلني؟ لقد صدحتَ حتى الآن ثلاث مرّاتٍ مثلما يصدح ديك القدّيس بطرس! دعني أنم!» لكنّه لا يوافق.

بين جولتين من الشرب والمضاجعة، يعظ جيلبير صديقه بجدّيةٍ أشبه بجدّية السكّير، فيقول له: «اللون لا يهمّ. لا يعني شيئاً ما إن كان المرء خلاسياً أو زنجياً! ما يجب كرهه هو البرجوازيات، الصغيرة والمتوسطة، أي طبقتك وطبقتي! كلتاهما تديران الظهر للشعب بالقدر عينه! والحال أنّه يجب العودة إليه، هو المفعم بالحكمة».

(*) «كيف حالك يا بوتي بول؟».

لم يكن بيرت يولي أيّ اهتمامٍ بذلك الوكيل الإعلاني. كان يكتشف بالكامل جسده، نسغه وهو يغلي في وسطه ويفيض في مصارعةٍ غاضبة، وليس في عناقٍ انفرادي وبارد!

في 15 آب، يوم عيد مدينة بوتي بور، ذرع المقدامان الشوارع، ورميا نبالاً في عين ألعاب الدقّة، وأزالا سدادات زجاجات الشمبانيا، ثمّ وجدا نفسيهما فجأةً، بين جولات الشرب والتبختر، في غراند سافان (Grande-Savane) يأكلان الماكادام(*) على أوراق شجر الموز المطلية بالريشة.

أثناء تلك العطلة، تركت ليزا لابنها راحةً ملَكية. سمحت له بأن يتجوّل بحيوية، وبأن ينثر بذاره، ويتصفّح كتاب «مقطوعات البيانو القيثاري الهادئة» الخاص بالسيّدة سان سنفوريان، ويحاول أن يكون ظريفاً مع القريبات. بقيت ليزا متسامحةً وهانئةً على نحوٍ مفاجئ، حتى لحظة وجوب انفصال الموتى عن أحيائهم، جالسةً قربه، تسهر على صغيرها الذي يشخر وهو مفعمٌ بالسعادة. دامت تلك العطلة في مونتيبيللو أربعة أسابيع بدلاً من أسبوعٍ واحد. وفي بداية الأسبوع الخامس، انتزعت حوافر حصان ساعي البريد نثراتٍ من الخرسانة في الدرب الطويل الذي تحاذيه أشجار جوز الهند. رسالة شديدة الصرامة من الأب تدعو الابن للعودة إلى المنزل. بعد مصارعةٍ أخيرة مع ديليس، استقلّ بيرت بحزنٍ آخر سفينة شراعية إلى لابوانت. على المرسى الصغير، أخذ جيلبير يحرّك منديله الذي يخترق بياضه العتمة. وصل بيرت ليلاً إلى شارع فوبور دينري، ووجد الخادمة تنام بعمقٍ على فراشها، لأنّها تستيقظ فجراً لتحضير القهوة.

صباح اليوم التالي، أخذ بيرت يصف لإيلايز وهو يشرب الشوكولا

(*) macadam: طبق كريولي أساسه سمك القد. [م].

متع تلك الأيام القريبة، لكن التي باتت بهذه السرعة بعيدةً وغير حقيقية، وكانا في غرفة الطعام تلك حيث تتبادل قطع أثاث هنري الثاني النظر بعداءٍ عبر أغطيتها؛ فجأةً، عبَر ألبير الحجرة وأعلن له من دون أن يتوقّف أنّه سيذهب للدراسة في مدرسة أنجيه(*) الصناعية. وقد وجد بيرت في انفعاله القوة على الكلام: «ألن أعود إلى الثانوية؟ لماذا؟!».

لم يتكبّد ألبير عناء الردّ.

في الخارج، ضمن جلبة الشارع الوليدة، بدأ الحديد المثبّت في كعبي جزمته يطرق. وبما أنّ بيرت الذي وصل هذه المرة إلى حافة التمرّد أخذ يبحث عن نظرة إيلاييز المنكّسة، فقد أدّت حركةً تنمّ عن العجز، وخرجت من الحجرة وهي تركض.

أعترف أننا هنا أمام لغز! لماذا قطع ألبير دراسة ابنه وقد بدأها بهذا التميّز؟ من الذي أدخل في رأسه فكرة مدرسة أنجيه الصناعية هذه؟

تعاقب جميع أفراد العائلة من الشجعان الذين يجرؤون على مواجهة نظرته على الذهاب إمّا إلى المتجر وإمّا إلى شارع فوبور دينري. تخلّى كميل ديزير عن ماركس وإنجلز، وشرح طيلة ساعات ما بعد الظهر لعدّة أيامٍ أنّ بيرت سيقدّم للعِرق خدمةً أفضل إذا حصل على القسم الثاني من البكالوريا. يستطيع أن يصبح طبيباً أو محامياً أو مهندس أشغالٍ عامة، أن يفتح مصراعي أبواب المدارس الكبرى، ويحتلّ على مقاعدها أماكن كانت حتى ذلك الحين ممنوعةً على الزنوج. ولم يكن ألبير، بجفنين مغمضين على عينيه الخاليتين من البريق، يردّ بشيء. كما أنّ ماروسيا، زوجة مارسيل، معلّم صنع الأشرعة في بورت لويس، لم تعترف بالهزيمة، إذ لطالما كان

(*) Anger، مدينة في فرنسا. [م].

ابن أخيها نقطة ضعفٍ لديها. ذهبت إلى مان ميليسا الذي حلَّ كثيراً من قضايا مارسيل المتشابكة، ولا سيما قضية دعواه مع نادٍ للملاحة. كان مان ميليسا قد أضاء من الشموع ما جعل الإنارة تشبه إنارة ضوء النهار، في غرفته ذات الأرضية المرشوشة بمياهٍ مباركة وجدرانٍ مملوءةٍ بصور مريم العذراء ويسوع الطفل وقديسته تيريز دوليزيو، وبدا على وجهه الضيق:

– يجب ألّا يرحل الصبي! إذا رحل، سيتعرّض للإعصار والغرق.

– ما العمل؟

نمَّ صوت ماروسيا عن الكرب. لكنّ ميليسا بقي هادئاً وقال: «شقيقك ذاك ليس زنجياً اعتيادياً. إنّه يتمترس داخل قوقعته مثل لامبي(*) ولا تستطيعين فعل شيءٍ حيال ذلك. لا شيء على الإطلاق! علاوةً على ذلك، هو حالياً يرتاب وينام وعيناه مفتوحتان كالضفدع! هل هنالك أحدٌ يحبّه؟».

قالت ماروسيا دونما تردّد: «إيلاييز!».

شاركت إيلاييز إذاً في السرّ. باتت تخلط بالوجبات والوجبات الخفيفة والقهوة والزهورات التي يتناولها ألبير مسحوق البابايا وقلوب الدجاج وألف مكوّنٍ آخر مكرّس لتليين طبعه. لكن لم ينفع شيءٌ من ذلك.

ففي 3 أيلول 1924، أعلم ألبير ابنه أنّه حجز له سريراً في الدرجة الثالثة على مركب شيربور الذاهب إلى ميناء هافر، وأنّه سيسافر في اليوم التالي.

في تلك الليلة، مارست ليزا السحر.

تعلّقت داخل إحدى نوافذ العلّية، ودوّى عويلها مثل شكوى الريح العظيمة فوق البحر. تحرّك القلقون في نومهم. هل ما يتحضّر إعصار؟

ثمّ نزلت إلى الطابق الذي ينام فيه الأطفال وغرست في قرعات

(*) Lambi: ملكة المحار. حيوان رخوي كبير تُستخدم قوقعته كبوقٍ بحري.

رؤوسهم كوابيس بلغ من فظاعتها أنّهم أخذوا يصيحون هم أيضاً ويبلّلون أسرّتهم حتى الوسادات. أخيراً، هاجمت غرفة ألبير وإيلاييز. إذ إنّها جُنّت بفعل الظلم الواقع على ابنها، وأصبحت هي أيضاً ظالمة، فأصابت إيلاييز البريئة بذلك المرض الذي سيفتك بها قبل أوانها بكثير، بعد أن أصبحت هشّةً واستنزفت دمها. ولم توفّر ألبير. غير أنّه لم يشعر بالانفعال، وذلك لاعتياده على الكوابيس والأرق الذي تعاوده فيه المخاوف القديمة والآلام الأزلية.

سمع جدّي يعقوب أكثر من غيره ذلك السحر الرهيب. لكنّه نسبه إلى تيودورا. فهو الذي عشق الجدة بات يخشاها منذ أن رآها منتفخةً في تابوتها بسبب النتن، وذقنها مربوطةٌ بشريطٍ قطني لأنّ فكّيها انفتحا عن أسنانها المصنوعة من ذهب غوايانا. تقوقع على سريره، لكنّ الملاءات المبلّلة بالبول التصقت بجلده، وانتهى به الأمر إلى الالتجاء إلى سرير بيرت، الذي كان يبلّل وسادته.

.18

تبدأ ذكريات جدي يعقوب حقيقةً مع عام 1928، عندما بلغ الثالثة عشرة من عمره. حتى ذلك الحين، مضت حياته حزينةً ككتابٍ من غير صور، من دون تقديم ما يغذّي ذاكرته. في الساعة السابعة إلا ربعاً، تناديه إيلاييز: «تي كونغو، انهض!».

فيقف ويتأكّد من أنّه لم يبلّل ملاءاته، لأنّ الخادمة وكي تجعله يشعر بالعار تعلّقها في مثل هذه الحالة على حبلٍ في الباحة، فيذوق طعم عكّاز أبيه، ثمّ يهبط ليغتسل بالماء البارد، ويصعد مجدّداً لارتداء الملابس التي

وضعها في العشيّة على كرسيٍّ، ويملأ محفظته بأولى الكتب التي تقع تحت ناظره. ثمّ تأتي محنة الفطور. فبخيمياءٍ يومية، تبدِّل نظرةُ أبيه شرابَ الشوكولا من ماركة يا بون بانانيا إلى عصارةٍ صفراويةٍ مقزِّزة، والخبز المضفور إلى عوارض من القرّاص تجعل سقف الحلق واللسان مثيرين للحكّة. أخيراً، يمسك بيد سيرج ويذهب إلى المدرسة التي لا يحبها البتّة، لكن على الأقل لم يكن ألبير موجوداً فيها. كان يعشق أمّه. لكن للأسف، بات لديه ثلاثة إخوةٍ قطّاع طرق! لذلك بات الاهتمام الذي تمسّ حاجته إليه محسوباً مثل شرائح الكعكة الرخامية في الوجبة الخفيفة. لذلك، وما إن تسنح الفرصة حتى يسارع للارتماء عليها وعيناه ممتلئتان بالدموع التي يستقيها من نبعٍ لا يدري ماهيّته، ويغمرها بالقبلات. في البداية، كانت تردّ عليه بمثلها. ثمّ تتكلّم بصوتٍ صارمٍ وتدفعه بلطفٍ قائلةً: «هيّا! يكفي الآن!».

لماذا يكفي؟ في حين أنّه لم يكن يحلم سوى بأن يضيع مجدّداً في لحمها، بالعودة ليسكنها ويقيم هناك، كجنينٍ أزليٍّ يرفض الحياة في هذا العالم!

في عام 1928، عندما كان في الثالثة عشرة من عمره، أتت ثلاثة أحداثٍ لم يستطع مطلقاً الفصل بينها، إذ اختلط الرعب والألم والقلق التي أثارها كلٌّ منها في قاع قلبه، وتسلّلت إلى طيّات دماغه. فذات صباح، ظهر ألبير في صالة الطعام ونظر إليه كما لو أنّه صرصورٌ على حبّة فاكهةٍ، وأعلن له أنّه لن يعود إلى المدرسة الثانوية.

ومثلما فعل بيرت قبل أربع سنوات، وجد القوة اللازمة ليواجه نظرته ويسأل: «لن أعود إلى المدرسة الثانوية؟ لماذا؟!».

بطبيعة الحال، لم يفُه ألبير بأيّ كلمةٍ، وواصل سيره نحو الباب الذي أخذ سيرج يبتعد عنه، بكلّ سرعة ساقيه الصغيرتين. خرج يعقوب ليحاول الحصول على تفسير، مسلّحاً بالجرأة التي يمنحها اليأس.

تحت سماءٍ ملبّدة بالغيوم المنخفضة، كانت ألواحٌ من الصفيح تلعب لعبة الطائرة الورقية، وتتبع بعضها بعضاً وهي تصيح: «يو هو». والبيوت الواطئة تقع على كعبها بعد أن فقدت غطاء رأسها. أمّا البحر المنبسط عادةً والذي يقطع آخر الشارع، فكان يحدّب ظهره كدابّةٍ غاضبة تخمش وتعضّ ذات اليمين وذات الشمال. بدأ مطرٌ جارفٌ يهطل. شعر يعقوب بالرعب وقد وصل الماء حتى حزامه، فعاد إلى المنزل وصرخ قائلاً: «أمي الصغيرة!».

وجّهت إليه الخادمة التي كانت تعلّق ملاءاته في الباحة الكلام بنبرةٍ مسمومة: *Kiteye trankil!*(*)

صعد الدرج بأقصى سرعة، ووجد إيلاييز وقد فتحت فوق رأسها مظلّةً في غرفتها التي يسيل ماء السماء من كلّ أطرافها، تضمّ إليها سيرج ورينيه وجان. تأوّهت قائلةً: «مات! مات! بيرت مات!».

تلعثم قائلاً: «بيرت!».

ازدادت قوّة نحيب إيلاييز شدّةً: «لقد منعني أبوكم من أن أخبركم بذلك! احلف لي، احلف لي أنّ ذلك سيبقى سرّاً بيننا نحن الاثنين!».

أجهش وقال: «كيف مات؟».

– حادث! حادث رهيب!

في هذه اللحظة، انهارت شرفة البيت وسُمع صوتٌ قويٌّ للصفيح، فأخذ الصغار يصرخون.

(*) «دعها وشأنها!».

صباح اليوم التالي (لكن هل كان ذلك صباح اليوم التالي؟)، أتت إيلاييز لتوقظه في الخامسة والنصف:

- تي كونغو، انهض! عليك أن تأتي معي إلى القدّاس لنصلّي لأجله!

أطاع المراهق.

كان مطرٌ خفيفٌ لا يزال يبلّل الشارع الممتلئ بالصفيح والألواح والحيوانات الميّتة. وعلى عرض الرصيف ثورٌ ملقىً أرضاً، ويجهد رجلان لرفعه باستخدام حبلٍ مربوطٍ بقرنيه.

نتج عن إعصار 1928 والمدّ البحري الذي تلاه ألفٌ وخمسمئة قتيل، وما يساوي ذلك العدد من المفقودين، وأكثر من عشرة آلاف مصاب. في بعض المقاطعات، لم يكن هنالك ما يكفي من الخشب للتوابيت، وبُحّ صوت الرهبان وهم ينشدون نشيد الموتى. نُصبت خيمٌ في فناء كنيسة سان جول، وكانت نساءٌ يرتدين أسمالاً رطبة يجهدن لتغذية أطفالهن. مضت إيلاييز من واحدةٍ إلى أخرى وقد اغرورقت عيناها بالدموع، لكنّ يعقوب علم بحدس الحب أنّها تبكي بخاصةٍ بسبب جرحٍ آخر. أمضى يعقوب وقت القدّاس وهو يتخيّل بيرت متيبّساً في تابوته. هل ربطوا ذقنه مثلما ربطوا ذقن الجدة ووضعوا قطناً في منخريه؟ من سهر عليه؟ كم شمعداناً يبكي زيته في أطباقٍ صغيرة؟ وأين وجدوا الروم؟ أشارت إليه إيلاييز بأن يتبعها إلى المائدة المقدّسة فلم يجرؤ على الرفض، على الرغم من أنّه في الليالي السابقة لعب طويلاً بقضيبه الصلب تحت الملاءات. أثارت رائحة عدم أهليّته غثياناً لديه، فأخذ ينتحب. أخطأت إيلاييز تفسير سلوكه، فضمّته إليها وقالت: «لا تبكِ! لقد مضى إلى السلام الأبدي!».

لدى الخروج من الكنيسة، كانت سماءٌ زرقاء بريئة تغطي لابوانت.

قبّلت إيلاييز جبين يعقوب وهي تهمس: «أقسِم على أنّك لن تتحدّث عن هذا كلّه لأحد!».

هزّ رأسه وتوجّه نحو المخزن. داوم بدلاً من جوليان، الموظّف الأول، الغاضب لأنّ ألبير رفض منحه زيادةً في الأجر بعد ولادة زوجته، وتنبّأ بأنّ ألبير سيموت ميتة الكلاب.

استعدّ يعقوب لكراهية العرين ذي الروائح القوية الذي يقبع فيه ألبير مثل عنكبوتٍ مخيف، مراجعاً دونما مللٍ دفاتر الحسابات. لم يكن يعلم أنّه أيضاً معبد إلهٍ سوف يصبح مولعاً به مثل ألبير، بل أكثر من ألبير: المال! ربّما لا تكون تجارة الرنجة والقدّ والزيت وشحم الخنزير والأرز والفاصولياء الحمراء والبازلاء المكسّرة أمراً مجيداً، لكنّها تدرّ المال. رزماً ورزماً من الأوراق النقدية التي ربّما تكون رائحتها سيّئة، لكن لا يهمّ! قريباً، بات يعقوب هو المعلّم الحقيقي، الرئيس، من يرفض الإقراض أو يقرّره، من يزجر الموظّفين ويسرّحهم من العمل. توسّعت سلطته. أصبح سيد اللاكو، واستهلّ عصره بطرد ستّ عائلاتٍ خسرت كلّ شيءٍ أثناء الإعصار ولم تعد قادرةً على دفع الإيجار.

ترافق تحوّل الابن مع تحوّل الأب. ها هو ذا ألبير وقد أصبح جسداً عجوزاً، لا يأبه بما يرتديه، لحيته مشعّثة، وحذاؤه موحل! هو الذي كان شديد العناية بشخصه!

لم يفُت الناس أن يلاحظوا ذلك التغيّر. متى بدأ؟

حكى موظّفٌ سابق اسمه جوليان، وهو بالتحديد ذاك الذي حلّ يعقوب محلّه، أنّ كلّ شيءٍ بدأ مع رسالةٍ تلقّاها ألبير قبل ذلك بسنتين تقريباً، وقرأها مراراً وتكراراً في مكتبه الضيّق قبل أن يسارع إلى الخارج

كما لو أنّ نملةً عملاقةً لدغته في كعبه! وصلت لاحقاً رسائل أخرى، فكدّسها في أحد الدروج من دون أن يفتحها.

لو أنّ أحداً سأل الأطفال، لكان لديهم هم أيضاً كثيرٌ ليحكوا عنه. ذات مساء، كانوا جالسين إلى المائدة من دون أبيهم، بعد نظراتٍ قلقة من أمّهم إلى ساعة الحائط. ثمّ دخل ألبير متأرجحاً عبر غرفة الطعام مثل شجرة صمغٍ على قناة الدومينيك، يتعامل مع مجاديف غير مرئية. هوى بعكازه دونما سببٍ على رأس يعقوب المسكين، وعندما نهضت إيلاييز في حركةٍ تنمّ عن احتجاجٍ كبير، صاح بوضوح: «كان حريّاً بي أن أقتله! قتله هو ما كان حريّاً بي فعله!».

ثمّ توجّه نحو الدرَج، وإيلاييز على أعقابه!

لم تهبط إيلاييز مجدّداً. كانوا قد أنهوا حساءهم الدسم تحت أنظار الخادمة، واستغلّوا ذلك، باستثناء يعقوب الذي أخذ يبكي ويفرك أثر الضربة على رأسه، لإحداث جلَبةٍ وإطلاق شتائم بالكريولية.

اعتباراً من ذلك اليوم، وبعد أن كان الجوّ العائلي ثقيلاً أصلاً، بات أشدّ ثقلاً. توقّف ألبير حتى عن الزمجرة. أصبح زومبي ضائعاً! لم تعد إيلاييز تغنّي وهي تفرك لهم رقابهم بكولونيا باي روم أو وهي تسرّح شعرهم. على العكس، كانت تتنهّد في كلّ وقت! بل إنّها باتت توجّه إليهم صفعاتٍ تؤلمهم أكثر بكثيرٍ من ضرب أبيهم المنتظم الشديد والمتتابع بالعكّاز.

اشترى ألبير سيارةً لإيلاييز في تلك السنة. ستروين C4 بنّية اللون مزيّنة بالكروم، لها مجموعةٌ من المصابيح ذات الأقطار المختلفة تشبه الطناجر الصغيرة على جانبَيْ أنف غطاء المحرّك الأفطس.

بدأت إيلاييز تستقلّ السيارة إلى الكنيسة بقيادة ابن أخٍ ماهرٍ في

الميكانيك. ثمّ وجدت أنّ ذهابها بالسيارة مع سائقٍ من أجل أن تصلّي إلى الله تباهٍ مفرط، فعادت إلى السير على قدميها تحت مظلّتها.

هكذا، أخذت السيارة C4 تصدأ. نسجت عناكبُ شبكاتها في زوايا المقاعد التي أخذ جلدها يخضرّ ويبيضّ بسبب العفن. أقام طائرٌ عشّه في البوق؛ وذات يوم، فُتح مصادفةً الصندوقُ الخلفي فوُجدت فيه قطّةٌ جعلته مسكناً لذرّيتها!

أنا شخصياً أماثل هذه الهدية، الأغلى ثمناً من الأوركيد أو من باقةٍ من أزهار اللوف، بتضرّعٍ أخرق. إذ كان لدى ألبير كثيرٌ من الأمور لتغفرها له زوجته.

القسم الثاني

.1

سنةً بعد أخرى، بات جدّي يعقوب زعيم آل لوي من دون منازع.

كان الناس يقولون: *I pi mové ki papayé!*(*)

وأكيدٌ أنّه كان أسوأ! فقد وضع حواجز من الخشب الرقائقي في حجرات اللاكو، فقسم كلاً منها إلى حجرتين، مضاعفاً بذلك عدد المستأجرين. كما سرّح موظّفي المتجر الثلاثة ليوظّف بدلاً منهم أحد أبناء عمته نيرفا، وهو رجلٌ تجاوز الثلاثين من العمر وأبٌ لخمسة أطفال، وأخذ يأمره من علياء سنواته الثماني عشرة! كما اشترى ستة هكتارات تحيط بالهكتارات التي يملكها ألبير في جوستون، وزرعها بالمحاصيل الغذائية، وأمر علاوةً على ذلك ببناء خصصٍ للأرانب وأقنانٍ للدجاج وحظائر للخنازير وزرائب للبقر، فلم تعد إيلاييز تحتاج إلى التزوّد بالمؤن من الخارج. أمّا الفائض، فكان يبيعه لفلّاحات جوستون ليبعنه هنّ أيضاً في أسواق غواياف (Goyave) وبوتي بور. كذلك، نجح يعقوب في جعل صنفٍ من الليمون الهندي القادم من الدومينيكان، مفعمٍ بالعصير وخالٍ من البذور، يتأقلم مع المناخ.

سُرَّ ألبير، وقد تولّى ابنه كلّ شيء، بإهمال نفسه بالكامل، فاحدودب

(*) «إنه أسوأ من أبيه!».

ظهره وبات يجرجر ساقيه، ونبتت حزمٌ من الشعر الأبيض في المنخارين والأذنين. وبعد أن كان يقضي دائماً عطلة نهاية الأسبوع في جوستون، بات يمضي معظم أيام الأسبوع هناك، وتذهب إيلاييز لملاقاته عندما لا تكون لديها دروس. لطالما كرهت إيلاييز الريف، تلك الليالي التي لا تنتهي وصخب المطر على الصفيح، وحفلات نباح الكلاب، وتلك البعوضات النهمة لمصّ الدم، العصيّة على دخّان اللحم المدخّن، والجرذان القارضة الشديدة البأس التي يُخرجها أبناؤها من مكامنها في كل الزوايا. وكرهت الريف بخاصةٍ لأنّها تشعر فيه بوجود ليزا أكثر مما تشعر به في أيّ مكانٍ آخر. إذ تنتقم ليلاً غريمتُها المهزومة نهاراً. تحوم في أوقات الوجبات. تدور في دوائر أصغر فأصغر فوق السرير، مفسدةً المتعة التي كان ألبير لا يزال يقدّمها بسخاء. انتظرت إيلاييز الضربة القاضية، ولم تُفاجأ عندما استيقظت ذات صباحٍ وهي تفقد دمها بكمياتٍ كبيرة. كان ألبير، المستيقظ قبل بزوغ ضوء النهار كعادته، يدعّم اليام. رفعت صوتها لتنادي أحد أبنائها، لكن لم يصدر عنها سوى أنينٍ قبل أن تغرق واهنةً في المحيط الأحمر حولها. قرابة الساعة التاسعة، ولأنّها لم تكن تتأخر في الاستيقاظ، استغرب يعقوب، فأتى ليفتح بابها مواربةً وسقط على ركبتيه.

تلك أولى حالات نزف إيلاييز الشديدة.

بما أنّ العائلة، وقد أصيبت في أعزّ ما لديها، لم تفعل سوى الأنين والنحيب والدعاء لله واستشارة الشامانات، فقد تولّت الممرضة جان لوميرسيه الوضع بتنفيذ وصفات الطبيب، مضيفةً إليها ابتكاراتٍ من عندها، لأنّها في الأصل من جزيرة ماري غالانت، جزيرة أوراق المداواة التي جعلت إيلاييز في غضون بضعة أسابيع تجلس ضعيفةً، لكن باسمةً، في كرسيٍّ هزّازٍ قرب سريرها. كان لهذه الممرضة ابنة وحيدة، اسمها

أولتيما، تيما، وهو اسمٌ جميلٌ لمن هي الأولى والأخيرة معاً في الولادة، تساعدها في مناوباتها وفي علاجاتها، شابّةٌ مستفِزّةٌ وصعبة، رفضت واحداً واحداً جميع الزنوج الصالحين الذين قدّمتهم لها أمها، فقال عنها الناس إنها لا تحبّ لونها. ذات يوم، كان يعقوب قرب أمّه وصدمه جمال تيما في صميم قلبه. تراجع على العتبة وبقي هناك يلهث تحت وطأة ذلك الألم الرائع والقاسي. لم يكن قد نظر قطّ إلى امرأةٍ غير أمّه، وفجأة أدرك أنّه سيموت إذا لم يمتلك تلك المجهولة.

كم كانت جميلة، جدّتي تيما! فلون بشرتها أسود ولمّاع، وشعرها كثيفٌ كغابة، تسرّحه على شكل ضفائر عريضة، مدهون بزيت الخروع، ومقلتاها تلتمعان بنار الوصولية والشهوانية. يقول الناس إنّها تزوّجت جدّي يعقوب من دون حبّ، بسبب حسابه في المصرف، والمخزن، واللاكو، والبيتين وهكتارات أراضي اليام في جوستون! صحيحٌ أنّ شكل يعقوب لم يتحسّن مع السنين، وأنّه كان سيّئ الهندام ويضع على رأسه قلنسوةً استعماريةً واسعةً، تقع على جذر أنفه، ويرتدي جزمة جندي!

من أجل تيما، بات هذا الشاب شبه الأميّ الذي لم يفعل في حياته سوى البيع بربحٍ خبيراً بالسجاد والتحف والستائر. راودته فكرة تقزيم شجيراتٍ وشجرات، وهكذا دخلت في أصصٍ ترابيةٍ نبتة عصفور الجنّة، ونبتة زهرة القشّ الإيطالية، وشجرة جاكرندا، متوهّجة ذات أزهار زرقاء باعه بذورها زنجيٌّ من غرينادا. وضع أوّل حمّامٍ في بيت شارع فوبور دينري، مختاراً بنفسه الصنابير على شكل حصان البحر، والبلاط الخزفي المصنوع بتدرّجاتٍ من لونٍ واحد. وهو أيضاً من حوّل المنزل الخشبي الصغير في شمال جوستون إلى بيتٍ للاصطياف لا يقلّ في شيءٍ عن بيوت البيض في سان كلود.

قبل ثمانية أيامٍ من الزفاف، أدرك يعقوب أنّه سينتقل مع تيما من مرحلة المحادثات الرخوة، على بعد خطوتين من جان لوميرسييه التي تغزّ إبرتها في غطاء الطاولة، وقبلة متقشفة على الخدّ في آخر اللقاء، إلى حميميةٍ مخيفةٍ بين ملاءتين. والحال أنّه لم يكن قد مارس الحبّ بعد، في حين أنّه بلغ التاسعة عشرة من عمره! ما السبيل للنجاح؟ لقد تمتّع غريزياً باحترامٍ للمرأة بلغ منه أنّ فكرة السعي للحصول على شيءٍ من الخبرة لدى عاهرةٍ لم تخطر مطلقاً على باله. هكذا صعد مرعوباً في عربةٍ ليقود تيما إلى جوستون. صهلت الخيول وهي تعبر جسر غابار، ورفعت ذيولها لتُفرغ طناً من الروث، ونهبت وهي تعدو الكيلومترات الاثني عشر. غاب تعالي تيما فارتمت لتلاصق يعقوب الذي شعر لأوّل مرّةٍ في حياته، وهو يتحكّم بالأحصنة ويهدّئ روع محبوبته، بأنّه كبيرٌ وقويٌّ وغير قابلٍ للهزيمة. في جوستون، وأمام السرير الهائل ذي القبّة، الذي أمر بنفسه بوضعه في أفضل غرفة، كادت تلك الثقة بالنفس غير المعهودة أن تتخلّى عنه. لكن ظهرت أم أربعٍ وأربعين وكأنّها تتمشّى في الناموسية، فاستفاد من هبّة رعبٍ جديدة لدى تيما ليعانقها. بعد ذلك، دمّر عذريّتها بقوة.

غداة العرس مباشرةً، تخلّت إيلاييز لتيما عن إدارة شؤون البيت، فباتت هذه الأخيرة السيّدة لوي الوحيدة، الحقيقية! وباستثناء إيلاييز التي عاملتها كأمٍّ لها، ضبطت شؤون المنزل. تعلّمت الخادمة أن تخفض نظرها وألّا تردّ. وتعلّم إخوة يعقوب ترتيب أسرّتهم وإفراغ النونية المهجعية الخاصة بكلٍّ منهم. كما تعلّم الأقارب والأنسباء عدم الزيارة إلّا بدعوة. هل هنالك حاجةٌ للقول إنّ المتمرّد الوحيد بقي ألبير؟ فقد كان يمشي بحذائه الموحل على الأرضيات المعالجة ويبصق عصارة غليونه في الزوايا، ويعرض

عضوه العضِل ليبول في الباحة. على الفور، اندلعت الحرب بين الكنّة وحميها، لكنّ الأولى تغلّبت على الدوام.

لم يكن زواج جدّي يعقوب وجدتي تيما سعيداً، لأنّ عدم اتفاقهما الجنسي أفسد كلّ شيء.

فما إن ذاق يعقوب تيما حتى ما عاد قادراً على أن يتركها بسلامٍ، لا في عتمة الليالي ولا في عزّ قيلولة النهار عندما لا تستطيع حصائر النوافذ منح ظلّ. أخذ يستكشف كلّ زواياها الخفية، يولِج في كلّ فتحاتها. وعندما يرفض عضوه نفسه الاستجابة بسبب تعبه، يستخدم اللسان والأصابع، متمايلاً على ذروة متعةٍ لم يكن قادراً على منحها. كان يرى جيّداً أنّه يُتعِب تيما ويزعجها وينهكها ويعظ نفسه. لكنّه للأسف يقع مجدداً في براثن رغبته مثلما يقع آثمٌ في براثن إثمه. بعد ستة أشهرٍ من الزواج، انتقم جسد تيما بطريقته من تلك الاعتداءات المستمرة، فطرد جنيناً. ولمرّتين أخريين، نزف دماً من بطنه، سميكاً وأسود، قبل أن تولد البنت الصغيرة المتمرّدة والفائقة الموهبة: أمي. أجرؤ على الظنّ بأنّ الحمل بها تمّ في لحظة سماح.

ثمة أمرٌ يدهشني عندما أفكّر في جدّتي تيما التي توفيت من دون أن أعرفها: أنّها لم تكن تعمل. فخلافاً لإيلاييز التي كان عليها في تمام الثامنة صباحاً أن تكون في غرفة صفّها في المدرسة، تضرب على المكتب بمسطرةٍ بحيث تجعل الصائحين يصمتون، أو توقظ النائمين قبل أن تجعل الطلاب يردّدون: «أسلافنا الغوليون»(*)، أو يسردون حكايةً سخيفةً أخرى من النوع عينه، ثمّ تعود إلى شارع فوبور دينري لمراقبة وجبة صبيانها قطّاع الطرق، وتعود في الساعة الواحدة تحت مظلّة، ولا تترك دوبوشاج

(*) Gaulois، نسبةً إلى بلاد الغال، أي فرنسا الحالية. [م].

إلا لحظة يصبح ميناء دارس بنفسجياً، كتلميذةٍ تحمل بفخرٍ رزمة الدفاتر التي يجب عليها تصحيحها وهي تراقب العشاء الذي تطبخه الخادمة -لأنَّ ألبير الذي لم يكن يأكل ظهراً كان صعب المراس وقادراً على إبعاد صحنه بعد تناول لقمة- وعملَ صبيانها الكسولين، لم تكن تيما تعمل. في هذه الطبقة حيث تحارب النساء بقوّةٍ لا تقلّ عن الرجال لتشريف العِرق، لم تكن تفعل سوى مضايقة خادماتها وإخوة زوجها وأمها، وتحارب حميها قبل أن تجلس على شرفتها وبين أصابعها عمل تطريز وهي تدندن:

راموناء حلمت حلماً رائعاً...

كانت حوريةً من دون ذيلٍ ولا ساقين. حوريةً لم تعد تسحر المارّة. حوريةً تقتل الوقت بطريقةٍ بائسة.

.2

لئن كان ألبير قد أبدى على الدوام نفوراً من يعقوب، ولامبالاةً كاملة تجاه سيرج ورينيه، فيبدو أنّه كان يكنّ الودّ لجان، آخر الصبيان، المولود قبل إعصار 1928.

كان جان وسيماً، وكان الناس يتساءلون من أين أتى بتلك الوسامة. يصيحون: «*Si sété an ti fi!*»(*).

لأنّه ورث عن إيلاييز عينيها بلونهما البنّي الفاتح، اللتين تترصّعان أحياناً بالذهب وتنفتحان على شكل لوزةٍ، تحت حاجبين بلغ من نقاء قوسهما أنّ المرء يعتقد بأنّ أمّه تنتفهما! وإلى ذلك، أظهر طيبةً غريبةً

(*) «آه لو كان بنتاً!».

في هذه العائلة التي قليلاً ما تمنح شيئاً! ألم يكن يحتفظ بالقطع النقدية الصغيرة التي تعطيه إياها إيلاييز وحتى ألبير ليشتري حلوى السينوبول(*) أو الكاليبيكي، ويمنحها لقعيدٍ يحذو الأحذية أمام محلّ «سعادة السيّدات»؟ في جوستون، وبدلاً من مطاردة الجرذان مع إخوته، كان يدخل أكواخ القرويين ويُفاجأ بأسمالهم وبتغضّنات وجوههم قبل الأوان وبخشونة جلد أيديهم. لذلك استثنى الفلّاحون الذين يمقتون عائلتنا هذا الدنيء الصغير الذي يجهد للتحدّث إليهم باللغة الكريولية، ويمرّر يديه على طبولهم الغووكا. وخلافاً لهم، كان ألبير يشعر بالغضب الشديد. وعندما يعود جان من تلك المجازفات، يلطمه بقسوةٍ ثمّ يربطه على وتدٍ في عين شمس الظهيرة. فيذوب الطفل عرَقاً، وترقص ذبابات ضربة الشمس أمام عينيه، ثمّ يعود إلى القرية بعد أن يذهب ألبير إلى اليام العزيزة على قلبه.

كان جان مدلّلاً أيضاً لدى يعقوب الذي يكبره باثنتي عشرة سنة تقريباً، كما لو أنّ صلةً مفضّلة تشكّلت بين الأقل حظاً والأوفر حظاً بين الإخوة. ليعقوب كان جان يحكي عن أحزان حياته كطالبٍ وعن أمجادها. كما حاول أن يجعله يشاركه قراءاته، لأنّه كان يلتهم كل شيء. وهو على وجه الخصوص من استفاد من أعمال ماركس وإنجلز الكاملة، مع الملاحظات المدوّنة على الهامش، هدية كميل ديزير لبيرت، التي أخذ الغبار يأكلها في إحدى الزوايا. لم يكن بين الشقيقين سوى غيمة واحدة، اختيار تيما التي كرهها جان بالفطرة إلى حدّ رفضه حمل ذيل ثوبها يوم الزفاف. بيد أنّ المشاعر بينهما بلغت مبلغاً جعلهما لا يتطرّقان أبداً لهذا الموضوع، ملتفّين بذلك على العقبة مثلما يلتفّ الملّاحون الماهرون على الرصيف الصخري.

(*) Sinobol (Snow-ball): مثلّجات أنتيلية.

ذات يوم، أتى جان لمقابلة يعقوب وأبرز له صورة: «من هذا؟».

فاجأ السؤال يعقوب الذي صاح قائلاً: «لكن هذا بيرت. أخونا بيرت!».

- أليس ابن الأم الصغيرة إيلاييز؟

أدرك يعقوب فجأةً، وقد ازداد شعوره بالدهشة، أنّ كلّ صور بيرت اختفت من أطرها، وأنّ اسمه نفسه لم يعد يُلفظ. قال بارتباك: «كلا، هو ابن زنجيةٍ إنكليزيةٍ عرفها الأب الصغير الكبير في بنما. مات في حادث».

- أيّ حادث؟

عند هذه النقطة من الحديث، أدرك الشقيقان سرّاً، شطبةً إرادية، قبراً طُمس عمداً تحت أطنانٍ من الخرسانة. تواعدا أن يتحدّثا عن الأمر في المساء مع والدتهما. لكن كان مقدّراً ألا يفعلا. ففي ذلك اليوم عينه، أُعيدت إيلاييز إلى المنزل على نقّالة. إذ وقعت في الرابعة من بعد الظهر أمام لوحها الأسود وبين أقدام تلاميذها المرعوبين خيطٌ من الدم القاني.

كان ذلك النزيف الثاني الكبير لإيلاييز. أمّا الثالث الذي حدث بعد سنة، فقد قُدّر له أن ينهي حياتها.

بعد النزيف الثاني، فتح أطباء - جزّارون، وهم يرطنون في ما بينهم، بطنَها، وقطعوا أعضاء لم تكن لها علاقة بالقضية. بعد النزيف الثاني، عادت بعنادٍ إلى درب مدرستها. لكنّ أيّامها كانت معدودةً وفي الصباح، كان رجالها الخمسة الذين لم يكونوا يجهلون وضعها يبتهلون كلٌّ إلى ربِّه كي يتركها لهم يوماً آخر، يوماً آخر.

في هذه الأثناء، لم تُضع أخوات ألبير الخمس، نيرفا وميريتا وساندرين وجيردا وماروسيا، دقيقةً واحدة. فنيرفا التي لم تعبر البحر يوماً، حتى للذهاب إلى ماري غالانت حيث تزوّجت إحدى بناتها، تعثّرت على سطح

المركب «ستيلا ماريس» وهي ذاهبةٌ إلى كاب هايتيان لاستشارة طبيب أعشاب شهير. واستغلّت ذلك للذهاب إلى بهوٍ معمّدٍ(*) وهناك قدّمت قرعاً مليئاً بآكلي الروح(**). أطاعت إيلاييز وسمحت بأن يجري علاجها، لكنّها لم تكن مخدوعةً أبداً، إذ كانت ابتسامة ليزا المفترسة تقبع باستمرارٍ على الزينات المعلّقة فوق السرير، مشيرةً لها بهزيمتها.

مثّل الموت المبكر لإيلاييز لوي، التي وُلدت باسم سوفوكل، وتوفّيت في الثانية والأربعين من عمرها، أكثرَ الضربات التي وجّهتها الحياة الآثمة لعائلتنا سفالةً.

عندما خرج ألبير من الذهول الذي أغرقه فيه طيلة أسابيع اختفاء زوجته، سلّم يعقوب، الابن الذي لم يكن يحبّه لكن الذي أرغمه على تقديره بفضل حماسته في العمل، تفويضاً بكلّ حساباته وأملاكه وذهب إلى جوستون.

لقد انتهت حياته، حتى إذا كان مقدّراً له أن يعيش عشر سنواتٍ أخرى.

.3

بعد أن أصبحت إيلاييز وليزا ميّتتين، تصالحتا واتفقتا على الاهتمام بشؤون عزيزهما ألبير.

في الصباح الضبابي، لأنّ ألبير لا ينام ويذهب منذ الخامسة صباحاً ليتبوّل على جذع شجرة الكانغا العطرية، تتناوبان على إذكاء النار

(*) معبد فودو Vaudou.
(**) أغذية مقدّمة كقربان لأرواح الفودو.

التي لم يكن ليعرف التحكّم بها. ثمّ تجعلان القهوة تسيل في آلة قهوةٍ قديمةٍ مصنوعةٍ من المينا الزرقاء، وتسخّنان الفطائر المصنوعة من دقيق الكاسافا(*) التي يضعها في علبةٍ معدنية، وتزيلان الحسك من سمك الرنجة المملّح والمدخّن. لم تكونا تؤنّبانه بسبب شربه مباشرةً من زجاجة فينيتو ليغراب بلانش. قليلٌ من الروم لم يؤذِ أحداً قطّ. بل إنّه أفضل علاجٍ للحياة. يشكرهما ألبير بإحدى زمجراته، ويتركهما تغسلان الكيلة والقصعة المصنوعتين من القصدير، ويذهب إلى العمّال الذين بدؤوا يتعرّقون تحت الشمس. ينظر إليه العمّال بانزعاجٍ وهو يقترب. فعلى الرغم من كونه يعيش على حسابهم، هو لا يتعامل بجدّيةٍ لا مع الفأس ولا مع المنجل. بل إنّه بالأحرى يلعب بالتراب كما الطفل، فيجبله ويمرّره بين أصابعه السوداء بقدر سواده، المكلّلة بأظافر أشبه بشظايا من الصوان، ويحفر فيه ثقوباً. كما يحبّ أن يغمض عينيه ويتلمّس البروزات أسفل اليام، ويقدّر وزن بطن القرع المسكي، ويرتشف ثمراتٍ من البرقوق الإسباني أو الكرز البرّي يجمعها أسفل الشجرة. قرابة منتصف ساعات الصباح، ينزل نحو نهر سانغين ويدخل في غابةٍ صغيرةٍ من الخيزران ويتعرّى تماماً. ثمّ يغتسل في المياه البطيئة من دون أن يلقي بالاً للعلقات التي تتجمّع فيها.

أحياناً، يراه طفلٌ يغامر بحثاً عن ثمرة تفاح الورد لإسكات جوعه وهو يعوم مثل كرةٍ من الخشب، فيهرب مرعوباً.

بعد أن يشعر ألبير بالبرودة، يصعد نحو المنزل. يجد طبق الميغان(**) بثمرة الخبز يذوب في القدر مع بعضٍ من الخنزير المملّح. لكنّه يترك هناك نصف ثمرة القرع التي ملأتها امرأتاه ويرضع مجدّداً من فم زجاجته،

(*) المنيهوت. [م].
(**) طبق أنتيلي.

ويذهب ليشخر بفمٍ مفتوحٍ على الرواق. يشخر ساعاتٍ متواصلة ويفتح عينيه مجدّداً عندما تتحرّك الخفافيش بحركةٍ متعرّجة بين السقف وشجرة الكابوك.

تبدأ الحياة الحقيقية مع حلكة الليل.

يثرثر ألبير وزوجتاه دونما كللٍ أو ملل، ويعترفون في ما بينهم بأمورٍ لم يبُح بها أيٌّ منهم للآخر، ويميطون اللثام عن أحلامٍ قديمة، تعفّنت لأنها لم تتحقّق أبداً. وبطبيعة الحال، ألبير هو الأكثر ثرثرةً من بين الثلاثة. لديه هواجس:

– اعتقدت أنني سوف أجعل الذهب ينبت. لكنّ دم أخي هو الذي سال. لذلك لم أعد أريد العيش حيث مات هو وعدت إلى دياري. دياري! ولأعثر على ماذا؟ لولا إيلاييز لعبرت البحر ثانيةً. ربما الزنوج أقل شرّاً في جامايكا أو في كوبا.

أحياناً، يهتاج ألبير ويتلفّظ بكلماتٍ لا معنى لها:

– هو! هو! ما الذي فعله بي؟ هو الذي افترضتُ أنه سيكون شجرة كابوك شيخوختي. كان يجدر بي أن أقتله! وأن أفعل ذلك يوم ولادته. كان يجدر بي أصلاً أن أتوقّع قتله لي! لقد سبق أن قتل أمّه!

فتسارع إيلاييز وليزا لتهدئته بجرعةٍ من فينيتو ليغراب بلانش. تمسك كلٌّ منهما بإحدى ذراعيه للقيام بنزهةٍ صغيرة، فترفعان رأسه نحو المجرّات: الكلب الأكبر والكلب الأصغر والثور والكركي والقاعدة والإكليل الشمالي والقيطس، لجعله ينسى أرضه. ويستحبّ ذلك، فتدفعانه إلى شاطئ فيار لرؤية لابوانت تضيء. أمّا سكّان جوستون الذين يسمعونهم وهم يعبرون ضاحكين ومثرثرين، فيرسمون إشارة الصليب على صدورهم!

أجل، كم خافوا من السوبارو، وكم من القصص حُكيت عنه! حمّلوه المسؤولية عن كلّ مولودٍ لم يتمكّن من التلاؤم مع العالم المرئي وعاد من حيث أتى، عن كلّ صبيٍ متهورٍ وقع من أعلى شجرة ليمون إسباني وتحطّم رأسه، عن كلّ مركب صيدٍ غرق في أعالي البحار مع صيّاديه! وهو نفسه موجودٌ في الضفدع الليلي والكلب الذي ينبح على القمر أو يتجوّل دونما حبْلٍ يربطه.

في كلّ مكان، كان في كلّ مكان! وليحتمي الخائفون، نصبوا في أركان الملْكية الأربعة مذابح للسيدة مريم، ملؤوها بالأزهار وبأوعية الماء المبارك.

في الحقيقة، لم تعذّب هذه السمعة السيّئة الثلاثي. فبعد أن باتت ليزا تتصرّف كما تشاء بغريمتها بشحمها ولحمها، استعادت ثرثرة شبابها ونكاتها. وبعد أن تدفع مع إيلاييز رَجلهما إلى النوم بفعل النزهات وجرعات الروم والأحاديث، تنخرط في سردياتٍ وافرةٍ عن حياتها في بنما. أمّا إيلاييز، البنت الوحيدة لامرأةٍ جديرةٍ بالتقدير، والتي انتقلت من وصايتها إلى وصاية ألبير، فتصغي بقليلٍ من الحنين. لم يكن هنالك كثيرٌ من الضحكات في حياتها هي!

وعندما يأتي يعقوب يوم السبت لدفع أجور العمّال الزراعيين، هو الذي لم يعد يستطيع تحمّل خسارته لأمّه، وبات يجترّ يوماً بعد يومٍ أفكاراً عن سمّ الفئران أو عن وقود التربنتين أو عن جذور المنيهوت، يستغرب شعوره بالخفّة، بل بما يشبه الفرح كما لو أنّ الميّتة أُعيدت إليه. أجل! كانت تحدّب ظهرها في لهب اللحم المدخّن. تعلّق نفسها بحبل الكانانغا العطرية. تثير جلَبةً مع المطر على صفائح السقف.

كانت في كلّ مكان. في كلّ مكان.

آنذاك يلتفت صوب أبيه، مندهشاً لأنّه لم يعد يشعر بالمرارة وبالحنَق في القلب. فيطيل البقاء في عذوبة جوستون ولا يعود إلا بعد انتصاف الليل إلى تيما التي تنتظره، متجهّمة.

أرغمته أمطار تشرين الثاني الغزيرة على البقاء في جوستون ليلتين، إذ لم يكتفِ الماء بإغراق حقول قصب السكر وجرف أشجار الموز والسيلان على الدروب والطرق، بل قطع أيضاً نصفي جسر غابار وأوقعهما في الأيكة الساحلية. جلس الأب والابن أمام طبق كولومبو بلحم الأيل والأرز المفلفل، أدهش طعمه يعقوب، وتحدّثا، وهو أمرٌ لم يحدث قطّ في الماضي. من تلقاء نفسيهما. خلا هذا الحديث بينهما من أيّ فظاظة. نعق ألبير قائلاً: «أنت تعتقد أنني زنجيٌّ مجرّدٌ من المشاعر. في صدري صخرة، أليس كذلك؟ هذا لأنني عندما كنت في عمرك، توقّعت أموراً لم تمنحني إياها أبداً الحياة، تلك المرأة المجنونة. أترى؟ لقد انتزعت مني بؤبؤ عيني الثاني. لحسن الحظ، هنالك الموت الذي يسدّ الفراغ...».

قال يعقوب متلعثماً في مجال الردّ: «وأنا، لطالما دُستَ عليّ. لم تتوقّف يوماً لتعلم ما إن كانت قدمك على جسدي تؤلمني. لحسن الحظ أنها كانت موجودة، تلك التي لم تعد هنا اليوم».

- أتقول لم تعد موجودة؟ انظر وراء الموت!

تكوّر يعقوب على نفسه لينام على سريرٍ متعفّن، لكنّ أحلامه كانت عذبةً إلى حدّ أنّه فتح عينيه من جديدٍ مشحوناً بمشاعر عنيفة. رأى بوضوحٍ تلك التي لم يتوقّف عن البكاء عليها، وقد عادت إلى جمالها، جالسةً قربه كما كان يحدث عندما كان في السادسة من عمره! قال متلعثماً: «أمي الصغيرة، هل عدتِ؟!».

ابتسمت قائلةً: «تي كونغو، ماذا تقول؟ أنا لم أرحل البتّة!».

.4

عندما قرّرت بيضةٌ أن تتشبّث ببطن تيما وأن تفقس، ذكراً أو أنثى، في أوانها في جحيم الأحياء، كانت إشاعاتٌ مقلقةٌ قد بدأت تجول في أوروبا، بل وتجد طريقها في غوادلوب. أخذ أناسٌ مطّلعون مثل كميل ديزير يلفظون كلمة «حرب» بصوتٍ مرتفع. سعى جان الذي كان يسمع ذلك كلّه إلى لفت انتباه يعقوب. لكنّ يعقوب لم يكن يولي اهتماماً إلّا ببطن تيما الذي بات يتكوّر أخيراً شهراً إثر شهر إلى أن شكّل جبلاً من الحقيقة تحت أثوابها الملتصقة بجسدها. طفل! طفل! تمنّى يعقوب أن يُرزق ببنت. بدايةً لأنّه منذ زمنٍ طويلٍ لم يرَ أحدٌ سوى الصبيان وهم يولدون في عائلة لوي، بمعدّاتهم المستقبلية المتينة بين الساقين! ثمّ لأنّ البنت الصغيرة، ولا سيما إذا كانت تشبه إيلاييز، ستمنحه الانطباع بأنّه يعيد الحياة لأمه، فيصبح أباً لتلك التي أنجبته.

لكنّ شائعات الحرب أصبحت أكثر دقّةً وتحوّلت إلى خبط جزمات. آنذاك، اضطرّ يعقوب إلى أن يوليها اهتماماً. أخذ يستطلع. فهم رأسه الماهر أنّه إذا غزا الألمان فرنسا، فلن يكون للجزيرة مصدر تموين. لن يعود هنالك زيتٌ أو سكّرٌ أو طحينٌ أو أرزٌّ أو مسحوق الشوكولا يا بون بانانيا. وعلى الفور، أخذ يخزّن، مشترياً احتياطيات مؤسساتٍ صغيرةٍ ساذجة. وفي الوقت عينه، كثّف إنتاج المواد الغذائية في جوستون، ولا سيما المنيهوت الذي يقدّم طحيناً جديداً، وأضاف السيزال والقطن والخروع. وبدءاً من ذلك الحين، بات الناس يرونه يترك زوجته الحامل منذ مساء يوم الجمعة ويجوب الملْكية مع عماله.

أكتب هذا كلّه لأشرح لماذا يحتلّ اسمه موقعاً متقدّماً ضمن «معاوني الله»، مثلما كان الحاكم سوران يسمّيهم!

«إنّ المارشال يكنّ لكم أيها المزارعون والفلّاحون أسمى آيات التقدير، لأنّه يعلم أنكم أنتم الذين ستصنعون مجدّداً فرنسا ثريّة، غوادلوب ثريّة.

هو يعلم مثلنا جميعاً أنّه إذا كان الله يجعل النباتات تنمو، فإنكم، بزراعتكم، تساعدون الله. [...]

معاونو الله، أيّ لقبٍ أجمل يمكنكم أن ترغبوا فيه؟!».

بدأت الحرب التي اندلعت بعد موت إيلاييز في تفكيك عائلتنا. حتى الآن، لم أتحدّث مطلقاً عن سيرج ورينيه. كانا شابّين صغيرين من دون مشكلات، يشقّان طريقاً إلى الثانوية وفي أسرّة النساء.

لكنّ سيرج أعلن أنّه من أنصار السلام، وانتقد بشدّةٍ حرب البيض تلك التي يموت فيها سود، في حين تبنّى رينيه أفكار لجنة برو باتريا(*) ورفض «روح الاستسلام». باتت الشجارات يومية، إذ يرتمي كلٌّ من الصبيّين على الآخر ويمسك به من عنقه ويعضّه ككلاب كوبا، بل يسعى أحياناً لطعنه بسكّين مطبخ. أمّا تيما، فتصيح وتهدّد بترك البيت بجنينها في حال لم تتوقّف هذه الفوضى.

ذات مساء، خرج رينيه من غرفته والتقى خلف شارع مورن لالوج بمجموعة شبّانٍ من عمره قرّروا الالتحاق بالجنرال ديغول. كان زورقٌ ينتظرهم في تروا ريفير ليقودهم إلى الدومينيكان، حيث يأملون في الذهاب منها إلى إنكلترا. كان هذا الرحيل سيفطر قلب يعقوب لولا حدثٌ آخر في الليلة عينها. ففي حدود الساعة الحادية عشرة، فقدت تيما مياهها

(*) Pro Patria (من أجل الوطن). [م].

قبل موعدها بعدّة أسابيع. هبط يعقوب الدرج بكلّ سرعةٍ لإيقاظ الخادمة وإرسالها لاصطحاب السيّدة مالانفان، القابلة. وعندما صعد مجدداً، وبسرعةٍ أيضاً، كانت بنتٌ صغيرةٌ تزقزق وتلعب بحبلها السرّي الملفوف حول عنقها ثلاث مرات.

تيكلا إيلاييز جان لوي، أمّي.

كان التعميد أشبه بالعرس. حتى بالنسبة إلى ألبير الذي ارتدى بهذه المناسبة، بنت، بنت! ارتدى أفضل ما تبقّى لديه من ملابس، وسرّح شعره وتعطّر ببقايا عطر جان ماري فارينا، ونزل مصحوباً بامرأتيه غير المرئيتين.

كان التعميد أشبه بالعرس، لكنّ العائلة لم تكن تعلم أنّ الموت، وسط كلّ هذا الفرح الكبير، مخبّأٌ في بطن تيما التي لن تلد أطفالاً بعد ذلك، وفي رحيل رينيه الذي سيكون نهائياً، بسبب موته أثناء عمليةٍ نفّذتها الـ SOE-F(*). كان التعميد أشبه بالعرس. فقد سالت شمبانيا بومري أنهاراً. ولأوّل مرة، عندما عادت تيكلا من الكنيسة وهي تمصّ بسعادةٍ وطمأنينةٍ ملح الحكمة الموزّع على شفتيها، ألقت تيما على زوجها نظرة امتنان.

كان التعميد أشبه بالعرس. شرب فيه الحاضرون ليتراتٍ من الشودو(**). شعر يعقوب بوجود أمّه المحبوبة في كلّ مكان، كما لو أنّها لا تزال متوّجةً وسط الطاولة مكان نيرفا، كما لو أنّها تغني بحنجرة ليتيسيا ذات الصوت العذب.

بعد ثلاثة أشهرٍ من هذا التعميد الجميل، وكان يعقوب يتعرّض لوصفه بالسخف، بسبب إعطائه الرضّاعة لابنته ووضعه البودرة على مؤخرتها

(*) هيئة العمليات الخاصة من أجل فرنسا.
(**) chohdo: مشروبٌ أساسه الحليب المنكّه.

وتغيير حفاضاتها وترقّب نومها، تلقّى رسالةً مسجّلةً من الحاكم سوران. إذ لفتت قدرته على الابتكار الأنظار في الأوساط العليا، فدُعي للانضمام إلى عدّة مستشارين عامّين للمشاركة في بعثةٍ اقتصاديةٍ ستذهب إلى نيويورك! أخذت الجزيرة تبحث عن أغذيةٍ بديلةٍ لحليب الوطن الأم الذي حُرمت منه! يعقوب عضواً في مهمة اقتصادية! يا له من تشريف! تشريف مفرط! كان في الرابعة والعشرين من عمره ولم يغادر بلاده يوماً إلّا للذهاب إلى الدومينيكان، وفي كلّ مرّةٍ اعتقد مع هيجان البحر أنّه سيسلّم الروح مع أحشائه! فضلاً عن ذلك، أرعبته فكرة انفصاله عن عزيزتيه تيما وتيكلا في أيام انعدام الأمان تلك. استعدّ إذاً لرفض العرض المغري عندما أقنعته تيما بالعكس.

ذهب بروح ميّتة، مستسلماً على مضض، ليعلن لألبير بأنّه ذاهبٌ إلى نيويورك تاركاً أثمن ما لديه تحت رعاية سيرج، الشاب الصغير ذي الاثنين وعشرين عاماً، الميّال إلى التسكّع والمولع بالنساء. فاستعاد ألبير قدرةً على الكلام غير المقيّد والمسموع، وهي قدرةٌ لم يلحظها ابنه لديه يوماً.

- أنت ذاهبٌ إلى نيويورك؟ ستسلّم إذاً رسالةً من طرفي إلى ماركوس غارفي. لديه مكتبٌ هناك! هل تعلم من هو ماركوس غارفي؟

صمت يعقوب الذي لم يكن قد سمع ذلك الاسم، فقال والده بالفصاحة عينها: «إنّه أعظم زنجي على مدى الزمن! ليس هنالك اثنان، ليس هنالك ثلاثةٌ مثله!».

ثمّ سارع إلى المتجر المشرب، «الخطايا السبع الكبرى»، حيث كاد فلّاحون أن يرسموا إشارة الصليب على صدورهم عندما رأوه يشتري ورق رسائل ومغلّفاً. يجب الاعتراف بأنّ الأمل والإخلاص ملتحمان في

قلب ألبير! ورآه يعقوب، وهو لا يزال تحت وقع الذهول، يرسم خطوطاً عرضانيةً كبيرة من الكلمات البهيجة وغير المترابطة على ضوء المصباح الذي يتصاعد منه دخان «الوقود الأنتيلي».

«عزيزي الغالي ماركوس غارفي،

لن أراك بعد الآن بعينيَ شخصٍ على قيد الحياة. لكنّ ابني سوف يسلّمك هذه الرسالة وسيستطيع الاستفادة من دروسك الرائعة بأفضل ممّا قُدّر لي. لم أفعل شيئاً بحياتي. لكنّني مثلك، فخورٌ بعرقي. أؤمن بعرقٍ أسود صافٍ بقدر ما يؤمن أبيض يحترم نفسه بعرقٍ أبيض صافٍ. لهذا شعرت بالجرح حتى القلب. أنا حالياً أعيش كشخصٍ متوحّش، أنا أبكم، أنا أصمّ. لقد عدتُ مجدّداً المودونغ، السوبارو الذي كانت تضحك منه. لكنني لا أزال أؤمن بأنّ عِرقنا سينتقم من كلّ الإهانات التي لا يزال يتعرّض لها كلّ يوم. أنا أعلم أنّ التاريخ الذي سنبنيه سيُدهش العالم».

(لا أمتلك نصّ هذه الرسالة، لكنني أستطيع بسهولةٍ تخيّل محتواها).

لدى عودة يعقوب إلى لابوانت، حكى لجان عن ماركوس غارفي الذي لم يكن الفتى قد سمع به أبداً، على الرغم من اتساع معلوماته. وقد برع هذا المتصيّد الصغير حقاً. قصّ مقالاتٍ من صحفٍ ماتت أو على وشك الموت، سأل أشخاصاً أكفياء مثل كميل ديزير، حبس نفسه في مكتباتٍ عامةٍ وتمكّن من إعادة رسم المسار التراجيدي واللافت لذلك الرجل العظيم.

– لقد أراد أن يعود الزنوج كافةً إلى إفريقيا...

فقال يعقوب بهلع: «إلى إفريقيا؟».

أجاب الأخ الأصغر بنبرة العارف: «أليس من هناك أتى أهلنا؟ لقد انقسم الأنتيليون بشدّةٍ حوله. اقرأ هذا المقال الذي يمتدحه كثيراً وكتبه شخصٌ يُدعى أدولف ماتوران! وهذا الذي كتبه أندريه بيتون الذي يستلهم أفكاره! لكنّ كانداس وساتينو حارباه. أمّا الشيوعيون!».

بدا ذلك كلّه شديد التعقيد ليعقوب الذي شغلت ذهنه أمورٌ أخرى! لمن سيوكل إدارة المتجر في غيابه؟ من سيقبض إيجارات اللاكو، وهو ما كان يفعله بنفسه كلّ أسبوعٍ بوجهٍ مغلقٍ كباب سجن، لتجنّب التشكّي ومحاولات تحريك العواطف؟ من سيراقب عمل العمّال الزراعيين في جوستون؟ وماذا لو مرضت مدلّلته الصغيرة؟ تخيّل يعقوب الطفلة وجرّاحون - جلّادون يُعملون مشارطهم فيها... وبخاصة، من سيعتني بقبر إيلاييز الذي يزوره كلّ يوم كيفما كان الجو، فيبدّل ماء أوعية الزهور، ويقطع الطرف الرخو من سيقانها، ويحرص على رونق باقات مسك الروم الدرنيّ والياسمين الهنديّ واللوف والزنبق؟

تقع مقابر غوادلوب على أبواب المدن، وهي عبارةٌ عن مدنٍ للموتى تسهر فيها على المتوفّين الكزوارينة، وهي أشجارٌ متهدّلة جميلة. هناك، يتنافس المرمر والزجاج والخرسانة المبيّضة بعناية. على المدافن، توضع أحواض نافورة أو صلبانٌ أو تيجانٌ من اللآلئ. وعلى جوانب صور المتوفّين، تُوضع شُعلةٌ دائمةٌ يرمز لهبها العنيد والهشّ إلى حبّ الأحياء لهم.

كان قبر إيلاييز جديراً بملكة.

لذلك أمضى يعقوب الأسابيع السابقة لسفره وهو قلق. نعم! من سيعتني به في غيابه؟

.5

«مدينة التناقضات، طهرانية وإباحية، صورة مزدوجة لأميركا متحضّرة ولقارّةٍ متوحّشة، الشرق والغرب: على بعد ثلاث خطواتٍ من فخامة الجادة الخامسة، ها هي ذي الجادة الثامنة، قذرة ومحطّمة. ترمز نيويورك إلى أميركا ونصف سكّانها أجانب.. نيويورك كبيرة، وهي جديدة، لكنّ أميركا كلّها كبيرة وجديدة. الجميل جدّاً في نيويورك، الفريد حقّاً، هو عنفها. وهو يجعلها نبيلةً ويلتمس لها الأعذار، يجعل المرء ينسى فظاظتها. لأنّ نيويورك فظّة، وهي أقوى وأغنى وأكثر جدّةً من أيّ شيء، لكنّها عادية. عنف المدينة هو في إيقاعها».

بالتأكيد، ليس جدّي يعقوب هو من كتب ذلك. هذا النص لبول موران، وهو كاتبٌ فرنسي زار نيويورك في عام 1930.

ها هي ذي رسالة يعقوب إلى تيما:

«غاليتي تيما،

وفدنا يقيم في فندق أمباسادور في بارك أفينيو. الأكل فيه جيّد جداً.

نيويورك مدينة كبيرة جداً ونظيفة جداً. لقد صحبونا لزيارة المحرقة المركزية في زاوية الشارع السابع والخمسين والجادة الثانية عشرة، وهي تحرق كلّ يومٍ أطناناً من النفايات وحتى كلاباً ضالة. أيّ مشهدٍ مرعب! غداً سنزور قسم الشرطة. لقد صدمني ارتفاع ناطحات السحاب. قولي للأب الصغير بأنني لم أسلّم رسالته بعد، لكنني لن أتوانى عن ذلك.. أفكّر في تيكلا وفيكِ ليل نهار.

زوجك المحبّ».

بمجرّد أن وضع المستشارون العامون أقدامهم في المركب الذي كان من المفترض أن يقودهم إلى روزو التي سينطلقون منها على متن سفينة إس إس كاتالينا نحو أميركا، وكانوا رجالاً ناضجين عمراً وذوي بشرةٍ فاتحةٍ وكروشٍ وأصحاب نياشين، أفهموا هذا الرجل الضعيف يعقوب لوي، ابن ألبير الزنجي ذي السمعة السيّئة، بأنّه ليس واحداً منهم. أثناء الوجبات، لم يتوجّهوا إليه بالحديث. تركوه يلعق الحساء ويأكل الهليون من الطرف العريض ويقطع المعجّنات بيديه. وتجاهلوه عندما تظاهر بأنّه يدخل في الحرز الذي يمثّله المشرب حيث يحتسون بتلذّذٍ البورتو وهم يربّتون على سيجار الهافانا. نقّب المسكين يعقوب في ذهنه بحثاً عن السبب: «لماذا؟ لماذا يعاملونني ككلبٍ في لعبة بولينغ؟ هل لأنني أسود؟ هل نسوا أنّ أمهاتهم أو جدّاتهم كنّ سوداوات؟ هل لأنني غير متعلّم؟ لكنّ حسابي في المصرف يعادل حسابهم!».

شقّ الغضبُ وبداية تمرّدٍ طريقهما في ذهنه. وأخذ يتخيّل نفسه هو يذرع سطح التنزّه وظهره مقوّسٌ وقد وضع يديه في جيبيه ويوجّه لهم توبيخاً عنيفاً، لكنّه لم يتلفّظ به.

صباح اليوم الرابع، كشف المحيط عن أنيابه وقفز واهتاج في كلّ الاتجاهات، وبات يعقوب منشغلاً بتشنّجاته وغثياناته بحيث لم يعد يفكّر في شيءٍ آخر. وصل مفكّكاً إلى المرسى تسعين، أسفل الشارع الخمسين على مرمى حجرٍ من تمثال الحرية المخيف الذي تجنّب أن يرفع نظره نحوه.

في الحقيقة، لم يكن المستشارون العامّون ذوو الكروش والنياشين قد رأوا أبعد من أنوفهم، وقد ارتكبوا خطأً كبيراً عندما بخسوا شأن هذا

الزنجي الشاب ذي الهيئة المعتادة تماماً. فبسبب رحلات يعقوب العديدة إلى الدومينيكان، والتي قادته إليها مزارع الحمضيات التي يمتلكها، أتقن الإنكليزية، فبات الوحيد القادر على الاستغناء عن مترجم. فضلاً عن ذلك، تمتّع بحسٍّ فطريّ بصدد الصفقات التجارية. اختفى خرَقه أمام سعادة سفير فرنسا نفسه، عندما وجب مطالبة المنتجين الأميركيين بصفقات بيعٍ طويلة الأجل بالدَّين، وللجزيرة بإغاثةٍ بالمواد ذات الضرورة القصوى. فلولا فظاظته وعناده، لفشلت تلك البعثة!

خارج الأوقات التي انشغل فيها يعقوب بمناقشة الأعمال، عاش إقامته حرفياً كأنها حلم. إذ توقّع كلّ يومٍ أن يفتح عينيه مذهولاً، فيجد نفسه ملتصقاً بتيما، مقدّماً الرضّاعة إلى تيكلا، أو وهو يخسر في لعبة ورق ضدّ جان. كم ودّ لو يشرك أهله في الانبهار الذي تدفعه إليه نيويورك بدلاً من الرسائل التافهة التي يرسلها إليهم! لكن لوصف نيويورك، يجب أن يكون المرء فنّاناً موهوباً في حين أنّ يعقوب ليس سوى صاحب متجر! كيف يمكن وصف ناطحات السحاب بسيقانها الطويلة العصبية، تضرب السماء بحوافرها الحجرية، وعمارة الجسور المعدنية الزرقاء الطافرة فوق الأنهار المروّضة، وأحصنة رجال الشرطة ذات الحركة الدورانية المتزامنة، وأسمال المهرّجين التي يرتديها المتسوّلون، وهذه الكثافة من الأشجار غير المعروفة في الحدائق العامة؟ وهو الذي لم يعش حتى ذلك الحين إلّا في تجمّعٍ من عشرة آلاف نسمة كان خائفاً، متوتّراً بشدّةٍ بسبب هذا السيل الغاضب من الرجال والنساء الذين يمرّون ويدورون حوله فيجرفونه، هو القشّة البشرية، إلى اتجاهاتٍ لا علاقة له بها. كان صخب المدينة المتواصل يصمّ أذنيه، فيتراءى له دائماً بتلذّذٍ أنّه في خطر أن يُسرق ويُسلَب ما لديه ويُغتال ويُترك هنا، عائماً في بركةٍ من الإسفلت المائع.

ذات يوم، ضاع في شوارع تحفّها بيوتٌ من الخشب الأحمر والوردي والقرمزي والأخضر التفاحي، وتحتمي شرفاتها البارزة بشرفاتٍ مسقوفةٍ ذات حواف مفرّغة. ابتسم له بغموضٍ رجالٌ ذوو عيونٍ مبطّنة وشعرٍ طويلٍ مزيّت، وأشاروا له إلى بسطاتٍ من الأعشاب والفواكه ذات الروائح القوية. ذكّره ذلك بصورٍ رآها عرَضاً في مكتب والده. بعد ساعةٍ من التساؤلات (إلى أيّ أميركا مدهشة وصل؟) انتهى به الأمر إلى الحديث مع صبيٍّ كشف له وهو ينزع عنه قبعته بأنّه في المدينة الصينية.

عاد إلى هناك مرّاتٍ عدّة، إذ سحره البلد مثلما سحر أباه قبل سنواتٍ وتحت سماءٍ أخرى من دون أن يدرك ذلك، كما لو أنّ الدم يحمل صفات الأسلاف. كان يشرب بسرعةٍ فنجاناً من الشاي في «التنّين الذهبي» ويقرفص في زوايا الشوارع للنظر إلى اللاعبين وهم يحرّكون برصانةٍ بيادق على شكل أحصنةٍ مجنّحة على ألواحٍ صغيرةٍ من الخشب المذهّب.

وفي منتصف الأسبوع الثاني من إقامته، اصطدمت أصابعه في أسفل محفظة وثائق بالرسالة التي سلّمه إياها ألبير.

١١٤ غربي الشارع 138. لم يكن يعقوب قد غامر بالصعود إلى هذا الحدّ. غرق في قطار الأنفاق وتعثّر على مدى ممرّاتٍ لا تنتهي، وصعد ونزل أدراجاً، وعاد إلى ضوء النهار في ساحةٍ باردة، تمتلئ بالأوراق الوسخة ويتدفأ فيها بائسون بالشمس.

يا إلهي! أيّ أميركا جديدة يتعرّف عليها هنا؟

لم تكن قذارة المكان هي التي خنقته، ولا هذه الهيئة من البؤس والإهمال، الثقيلة كدخّان مصنع. ما خنقه هو أنّ كلّ تلك الوجوه، رجالاً ونساءً، شيوخاً وأطفالاً، ذات لونٍ مماثلٍ للونه، كما لو أنّها وضعت لاستقباله أقنعةً مناسبة. لكن أيّ أقنعة! مفترسة، ساخرة، فظّة، يائسة!

لئن كان وجود السود في نيويورك، من صبيان المصاعد إلى بوّابي الفنادق، ومن ماسحي الأحذية إلى بائعي الصحف المتجوّلين، ومن باعة أربطة العنق خلسةً في مظلّةٍ إلى سائقي سيارات الأجرة، قد صدمه منذ وصوله، لكنّه لم يكن مستعداً للصدمة التي يتلقّاها هنا، في قلب هارلم.

سرّع خطوه.

وجد الشارع 138 شرياناً كريه الرائحة، تقوم بمهمة الحراسة فيه في عزّ النهار ناطحات سحابٍ من القمامة. في الطابق الأرضي من البناء رقم 114، أشارت لوحةٌ إلى *U.N.I.A*(*). طرق يعقوب بخجلٍ الباب الذي فُتح من تلقاء نفسه على عملاقٍ حجبت عينيه نظّاراتٌ سوداء وشعره مشدودٌ بمستحضر تمليسٍ جيد، استمع إليه بصمت، ثمّ أجهش بالبكاء وقال وقد أصابه فواق:

- *Marcus just died, man! In London!*(**)

.6

لم يسبق أن نظر يعقوب أبعد من أنفه الذي يحنيه على صناديق سمك الرنجة المملّح وبراميل شحم الخنزير، أو على أرض مزارعه التي يجب تعشيبها، عندما لا يرتجف ولَهاً وهو ينظر إلى ابنته وزوجته. اكتشف أنّ ملايين البشر يعيشون في أميركا، انتُزع أسلافهم مثل أسلافه من إفريقيا لجعل الذهب ينمو. أجهش بالبكاء وهو يسمع قصص التعذيب والإعدام

(*) Universal Negro Improvement Association (الجمعية العالمية للنهوض بالزنوج).

(**) «ماركوس مات قبل قليل، يا أخي! في لندن!».

من غير محاكمة والفصل العنصري، وأيضاً وهو يتبع المسيرة الطويلة من المزرعة إلى الغيتو التي خاضها إخوته، أولئك الإخوة الذين اكتشفهم مؤخراً. جميع أولئك الزنوج الذين حُرقوا أحياء وشُنقوا وقُطعت رؤوسهم وجُلدوا وقُطعت أطرافهم حرموه النوم، فبات يستيقظ صائحاً في ساعات الصباح الأولى. كان الأخ بِن، العملاق ذو النظّارة السوداء والشعر المملّس، والذي تبيّن أنّه أعذب الرجال وأكثرهم أخويةً، يستغرب وهو يجفّف عرق كوابيسه: «أيّ ثقبٍ هو بلدك بحيث لا يخبركم أحدٌ بهذه الأمور؟».

فيتنهّد يعقوب: «صدّقني، لا يخبروننا سوى بمنعطفات نهر السين وبياض ثلج جبال الألب الناعم...».

خلافاً لسلَفي ألبير، لم تراود جدّي يعقوب رغبةٌ في كتابة مذكّرات. غير أنّ تحقيقاتي سمحت لي ببعض الاكتشافات.

فغداة زيارته إلى الشارع 138، غادر فندق أمباسادور. صعد المستشارون أصحاب الكروش والنياشين من دونه في مصعد تمثال الحرية، وإلى أعلى مبنى إمباير ستيت لرؤية نيويورك من علٍ. فقد تشارك مع الأخ بِن وأخيه الصغير الذي يجعل الكوكائين منخاريه أبيضين مستودعاً مليئاً بالكتب، وأخذ يعقوب الذي لم يتجاوز قبل ذلك تصفّح جريدته المحلّيّة يفكّ رموز خطابات ماركوس غارفي، بمساعدة قاموسٍ لفهم الكلمات الصعبة. أحياناً، ينام أثناء تلك القراءة الصعبة ويجده الأخ بِن فوق كتابٍ مفتوح وهو يشخر مثل دوّامة بلبل، فيوقظه ويؤنّبه بقسوة: «أنت هنا، تنام، وفي هذه الأثناء أعداء عِرقنا لا ينامون! لقد قتلوا ماركوس، يا رجل! علينا تلقّف الشعلة! وأنت هنا نائم!».

عدا ذلك، ساد التفاهم بين الأخ بِن ويعقوب وكأنهما أخوان تغذّيا من نبات القنا الهندي عينه. تبع يعقوب الأخَ بِن إلى كلّ أشكال الاجتماعات والمظاهرات والمسيرات والاحتفالات التذكارية، حيث تدور مناقشاتٌ لا تنتهي حول إساءات البيض.

– عندما يتعلّق الأمر بالدفاع عن أميركا، يكون دمنا أحمر بما يكفي! أمّا في بقية الأوقات، فنتعرّض للقتل في كلّ تقاطع طرق.

تعلّم يعقوب كيف يتلذّذ بأطباق الجريش والكرنب الأخضر وعراقيب الخنزير(*) التي يحبها بِن، بل إنّه أدخل في لغته الإنكليزية شيئاً من الخنّة الأميركية.

عندما لاحظ بِن النظرات التي يوجّهها يعقوب إلى النساء، أخذه إلى لويز، وهي أختٌ في الشارع 147، ليست شديدة التطلّب من الرجال. لكن عندما زمجرت لويز بأنّ يعقوب شديد السواد والقباحة، قدّم لها هذا العمل الجنسي بوصفه مفيداً للعِرق. وعلى الرغم من أنّ يعقوب لم يتجرّأ يوماً على التفكير بأنّه سيضع ذات يومٍ قرنين لمحبوبته تيما، فقد وجد نفسه زانياً في لمحة بصر. نعم، لقد جعلت هذه الإقامة في نيويورك من يعقوب زنجياً جديداً.

أمّا أنا، فيسرّني هذا الهامش الاعتراضي في حياة جدّي، هذه النفحة من الهواء في زنزانة وجوده الخانقة. تسرّني هذه النافذة التي فُتحت للحظةٍ على الخارج. لكنّها للأسف أُغلقت بسرعةٍ كبيرة. غير أنّني متأكّدة من أنّه احتفظ بذكرى رؤيته خلسةً لهذا المربّع من السماء، من دون أن يحكي عنه قطّ لأحد.

(*) أطباق عزيزة على السود في جنوب الولايات المتحدة الأميركية.

كان المستشارون العامّون ذوو الكروش والنياشين أوّل من لاحظوا تحوّله. فيوم الرحيل، رأوه يظهر دون أن يعلموا من أين، محاطاً بوفدٍ حقيقيٍ من زنوج هارلم الذين خرقوهم بنظرات ازدراء. بعد أن عانق واحدٌ منهم يعقوب، تلفّظ بعبارةٍ لم يفهموا منها كلمةً واحدة، لأنّهم لم يحرزوا أيّ تقدّمٍ في معرفتهم باللغة الإنكليزية أثناء إقامتهم التي دامت اثني عشر أسبوعاً. لم يكن هنالك ما هو مشتركٌ بين راكب سفينة «إس إس بورتسموث» وذاك الذي سافر في رحلة الذهاب على متن «إس إس كاتالينا». يمرّ بهم من دون أن يقول لهم صباح الخير أو مساء الخير. يجلس منفرداً على طاولةٍ بعيدةٍ عن الطاولات الأخرى، مستغرقاً في القراءة. وحتى عندما لعب المحيط لعبته وأظهر أنيابه، بقي متماسكاً وشديد الفخر، متجوّلاً على سطح النزهة. وثاني المتنبّهين كانوا آل لوي الذين حضروا جميعاً باستثناء ألبير الذي لم يأتِ لاستقبال ابنه، منتصبين كجدارٍ أسفل سلّم السفينة. نزل بخطوةٍ عسكريةٍ غير معهودة، وهرس أصابع جان في مصافحةٍ جديرةٍ بملاكمٍ هامساً: «كم من الأمور لأحكيها لك يا أخي الصغير!».

أمّا تيما التي نامت متقشّفةً وهي ترتدي قمصان نومها المطرّزة، فقد وجب عليها أن تبتهل إلى الله كي يقصر تعذيب الليالي. لكن لتعويض رفضها وصدّها وإهمالها الجامح، اتّخذ عشيقةً اسمها فلورا لاكور، زنجية جميلة حمراء، أمينة صندوق في متجر «سعادة السيّدات»، أسكنها في بيته ذي الأثاث المصنوع من خشب البلوط الكائن في شارع فاتابل.

بعد مدةٍ وجيزة، تمكّنت لابوانت وغوادلوب بأكملها من إدراك هذا التحوّل. وبالفعل، أخبرتهم شائعةٌ بأنّ يعقوب لوي يؤسّس حزباً سياسياً. حزب نهوض الزنوج.

- حزب نهوض الزنوج؟ Ka sa yé sa? (*)

لا ينصّب المرء نفسه كشخصٍ سياسي، بل يولد في عائلةٍ تعاملت منذ أجيالٍ مع الكذب والخديعة الانتخابية. تعرف كيف تملأ صناديق الاقتراع ببطاقات انتخابٍ لموتى. تعرف الحيل. من يحسب يعقوب لوي هذا نفسَه؟

يجب الاعتراف بأنّ برنامج هذا الحزب كان غائماً إلى حدٍّ ما. فقد اختُصر بعبارة ماركوس غارفي الشهيرة: «*I shall teach the Black Man to see beauty in himself*»، وتُرجمت في رأيي بطريقةٍ سطحيةٍ كما يلي: «سأعلّم الأسود أن يرى أنّه جميل». في الواقع، كلّ ما كان يفعله هو استعادة كلمات ليجيتيموس أثناء خلق الثالث الرهيب(**).

عندما علم ألبير أنّ ابنه ينوي الانخراط في السياسة، خرج مرّةً أخرى من تقاعده وظهر في المخزن بشعرٍ ولحيةٍ مشعّثين ورائحة الكحول تفوح منه: «لا تفعل ذلك! لا تفعل ذلك! إنّهم يكرهوننا! لم يغفروا لنا مغادرتنا مزرعة القصب. هم يريدون رؤيتنا فوق عربةٍ تجرّها أبقار، والسوط في يدنا. سوف يمرّغونك بالقاذورات مثلما فعلوا بي!».

هزّ يعقوب كتفيه.

(*) «ماذا يعني ذلك؟».

(**) إشارة إلى هيجيزيب ليجيتيموس Hégésippe Légitimus، أحد قادة الطبقة العمّالية في الحزب الاشتراكي في غوادلوب. ساهم في تعزيز وعي طبقة العمّال عبر استخدام التصنيف الطبقي والعرقي في النظام العبودي والاستعماري نفسه. بهذا الشكل، يكون «حزب السود» بالضرورة حزباً عمّالياً لأنّ السود هم الذين يشكّلون الطبقة العمّالية، الطبقة الفقيرة. وقد أسّس مع الاشتراكيين الأوائل «حزب السود»، بحيث يكون «الحزبَ الثالث الرهيب» بين «حزب البيض» و«حزب الخلاسيين». [م].

بطبيعة الحال، أصاب ألبير. فقد كان الهجوم على يعقوب شرساً ومعمّماً. شنّت عليه الصحف التابعة لكلّ الأحزاب، على اختلاف آرائها، حملةً مسعورة. لكنّ الشيوعيين هم من نالوا السعفة. فقد غمس شخصٌ يُدعى سيليوس سيليوس ريشته بالحقد والنقد اللاذع، واصفاً بدقّةٍ اللاكو الذي تُستغَلّ فيه العائلات المحتاجة وتُطرد لأدنى تخلّفٍ عن الدفع دونما مراعاة. وذكر عدد رهون العاملين في المتجر والعمّال الزراعيين في جوستون. بل مضى إلى حدّ مقابلة خادمةٍ طردتها تيما بسبب ردودها عليها ونقَل كلماتها: «جلدهم وحده هو الأسود. إنهم أسوأ من البيض».

ولتتويج مقالته الافتتاحية، تظاهر بأنّه نسي أنّ عمّ أمّي رينيه ذهب إلى الانشقاق(*) وأنّ آل لوي يدفعون «دَين الدم» لفرنسا. تذرّع بوجود يعقوب في الوفد الاقتصادي إلى نيويورك، فوصف العائلة بأكملها بأنّها «من أتباع فيشي» و«متعاونة مع الألمان».

في السينما - المسرح «ريالتو»، حذّر النائب المعروف ساتورنان فيلكوست من مزوّدي الإمبريالية بالأموال، وأنهى خطابه الناري بالكلمات التالية:

«أيها الغوادلوبيون، أيتها الغوادلوبيات، أظهروا استحالة أن تنخدعوا بالتصريحات الكاذبة وأن تؤمنوا بالأوهام. أعيدوا مهرّب شحم الخنزير هذا إلى موازينه المغشوشة من نوع روبيرفال!».

بدأ يعقوب بالصمود، فواصل عقد الاجتماعات المتتالية، حتى عندما لا يكون في الصالة سوى نحو عشرة متطفّلين يسخرون منه. وهو لم يكن

(*) الانشقاق Dissidence في الأنتيل وغوايانا الفرنسيتين، تيّارٌ استمرّ من حزيران 1940 إلى تموز 1943، رفض فيه الأهالي الانضمام إلى نظام فيشي والتحقوا بفرنسا الحرة. [م].

خطيباً مفوّهاً، كما هو متوقّع. لم يكن يثق بذاكرته. لذلك كان يقرأ بالكامل خطاباته(*) المكتوبة بعنايةٍ بالحبر البنفسجي على دفاتر مدرسية.

لم يفقد الأمل إلا بعد حادثة كابيستير. فأثناء خروجه من الصالة التي استأجرها للمناسبة، ولم يكن فيها سوى جان ونحو ستةٍ من المشاغبين الشباب، وجد نفسه وجهاً لوجهٍ مع جمهرةٍ صغيرةٍ بدأت ترميه بالحجارة. كاد أحدها أن يقلع عينه اليمنى. وأصاب آخر الخدّ الأيمن، فسال دمه على قبّته المزيّفة. كما سقط ثالثٌ على بطنه وبقره، فوقع ووجهه على الوحل، في حين هرب مهاجموه بشجاعةٍ بفضل حلكة الليل.

في هذه المرة، فهم الدرس. ركن جانباً أفكاره الجميلة، وترك تيما تؤنّبه: «واصِل إن كان ما تريده هو الموت! إن كان ما تريد تركه لي هو طفلة من دون أب!».

في غضون بضعة أشهر، بات ذا جسدِ عجوزٍ بقدر أبيه إلى درجة أنّ الناس كانوا يخلطون بينهما عندما يرونه من بعيد. أخذت بزّاته الرسمية تصبح واسعةً عليه أكثر فأكثر. وبدا جبينه متعرّقاً على الدوام تحت قبعته الأزلية ذات الطراز الاستعماري. لم يعد يهتمّ سوى بجني المال، المزيد من المال دائماً، وبإغراق عزيزته تيكلا بالعطايا.

بعد مدّةٍ وجيزة، أنجبت له فلورا لاكور صبيّين، لكنّ قلّة اهتمامه بالحدث كانت تدفع الأم المسكينة إلى التأوّه قائلةً:

– *A pa té la pen!*(**)

لم يشتكِ قطّ، ولم يفتح قلبه لأحد. لكن علم جميع الذين التقت نظراتهم بنظراته بأنّ حلماً كبيراً غرق في هذه المياه!

(*) لم أجد أيّاً منها.

(**) «لم يكن الأمر يستحق العناء!».

.7

لم تكن معاناة جان أقلّ من معاناة يعقوب.

فقد تغيّر بالكامل طبعه المرح، بعد أن أطفأه موت إيلاييز واختفاء رينيه من دون وداع. وعدا كتبه العزيزة على قلبه، لم يعد ثمّة من يحادثه سوى يعقوب، الذي تنقضي أحياناً أسابيع من دون أن يقول كلمةً واحدةً بصوتٍ مرتفع. كانت تسليته الوحيدة تتمثّل في السير مباشرةً إلى بادوفور (Bas du Fort) والسباحة بعنفٍ حتى جزيرة غوزييه، فيصل إليها باثنتي عشرة دقيقة وثلاث عشرة ثانية. هكذا أخذت عضلاته تستطيل وتكبر: جسد رياضي!

ذات صباح، دخل المتجر وقبع في المخبأ الذي يراجع فيه يعقوب دفاتر حساباته سطراً سطراً.

- اسمع، أريد الانتساب إلى دار المعلّمين. أريد أن أصبح معلّماً!

رفع يعقوب أنفه واحتجّ قائلاً: «معلّم! لكنّك الأوّل على صفّك! ستنال شهادة البكالوريا في غضون بضع سنوات، وسوف...».

قاطعه جان: «لا أريد نيل شهادة بكالوريا. أريد أن أصبح معلّماً».

وأمام أمارات الدهشة على وجه يعقوب، شرح أخوه الأصغر: «لا أريد أن يفعلوا بي ما فعلوا بك! أريد أن أعيش بعيداً، بعيداً عنهم في مدينةٍ صغيرة، في بلدة، في قرية...».

لم يقل يعقوب شيئاً آخر، ومسح ماء عينيه.

بعد أربع سنواتٍ إذاً، بعد أن انتهت الحرب من دون أن تعيد رينيه، توجّه جان إلى غران فون ليمانغل (Grands-Fonds-les-Mangles)، وهي قريةٌ في غراند تير، تقبع وسط حقول قصب السكّر مثل صخرةٍ في

المحيط. لم يكن الفلّاحون يحبّون المعلّمين البتّة. غير أنّ ذلك المعلّم بدا شاباً ووسيماً إلى درجة أنّهم تبنّوه. ساعدوه في ترقيع صفيح سقفه وتنظيف خزّانه وقتل الحشرات التي تملأ فراشه. بل إنّهم منحوه إحدى بناتهم، أنابيز، وكان ثدياها قد برزا للتوّ، وتنبعث من جلدها رائحة القرفة. وتدبّر جان الذي لم يكن يفقه شيئاً بخصوص الفتيات أمره بحيث يفعل ما هو مطلوبٌ منه. بعد مدّة، اجتلب بطن أنابيز تكهّنات:

– *Sé an ti fi!*(*)

كم بات جان يحبّ ذلك الريف الجاف وذا الصدى مثل جهاز تنصّت! لم يكن المطر يهطل فيه مطلقاً، حتى في تشرين الثاني عندما يفيض البلد كلّه.

في اليوم الأول من العام الدراسي، جمع طلابه الأربعين، بأنوفهم التي تسيل وشعورهم التي احمرّت بفعل الشمس، وقال لهم: «يجب أن تعلموا بأنني لا أعرف شيئاً. لذلك أتيت لأتعلّم منكم ما تعلّمتموه ممّن يقدّمون لكم الشراب والطعام! هؤلاء هم من يعرفون...».

يا لها من مزحة! تبادل الأطفال في ما بينهم نظرات التعجّب. لكنّهم لاحظوا بعد مدّةٍ غير طويلةٍ أنّ معلّمهم مؤمنٌ بما يقول. وشيئاً فشيئاً، باتوا يسرّون له بكلّ شيء.

في البداية بأشياء مادية. كيف يُصنع الزيت والصابون من جوز الهند. كيف يمكن نصب كوخٍ باردٍ لكنّ الماء لا يتسرّب إليه باستخدام عصيٍّ قصيرة. كيف يجعل اللوف الجلدَ ناعماً. كيف يزيل زيت الخروع تشابك الشعر، وكيف ينير من دون أن يصدر عنه دخان. كيف يُضفر نجيل الهند ليصبح سلالاً. ثمّ تلك الأشياء السرّيّة التي يكاد المرء لا يتلفّظ بها وتنتقل

(*) «إنها بنتٌ صغيرة!».

بخاصةٍ عبر النساء، الأمّهات والجدّات وأمّهات الجدّات والأجداد! التضميد أو المعالجة، أو الإصابة بالأمراض! وبالموت أيضاً!

أخذ جان يكتب هذا كلّه، ويضيف دفاتر المئة صفحة إلى دفاتر المئة صفحة(*).

سرعان ما لم يعد الأطفال يتحدّثون بصيغة «يُقال»، بل أخذوا جان إلى المنبع: أكواخ أهاليهم. فيجلس جان أرضاً ويأكل طبق الميغان مباشرةً من القصعة المصنوعة من القرع، وينظر عن قربٍ إلى تلك الوجوه المتشقّقة التي حفرها البؤس، لكن البالغة الجمال في نظره. يكتب كلّ يومٍ رسائل يصف فيها سعادته ليعقوب، الذي يبقيه في لابوانت حرصُه على جمع المال وحبّه لتيما وتيكلا.

السلام. الفقر. الفقر. السلام.

ذات يوم، كان جان عائداً من جوَين لابورد على صهوة ملشيور، الحمار النعسان الذي أعطاه إياه والد أنايز، بعد أن سبح، متفوّقاً في السباق على زورقَيْ صيدٍ تركهما بعد ذلك ينطلقان نحو أعالي البحار. فجأةً في تقاطع طرق، أخذ ملشيور ينهق وجمح، فرماه أرضاً. نهض جان وكان سيؤدّب الدابّة حانقاً، عندما رأى فتاةً تجلس القرفصاء تحت شجرة مانغا، خلاسيةً حقيقيةً فاتحة اللون بضفائر شقراء تتراقص تحت قبعتها، وحلقات من النمش تحيط بعينيها الملوّنتين بألوان قوس قزح. لقد دُرّب جان على تجنّب الأشخاص ذوي البشرة الفاتحة إلى درجة أنّه كان سيزمجر، بفعل حسن تربيته، بتحيّةٍ وجيزة قبل أن يمتطي مجدّداً حماره، عندما انقضّ عليه شيءٌ داخله وأرغمه على النظر إلى الفتاة مرّتين، وكبّل قدميه وقبضتيه.

(*) هذه الملاحظات هي أساس الكتاب الذي طبعه الكاتب على حسابه وعنوانه: «غوادلوب المجهولة».

سمع نفسه يتكلّم قائلاً: «نهارك سعيد يا جميلة! في أيّ اتجاهٍ تذهبين؟ هل تريدين أن أقرّبك من هدفك؟».

ردّت ببرودٍ شديد: «امضِ في طريقك! لم أسألك شيئاً!».

اعتباراً من هذا اللقاء، لم يعد جان كما كان. لم يعد يطرح أسئلةً على التلاميذ، ولم يعد يجتمع بأهاليهم. فما إن ينتهي دوام المدرسة حتّى يقفز على ظهر ملشيور ويختفي في حقول قصب السكّر. وفي الصباح، بعد أن تصيح الديوك في أقنانها بوقتٍ طويل، يظهر مجدّداً بعينين محمرّتين من السهر. باتت أنابيز التي لم تعد تعرف رجُلَها تبكي بحرقةٍ وتطلب رأي أمّها التي تنصحها بالصبر. دامت الأمور على هذا النحو عدة أسابيع، ثمّ ظهر ملشيور مجدداً عصر ذات يومٍ ستتذكّره أنابيز طيلة حياتها، وهو يحمل على ظهره سلّةً كاريبيّةً هائلة الحجم، محشورةً بين جان وفتاةٍ عرفتها بذهول! إنّها ماريتا، ابنة ماريو!

ماريو رجلٌ أبيض لا أحد يعرف عنه شيئاً، ولا حتى ما إن كان فرنسياً أم إيطالياً أم إنكليزياً! قال بعض الناس إنّه قتل شخصاً في بلده، وقال آخرون إنّه نهب مصرفاً ويختبئ مع أديليا، زوجته التي لا بدّ أنّ دماً زنجياً يسري في عروقها إذا ما حكمنا عليها من نوعية شَعرها. ممَّ يعيش الزوجان؟ كان الأمر موضع تساؤل! إذ يمضي ماريو معظم وقته متمدداً في أرجوحةٍ شبكيّةٍ وقدماه أعلى من رأسه، وإلى جانبه أديليا. رُزقا بطفلين يربّيانهما كالقطط المتوحّشة: أديليو، صبيٌّ غاب عن الأنظار ذات صباح (قيل إنّ ماريو أرسله إلى بلده)؛ وماريتا، وهي فتاةٌ يحلم جميع الرجال بها، من مول (Moule) إلى جوين برتران.

يميّز زواج عمّ أمّي جان بماريتا، إذ إنّه تزوّجها في الكنيسة، شرخاً في

جدار اللون الذي كان يحيط بعائلتنا. فقد نزل آل لوي واحداً بعد الآخر من بطون أمهاتهم بكلّ تدرّجات اللون الأسود. غير أنّ ماريتا أضافت إليهم الحمر والخلاسيين الشقر المجعّدي الشعر، وحتى خلاسياً لديه سماتٌ من جدّه ماريو.

عندما علم يعقوب بزواج أخيه، أنزل باستعجالٍ الغلَق الحديدي للمتجر ووضع تيكلا قربه، ثمّ ذهب إلى غران فون ليمانغل (كان قد اشترى قبل وقتٍ قصيرٍ سيارة سيتروين لمجد محبوبته تيما). أمسك كلٌّ من الأخوين بيد الآخر وفق عادةٍ عمرها عشرون عاماً، ومشيا دونما هدفٍ محدّد. فجأةً، كسر يعقوب الصمت: «إيّاك أن تهين أنابيز! إذا أهنتها.. فكأنّك.. تهين.. أمّنا!».

أومأ جان برأسه موافقاً.

في الحقيقة، لم يقتل ماريو أحداً. لكنّه بكلّ بساطة نظر ذات يومٍ إلى العالم من حوله ووجده قبيحاً، بثراتٍ تنزّ قيحاً. فاشترى قارباً وأرسى في باراماريبو (Paramaribo) حيث انتزع أديليا من ماخور. ثمّ بسطا الأشرعة معاً وذهبا إلى غوادلوب. بطبيعة الحال، كان قد قرأ ماركس وإنجلز، مثل جان، لكنّه فضّل عليهما روسو:

– خذ فلّاحاً غوادلوبياً، أو صيّاداً! فلّاحاً أو صيّاداً. قلبه هشٌّ وتملأ رأسه أفكارٌ سخيّة. أجلِسه على مقعد مدرسة. ضع حول عنقه ياقةً وربطة عنق. علّمه اللغة الفرنسية وسيصبح حيواناً مفترساً، في قلبه صخرةٌ وفي فمه أنيابٌ تُدمي! وكونه زنجياً أو خلاسياً أو أبيض لا يغيّر في الأمر شيئاً، فهذه هي السيرورة الطبيعية!

لم يكن جان يطلب سوى أن يصدّقه، وردّاً على ذلك، حكى له كيف دُمّر أبوه، ثمّ أخوه!

يوم الخميس عندما لا تكون هنالك دروس، ينزل جان إلى جوين لابورد، وهناك، يثرثر الحمو والصهر إلى أن تأخذ أديليا بالصراخ وقد ملّت من سماع ذلك الإسهاب الذي لا ينتهي: «ارحما فميكما! وأنت يا جان، لديك امرأتان عليك إرضاؤهما، ألا تستطيع أن تبقى قربهما؟!».

أمّا أنا، فأعتقد أنّ تأثير ماريو كان حاسماً، وانتهى بجعل جان متمرّداً حالماً عذباً، أحد أتباع روسو ممّن امتزجت لديهم أفكاره ببقايا أفكار غارفي. لم يكن عمّ أمّي المسكين منذوراً للدور الذي دُفع لأدائه وليس ذنبَه أنّه مات شهيداً.

أخذ أهالي غران فون ليمانغل يغيّرون طريقهم، كما لو بالمصادفة، ليروا كيف يتدبّر جان أمره مع امرأتيه. لم يكن العدد هو الذي يحيّرهم، فلكلّ رجلٍ امرأتان وأكثر! هنالك رجالٌ لديهم امرأةٌ في كلّ قرية، في كلّ بلدة! لا، المحيّر هو أنّهما تشربان وتأكلان وتنامان تحت سقفٍ واحد. كانوا يدخلون الكوخ ويفتّشون الغرف الثلاث النظيفة التي تفوح منها رائحة أوراق الأشجار: غرفتا نومٍ على جانبيْ حاجزٍ رقيقٍ فيه فتحةٌ تغطيها وهي تصدر صوتاً الكراتُ الخشبية في ستارة. في إحدى الغرفتين سريران حديديان يحيطان بالمهد الذي سينام فيه الكائن الصغير الذي كان آنذاك يتحرّك في بطن أنابيز. سريران حديديان ضيّقان ومتقشّفان مثل سريري أختين، طالبتين تكبران جنباً إلى جنبٍ وتضعف عيونهما على ضوء الشمعة عينها. وبالفعل، بدت أنابيز وماريتا متفقتين، إذ تتقاسمان بعدلٍ العمل، إضافةً إلى المتعة، وكلّ شيءٍ يدعو إلى افتراض ذلك... كان هنالك ظلٌّ من الحزن يكاد لا يُلحَظ في قعر عيني أنابيز، عندما تغسل ملابسها ويداها في الماء الأزرق في حوض. أمّا ماريتا التي روّضها الحبّ، فأخذت تفقد

هيئة القطة المتوحّشة، وتكنس الباحة وهي تغنّي وتحاول زرع وردٍ في الحديقة. بدا جان مرتاحاً ومدلّلاً. ففي نهاية المطاف، بإمكان كلّ شخصٍ أن يُلبس السعادة الوجه الذي يريده.

.8

في تلك الأثناء، كانت تيكلا إيلاييز جان لوي، أمّي، في طريقها لإتمام الثامنة من عمرها. فتاة صغيرة يُجمع الناس على أنها جميلة، لكنها مجرّدة تماماً من الفتنة. يتمنى المرء لو أنّ لديها عيباً ما، أنفاً أفطس، فماً ثخيناً، لثةً وردية(*)، ليكتسي وجهها، عبر عدم الانتظام هذا، شيئاً من الحياة. بدلاً من ذلك، كمالٌ جامد. جبهة كبيرة مقوّسة تحت شعرٍ كثيفٍ كشعر أمها ومملّسٍ بعنايةٍ دائماً بزيت الخروع. عينان كبيرتان لوزيتان تنظران إلى الأمام من دون أن ترمشا. أنفٌ شبه مستقيم. فمٌ ذو شفتين صلبتين، لكن من دون إفراط، تنفرجان أحياناً بابتسامةٍ عن أسنانٍ ناصعة البياض ومنتظمة.

وفوق ذلك، مدلّلة بإفراط. لم تكن تيما أو يعقوب يرفضان لها طلباً. يشتري يعقوب لها بثمنٍ باهظٍ تفاحاً فرنسياً أو عنب المسكات، في حين تجهل الفتاة أنّ الموز والمانغا ينموان على الشجر ويُشبعان الفقراء الصغار من عمرها. نذرتها تيما، في خوفها من أن تفقدها، للّون الأبيض حتى تبلغ الثانية عشرة من عمرها، وكانت تمشي وفي قدميها جزمةٌ ملمّعة، ترتدي أثواباً من نسيج الأورغنزا المطرّز بالدانتيل، يدها بيد خادمةٍ تحمل لها المظلّة والحقيبة حتى مدرسة الآنسات فيرتويو الخاصة. لم يكن الأطفال

(*) اللثة السوداء علامةٌ على الجمال.

يجلسون قربها إلّا غصباً عنهم ومرغمين، ويكرّرون همساً وهم ينظرون إليها أقوال السوء بحقّها:

- لقد بصقت على خادمتها!

- لقد قالت إنّ أباها لديه ما يكفي من المال ليشتري لابوانت!

- لقد ضربت الأرض بقدمها!

- لقد قالت إنّ...

يوم الأحد، ترافق تيما إلى القداس الكبير، وشعرها معذَّبٌ منذ اليوم السابق بالمكواة الساخنة والقصاصات المصنوعة من ورق الحرير، المكدّسة تحت قبّعة الشمس التي تشبه القبّعات الإنكليزية. في الساعة الرابعة، تصحبها قريبةٌ لأهلها مدعوّةٌ إلى غداء يوم الأحد إلى السينما - المسرح «لارونيسانس»، وتستمتع أكثر منها بأفلام تشيرلي تمبل. أمّا في الساعة السادسة، فيكون دور يعقوب في أن يمسك بيدها ليأخذها كي تغيّر ماء الزهور على قبر الجدّة إيلاييز.

أمّا الأيام العادية، فمملوءةٌ بدروس البيانو والكمان والرقص واللاهوت، وكذلك الرياضيات لأنها لم تكن تفهم شيئاً في مربّع وتر المثلث القائم.

ليس غريباً أن تكره أمي طفولتها!

.9

عندما بات واضحاً أنّ انتهاء الحرب لن يعيد عمّ أمي رينيه، حمل يعقوب إلى جويديتشيللي، الإيطالي في شارع فريبو، صورةً التُقطت أثناء عمادة تيكلا. قام جويديتشيللي بعملٍ لافتٍ نظراً لطابع تجهيزاته اليدوية.

فقد عزل ثمّ كبّر وجه رينيه الذي يحمل المولودة على جرن المعمودية. يعيد هذا التكبير، رغم كونه غير واضح، تشكيل القسمات غير المكتملة، ملاك أم دابّة؟ لشابٍّ مزموم الشفتين، يضع نظارةً ويرتدي ياقةً قاسية. طلب يعقوب تأطير الصورة بالأسود، وهي معلّقةٌ منذ ذلك الحين في صالة بيت شارع فوبور دينري. شعر أثناء تعليقها بإحساسٍ غريب، إحساس أنّه ينسى شخصاً، شخصاً آخر، أنّه يرفض منحه شرف الذاكرة العائلية. تذكّر أخاه غير الشقيق بيرت وقلبه منقبض. ما هي ظروف موته؟ اضطرب وعاهد نفسه على مساءلة أبيه يوم السبت القادم عندما يذهب إلى جوستون. لكن كان مقدّراً ألّا يفعل.

فبعد ظهر اليوم عينه، أرسلت تيما الخادمة لتوصل له نبأً عاجلاً، وهو أنّ أناييز، زوجة أخيه جان، قتلت نفسها.

قتلت نفسها؟!

وصل يعقوب إلى قريةٍ صامتةٍ كغابةٍ متحجّرة. قبل ثلاثة أشهرٍ من ذلك، كانت الأم جورجينا التي تولّد كل نساء المنطقة قد أدخلت إلى العالم المرئي طفلاً ممتلئ الخدّين، لم يكن على الإطلاق مرعوباً بسبب التحوّل الذي عاشه. انحنت عليه ثلاثة وجوهٍ مشرقة، وتضافرت ثلاثة أزواجٍ من العيون لتفحّص الجسم الصغير المكتنز. لا شيء يستحق الذكر. جاهز للمغامرة!

يوم المعمودية، لم يكن هنالك حسابٌ للروم ولا للشودو. وإذا كان آل لوي، باستثناء يعقوب، قد برزوا بغيابهم بسبب كونهم غير متقبّلين مطلقاً لطريقة عيش جان، إلّا أنّ ماريو نفسه كان حاضراً وأخذ ينشد أغاني من كورسيكا:

يا جزيرة الحب...

بعد ذلك، رُئيت أنايز وهي تفكّ صدارها لتقدّم الحليب لابنها ديودونيه. سُمع أطفال المدرسة وهم يردّدون صائحين درساً من بنات أفكار جان(*):

«في الماضي، أُطلق على غوادلوب، بلدي، جزيرتي، اسم كاروكيرا. يعيش فيها بشرٌ لا يعرفون القتل ولا الإساءة. يتغذّون بالأسماك التي يصيدونها من البحر والأنهار ذات المياه الغزيرة. يزرعون التبغ والمنيهوت والذرة».

شوهدت ماريتا وهي تذرع المكان تحت مظلّة المطبخ جيئةً وذهاباً.

ماذا جرى؟

كانت أنايز ترتاح على السرير المصنوع من خشب الكورباريل، وثوب أمّها الذي ألبسته لتُدفن فيه يتناقض بصورةٍ غريبةٍ مع وجهها، الفتيّ، الأعزل. انتحب يعقوب: «ماذا فعلتَ لها؟».

بدرت من جان حركة عجز. عُثر على جسد أنايز بعد بحثٍ تواصل ثلاثة أيامٍ بلياليها. أوقد الرجال مشاعل وانقسموا إلى عدّة فرق. بعضها ذرع حقول قصب السكّر. وطرق بعضها الآخر على أبواب كلّ الأكواخ. وأخيراً، ذهب بعضها الآخر حتى جوين برتران ومول وسان فرانسوا. لم يفكّر أحدٌ في البحر. وفي قاع خليجٍ صغير، عثر عليها صيّادون كانوا يضعون زورقهم في الماء، وعلى عانتها إشنيات.

كعلامةٍ مفارِقة عن حبّ أنايز للحياة، هطل المطر غزيراً سبعة أيامٍ بلياليها. وعلى الرغم من أنّ التوقيت كان شهر حزيران، شهر الشرارات فوق حقول قصب السكّر المتلوّنة بلون الكبريت، شهر الحرائق في ضواحي

(*) آنذاك، لم يكن تاريخ غوادلوب يُدرَّس في المدرسة.

لابوانت المجرّدة من الماء، شهر الحرّ السائد، سال المطر من السماء مثلما يسيل من مزرابٍ مكسور. دفقٌ ملأ الأرض حتى انتهى عطشها. سهر الناس على أنابيز ثلاثة أيامٍ بلياليها بانتظار تحسّن الطقس. وبعد أن فقدوا الأمل بنهوضها، اندفع الموكب وهو يغوص في الوحل ويغطس في برك الماء. كانت قطرات المطر تقفز على التابوت كأنّها حصى، وعلى الرغم من محاولة من تبعوا التابوت، برؤوسٍ منكّسة، الاحتماء بمظلّاتٍ أو بأوراقٍ كبيرةٍ من شجر الموز أو تحت أكياسٍ من الخيش، فقد تبللوا حتى العظام في لحظات. لم يكن من حقّ أنابيز أن تحظى بصلاةٍ على روحها لأنّها انتحرت، مثيرةً بذلك غضب الأب لوبري، الذي عمّدها وقدّم لها المناولة وتلقّى اعترافها كلّ يوم خميسٍ بذنوبها الطفيفة كفتاةٍ صغيرة. كان من المفترض أن يُلقى بتابوتها، علبة الهوان، في قاع الحفرة، من دون أزهارٍ أو أكاليل. لكنّ أولئك الذين أحبّوها لم يسمحوا بذلك، وكان دفنها أجمل دفنٍ رأوه! تذكّر الناس أنّه قبل إعصار 1928 بكثير، ماتت ماتالبا، ماتالبا التي كانت تجيد الرقصة الرباعية في ريعان شبابها، وأنّه ولدت من الأسف الذي خلّفته في القلوب كلّها أناشيدُ لا يمكن نسيانها. لكن حتى في هذه الحالة، لم يكن الدفن بهذا الجمال! على الرغم من كلّ ذلك الماء الهاطل من الأعلى!

بعد موت أنابيز ارتمى عمّ أمي جان مجدّداً في عالم الكتب والفكر والتفكّر ارتماءً نهائياً. فبعد انتهاء صفّه، لم يعد يتكلّم عملياً، مثل أبيه، وبات يتواصل مع ماريتا بزمجراتٍ تكاد لا تُسمع. وبحجّة أنّه يحتاج إلى السلام لتنظيم المعلومات التي يتلقاها من مصادر عديدة، شيّد بيديه، رافضاً المساعدة، كوخاً من العصيّ القصيرة وانكفأ فيه. وعندما تأتي ماريتا بعد

منتصف الليل، وقد ملّت من إعادة تسخين العشاء، لتناديه وقبضتاها على خصرها، ينهض كزومبي ويتبعها حتى السرير الكبير حيث يضاجعها. (وُلد عشرة أطفالٍ من هذا العناق الصامت).

زاد موت أنابيز من تقارب يعقوب وجان. فيأتي يعقوب مرّةً كلّ شهرٍ على الأقلّ من لابوانت. يغلق الباب على نفسه مع أخيه في كوخ العصي القصيرة، وكما في أيام المراهقة، يقلب جان صفحاتٍ من كتبه أو يقرأ له ثمرة أفكاره الشخصية. (كتاب «غوادلوب المجهولة» مهدى إلى يعقوب).

كما أنّ يعقوب وجان كانا كثيراً ما يتحادثان. فيلفظ الأوّل الكلماتِ بصوته الشبيه بنعيب الغراب، ويتعامل معها الثاني مثلما يتعامل حدّادٌ مع معدنٍ نادر الاستخدام:

- غريبٌ، أليس كذلك؟ أشعر أنّها أقرب منذ أن ماتت!

- الأمر عندي مماثلٌ مع أمي الصغيرة إيلاييز! أحياناً في جوستون، أكون متأكّداً من أنّها في الحجرة، ترى كلّ ما أفعل!

أحياناً، وخلافاً لرأي تيما، يصحب يعقوب تيكلا معه. والمفارقة أنّ البنت، على الرغم من كرهها لحياتها في لابوانت، كانت تكره إقاماتها في غران فون ليمانغل أكثر. تكره أولئك القرويين الذين تفوح منهم رائحة العرق ويتكلّمون الكريولية ويقبّلونها بأفواههم المكتنزة، وتكره أباها الذي يوبّخها كلّ مرة: «هيّا، لا تتصرّفي كفتاةٍ مدلّلة! قولي مرحباً!».

تكره القصعة التي تأكل فيها، والفراش الممدود على الأرض الذي تتمدّد عليه بين أبناء عمّها الذين لا ينظّفون حتى أسنانهم بعد العشاء. وتكره على وجه الخصوص ماريتا، الشقراء والحافية وغير المبالية، المختلفة كلّ الاختلاف عن تيما الأنيقة على الدوام، والتي ترتّب شعرها

منذ السابعة صباحاً. يتراءى لها أنّها تقرأ في عينيها ازدراءً ربما لم يكن موجوداً إلا داخلها هي:

– مهما تظاهرتِ! مهما نفخت نفسك كضفدعةٍ في حكايةٍ خيالية. لن تكوني يوماً أكثر من زنجيةٍ صغيرةٍ ذات وجهٍ «طافحٍ بالحبوب». وسوداء جدّاً فوق ذلك.

.10

لا شكّ أنّ العالم يتذكّر العام 1953 بوصفه العام الذي مات فيه جوزيف ستالين، لأنّ موته تصدّر عناوين كبريات الصحف العالمية. غير أنّ هذا الحدث لم يحتلّ مكاناً كبيراً في ذهن جدّي يعقوب، وحتى في ذهن عمّ والدتي جان، وهو الذي كان في الماضي مغرماً بالنقاشات عن الماركسية والعِرق والطبقة. ولئن كان ذلك العام 1953 قد أثّر فيهما تأثيراً مؤكّداً، فلأنّه امتلأ بالأحداث العديمة الأهمية بالنسبة إلى غيرهما، وهي أحداثٌ أثّرت في تاريخهما الفردي أكثر بكثيرٍ ممّا فعل موت دكتاتورٍ روسيّ. ففي 13 كانون الثاني 1953 ظهر المجلّد الأوّل من كتاب «غوادلوب المجهولة» الذي كتبه عمّ أمّي جان. استغرقت منه كتابته سبعة أعوامٍ ونصف العام. واصل في هذه السنوات الاقتطاع من راتبه ورفض إعطاء ماريتا ما يلزم لإصلاح أحذية الأطفال، فتمكّن من جمع المبلغ الذي طلبه الطبّاع جان روبتير. يُعدّ هذا الكتاب اليوم من الكتب الكلاسيكية، وسرق منه الطلاب مراراً وتكراراً لإعداد رسائل التخرّج والدكتوراه الخاصة بهم، لكن طُبعت منه آنذاك مئتا نسخةٍ كدّسها جان، الذي نزل لهذا الغرض إلى لابوانت، في

حقيبةٍ من الورق المقوّى. ثمّ مرَّ عبر أرصفة الميناء ليقدّم نسخةً ليعقوب الذي لم يفهم لماذا بدا أخوه، وهو يضمّ حقيبةً إلى صدره، هانئاً مثل شخصٍ يعود من المائدة المقدّسة. بعد أن زار جان يعقوب، ذهب لمقابلة كميل ديزير الذي أصبح عضواً مهمّاً في الحزب الشيوعي، ورجاه أن يتحدّث عن كتابه في صحيفة «لافلام»(*). بدا له كتاب «غوادلوب المجهولة» آبدةً لإبداع هذا المجهول الأزلي، أي الشعب. لكنّ بال كميل كان مشغولاً بأمرٍ آخر (بموت ستالين، يا للمصادفة!)، غير أنّه وعد بكلّ ما أُريدَ منه، وأوصى بوضع نحو عشرين نسخة عند صاحب المكتبة هوبير مونديزير.

لم يظهر أيّ مقالٍ في لافلام. لكنّ مراجعاتٍ للكتاب ظهرت في «لونوفيليست» و«لافوادوبوبل»(**) وبعض الصحف الأخرى التي تهكّمت بشدّةٍ على أسلوب الكتاب وسذاجته (آه، تلك المقاطع عن الخارق للطبيعة!) وأعادت بسرعةٍ ذلك المعلّم الصغير الذي يحسب نفسه مثقفاً إلى السافانا التي يسكن فيها.

بكى يعقوب وهو يقرأ تلك السطور: «لماذا، لماذا يكرهوننا إلى هذا الحد؟ إنّهم لا يكلّون ولا يملّون!».

في النتيجة، اصفرّت النسخ التي أُودعت عند مونديزير على أحد الرفوف، قبل أن توضع في إحدى الزوايا. لكنّ كتاب «غوادلوب المجهولة» لم يمرّ مرور الكرام على الجميع.

ففي الثاني من آذار 1953، دخل السيّد بينار، مفتّش التعليم، بطلبٍ من الإدارة، إلى مدرسة غران فون ليمانغل. جلس في المقعد الأخير من

(*) La Flamme (الشعلة). [م].

(**) Le Nouvelliste (القاصّ) وLa Voix du Peuple (صوت الشعب) على التالي. [م].

الصفّ واستمع طيلة ثلاث ساعاتٍ إلى درسٍ في اللغة الفرنسية ودرسٍ في التاريخ وآخر في العلوم. بعد ذلك، انسحب وكتب تقريره.

كان التأثير فورياً. ففي 17 نيسان 1953، علم جان عبر رسالةٍ مسجّلةٍ بطرده من كوادر التعليم. لذلك كان عليه إخلاء المنزل الذي يقيم فيه وإفساح المجال للمعلّم الجديد.

في المساء عينه، جمع جان وماريتا أطفالهما وممتلكاتهما، وكدّساها في عربةٍ تجرّها الثيران، أعارهما إياها أحد الجيران، وسلكا طريق جوين لابورد حيث يسكن ماريو وأديليا، تحت نظرات الأطفال وأهاليهم الحزينة (بل إنّ بعضهم بكى حقاً).

بعد ثلاثة أيام، عندما ظهر يعقوب الذي علم بالخبر السيّئ في جوين لابورد، وجد ماريو وقدماه أعلى من رأسه، متأرجحاً في أرجوحته الشبكية، وماريتا وأمّها منخرطتين في إحدى مشاجراتهما اليومية، وجان يقطع أغصان أشجارٍ ليصنع منها عصياً قصيرةً تحت أنظار أبنائه المهتمة بما يفعله.

– تعال إلى جوستون! لقد أمرت بترتيب المنزل!

هزّ جان رأسه رافضاً.

– أنت تعلم أنّ كلّ ما أفعله هو إدارة ممتلكاتنا. هل تريد حصّتك من الأملاك؟

هزّ جان رأسه بقوةٍ أكبر.

– على الأقلّ، دعني أساعدك!

نظر جان إلى ديودونيه، ابن أنابيز. فهِم يعقوب وعاد إلى لابوانت وهو يمسك بيده.

أصبح جان كاتباً عمومياً ليكسب قوته. كان يجلس، مسلّحاً بمحبرةٍ وبريشةٍ من نوع سيرجان ماجور، على منافذ الأسواق. وهناك، يساعد القرويين في كتابة أوراق ضرائبهم، ويساعد الخطيبات في كتابة رسائل لطيفة لخطيباتهنّ من الجنود، والمستأجرين في إرسال التماساتٍ للمالكين. وتسبّب له الضمان الاجتماعي بكثيرٍ من التعب، إذ لم يكن أحدٌ يفهم شيئاً في الأمر.

لكنّه كثيراً ما كان ينسى أن يطلب مقابل عمله، ويصدّق أيّ كذبةٍ تهدف إلى استثارة شفقته. في الحقيقة، لم يكن هذا كلّه يهمّه كثيراً. فالحياة الحقيقية تبدأ بالنسبة إليه في التاسعة مساءً عندما يكتب تتمة «غوادلوب المجهولة»، وحيداً في كوخه المصنوع من العصيّ القصيرة.

لذلك، وجدت ماريتا نفسها بعد بعض الوقت مضطرّةً للتدخّل. فاجتهدت، هي التي لم تمسك ريشةً منذ الوقت القصير الذي قضته في المدرسة، ورسمت إعلانين. أحدهما كبير: «حانة اسكب دائماً»، والآخر صغير: «الدَّين مات. المتخلّفون عن الدفع قتلوه». ثمّ فتحت «منهل مشروبات»، استعادت بين جدرانه المال الذي تركه جان يتسرّب.

كم شعرت تيما بالسعادة عندما رأت قدمي ديودونيه الموحلتين تصلان إلى أرضية بيتها! استشفّت من هيئة يعقوب ضرورة عدم الاحتجاج، فانتظرت رحيله لتضع بين يدي الصبي المسكين حوض ماءٍ وفرشاةً مصنوعةً من النجيل. عندما عادت تيكلا من درس البيانو، وجدت الدخيل راكعاً وباكياً، وخدّاه مدهونان بالصابون. أمام هذا المنظر، ومن دون إدراك السبب، شعرت بقرص وترٍ في قلبها، تضخّم صوته الذي لم يُسمع قبل ذلك واجتاحها اجتياحاً كاملاً. شدّت ابن عمّها الصغير إليها وباتت منذ ذلك الحين تدافع عنه بكلّ قوّتها من مخالب أمّها.

رأى أطفال الثانوية الصغيرة وصول ذلك الصبي الأسود ذي الخدّين المنتفخين من غران فون ليمانغل، الصبي الذي لا يجيد الفرنسية وينثر بقع الحبر على دفتره. لم يتردّدوا في إطلاق لقب «Nèg mawon»(*) عليه!

في العشرين من كانون الأول 1953، وكان الجميع يفكّرون بعيد الميلاد، فيصدح الأطفال والأهالي بأناشيد تعود لزمن مجيء المسيح، تلقّى يعقوب في المتجر زيارة مجهولٍ وسيم: السيّد جيلبير دوسان سنفوريان، وقد عاد مؤخراً من باريس لاستلام مكتب أبيه. اجتمع الرجلان بمفردهما أربع ساعات. وبعد ذلك، رُئي يعقوب يخرج وهو ينوس مثل زنجيٍّ ثمِلٍ ويجلس وراء مقود سيارته، ثمّ يغادر المدينة بعد بضع حركاتٍ هوجاء. لا بدّ أنّ الناس تذكّروا ذلك اليوم، فقد اقترح شخصٌ يميل إلى الخيال وهو يرى السيارة تمرّ أنّ بيت آل لوي يحترق، ما تسبّب في خضّةٍ كبيرةٍ في لابوانت.

أوقف يعقوب سيارته أمام بيت ماريو وأديليا، مروّعاً دجاجةً تنبش التراب من أجل صيصانها، وصاح: «جان! جان!».

دفعت نبرة صوته الأخ الأصغر الذي كان عائداً من سوق جوين برتران إلى الاعتقاد بأنّ مصيبةً حدثت، فهرع قائلاً: «هل حدث شيءٌ للأب الصغير؟».

قال يعقوب متلعثماً: «لقد قتله! قتله! هو الذي قتله!».

(*) «زنجي بنّي». (nègre marron: لقب أُطلق في المستعمرات على العبد الهارب من سيّده. وتُطلق حالياً صفة «بنّي» على الشخص الذي يهرب من الحضارة ويعود إلى الطبيعة. [م]).

عندما نزل بيرت، مرتدياً معطفاً لا يناسبه اشتراه والده قبل سنوات من سان فرانسيسكو وحاملاً حقيبةً من الورق المقوّى، من القطار البحري في محطة باريس سان لازار، شعر بخيبة أملٍ مهولة: لم يجد صديقه جيلبير دوسان سنفوريان، على الرغم من أنّه أخبره بقدومه. كان يجهل أنّ جيلبير المسكين يذوي منذ مدّةٍ قصيرةٍ في مدرسة داخلية يسوعية في مان[*] ولم يتمكّن من الهرب. كم كان فرحاً بفكرة لقائه! لكنّه لم يكن مهمَلاً، إذ وجد بانتظاره صديقاً لكميل ديزير، يحمل لوحةً صغيرة. كان شخصاً يدعى جان جوزيف، سمساراً لمنتجات المستعمرات.

كان الجوّ ماطراً.

الشوارع اللامعة ممتلئةٌ بسيارات وعربات دفن الموتى، وبنساءٍ تحت مظلّاتٍ سوداء، وبرجالٍ يعتمرون قبّعاتٍ مدوّرة، ينظّم تحرّكهم رجال شرطةٍ مسلّحون يرتدون معاطف ثقيلة لا أكمام لها. نظر بيرت إلى المدينة الكبيرة الرمادية بهلع، متذكّراً الأوصاف النارية التي قدّمها له جيلبير ومتسائلاً ما إن كان صديقه قد خدعه! ثمّ قال في نفسه إنّ المدن ربّما لا توجد إلا في ذاتية أولئك الذين يعيشون فيها.

مدَّ جان جوزيف يده ليساعده في الصعود إلى عربة ترامواي. التفتت جمهرةٌ ترتدي ملابس بلون الماء الوسخ للنظر إليهما والضحك صراحةً. لم يلقِ إليها جان جوزيف بالاً وطلب أخباراً عن البلد الذي غادره منذ ما يقارب خمسة عشر عاماً. قبل الحرب، قبلها بكثير!

فكّر بيرت: ربّما يعتاد المرء في نهاية المطاف!

(*) Mans، مدينة فرنسية. [م].

بانتظار ذلك الاعتياد، شعر أنّ تلك النظرات تهينه وتعذّبه وتجعله يدرك بألمٍ لون جلده الأسود، ذلك اللون الذي حمله حتى ذلك الحين من دون كثير ارتباك. مدّت شقراء يدها نحو وجهه وداعبته وهي تقول: «آه، هذا اسمرارٌ ممتازٌ ومضمون!».

قهقه الجميع، بمن فيهم جان جوزيف، ما صدم بيرت. هل يجب على المرء أن يسخر من نفسه؟

يبدو أنّ أشغال جان جوزيف لم تكن شديدة الازدهار، لأنّ مسكنه يقع في شارعٍ حزينٍ تهجّى بيرت اسمه: شارع روكيت، حيث تتراصف لحومٌ مليئةٌ برؤوس العجول الميّتة، وحاناتٌ يفرط فيها رجالٌ بقبّعاتٍ في الشراب، ويركض أطفالٌ شعرهم بلون التبن والمخاط يسيل من أنوفهم. ابتلع بيرت نحيبه وهو يفكّر في آخر قبلةٍ تلقّاها من إيلاييز. أخذ جان جوزيف يثرثر من دون انقطاع:

- لقد عُيّنت مؤخراً عضواً في لجنة الدفاع عن العرق الزنجي، وصدّقني حين أقول إنّ السيّد غراسيان كانداس(*)، رسول الإمبريالية الفرنسية، سيسمع عنّي! في رؤوس جميع الزنوج فور أن يصلوا إلى هنا فكرةٌ وحيدة: مضاجعة امرأة بيضاء! هل تعرف النكتة؟ عند النشوة، يصيح الزنجي: «يحيا شولشر!»(**).

ضحك بيرت بدافع التهذيب. لكنّه وجد هذا الرجل الذي يبلغ من العمر ما يؤهّله لأن يكون أباه خفيفاً حقّاً!

(*) Gratien Candace (1873-1953): معلّمٌ وسياسي وباحث وصحافي فرنسي من غوادلوب. صوّت لصالح بيتان وكان مناصراً لحكومة فيشي. [م].

(**) فيكتور شولشر Victor Schœlcher (1804-1893): سياسي وكاتب فرنسي، اشتُهر بعمله من أجل إلغاء العبودية في فرنسا. [م].

- حتى لامين سنغور(*) الذي تزوّج بامرأة من بيكاردي! أمّا أنا، فزوجتي مثلك ومثلي: سوداء! من هنا يبدأ فخرنا: من لون زوجاتنا.

كان الشارع يفضي إلى مقبرةٍ هائلة، وشعر بيرت بالهلع وهو يرى غابةً جنائزية من القبور، مفكّراً للمرة الأولى بالموت بعيداً، بالموت السيّئ. من سيجلس على قبره إذا حدث ذلك؟ من سيضع زهوراً في أوعية؟

في آخر محنةٍ من ستة طوابق، داخل شقةٍ معتمة حقاً، قدّم جان زوجته السوداء التي كانت في الواقع امرأةً من مدغشقر، ملفوفةً بوشاح شعرها الحريري. ولمّا لم يكن بيرت قد رأى مثل هذا الشعر لدى النساء، فقد جمد في مكانه وهو ينظر إليها. واصل جان جوزيف ثرثرته: «سأصحبك غداً لتسلّم على السيّد غوتون لونيون(**). إنّه غوادلوبيٌّ عظيم».

أخذت المدغشقرية رأس بيرت بعينيه الممتلئتين بالدموع بين يديها وقبّلت فمه بعذوبة.

- اترك هذا الصغير وشأنه! ولا تبدأ بحشو عقله بحماقاتكم. سوف أصحبه للاستماع إلى فيفي!

واقع الأمر أنّ بيرت لم يفعل لا هذا ولا ذاك. ففي الصباح الباكر، خرج بهدوءٍ بحثاً عن جيلبير. كان يحمل عنوان مراسله في مكان القلب: 51 شارع الجزائر.

شعر بعذاب الضمير، لأنّ اليوم أحد، فدخل أوّل كنيسةٍ صادفها،

(*) Lamine Senghor (1889-1927): مناضل سياسي سنغالي. [م].

(**) Joseph Gothon-Lunion (وُلد عام 1897). كان عضواً في الحزب الشيوعي الفرنسي ومثّل السود الفرنسيين في المؤتمر الخامس للأممية الشيوعية في موسكو في تموز 1924. أسّس مع لامين سنغور لجنة الدفاع عن العرق الأسود في شباط 1926. [م].

ووجدها مختلفةً بجدرانها الحجرية عن كاتدرائية القديسين بطرس وبولس إلى درجة فقدانه أيّ رغبةٍ في الصلاة. لكنّه أدار كلّ الحبّات الفضية في المسبحة التي حصل عليها بمناسبة مناولته الأولى، ثمّ مضى ثانيةً، مستكشفاً على الأرصفة، جاهداً كي لا ينتبه للدعابات المسيئة التي يوجّهها إليه المارّة. لم يعرف تماماً كيف وجد نفسه أمام آبدةٍ بدت له متحف اللوفر! فقد قدّم له جيلبير وصفاً مطوّلاً لما يحيط به:

– يعود إنشاء ساحة كاروزيل إلى عام 1692. وهي تدين باسمها لعرضٍ عسكريٍ للخيّالة أُقيم فيها بأمرٍ من لويس الرابع عشر. في عام 1600، كانت حديقةً تدعى بارتير دو مادموازيل، أُنشئت على الأسوار والخنادق المردومة. في عام 1793، دُعيت ساحة الأخوّة. وقد أُقيم فيها نصبٌ اختفى منذ عام 1795 تحيةً لذكرى مارا(*)...

أصيب بخيبةٍ مروّعة. اصطبغ ذلك كلّه بلونٍ رماديٍّ مخضرّ، مخطّطٍ بظلالٍ أكثر قتامةً. فاحت ممّا رآه رائحة الشيخوخة والتاريخ المخبّأ في قاع القرون، والذي لم يؤثّر فيه مطلقاً. هل سيهدر وقته في متحف الفظائع هذا؟ أدار ظهره بتصميمٍ وواصل طريقه.

في شارع فينيون، شاهد فتياتٍ يتمشّين على الأرصفة وهنّ يهززن مع أردافهنّ حقائب يدوية مغطّاة برقاقاتٍ لامعة. عرف بيرت وجه الرذيلة من دون أن يكون قد رآه أبداً. وعندما صاحت إحدى الفتيات قائلةً: «آه، يا للزنجي الظريف! نصف السعر لك!»، ركض هارباً بكلّ جبن.

في شارع الجزائر، تلقّى استقبالاً مزرياً من الحارسة التي أخبرته بعدم وجود أحدٍ في الأعلى.

(*) Jean-Paul Marat (1743-1793): طبيب وفيزيائي وصحافي وسياسي فرنسي. كان من زعماء الثورة الفرنسية واعتُبر من شهدائها. [م].

طيلة النهار، مشى بيرت ويداه في جيبَي معطفه السخيف الذي لم يكن حتّى يبثّ الدفء فيه، مشى في المدينة التي يشبه ضجيجها ضجيج بازارٍ شرقي. يتوقّف رغماً عنه لينظر شزراً إلى آسيويين يردّون عليه بالمثل، وإلى نساءٍ يحجبن وجوههنّ بمنديلٍ وكنّ بسببه يرفعن المنديل، وإلى أقزامٍ وعمالقةٍ يستعرضون عضلاتهم ويتباهون لدى رؤيته.

فجأةً، انتبه إلى أنّ الساعة بلغت العاشرة ليلاً، فسارع إلى شارع روكيت. وجد الشقة الباردة والمعتمة خاوية. وفي المطبخ، رأى على الطاولة خبزاً وجبنة في صحن. لم يمسّ شيئاً منهما وأمضى الليل وهو يبكي.

في اليوم التالي، وضعه جان جوزيف في القطار الذاهب إلى أنجيه.

ألهمت مدينة أنجيه بلزاك الذي كتب عنها: «تاريخ فرنسا موجودٌ هنا بأكمله».

كذلك، ألهمت كثيراً من النقّاشين والطبّاعين على الحجر. ففي عام 1826، وصل إليها الرسّام الشهير تيرنر (Turner) راجلاً أثناء رحلته السنوية وهو يصعد مع نهر لوار من نانت إلى أورليان. ملأ خمس صفحاتٍ من الرسوم الأولية في كتابه *Sketchbook* قبل أن ينفّذ سلسلةً من الرسوم المائية على الورق الأزرق، مستوحاة من هذه الرسوم الأولية، وكانت بعنوان *Wandering by its Loire*.

أمّا بيرت، فلم تلهمه أنجيه شيئاً.

وجد بانتظاره في المحطّة رجلاً ذا ملابس سوداء: المراقب العام، السيّد بيدولو! لدى الخروج من المحطة، فتح مظلّته بسبب وجود عاصفةٍ مطريةٍ في الأجواء. وفي مساء اليوم عينه، كتب بيرت الذي لم يكن لديه أحدٌ آخر يبوح له رسالةً لجيلبير:

«عزيزي جيلبير،

أين أنت؟ ماذا تفعل؟ كيف سنلتقي ثانيةً؟

لو تعلم كم أنا تعيس! أنا الذي ظننت أنني أكره حياتي في لابوانت! لو تدري كم أكره هذه المدينة، هذه المدرسة، هؤلاء الأساتذة وهؤلاء الطلاب العنصريين، الجاهلين بكلّ ما عدا منطقة نهر لوار الخاصة بهم. كم أكره هذه السماء!».

لكن بعد مرور الأسابيع الأولى من اليأس المطلق، لاحظ بيرت روعة النهر وجزره الشقراء وجسوره ذات السيقان الجريئة، والأهمّ أنّه بات لديه صديق: كزافييه دولانوا، ابن أحد الصناعيين في تور Tours.

شرح كزافييه لأمّه أنّ لديه صديقاً من الأنتيل، أي أسود، لكنّه يحبّه حبّاً جمّاً، وحصل على الإذن بأن يدعوه للغداء في يوم أحد. نبّهت السيّدة دولانوا بالتالي أهل البيت، ولا سيما إخوة وأخوات كزافييه الصغار، لكيلا ينساق أيٌّ منهم للتفوّه بتعليقٍ غير لائق بصدد لون الضيف.

نزل بيرت من السيارة التي أتت لتصحبه من المدرسة أمام صفّين من الفضوليين. إذ خرج جميع الخدم من الغرف والمنافع والمطابخ، وحرّاس الأراضي من غاباتهم، والفتيات من مخادعهنّ والأطفال من صالات لعبهم، والقساوسة من معابدهم، ليتفرّجوا على الزنجي ويتفاجؤوا من لونه غير المعقول! على الرغم ممّا قدّمته السيّدة دولانوا من شرحٍ وتوصياتٍ أمومية، أفلتت من صوفي، آخر عنقودها والبالغة من عمرها خمس سنوات، صرخة رعبٍ وتركت يد خادمتها، ثمّ ركضت لتختبئ تحت قطعة أثاث.

عدا ذلك، مرَّ كلّ شيءٍ على ما يرام. عرف بيرت كيف يستخدم

أدوات الطعام الخاصة بتناول السمك، وتحدّث معه السيّد دولانوا عن فتح مدغشقر، وعن شخصٍ يُدعى السيّد غالييني برز بفضل نشاطه في السنغال. بعد الوجبة، سيطرت أخوات كزافييه على نوبات الضحك الشديد التي انتابتهنّ وثرثرن معه، فأُصبن بالدهشة من كياسته ومن حماسته الشديدة للقراءة. وبعد ذهابه، لم يتوقّفن عن تكرار إعجابهن: «كم يجيد الفرنسية!».

ردَّ كزافييه بغضب، مؤيِّداً بأبيه الذي أعجبه بيرت، إنّه فرنسيّ!

كشف كزافييه لبيرت عن الحفل الراقص!

فكلّ شهر، يذهب طلاب المدينة من مختلف المدارس إلى الحفل الراقص للخروج عن القواعد، واجدين بذلك وسيلةً لإراحة كلّ ذلك المني غير المستخدم، على الرغم من عمليات الاستمناء اليومية، بفضل تواطؤ خادماتٍ صغيراتٍ يتقاطرن من البيوت البرجوازية كافةً. وإذا وضعنا جانباً مغامرات بيرت الجامحة بصحبة جيلبير، فقد كان مراهقاً ثمّ شاباً عاقلاً. لم يكن وارداً أن يطلب من ألبير الإذن بالذهاب إلى حفلٍ راقص! ففي العائلة، لم يكن هذا النوع من العربدة أمراً مستحسناً إطلاقاً! ربما كان زواج ليتيسيا بكميل ديزير هو الفرصة الأقرب زمنياً للاسترخاء. لكن بعد أن كان بيرت يظنّ أنّه أخرق، اكتشف أنّ نار الرقص تسري في عروقه! الفالس، البوستون، التشارلستون، كان بارعاً فيها كلّها. أخذت أجنحةٌ تنبت في كعبيه، في حين فقد جسمه الطويل صلابته وتزوّد بمرونة النباتات المتسلّقة. يدور كالدوّامة ويلتفّ على نفسه ويقفز ويدوّم ويرسم خطوطاً وسط حلقةٍ انقطعت أنفاسها. آنذاك ينتقم من كلّ شيء. من قسوة أبيه. من وحدة الأيام. من الفضول. من السخرية. من النزعة الأبوية.

يوم عيد القديسة روزاليا، انعقدت حلقة حفلٍ راقصٍ في حيّ مولان دوبندو.

وصل بيرت وكزافييه في تمام الحادية عشرة، بعد أن تركا للحضور الوقت للتحمية!

كان ظهور بيرت في صالة حفلات يثير على الدوام حركاتٍ مختلفة، مزيجاً من الذهول، من الابتهاج والاستباق السعيد من طرف أولئك الذين يعرفون موهبته. كان الحضور يرقصون التشارلستون، وهي رقصةٌ قاتلةٌ لمن لا يجيدها! وقف بيرت ذو الحظوة متباهياً، وسترته مفتوحةٌ تماماً، أمام صفّ الفارسات المنفعلات اللواتي حبسن أنفاسهن في حين كان يختار. فجأةً وسط هذه الوجوه المألوفة، كوجه لولو الطويلة التي ضاجعها تحت بابٍ لدخول الخيل، ونانا التي سمحت له بالصعود إلى حجرةٍ تحت السقف، وفيفي التي قلّدت من أجله جوزفين بيكر، اجتذبته عينان لونهما رمادي فاتح في وجهٍ مستديرٍ حليبيّ اللون غير فائق الجمال! شعر بالإطراء بسبب فائض المشاعر التي عكستها تلكما العينان، فقال كأميرٍ جميل: «هل تريدين الرقص؟».

– نعم بالتأكيد، سيد ألبير!

– كيف علمتِ أنّ اسمي ألبير؟

– لأنّها لم تكن أوّل مرّةٍ أراك فيها، مع أنّها كانت أوّل مرة تنتبه فيها أنت لي! سأقول لك إنني أكره الحفل الراقص، أولئك السادة الصغار الذين يحتقروننا! لم أكن لآتي مطلقاً لولا أنّ رفيقاتي في الورشة سحبنني معهنّ. أنا من منطقة بريتاني. أعمل في مشغل الزجاجات. كم أودّ العودة إلى قريتي، ومعك!

كانت ماري تسكن في علّيّةٍ غير بعيدةٍ عن رصيف السكة الحديدية، وبات بيرت يقبع فيها في كلّ نهاية أسبوع، من السبت بعد الفطور حتى أولى ساعات الاثنين، بدلاً من الذهاب إلى بيت جان جوزيف، الوصيّ عليه بغياب أهله.

لم يكن للمرض الذي يعاني منه بيرت سوى اسمٍ واحد: الوحدة!

كان يتلقّى من إيلاييز رسالة كلّ شهر، وفي أحسن الأحوال رسالتين، تبدأان وتُقطعان لخفض حرارة طفل، وتُستأنفان، وتُقطعان مجدداً، مصحوبتين بحوالةٍ مقتطعةٍ من راتبها كمعلّمةٍ للصف الثالث. إذ إنّ ألبير كان يدفع كلفة المدرسة الداخلية واللوازم المدرسية الخاصة بابنه، لكنّه لم يكن يهتمّ بملابسه، فضلاً عن تسلياته!

- لطالما شعر بالبرد. وقد أدركت أمي مدى حساسيته، فخشيت أن تجرحه، ولم تكن تستطيع أن تقدّم له ملابس دافئة. ثمّ لم يكن لديه فلسٌ في جيبه. في الحانة، كنت أدفع عنه أنا!

كزافييه دولانوا هو الذي يقول هذا الكلام.

فوق ذلك، جيلبير المحاصر في مان!

لذلك كان المتوحّد يسبح، يغطس، يتمرّغ في هذا الحب الطازج مثل غسول! لم يكن يملّ من القائمة الخرقاء للكلمات العذبة: «أنت ملِكي الحكيم! الزنجي الطويل القوي الخاص بي أنا!».

لكن على الصعيد الجسدي، لم تكن الأمور ممتازة! إذ عندما يرى بيرت بشرة ماري الشديدة البياض متاحةً له، منقلبةً مثل أحد منتجات الحليب، يشعر بغثيانٍ حقيقي ويضطر لضرب حصان عضوه الكسول

لإرضائها. فتدرك ذلك وتشتكي بصوتٍ خفيض: «هذا لأنني غير متعلّمة! لست سوى عاملة!».

آنذاك، يرفع بيرت عينيه للسماء، ثم يواسيها قدر استطاعته، متجنّباً مع ذلك خطّ شفتيها الممتقع.

ذات صباح، فقدت ماري الابتسامة. أحاطت الهالات عينيها. نحل وجهها. أصبحت أكثر امتقاعاً. وعندما يدخل بيرت إلى علّيّتها، يجدها مثنيةً فوق حوض الحمّام. أخيراً، همست قائلةً: «بيرت، أنا حامل!».

حامل! اختلّ توازن بيرت. ثمّ استعاد السيطرة على نفسه. ألا توجد عقاقير، مسهّلات، مليّنات، أدوية تتسبّب بالتقيؤ...؟ هزّت ماري رأسها: «جرّبت كلّ شيء!».

أوّل حركةٍ قام بها بيرت هي الهرب. استدان مالاً من كزافييه المندهش تماماً، ورمى بنفسه في قطارٍ إلى باريس. رآه جان جوزيف يظهر في وقت العشاء.

– أفهم الآن أنّه أراد طلب مساعدتي، أو على الأقل رأيي بهذا الأمر الذي يعذّبه. لكن في تلك اللحظة، كنّا جميعاً شديدي الانشغال. اضطررت للسفر إلى مرسيليا لإنشاء فرعٍ محلّيّ للجنة الدفاع عن العرق الزنجي. لم تكن لديّ دقيقة واحدة لنفسي، ولم يتمكّن المسكين من الانفراد بي لحظةً واحدة!

جان جوزيف هو الذي يقول هذا الكلام!

عندما لا يجد بيرت من يبوح له، يذهب ليسكر في واحدةٍ من تلك الحانات العديدة في شارع روكيت. يدفعه مشروب الأفسنتين والنبيذ الأحمر للرقص على الطاولات وسط حلقةٍ من الصائحين. ذات ليلة،

صعد على عمود نورٍ وأخذ المتسكّعون يصرخون بسرورٍ مطلق: «إيه، أيها الزنجي، اهبط عن شجرة جوز الهند خاصتك!».

بعد ظهر ذات يوم، دخل إلى حمّامٍ تركيّ وسمح لمثليّين أن يلوطوا به! وفي يومٍ آخر، تركه أوغادٌ على جسر الفنون شبه ميّت.

مرَّ أسبوعان من الضجيج والألم، وفي هذه الأثناء، قرّرت المدرسة الصناعية إخطار ألبير بهروب ابنه.

تلقّى جيلبير في مان رسالةً جعلته يقفز من على الجدار ليهرب:

«عزيزي جيلبير،

لقد انهال عليّ البؤس. أنا رجلٌ ميّت. سيقتلني أبي إذا علم بذلك. لقد حبلت مني. هي بيضاء وتعمل في مشغل الزجاجات.

صديقك اليائس».

عندما وصل جيلبير إلى أنجيه، وجد إعلانات الزواج منشورة. تزوّج بيرت بماري يوم 15 كانون الأول 1925، بعد أكثر من سنةٍ بقليلٍ من وصوله إلى فرنسا. أمضى كزافييه وجيلبير الليلة السابقة للعرس وهما يحاولان ثنيه عن ارتكاب مثل هذا الجنون. كان لجيلبير عمٌّ قاضٍ في تاهيتي، واقترح على بيرت أن يهرب ليلتجئ عنده. أمّا كزافييه، فقد وضع تحت تصرّفه المال اللازم.

لم يكتب بيرت إلى ألبير إلا بعد أن حدثت الواقعة. هل راوده الأمل بأن يضغط عليه؟ الأرجح أنّه، بسبب رعبه، كان يؤجّل إلى اليوم التالي هذا الالتزام ولم يستسلم له إلا بعد أن أصبح عاجزاً عن التراجع. لا يمتلك جيلبير دوسان سنفوريان لا الرسالة التي انتهى الأمر بالشاب المسكين إلى

كتابتها لأبيه، ولا الردّ الذي تلقّاه منه. ليس لديه سوى نسخةٍ عن رسالةٍ وجّهها جان جوزيف الشجاع إلى ألبير في محاولةٍ لاستثارة تعاطفه.

«هما يعيشان بؤساً شنيعاً. اضطرّت الفتاة لترك عملها في المعمل بسبب وضعها. أنا مثلكم أتبنّى أفكار ماركوس غارفي (الذي ينوي أن يأتي لتشريفنا بحضوره في باريس على الرغم من النشاطات التي تقام ضدّ زيارته). أؤمن بعرقٍ أسود صافٍ بقدر ما يؤمن أبيض يحترم نفسه بعرقٍ أبيض صافٍ. وأنا أؤكّد أنّ اعتدادنا بأنفسنا يبدأ بلون زوجاتنا. لكنّ الأمر يتعلّق هنا بابنكم، بحياته وحياة البريء الذي سيولد. فلتكن لديكم شفقة ولتسامحوا! أرسلوا لهما الحوالة التي ستنقذهما!».

لم تحظَ هذه الرسالة بجواب!

وجد بيرت عملاً لدى خبّاز. بقميصٍ أبيض، ووجهٍ وشعرٍ معفّرين بالطحين (هنا يتجاوز جيلبير التعليقات والفكاهات التي لا تنضب!). كلّ صباح، يعتمر بيرت قبّعةً ويربط وشاحاً ثقيلاً على أنفه وفمه ويضع على كتفه كيساً، ثمّ يذهب إلى العمل بخطاً آليةٍ واسعة. فضلاً عن ذلك، وبما أنّ حمل زوجته كان مريعاً، فقد أُلقيت على عاتقه كلّ المهام: الطعام. الغسيل. التنظيف. التزوّد بالمؤن. وبعد أن علم تجّار سوق سان بيير بهذه الحكاية التي جابت المدينة، أصبحوا يمنحونه أجباناً وخضاراً معطوبة وقد ارتسمت تعابير الأسف على وجوههم: «كيف حال ماري؟».

لم يكن يذوق طعم قليلٍ من الراحة إلا يوم الأحد، عندما يُرى وهو يتنزّه بلا تعبٍ على طول النهر، حتى يرغمه الليل المشبع ببخار الماء على الصعود إلى عليّته.

«عزيزي جيلبير،
ما الفائدة من أن يعيش المرء مثلما أعيش ؟!».

هنا، جيلبير دوسان سنفوريان يبكي. فلنحترم دموعه!

ولد ابن بيرت، ألبير لوي، الثالث الذي يحمل هذا الاسم، في 3 آذار 1926. حاصر كزافييه أباه، المسيحي الصالح الذي لم يكن يتخلّف إطلاقاً عن أداء شعائر الفصح والذي يحمل قلبه بيده. فحرّك الأب علاقاته ووُظِّف بيرت في شركة كهرباء فرنسا. آنذاك، بوشر بكهربة الريف. كم من أعمدة كهرباء يجب نصبها! كم من الأسلاك يجب مدّها للعصافير!

هكذا، بات بيرت يذهب بالدراجة مع فريقٍ من العمّال إلى القرى المجاورة.

وذات يوم، كان في قمّة عمود؛ لا بدّ أنّ نظره زاغ، لأنّه فقد توازنه وسقط، فانكسرت رقبته.

حادث؟ انتحار؟

انتحار! لدى جيلبير دوسان سنفوريان رأيٌ قاطعٌ بهذا الصدد.

– لديّ هنا كلّ رسائله! تخيّلوا وجوده وهو يذوي، متقلّصاً كلّ يوم، هذه الروح التي كانت في الماضي حيويةً وتهتم بكلّ شيء وهي تنازع في القماءة! كلّ يوم، هذا اللقاء وجهاً لوجه مع هذه المرأة التي تحبه، لكن...!

.11

تبادل الأخوان النظرات:

– ماذا سنفعل؟

اضطرب يعقوب. أثقل ضميره الرعبُ من أبيه، ذكرى تلك الضربات بالعكاز، والأكثر إيلاماً، ذكرى نظرات الازدراء! استجمع بعض الشجاعة:

- يجب أن نتحدّث إليه! رافِقني يوم السبت إلى جوستون!

هزّ جان رأسه: «لا! لا يمكن الانتظار حتى ذلك الحين. تأخر الوقت الآن، لكن في الغد، سنذهب فور أن تزقزق العصافير».

أمسك بيد أخيه الأكبر وقال: «أنا من سيتحدّث إليه!».

كان الليل طويلاً. وُلد جان بعد رحيل بيرت إلى أنجيه، واكتشف أنّ موته يطرح أسئلةً حول هذا الغياب للذكريات. ماذا؟ لم يُلفظ هذا الاسم مرّةً أمامه! لم يروِ أحدٌ نكتةً قالها! لم يحكِ أحدٌ حكايةً كان طرفاً فيها! شعر بالذنب بدلاً من أهله. أمّا يعقوب، فأخذ يعذّب نفسه، على عادته. لقد أحبّ ذلك الأخ الكبير الذي كان يحمله على كتفيه، وينحت له عرباتٍ صغيرةً من بذور الأفوكادو، ويُسقِط ثمار المانغا الناضجة بضربةٍ من المضرب! وعلى الرغم من ذلك، فقد تركه يموت هو أيضاً!

في تلك الليلة اشتدّت الرياح. فقد هبّت فوق البحر وانتفخت قبل أن تعصف بكلّ قواها، فسوّت بالأرض الأكواخ وأشجار الموز الملحقة بها. ثمّ خمدت وصمتت بالكامل حتى بدأ المطر هو أيضاً يعلي صوته، ضارباً بكلّ ثقله على الأسقف المصنوعة من الصفيح، مستغلاً أصغر فراغٍ ليتسلّل إلى الداخل ويُغرق الفرشات. أخيراً، سُمع هدير الرعد الغاضب. في غضب العناصر الشديد هذا، أخذ يعقوب يفكّر بغضب أبيه العارم، ويتمنّى مثل طفلٍ خائفٍ ألّا يولد الغد أبداً.

استقلّ يعقوب وجان السيارة، مصابَين بالرعب عينه، في صباحٍ صافٍ تحت سماءٍ زرقاء طازجةٍ مغسولة.

لكن كان مقدّراً ألّا يواجها أباهما أبداً. فعندما وصلا إلى جوستون، وجداه أخرس وأعمى وأصمّ، على طرف قطعة الخيش التي تقوم مقام الفراش بالنسبة إليه في غرفته المعتمة والقذرة، المليئة بالزجاجات الفارغة وبأحواض الفضلات الطينية التي تطوف فيها مفرزات. كان القلب لا يزال ينبض. لم يعرف أحدٌ متى أصابته النوبة. صحيحٌ أنّ العمّال الزراعيين لاحظوا أنّه لم يعد يراقب كلّ ما يفعلون، لكنّهم لم يعلموا منذ متى يدوم هذا السلام. منذ يومين؟ ثلاثة أيام؟ أسبوع؟ ارتاح يعقوب وجان لفكرة أنّ الاستيضاح الذي خافا منه كلّ ذلك الوقت ربما لن يحدث، وأحضرا طبيباً من بوتي بور.

بقي السوبارو على قيد الحياة عدة أسابيع أخرى. وذات صباح، فتحت أخته ماروسيا عينيها بعد أن تهدّل رأسها قربه، بعد ليلةٍ من السهر عليه. كان السوبارو قد رحل.

قال الناس إنّ للموت عدالته، وإنّ ألبير لوي الذي عاش ككلبٍ مات ككلب. من دون أن يحصل على الطقوس الأخيرة من الكنيسة. من دون الاعتراف بالخطايا المريعة التي لا بدّ أنّه يحمل وزرها منذ الزمن الذي ذهب فيه إلى بنما للبحث عن الذهب. وصحيحٌ أنّ سحنته كانت قذرةً وسط الشموع، متصلّبةً في ملاءاته المطرّزة! بذلت نساء العائلة كلّ جهدهنّ، فغسلن الجسد الثقيل وحلقن جدائل شعره وشعر ذقنه وأذنيه. اضطررن لقصّ جزمته ليُدخلن فيها قدميه الأشبه بجذور أعواد الحطب، واللتين تبرز أصابعهما في بعض الأماكن مثل جدعات المجذوم.

في الواقع، أخطأ الناس. فأخيراً، بات السوبارو سعيداً. متحرّراً من نظرة الآخرين. مواجهاً إلى الأبد نظرة المرأتين اللتين أحبّتاه، على الرغم

من كونه سوبارو، من كونه شحيحاً، من كونه صنع نفسه بنفسه. متبحّراً في ذلك العِلْم الذي لا يأتي إلّا بعد الحياة.

بدءاً من الليلة التي أعقبت دفن الجسد في لابوانت، سمع أهالي جوستون قهقهاتٍ وصيحات فرحٍ وزقزقة سعادةٍ تنتشر حول أشجار الملكية التي تحوّم فوقها غيمةٌ متموّجة. ثمّ صارت العصافير وطيور الطنّان المتوّج والعقعق تجتمع وتختلط بهذه الحفلة الموسيقية التي لا تنتهي إلا بظهور الشمس الشاحب. وفي الأماسي التي يكون فيها القمر كبيراً، يصبح الوضع أسوأ. إذ يمنع الضجيج الأطفال والكبار من النوم. لكنّ أحداً لم يكن يفكّر في الخوف منه، وهذا أمرٌ يدعو إلى الاستغراب. لأنّه كان بهيجاً كرقص ليفوز(*)، جذّاباً مثل صوت ناي التلال. كان على من يسمعونه أن يمنعوا أنفسهم من القفز من على سور أشجار دم التنّين، أو من دفع البوّابة الصدئة التي لا تحمي شيئاً.

من بين الابنين اللذين تبعا التابوت (كان عمّ أمي سيرج غائباً بسبب دراسةٍ للطب في تولوز أخّرتها الحرب)، حافظ جان على جفاف عينيه، في حين ظلّت عينا يعقوب ممتلئتين دموعاً أياماً بأكملها. لم يعد عملياً يستطيع الكلام. كانت الدموع تسيل على خدّيه، ويزعج ذلك تيما. ففي رأيها، لدى الرجل أمرٌ آخر ليفعله غير أن يبكي علناً! ثمّ إنّ يعقوب لن يدفع الناس للاعتقاد بأنّه آسفٌ على أبيه! مرّةً أخرى، لم تفهم. فبكاء يعقوب نبع تحديداً من أنّ حزنه على أبيه قليلٌ إلى هذا الحدّ. شعر بدلاً من ذلك بارتياحٍ عميق. الارتياح الذي يشعر به المرء وهو يفلت مجرماً عندما لا يكون مؤهّلاً لتحقيق العدالة. ألم يكن سيقول لألبير، لكيلا يستثيره منذ

(*) dansé léwoz: نوع من الرقص في المارتينيك. [م].

البداية، الجملة التالية: «يا أبي، تحدّث لنا عنه! تحدّث لنا عن حياته الوجيزة. تحدّث لنا عن موته. نحن لا نعرف عنه شيئاً، سوى أنّه كان ابن زنجيةٍ إنكليزيةٍ قابلتها في بنما...».

فبالفعل، لن يحدث هذا الحوار المخيف!

لكن على الرغم من الدموع التي أعمت عيني يعقوب، لم يفقد السمت. فقد قسم الممتلكات إلى ثلاث حصصٍ متساوية، ووزّعها بين سيرج وجان، إضافة إليه. لكنّ جان هزّ رأسه بطريقته العنيدة وقال: «لن أمسّها ولا حتى بملقط!».

ثمّ عاد إلى منطقته، غران فون.

ذات مساء، كانت تيما في سريرها، وقد نامت أخيراً لكنّها بقيت ملتصقة بيعقوب وقد أدارت ظهرها له، نافرةً من كلّ هذه المتعة التي أخذها من دون أن يمنحها إياها، لامس كتفها: «نحن راحلون إلى البلد الأم!».

على الرغم من طريقة تيما في التأفّف كلّما أبلغها يعقوب بقرارٍ ما، شعرت بسرورٍ بالغٍ إلى درجة أنّها استدارت دفعةً واحدةً وهي تصيح بصوتٍ طفوليٍّ مسحور: «إلى البلد الأم!».

عند ذلك، نهضت باستعجالٍ وشرعت بجولةٍ من الزيارات إلى أقاربها وأنسبائها، لتودّعهم من حيث المبدأ، لكن في الحقيقة لتجعلهم يدركون ثروة آل لوي. لا، ليس بوسع أيّ كلبٍ حاسر الرأس أن يذهب بهذه الطريقة إلى باريس، ويدفع بنفسه كلفة سفره عن طريق الشركة العامة العابرة للأطلسي! أثارت ماروسيا حنقها بشدةٍ عندما زارتها في بور لويس، إذ إنّها تظاهرت بمعرفة كلّ شيء وقالت: «آه نعم، لقد قال لي يعقوب إنّ لديه أشغالاً في أنجيه».

في أنجيه؟

أليست باريس المدينة الوحيدة في فرنسا؟

.12

أودع يعقوب تيكلا وديودونيه عند كميل ديزير خشيةً على مستقبلهما الدراسي، وركب مع تيما في قمرةٍ بالدرجة الثانية على متن سفينة «كولومبيا».

بدأت هذه الرحلة بأحسن الظروف. اثنا عشر يوماً من السماء الزرقاء. البحر هادئٌ كصورة. ثمّ استأجر يعقوب وتيما شقةً مريحةً من ثلاث غرفٍ في شارع أنسيين كوميدي، شغلها قبلهما أشخاصٌ من غوادلوب. مثّلت تنزيلات متجر لاساماريتين مصدر سعادةٍ لتيما التي وصلت حتى سوقَي سان بيير وكارو دوتامبل. وتشارك يعقوب سرّاً مع سمسارٍ لمنتجات المستعمرات اسمه بيير بيروتان وباعه أكياس قهوة، وهي سلعةٌ كانت لا تزال ثمينةً، أحضرها معه. لكن لسوء الحظ، خرب كلّ شيءٍ في الشهر السابع. إذ زار يعقوب أخاه سيرج في تولوز، وكان عائداً وهو حزينٌ من رحلةٍ غامضةٍ في الريف، عندما أخبرته رسالةٌ مسجّلةٌ أنّ حريقاً حدث في اللاكو! في تلك الحقبة، كانت الحرائق أمراً شائعاً في لابوانت. لم تكن تمرّ أسابيع صومٍ من دون نارٍ في الأحياء الشعبية! كان بوسع يعقوب إذاً أن ينام بعمقٍ لو لم يؤدِّ هذا الحريق إلى وفاة عائلةٍ كاملة. متفحّمة! الأب، وكان عاملاً شريفاً في مصنع ديستريلان، والأم وخمسة أولاد!

مرةً أخرى، اتفقت صحف اليمين واليسار على مهاجمة آل شايلوك

السود، أولئك الذين يشربون دم إخوتهم، وبلغت بهم الصفاقة قبل مدةٍ وجيزةٍ أن طرحوا أنفسهم كمدافعين عن العِرق. بعد أن تعرّض مساعد يعقوب للشتم والتهديد، اضطرّ لإغلاق الستارة الحديدية الخاصة بالمتجر الواقع قرب الميناء طيلة أيامٍ كاملة، ورجاه أن يعود.

وهذا ما فعله!

أسفل سلّم السفينة، استقبله جان بكلمة: «إذاً؟».

هزّ كتفيه وقال: «سأحكي لك...».

لأنّ عينه كانت تنحرف بالأحرى نحو النقابيّين الذين حملوا اللافتات وانتظروه تحت أشجار اللوز الاستوائي: «قاتل. لا لاستغلال الإنسان على يد الإنسان».

تساءل الناس الذين رأوا جدّي يعقوب لدى عودته من البلد الأم ما الذي أمكن أن يكون قد أصابه. لم تكن سحنة اليهود الخارجين من معسكرات الاعتقال في أوشفيتز أو داشو بذلك الوهن. نحل كثيراً. يمشي ورأسه منخفضٌ إلى درجة أنّ ذقنه بدت مسطّحةً على صدره، وعيناه مطليّتان باليأس. في المقابل، لم تبدُ تيما يوماً بمثل هذا التألق في أثوابها البنفسجية ذات الأكمام المنفوخة في الأعلى. لكنها كانت قلقةً على ابنتها. ابنتها تيكلا! لم تعد تعرفها! آه، لو أنها عرفت الحقيقة! فذات عطلة نهاية أسبوعٍ، وافقت تيكلا على مرافقة ابن عمها ديودونيه إلى جوين لابورد، لأنّ الصبي اشتاق لأبيه.

في كوخ جان المصنوع من العصي القصيرة، أخذ يكتب ما يمليه عليه جيسنير، المعلّم الطبّال الذي شرح له كيف يُلقي بشجرةٍ أرضاً ويقطّعها ويفرّغها قبل أن يجعلها تنبض كقلب. وإلى جانب جيسنير، جلس ابنه جيسنير الصغير.

كم كنت أودّ لو أنّني عرفت ذلك الحب الذي نُطلق عليه جوراً صفة الطفولي، لأنّه يشهد دائماً أسى الأهواء التي يعيشها الراشدون وعذابها!

لم يكد جيسنير وتيكلا يريان أحدهما الآخر حتى أحرقتهما نيران حممٍ من اللهب. ترك جيسنير الابن أباه ومعلّمه السابق قائلاً: «هيا نتنزّه!».

أطاعت تيكلا التي لم توجّه الكلام إلى ذكورٍ غير أقاربها وإخوة أبيها، وسرعان ما سمعت نفسها تحكي عن الملل الذي يصبغ حياتها.

هكذا بدأ الحب بين أمي وجيسنير أمبرواز. حبّ طائرٍ قصّت جناحيه من دون رحمة. حبٌّ وضعته في قفصٍ أقفلته. لكن عندما حُرمت صباحاتها من تغريده، أعتمت إلى الأبد.

هل استُكمل هذا الحبّ في الليلة عينها؟ في كوخٍ مصنوعٍ من العصي القصيرة؟ كان البحر يهدر في البعيد في حين تركض الجرذان على السقف.

– ضمّني إليك بشدّة، أنا خائفة!

على كلّ حال، لم تُخدع تيما بهذا الولع المفاجئ من ابنتها بالريف، وبدأت تفتّش ملابسها الداخلية، فتشعر بالراحة عندما تتلطّخ بالأحمر، ثمّ يعاود القلق مساورتها بعد أربعة أسابيع. جيسنير، المطرود من المدرسة منذ الرابعة عشرة من عمره، هو الذي علّم أمّي أنّ غوادلوب بلد. جزيرة. أرضٌ محاطةٌ بالماء من كلّ الجوانب. لم يكن الأمر يهمّها كثيراً حتى ذلك الحين!

– أتعلمين؟ المانغا تنبت على أشجار المانغا والليمون الإسباني ينبت على شجرة الليمون الإسباني. أتعلمين؟ بعد هطول المطر، تتغطّى الأرض بالأزهار البوقية الوردية أو البيضاء، ويخرج السلطعون من حفرته

وهو يلوّح بقوارصه على شكل ملاقط. لا تنظري إلى الكلب ذي العينين الصفراوين، إذ يمكن أن يصيبك بالعين!

أدرك جان أيضاً فعلياً ما يجري بين ابنة أخيه وجيسنير الابن الفاشل، الذي انتهى الأمر بجيسنير الأب إلى أن ييأس من جعله معلّماً. أفرح ذلك قلبه وبدا له انتقاماً من تيما، عودةً خلاصيةً إلى خانة البداية. لقد أدار آل لوي ظهورهم للشعب، لكن من دون أن يتمكّنوا من الفوز بالقبول في مكانٍ آخر. يجب أن يعودوا إليه. لذلك، وبفضل علاقة تيكلا مع جيسنير، بدأ يحشو ذهنها بخطبٍ مسهبةٍ عن اللون والعِرق والطبقة (وهي أمورٌ لم يكن أحدٌ قد حدّثها عنها) بل وحاول أن يضع بين يديها «الأعمال الكاملة» لماركس وإنجلز، الموروثة من بيرت المسكين. أنا أعدّ عمّ أمي جان مسؤولاً عن الارتباك الحاصل في رأس أمي، عن هذا التناقض الذي لم تتمكّن يوماً من حلّه بين ازدرائها للشعب ورغبتها العارمة في الصعود الاجتماعي، وأحلامها المرتبطة بتحرير الزنوج.

سوف أحاول تقديم صورةٍ موضوعيةٍ عن أمي على الرغم من أنّ الموضوعية، في مثل هذه الحالة، غير واردة تقريباً. أنا أعلم أنّ مشاعري سوف تُختزل إلى مجرد نزاعٍ اعتياديٍ بين أمٍّ وابنتها، وربما كان هذا صحيحاً. إذ إنّ حبّها لي كان قليلاً إلى درجةٍ تفرض عليّ الصرامة معها.

لم تمتلك أمي رغبة سلَفي العاجزة في إسداء الخدمات، ولا الحساسية والتواضع غير المنظّمين اللتين امتلكهما جدّي، ولا المثالية السمحة والساذجة التي امتلكها عمّ أمي جان. نبعت وقاحتها من تشكيكها بنفسها. تظاهرت بازدراء تقدير البرجوازيين لها، لأنها علمت بأنّها لن تتمكّن يوماً من الحصول عليه. ظلّت هامشيةً بسبب الإفراط في الطموحات المستحيلة التحقيق! بالنسبة إليّ، كانت أمّي مزيّفة!

أمّا جيسنير، فكان في وضعٍ يسمح له بمعرفة ما يجري في قلب عزيزته تيكلا. يعلم أنّها ذات صباحٍ ستدير ظهرها له من دون أن تنظر إلى الوراء. ويعلم أيضاً أنّ هذا الصباح سيتخذ ملامح شابٍّ من المدينة، يحمل اسماً معروفاً ويفضّل أن تكون بشرته فاتحة اللون. ذهب للقاء سيرجيت، خالته التي كانت هي أيضاً تحلّ شؤوناً معقّدة، للحصول بمعنى ما على تأكيدٍ لشكوكه. بعد أن أشعلت سيرجيت شموعها وغمست أصابعها في الماء المبارك، فتحت توراتها وقرأت فيها، ثمّ استجمعت أفكارها وقالت: «هذه الفتاة ليست لك. سوف تجعلك تجانب المنطق من أجل لا شيء. لكن سيأخذ بثأرك شخصٌ آخر وسيجعلها تحبل سفاحاً».

– ماذا؟

تابعت سيرجيت من دون أن تسمعه: «لا، إنها ليست لك. سوف تترك بلدنا وتبقى وقتاً طويلاً جدّاً في مكانٍ بعيد...».

– وقتاً طويلاً جداً!

منذ ذلك الحين، عاش جيسنير حبّه كمحكومٍ ينتظر العقوبة القصوى.

.13

ذات سبت، وصل يعقوب إلى جوين لابورد، وتظاهر بعدم رؤية ابنته ممدّدةً في ظلّ شجرة مانغا وجيسنير خانعٌ عند قدميها، وأغلق على نفسه مع أخيه، مستأنفاً السرد من حيث تركه جيلبير دوسان سنفوريان.

حملت عربةٌ من الدرجة الرابعة تابوت بيرت إلى المقبرة. لا أزهار ولا أكاليل. لكن ظهرت قصيدةٌ في اليوم عينه في صحيفة «لاغازيت أنجيفين»:

«مولوداً على شواطئ بعيدة،
واجهتَ الموت بيننا!
ألبير يا صاحب اللون الأكيد
المجهول في دولنا
ارقد!
ارقد إلى الأبد!
ثمة غرباء يحبّونك».

صحيحٌ أنّ هذه القصيدة قد تكون ساذجةً وخرِقة، إلا أنها التأبين الوحيد لبيرت.

بعد موت بيرت، أخذ ما بقي منه، أي ذكراه، يعيش حياةً خاصة. فقد جعلت ماري الرجل الذي كان صموتاً، غير مستعجلٍ في السرير، قدّيساً وأنموذجاً.

- كانت لديه عادات سيّدٍ كبير. يتحدّث الفرنسية بإتقان. ولولا لونه، لظنّ الناس أنّه ابن عائلة كبيرة. أصلاً في عائلته، وعلى الرغم من كونهم سوداً، فقد كانوا أناساً ممتازين! لو رأيتم الرسائل التي كانت زوجة أبيه توجّهها إليه! أيّ خطٍّ جميل! ثمّ إنّها خاليةٌ من الأخطاء تماماً! كان قد احتفظ بالمسبحة الفضية من أول مناولةٍ له! هاكم، هذه هي! وفوق ذلك، لطالما تمتّع بمزاجٍ حسن. وعندما يضحك، يتراءى للمرء أنّ السماء تضيء. قابلتُه في حفلٍ راقص. أتى مباشرةً إليّ وقال: «يا آنسة، هل تريدين الرقص؟!». آه! أحياناً يتساءل المرء ما إن كان الله يعلم ما يفعله: يأخذ أفضل الناس ويترك الآخرين يرتكبون شرورهم في العالم. عندما رحل، لم يكن صغيري بيبير قد بلغ الثانية من عمره!

لم يكن غريباً أن يشبّه ابن بيرت بالزومبي، وذلك لاضطراره لمواجهة النموذج المتخيّل لأبيه. كان بيبير يتلعثم وهو طفل، وظلّ يبول في ملابسه إلى وقتٍ متأخر من عمره. في المدرسة، تعرّض للسخرية بسبب لون بشرته وبسبب شعره الأصفر الكبريتي، المشعّث تماماً. كما تعرّض للسخرية بسبب تلعثمه، إذ كانت كراهيته لأمّه تجعله يحتبس كلّ مقطعٍ من الكلمة طويلاً قبل أن تولد من فمه على شكل مؤخرة دجاجة حينما تخرج منها بيضة. تخيّلوا ذلك! لم يكن في ذاكرة البشر في أنجيه سوى زنجي واحد ووجب أن تحبل به أمّه منه! كلّ شهر، كان عرّابه جيلبير دوسان سنفوريان يأتي من باريس، ويأخذه صيفاً وشتاءً لتناول المثلّجات في محل «أو تري ريشزور» ويقول له كلاماً لا يفهم منه شيئاً:

– ستأتي لتعيش عندنا عندما تكبر. مكانك الحقيقي هناك. أنت زنجي. لا تنسَ ذلك أبداً وكن فخوراً به!

كل شهرٍ أيضاً، تمسك الأم بيده وتجعله يكتب رسالةً إلى عائلته في غوادلوب. وترفق بتلك الرسائل أحياناً صورةً تكتب على ظهرها بعناية: ألبير لوي. أنجيه(*).

عندما انتهت الحرب، اختفى بيبير، وكان شاباً نحيلاً في الثامنة عشرة من عمره.

– اختفى؟

لوى يعقوب يديه في حركةٍ مألوفة:

– أجل، أراد أن يصبح موسيقياً فصعد إلى باريس. كنت سأحتاج إلى أشهرٍ لأحقّق وأعثر على أثره. وقد اكتشفت أنّه قُبل في الكونسرفاتوار،

(*) أتساءل عن مصير هذه الصور.

وحصلت على عنوان فندقٍ في شارع أبسيس... ثمّ دفعتني قضية اللاكو تلك للعودة.

بدأ الأخوان واحدةً من تلك النزهات الريفية الطويلة التي يحبّانها.

كانت حرارة أسابيع الصوم الكبير تلك حارقة، فقصب السكر يجفّ على أمّه، والثيران تخور جوعاً، وقد ملّت من رعي التراب الحارق. أثناء جلوسهما تحت شجرة مانغا لمسح العرق عن جبهتيهما، أسرَّ جان. إذ تواصل معه أعضاء جمعيةٍ سمّت نفسها «التجمّع من أجل تنظيم شعب غوادلوب»، واقترحوا عليه أن يكون رئيساً فخرياً لحركتهم.

- أنت؟

كانوا مقتنعين بأنّ السياسيين التقليديين، بانشغالهم بالإيرادات، غير قادرين على إخراج بلدنا من المأزق الذي يغوص فيه منذ الحرب، وتلفّظوا بكلمةٍ لم يتلفّظ بها أحدٌ في السابق: الاستقلال. وقد أطلقوا على نفسهم اسماً: «الوطنيون».

نظر يعقوب إلى أخيه بارتياع: «ماذا ستفعل؟».

تظاهر جان بالتحديق في الأفق المحترق، وأجاب قائلاً: «لا أعلم بعد».

لكنّ يعقوب استشفّ من نبرة صوته أنّه يكذب. وفي الليلة عينها، راوده حلم. كان يمشي في دربٍ ممتلئٍ بالسراخس التي تخدشه على مستوى عينيه عندما سمع صراخ الخنزير المذبوح، وهو صراخٌ لا يمكن تقليده. استغرب، إذ اعتقد أنّه بعيدٌ عن أيّ مسكن، فحثّ خطاه، ورأى آنذاك في فرجةٍ جان مربوطاً ومشنوقاً من قدميه، ورأسه في العشب، ينزف دمه كلّه.

عندئذٍ فهم: الموت يتربّص بأخيه. وسارع للعودة إلى لابوانت ليتناقش مع الأم الصغيرة إيلاييز في المقبرة.

في هذه الأثناء، أفاد الحبّ أمّي. فقد أخذت تفقد تصلّبها وحركاتها المنمّقة. باتت تكتسب لطفاً وتصرّفات فتاةٍ مطيعة. وبقيت إضافةً إلى ذلك الأولى على صفّها باستمرار. عندما نجحت في القسم الأول من البكالوريا بمعدل جيّد، أقامت تيما صلاة أفخارستيا، في حين أنّ يعقوب الذي لم يتبنَّ يوماً الإيمان التطيّري سلّمها الصندوق الذي احتفظ لها فيه بأجمل مجوهرات إيلايز. أمّا جان، ففضّل إلقاء خطبةٍ فصيحةٍ انتهت على النحو التالي:

– ها أنتِ وقد تزوّدتِ بما يلزم لتعملي من أجل العِرْق...

لم تلقِ تيكلا بالاً للفرح ولا للانفعال أو الفخر الذي عبّر عنه هؤلاء وأولئك. إذ وجدت نفسها وجهاً لوجه في ساحة فيكتوار مع شابٍّ وصل مؤخراً من السنغال حيث كان أبوه قاضياً، وكان خلاسياً نحيلاً، لكنه متوسط الوسامة، عبر من دون أن يراها، مخلّفاً عطر روجيه إيه غاليه. شيءٌ ما في وقاحته أزعجها وتسبّب لها بانفعالٍ يشبه الحب.

آنذاك، التقت أمي بدوني لاتران، أبي!

.14

يقول الناس إنّ الأرواح لا تعبر من فوق الماء. لذلك يجب الاعتقاد أنّ بيرت، المسكين بيرت، بدأ عيش حياته الأزلية في بلد اللوار هذا، الذي لطالما تغنّى به الناس وامتدحوه، لكنه بدا له مجرّداً من أيّ سحر. في الصيف الأول ساد الجفاف. ظهرت مساحاتٌ من الرمل الحارق من النهر الذي جُنّ عطشاً وبات يجرجر نفسه بوهنٍ حتى ماء البحر. كانت

أشجار الحور والأكاسيا والصفصاف تبكي حَرّاً وتُفاقِم آلاف الحشرات صيحات أساها.

وفي الصيف الثاني، ساد المطر. وجد النهر المحموم متعته في أجساد السبّاحين غير الحذرين، وجرفهم بسرعةٍ كبيرةٍ نحو مصبّه. ساد الحزن الحجرَ، وكذلك الماء والسماء.

والصيف الثالث كان رائعاً. وأخذ العشّاق يضطجعون ليموتوا حباً داخل الأعشاب الطويلة على حافتيه.

أمّا بيرت، فلم يعد قادراً على الاحتمال. بات يجوب الليل والفضاء حتى خط الساحل، في محاولةٍ للمح الجزيرة المحظورة في المدى البعيد، مسترخيةً وسط زرقة المحيط.

كان يبكي:

«سواءٌ أكنتُ ميّتاً أم حيّاً، هل سأعجز دائماً عن الوصول إلى السعادة؟».

القسم الثالث

.1

اسمي كلود إيلاييز لوي، وُلدت خفيةً في عيادةٍ تقع في الدائرة الخامسة عشرة من باريس، ليلة الثالث من نيسان 1960، وقد بلغت أمي آنذاك لتوّها الثامنة عشرة من عمرها. ولدتُ بوجهٍ مسطّحٍ تماماً وجمجمةٍ على شكل قطعةٍ من السكّر، لأنّ أمّي خنقت نفسها حتى عشية الولادة في مشدٍّ لتخفي بطنها عن الأبناء والبنات المدلّلين الذين تخالطهم بسبب دوني. بدؤوا يشكّون بوضعها ولم تراودهم أوهامٌ حول مستقبل الحبيبين. منذ الأسبوع الأول من الحمل، تذكّر دوني أنّ لديه خطيبة هي ابنة صديق والده المقرّب، وهو قاضٍ وخلاسيٌّ مثله. غير أنّ الشاب والشابة واصلا العيش معاً حتى ولادتي، عندما فهمت تيكلا أخيراً أنّ دوني لن يتزوّج بها.

في تلك الليلة، ليلة ولادتي، ثمة ما نبّه تيما إلى معاناة ابنتها من ألمٍ شديد. وفي لحظة مرور رأسي من بين فخذي أمي الغارقين، شعرت تيما وكأنّ يداً ضاريةً تنتزع أحشاءها. في الوقت عينه، رأت اسماً يظهر على شاشة جفنيها السوداء: تيكلا! طرقت على كتف يعقوب النائم كشخصٍ تغمره السعادة. وهو أيضاً أيقظ الخادمة النائمة على فراشٍ موضوعٍ على أسمنت المطبخ وأرسلها لتجلب الطبيب.

أُسقط تماماً في يد الدكتور الطيّب ألسيوس، الذي لم يكن يرى أبعد

من طرف أنفه، ووصف الراحة لامرأةٍ كلّ العمل الذي تعرف أن تقوم به هو تشغيل الآخرين.

بعد خمسة عشر يوماً من ولادتي، وكنت رضيعةً بدأت تتخذ شكلاً بشرياً، استقلّت أمي قطاراً إلى فينيستير من دون أن تلقي نظرةً عليّ، لأنّ المرضعات في منطقة بروتاني هنّ الأرخص حسب أقوال المساعدات الاجتماعيات. أودعتني عند السيّدة بونوي، ونسيتني عشر سنوات.

لم تكن السيّدة بونوي قد رعت طفلاً أسود من قبل، لكنّ ذلك لم يؤثّر في محبّتها لي.

هاكم قصيدةً صغيرةً كتبتها لماما بونوي عندما كان عمري خمسة أعوام. سامحوني عليها!

ماما ذات اليدين البيضاوين
اللطيفتين على الطفل الأسود
المتخلّى عنه
ماما ذات القلب الأشبه بلبّ الخبز
الأبيض
الطيّب للطفل الأسود
المتخلّى عنه.

هكذا إذاً، انضممت إلى بيرت وبيير، وأصبحت مثلهما أنتمي إلى سلالة أولئك المكتومين. والأرجح أنّ تضامني معهما قد وُلد عفوياً من هنا.

في الغياهب التي أُبعدت إليها، لم أعرف بالطبع شيئاً عمّا يجري في البلد. لذا، لم أكن أعلم أنّه بدأ الحديث فيه عن أنّ آل لوي أصبحوا عدة

عائلات، آل لوي في جوين لابورد، وآل لوي في لابوانت، وآل لوي في باس تير، ناسين أنّ ذلك كلّه خرج من البطن الوحيد والفريد، بطن الأم الصغيرة إيلاييز.

كان عمّ أمي سيرج قد عاد إلى البلاد طبيباً للأمراض النسائية والتوليد. تزوّج قريبته، بشكلٍ ما، إذ كانت عروسه سيلوتا، إحدى بنات كميل ديزير، حفيدة عمّته نيرفا. لكن لسوء الطالع، ماتت سيلوتا بعد أكثر من سنة بقليل، لأنّها أكلت ثمرة موزٍ قزم(*) عندما كان الجوّ شديد الحرارة بعد الظهر في حين كانت تتصبّب عرقاً. في الحقيقة، لم يكن ذلك رأيَ زوجها الطبيب الذي تحدّث عن أزمة قلبية، بل رأي خادمتها روز التي حاولت عبثاً ثنيها عن أكل الثمرة عندما رأتها تمسك بها. وجد سيرج نفسه إذاً أرمل مع رضيعٍ عمره ثلاثة أشهر، وبكى بحرقةٍ أثناء الدفن، يسنده يعقوب. لاحظ الناس أنّ جان لم يكن يرتدي ثياب الحداد خلف عربة الموتى، لكنّ الوقت لم يسمح لهم بالتوسّع في هذا الصدد، لأنّ فتاةً شقراء نزلت بعد مدةٍ قصيرة من طائرة تابعة لشركة الخطوط الجوية الفرنسية. من هي؟

لدى أهل بلدنا فكرة نمطية عن النساء البيض اللواتي يتزوّجن برجالنا. فهم يعتقدون أنهنّ من منبتٍ متواضعٍ ولم ينلن قسطاً كافياً من التعليم. ويتخيّلون أنّهن ينجذبن كالذباب إلى عسل حياةٍ محاطةٍ بالخدم تحت سماءٍ صافية على الدوام. حياة المستعمرات!

لم تكن ناديج، زوجة عمّ أمي سيرج الثانية، تطابق في شيءٍ تلك الصورة الفظة والتبسيطية. فهي ابنة أستاذٍ في الطبّ، عُرف بأعماله عن الكساح، وهي نفسها جرّاحةٌ حظيت بمربّيةٍ إنكليزية وتخاطب أمها من

(*) نوعٌ من الموز صغير الحجم (لذلك يشبّه بالتين) وطعمه شبيه بطعم التفاح، لذلك تطلق عليه تسمية figue-pomme (تفاح التين). [م].

دون رفع الكلفة. لذلك، لا داعي للحديث عن نظرتها إلى عائلتنا كزنوجٍ فلّاحين. وكانت تيما أكثر ما أثار ضحكها الشديد، بأكمامها المنفوخة في الأعلى وجواربها الفاتحة أكثر مما يجب وسنّها الملبّس بذهب غوايانا.

شيئاً فشيئاً، أخذ سيرج ينظر إلى عائلتنا بعيني ناديج، فابتعد عنها إرضاءً لزوجته. وعندما فتح معها عيادةً في باس تير وبنى منزلاً للاصطياف في غوربير (Gourbeyre)، انضمّ إلى معسكر البرجوازيين انضماماً نهائياً. لم يعد ينزل إلى لابوانت إلا مستعجلاً، وسرعان ما كفّ عن الذهاب إليها. علم يعقوب مصادفةً بولادة ابن سيرج وهو يقرأ «نشرة أخبار المجتمع» في صحيفة «ليفيّ باس تيريان». شعر بجرحٍ واشتكى لتيما التي هزّت كتفيها وقالت: «وبماذا يضيرك ذلك؟ أنت لاحظت أنّه بدّل اصطفافه منذ وقتٍ طويل!».

أمّا الصراع بين سيرج وجان، فقد بدأ قبل ذلك بكثير.

إذ ذهب سيرج، بعيد عودته إلى البلد، ليزور جان في عزلته في جوين لابورد. أعطاه جان مجلّدَي «غوادلوب المجهولة» اللذين كانا قد ظهرا آنذاك، لتصفّحهما، وجعله يتأمّل كوخه المصنوع من العصي القصيرة الذي ينزلق عليه المطر من دون أن يدخل. ثمّ أجلسه بين أصدقائه القرويين، عارضاً لغته الكريولية التي استعادها، وهو يشرب كأساً بعد كأس من المشروب الروحي الصرف. في البداية، لم يقل سيرج شيئاً ودفع كلّ شيءٍ للظن بأنّه معجبٌ بما يراه. لكن فجأةً، وفي حين كانت ماريتا تقدّم الحساء الدسم في قصعاتٍ صغيرة، رفع سيرج نحو أخيه عينين بدت فيهما لمعة السخرية، وسأل متهكّماً: «ما اللعبة التي تلعبها؟».

صمتٌ مذهولٌ من جان! نهض سيرج وقال: «توقّف عن مسخراتك! مهما فعلت، ستبقى برجوازياً صغيراً غير مرتاحٍ يقلّد دور رجل الشعب!».

ثمّ توجّه إلى سيارته وهو يقهقه. ولم يره أحدٌ بعد ذلك في جوين لابورد!

في البدايات، سبّب الخصام بين سيرج وجان حزناً شديداً ليعقوب، الذي كان ليتمنّى أن يبقى أبناء الأم الصغيرة إيلاييز متّحدين كأصابع اليد. ثمّ طغى على كلّ شيءٍ القلقُ الذي تسبّبت فيه صحة زوجته تيما.

وبالفعل، بعد أن غادرت تيكلا لابوانت إلى باريس للدراسة، لم تعد تكتب لأبيها ولا لعمّها جان. ولا لجيسنير الذي هجرته. ولا حتى لأمها!

ترقّبت تيما ساعي البريد يوماً بعد آخر، ثمّ شكّت في أنّ مصلحة البريد، وهي في رأيها معقلٌ للشيوعيين، تتآمر عليها، وكتبت رسالةً بهذا الصدد للوزير في باريس. أخيراً، وجب عليها أن تواجه الجحود وتفهم أنّ ابنتها المحبوبة نسيتها.

بدءاً من ذلك اليوم، هوت في قاع الأسى والضغينة.

كانت تنهض في الرابعة من كلّ صباحٍ متألّمة، وتذهب إلى قدّاس الفجر بين المتزمّتات اللواتي يرتدين أثواباً مصنوعةً من قماش المدراس الأسود. تتلقّى المناولة وتعود من المائدة المقدسة متمايلةً إلى درجة أنّه سرت في وقتٍ ما إشاعةٌ عن أنّه كانت تأتيها رؤىً سعيدة. لم تعد تؤنّب خادماتها اللواتي بتن يتركن الغبار يتراكم فوق الأثاث أو الأباجورات التي لم تعد سيّدتهنّ تمرّر سبابتها عليها، وتوقّفن عن سقاية النباتات الداخلية. وعندما حُرمت الأريكا الصفراء(*) من الماء، تدهور حالها وبدا المنزل بأكمله مهملاً. كذلك، لم تعد تيما تقوى على إرهاب ديودونيه، الذي تجرّأ على جلب رفاقه في المدرسة ليدخّنوا ويعزفوا الهارمونيكا في

(*) نوعٌ من شجر الموز.

غرفته. أمّا في الليل، فتستسلم ليعقوب قدر ما يرغب، بعينين مغلقتين ومن دون تكشيرةٍ أو احتجاج، لا واعية عملياً. صحيحٌ أنّ يعقوب حاول إقناعها بالذهاب لقضاء بعض الوقت في منزل الاصطياف في جوستون، بعد أن رتّبه لها. لكنّها رفضت بشدةٍ كما لو أنّها تعلم بأنّها ملكيةٌ خاصةٌ محظورة، يسود فيها كطاغيةٍ عدوّها القديم السوبارو.

اعتباراً من ذلك الحين، عاشت تيما على إيقاع تيكلا، على الرغم من البعد والصمت القائم بينهما. شعرت بآلام مخاضها من دون أن تريد فهمها. وعندما أجهضت، انبثق دمٌ مسودٌّ من بطن تيما على الرغم من أنّه لم يعد ينفتح ليسيل منه دم الطمث. وعندما غرقت تيكلا في حالات الانهيار العصبي، غرقت تيما أيضاً في مياه القلق المأتمية، فلم تعد تستجمع ما يكفي من القوة لتتأرجح، من الأمام إلى الخلف ومن الخلف إلى الأمام، في كرسيّها الهزّاز على الشرفة بين نبتات الجهنمية في الأصص، فيهزّ المارّون رؤوسهم بأسىً:

– *A pa jé non!*(*)

ماتت جدتي تيما ذات ليلةٍ أثناء نومها. ماتت من دون أن أعرفها، ومن دون أن أتمكّن من مواساة حسرة قلبها بكلّ عواطفي. ماتت ذات ليلةٍ كان فيها الظلام حالكاً والقمر ينام ضجراً في ثنايا الغيوم خلف أشجار الكزوارينة الكنبائية الأوراق. ماتت موتاً لم يدفع أحداً إلى الشعور بأسفٍ عميق، ولا إلى أيّ أسىً شديد. باستثناء يعقوب الذي لم يكن أحدٌ قادراً على مواساته! اعتقد الناس لدى رؤيته يمشي منحنياً خلف نعشها أنّه لن يتمكّن من تجاوز الأمر!

لكن وبما أنّه كان تقريباً في الخمسين من عمره، وأنّ رغباته الجسدية

(*) «كم هذا محزن!».

كانت لا تزال متوهّجة، فقد أتى إلى بيته في شارع فوبور دينري بفلورا لاكور، عشيقته منذ سنواتٍ وسنوات، وبابنيه غير الشرعيين اللذين واصلا مخاطبته بقولهما «الصديق لوي» كما لو كان غريباً. لكنّ تيما لم تتألم من حيث هي، لأنّها وجدت الطمأنينة الهادئة التي رفضت الحياة على الدوام منحها لها.

.2

أودّ أن أعرف عدد الرجال الذين مرّوا على جسد أمي الحزين في تلك الليالي الضبابية في لندن، وخلطوا بين شكاوى كبريائها الجريحة وتأوّهات المتعة. القائمة، هل كانت القائمة طويلة؟

عندما تخلّى عنها دوني وهي حاملٌ منه بلقيطتها التي لم يشأ حتى الاعتراف بها، هي، الحاصلة على جائزة الامتياز من الصف السادس حتى الصف الحادي عشر، هي، تلك التي أمضت سنةً في الصف التحضيري لدار المعلّمين ثم سنةً في دار المعلّمين، ثمّ نالت إجازةً في اللغة الإنكليزية من جامعة السوربون، هي، تيكلا، اعتقدت في باريس أنّها موضوع سخرية، بل أسوأ من ذلك، موضوع شفقة. لذلك، أخذت بعض الملابس كيفما اتفق، وقفزت في قطارٍ يذهب إلى محطة الشمال. كثيراً ما ذهبت أثناء دراستها إلى لندن، وهي مدينةٌ ماطرةٌ كانت تكرهها، وفجأةً بدت لها ملائمةً لانتحار صباها.

سجّلت نفسها بحكم العادة في الجامعة، وبدأت بحثاً عن جوزيف كونراد. رواية «*Heart of Darkness*». في ميعاد مصابيح النيون الدامي،

تشعر بأنها لم تعد تتحمّل عارها وحزنها، فتدخل إلى ملهىً ليلي اسمه *Purple Rose of Cairo*، تغنّي فيه مطربةٌ تضع أزهار الكاميليا في شعرها ألحان بيللي القديمة. وفي حدود منتصف كلّ ليلةٍ تبكي في منديلها. ذات مساء، جلس رجلٌ إلى طاولتها: قصيرٌ جداً، وسيمٌ جداً، شديد السواد، وقال بحنان:

- *What is the matter, baby?*(*)

ثمة شيءٌ في عينيه العقيقيتين عبّر عمّا يفوق الرغبة في مضاجعة.

كان مانويل باستور ابن قرويٍّ كوبيٍّ ملَّ من إنهاك نفسه في مزارع قصب السكر، فرمى ساطوره واستقلّ قارباً إلى نيويورك. وبُعيد وصوله، تزوّج بخادمةٍ سوداء أميركية وأنجب منها أربعة صبيان. درس مانويل، خلافاً لإخوته الذين يقضون أحكاماً متنوّعةً في سجونٍ حكومية، وكان يحضّر لدكتوراه في جامعة تيمبل. كان يقيم في لندن منذ بضعة أشهر، لأنّه يسعى لجمع كلّ مراسلات ماركوس غارفي الذي مات للأسف فقيراً، ومن دون أن يبالي الزنوج بموته، وهو أحد بطلَيْ مانويل، والثاني هو مالكوم إكس.

كثيراً ما سمعت تيكلا أحاديث عن ماركوس غارفي. ليس من أبيها الذي أغفل تماماً ذكر تلك المرحلة من حياته، بل من تيما التي تحبّ التذكير بكلّ الحماقات والقذارات التي ارتكبها يعقوب، وكيف تركها بمفردها مع طفلةٍ صغيرةٍ ساعياً إلى الموت في الليل. وتهزأ من الجملة الشهيرة: «*I shall teach the Black Man...*»، برنامج حزب نهوض الزنوج وتعلّق قائلةً:

- يقولون إنّ الزنجي جميل! في حين أنّه لا يوجد ما هو أبشع منه

(*) ما الخطب يا صغيرتي؟

بسبب كلّ الخيانة في قلبه. هل تعلمون ما كانت أمي تقوله؟ «الزنجي إعصارٌ وهزّةٌ أرضية. لا يترك بعد مروره سوى الأسى».

في المقابل، لم تكن تيكلا قد سمعت بمالكوم إكس، فقفز مانويل:

- ألا تعرفين من هو مالكوم، *baby*؟ قريباً، ستحرق كلماته أميركا وسنزرع الحب أخيراً على رماد وضاعة البيض وعنصريتهم الحارقة!

أرادت تيكلا التي تحب التعليلات مزيداً من المعلومات، فأخذ مانويل يشرح: «كان والده من تلاميذ ماركوس غارفي. انظري، في البدء، هنالك أبونا ماركوس. لكنّ مالكوم لم يكن يستمع إلى شيء. مارس السرقة والاغتصاب وعرف المخدرات والسجن... إلى أن التقى بإله الإسلام الأسود وجهاً لوجه...».

- إله الإسلام الأسود؟

- نعم! لا تسخري، *honey*! لقد قصّوا عليك أكاذيب انتهى بك الأمر لتصديقها رغماً عنك. عرق حام الملعون. في الحقيقة نحن سبط إسرائيل الثاني عشر، وسنعثر على مملكتنا مجدّداً!

في البداية، كانت تيكلا تمسك نفسها عن الضحك، متسائلةً عن الشخص نصف المجنون الذي تتعامل معه! ثمّ شيئاً فشيئاً، اخترقها سحر أحلامه والكلمات التي يحملها. والأهم أنّ مانويل لم يكن يقتصر على التعامل الهذياني مع جُمل. فكم كان بارعاً في ممارسة الحب! باتت الليالي أقصر مما يجب في الجناح الريفي المصنوع من الطوب الذي يتقاسمه مع ثلاثة إخوةٍ موسيقيين من جامايكا، وحيث يرتجف الهواء بسبب ضجيج آلات مزج الصوت. في الصباح، تستغرق تيكلا المنهكة في النوم وتفتح عينيها مجدداً بعد إغلاق المكتبات الجامعية بكثير.

بعد شهرٍ من تعارف تيكلا ومانويل، ركع على الأرض بكياسةٍ لاتينيةٍ تماماً وعرض عليها الزواج. فرفضت وهي تدمدم بغموضٍ بأنّ هنالك عائقاً أمام هذه السعادة، لكنها وافقت على الذهاب معه إلى أميركا.

يعود أوّل تحوّلٍ لأمي إلى هذا اللقاء مع مانويل. من برجوازية صغيرة متكبّرة إلى حدٍّ ما، بكعبها الرفيع وأطقمها التي تقلّد أطقم شانيل، ووجهها المطلي بالأزرق على الجفنين وبأحمر الشفاه، إلى مناضلةٍ موفورة الصحة، شعرها متروكٌ على طبيعته وقصير، وفي قدميها خفّان من الكتان الأسود (لنوضح أنّ طولها كان يتجاوز طول مانويل بعشرين سنتيمتراً على الأقل!). في هذه المرحلة أزاحت كونراد، *Heart of Darkness*، وأحلّت محلّه الروائي الأسود الأميركي ريتشارد رايت الذي اكتشفت أعماله بفضل مانويل. ويجب القول إنّها في هذه الحقبة أيضاً أخذت تحتسي مشروبات قوية، مثل مانويل ومعه.

في هذه الحقبة أخيراً، وبعد أن انقطع عم أمّي جان لمدّةٍ دامت قرابة سنتين عن شوارع لابوانت، لشدّة ما كان يكره ما آلت إليه تلك المدينة (وقد لحظ الناس تغيّراً كبيراً لديه، إذ بات قليل الاعتناء بنفسه، وهو الذي كان وسيماً جداً)، دخل كمجنونٍ إلى بيت أخيه يعقوب الذي كان ينهي غداءه من دون فرحٍ في مواجهة تيما.

- لديّ رسالة! رسالة من تيكلا!

«عمّي العزيز،

سوف تغفر لي صمتي عندما تعلم أنّني مررت بمحنٍ رهيبة. لكنّ تلك المحن جعلت مني امرأة. الغشاوة زالت عن عينيّ. بتّ أرى بوضوحٍ الآن وأفهم معنى الدروس التي كنت تعطيني إياها.

نعم، قريباً ستكون قادراً على أن تفخر بي. سلاماتي الحارة لجيسنير.
قبلاتي.
ابنة أخيك المُحبة».

أعاد يعقوب الورقة إلى مغلّفها، ثمّ أعطاه من دون أن ينبس بكلمةٍ لتيما التي نهضت وإحدى يديها على قلبها. قرأتها تيما أيضاً قبل أن تقع جالسةً بكلّ ثقلها وتبدأ في التأوه:

- ونحن! ونحن! لا كلمة لأبيها! لا كلمة لأمها! آخ يا يسوع، يا عذراء! أولئك الذين يحثّونك على إنجاب الأبناء لا يفكّرون! لماذا؟ أسألكم لماذا؟ من الأكثر نكراناً للجميل من الابن؟ ألم تعد لديها مشاعر؟ تمزّق بطني من أجل هذه البنت. اعتقد الأطباء أنني سأموت، لكنني نهضت والآن، هي تكتب لعمّها، ولا تسأل عمّها حتى ما إن كنت لا أزال حيّةً أم في القبر!

تركها يعقوب وجان لعويلها الذي يثقب طبلة الأذن، على الرغم من كونه محقّاً، وأغلقا عليهما باب مكتب أبيهما القديم. بكى يعقوب لوهلةٍ من دون أن يخفي بكاءه، ثمّ قال بكلماتٍ متقطعة: «هي تقول "محن". ما الذي يمكن أن يكون قد حدث؟».

هزّ جان كتفيه: «عادي! حكاية حبّ عابرة لم تنتهِ بصورة حسنة! في هذا العمر!».

مخط الأب المسكين بصوتٍ مرتفعٍ، في حين بدأ جان التحدّث في موضوع آخر:

- هل تعلم ما الذي اخترعه سيرج الغبي من جديد؟

آنذاك، باتت الحرب معلنةً بين الأخوين، رغم أنهما لم يصلا بعد إلى

حدّ تبادل إطلاق النار في ساحةٍ عامة. السياسة! السياسة دائماً وأبداً! انتمى سيرج إلى حزب الجنرال ديغول، الحزب المنتصر، وانتُخب على قائمته مستشاراً لبلدية غوربير. وبما أنّ جان قبِل رئاسة الشرف لحركة الوطنيين، A.O.P.G.، فقد جعل كلٌّ منهما الآخر كبش فدائه المفضّل. فجان يعدّ سيرج رمزاً لهذه البرجوازية المتوسطة الاندماجية، التي تكشف عورتها وهي تصيح «عاشت فرنسا» منذ ثلاثة قرون. وسيرج يعدّ جان أسوأ من شيوعي! أمّا يعقوب، فيحرص على عدم الانحياز في هذا الخصام، لأنّه يعلم من تجربته الخاصة أنّ السياسة هي مجالٌ سيئٌ يجب ألّا يغامر بدخوله إلا ديوك المصارعة الشرسون، وبعد أن يشربوا الروم حتى يسكروا!

- هو الذي سيرشد ديغول عندما سيقترح الجنرال وضعاً خاصاً لغوادلوب! وربما يحصل في الوقت عينه على وسام جوقة الشرف الذي يتطلع إليه!

واصل الأب المسكين الفواق والتمخيط وتعذيب نفسه من دون أن يسمع تلك الأقوال:

- هي تقول «محن». عمّ تتكلّم؟ أتعلم يا جانو، إن كان رجلٌ ضحك على ابنتي، فسأحمل بندقيةً وأقتله بيديّ، بيديّ هاتين!

وجان الذي يعلم جيداً أنّ أخاه عاجزٌ عن إيذاء ذبابةٍ لم يستمع إليه وواصل سيل كلامه: «ربما سيحصل على ذلك الوسام! أراهن على أنّ سيرج لن يكون أكثر من نائبٍ لا يحرّك ساكناً في الجمعية الوطنية. ما رأيك؟».

لم يكن لدى الأب المسكين رأي.

بعد أسبوعٍ أو أسبوعين، أتى دور جيسنير في الدخول كمجنونٍ إلى

كوخ العصيّ القصيرة حيث يخربش جان كتاباته بحماسةٍ وقال: «رسالة! رسالة من تيكلا! إنّها ذاهبة إلى نيويورك!».

دُهش جان: «نيويورك؟ ما الذي ستفعله هناك؟».

لم تنصّ الرسالة على الإجابة.

«عزيزي جيسنير،

هل ستغفر لي يوماً قسوتي تجاهك؟ عذري الوحيد هو أنني كنت ضحية تربيتي.. هل من النافل القول إنّك علّمتني كل شيء وإنّك الرجل الوحيد الذي سأحبه؟

عزيزتك تيكلا المسكينة».

مسكينة؟! تبادل الرجلان النظرات، ورأى جان رغبة جيسنير في بيع قطعة الأرض التي ورثها عن أبيه وهي تشتعل في عينيه البنّيتين الجميلتين، من أجل أن يكتشف أميركا هو أيضاً. إنه الشباب! الشباب!

زمجر قائلاً: «لا تشتعل حماساً! لا تنفعل كثيراً! لم تطلب منك أن تذهب للحاق بها على حدّ علمي! الأفضل لك أن تحضّر لامتحان الإسعاف!».

على الرغم من أنّ ديودونيه ابن جان من لحمه ودمه، لكنه ترعرع في لابوانت تحت تأثير تيما التي أخذ رغماً عنه يتّسم بسِماتها، فيشطف مرّتين كأسه، ويُبعِد طبق الميغان بثمرة الخبز بعد لقمةٍ واحدة، ولهذا كان جيسنير ابنه أكثر من ديودونيه! كان صغيراً جداً عندما رآه برأسه الكبير المقبّب، يصل طوله إلى ركبة أبيه وهو يستمع بوقارٍ إلى التفسيرات، ويمرّر أصابعه

الصغيرة على جلد طبلٍ مشدود! عاقبه عشرات المرات في باحة المدرسة ويداه مبسوطتان إلى جانبه وفي كلّ يدٍ حجرٌ كبير، ليجعله يحفظ جدول الضرب. ثمّ فهم أنّه يجب تركه ليفعل ما يريده: الموسيقا!

أصبح موسيقياً، وأيّ موسيقيّ! شكّل فرقةً تضمّنت إضافةً إليه هو ضارب الطبل، عازف فلوت وعازفاً على التيبوا(*)! آه! كم هذه الألحان رائعة!

فرقة جيسنير، «كريّ»(**)، كانت تتسبب في مصيبة في كلّ أعياد المناطق، من بوتي بور إلى فيو أبيتان (Vieux Habitants). إذ يكفي أن يجري الإعلان عنها حتى تسودّ المقاعد بجمهورٍ متعطّشٍ ورزينٍ في آنٍ معاً. لأنّ موسيقا جيسنير لم تكن تخاطب الحواس فحسب مثل موسيقا البيغوين، بل تخاطب أيضاً القلب والروح. لم تكن تكتفي بجعل الساقين تتأرجحان والكفلين يتماوجان، بل توقظ في كلّ شخصٍ الرغبة الغامضة في الحب والمبادلة والمشاركة، ولم يكن نادراً أن يتعانق شخصان لا يعرفان أحدهما الآخر ويتبادلا القبل أثناء الحفلات. أمّا الكلمات التي ترافقها، فلم تكن أبداً فظّةً ولا فاحشة، بل شاعريّة، وغنائيةً إلى حدٍّ ما!

لكن آنذاك، كان جيسنير في طور البحث عن الذات. لم يكن قد ألّف بعدُ المقطوعة التي أهداها لأمّي، تلك المقطوعة التي انتشرت على الفور في القسمين الفرانكوفوني والأنغلوفوني من منطقة الكاريبي، من دون أن ننسى كوبا وبورتوريكو وجزيرتَيْ أروبا وبونير قبل أن تغزو إفريقيا وأوروبا: مقطوعة «لامبيه»(***).

(*) Ti-bwa: آلة موسيقية إيقاعية. [م].

(**) Creye، وتعني: الفرقة.

(***) Limbé، مرض الحب.

.3

عندما وصلت تيكلا إلى نيويورك في شهر آب 1963، بعد أبيها بأكثر من عشرين عاماً، كانت متقدّمةً عليه بفضل مانويل، الدليل القادر على أن يفتح لها جوف المدينة مثلما تُفتح حصّالة نقود. وُلد مانويل وترعرع في الشارع 130، وكي يدفع كلفة تعليمه، اشتغل في مسح الأحذية في كلّ تقاطعات مانهاتن، وباع المخدرات في كلّ مبولةٍ عامة، وضاجع ليتسلّى في كلّ قبو. عبر الدفيئة الخالية من الهواء التي تشكّلها الشوارع والجادات، كان يمضي وهو يشدّ على ذراع تيكلا:

– انظري بكلّ عينيك يا حبّي! إنّها المخلوق الأجمل والأكثر انحرافاً في العالم! هي على صورة مشاعري تجاه أميركا، هذه الأرض التي ولدت فيها. تتجاور فيها الكراهية والحب. الفظاظة والشعر. هي داعرة. تعرف كيف تكون عذبة. وهي أحياناً شاعريةٌ وحالمة. لكنّها في الأساس متهتّكة. وعندما تضاجع، تمزّق صيحاتها المبحوحة غشاء الطبل. لا يستطيع المرء الاستغناء عنها!

من المؤكّد أنّ هذا الدليل النبيه كان يتأبّط ذراع تيكلا، وهي التي عرفت مدينتين كبيرتين هما باريس ولندن. بل إنها جازفت ذات صيفٍ وذهبت مع دوني إلى برشلونة، وشربت نبيذاً أحمر في أحيائها. وعلى الرغم من ذلك، كادت تشعر بانفعالات ذعرٍ عانى منها والدها الساذج الذي كان قلّما خرج من مسقط رأسه. مذهولة، مشدوهة، مذعورة. لأنّ نيويورك شراب حبٍّ يُلهِب أقوى البنى الجسدية. ثمّ سحب مانويل تيكلا معه مباشرةً إلى دائرة الجحيم السابعة، حيث لا تفوح رائحةٌ قذرة من الرذيلة، حيث يسود العنف ولا تساوي حياة الإنسان شيئاً.

كانت عائلته لا تزال تقبع في الشارع 130. لم يكن الأب، وهو فلّاحٌ تحوّل في شبابه إلى بوّاب فندق، يتحمّل شتاء حياته السيّئ إلا بمساعدة مشروب الباكاردي الرخيص الذي يحتسيه من المساء إلى الصباح. يهزّ برأسه وهو ضائعٌ في كوابيسه قرب النافذة التي تنفتح على سويّة فوهات الحريق وأحذية المارّة المرقّعة. ويتأوّه أحياناً: «حياة داعرة! لم تشرق الشمس يوماً من أجلي! عبرت البحر فوجدت الجوع والأسى على الضفتين. نعم، نحن عرقٌ ملعون!».

فيغضب مانويل عندما يسمعه ويمطره بشتائم اليأس والحب، في حين تحضّر السيّدة باستور التي أمضت نهارها في تنظيف المراحيض أكواماً من الغذاء، وتجترّ الخطايا التي أوصلت ثلاثةً من أبنائها إلى سجونٍ مشدّدة الحراسة في أرجاء البلاد. وتشكر ربّها لأنّ إيرل، المفضّل لديها، سيعود قريباً إلى البيت.

وعندما تدقّ الساعة تمام السابعة، تنبِّه الرائحة الواعظين الرؤيويين السيّد والسيّدة بالتيمور اللذين يسكنان الشقة المجاورة، فيدخلان المطبخَ ويأخذان راحتهما في أكل أفخاذ الفروج المقلي والأرز باللحم المطبوخ على الطريقة الكريولية، والقريدس المطبوخ بالبامية وشرائح الحلوى بالبطاطا، وهما يقرأان بصوتٍ مرتفعٍ بين لقمتين صفحاتٍ من الكتاب المقدّس.

«ارمِ خبزك على وجه المياه فإنك تجده بعد أيام كثيرة؛ أعطِ نصيباً لسبعةٍ، ولثمانيةٍ أيضاً، لأنك لست تعلم أيّ شرٍّ يكون على الأرض».

أو أيضاً:

«قلب الحكيم عن يمينه وقلب الجاهل عن يساره. أيضاً إذا مشى الجاهل في الطريق ينقص فهمه».

منذ أن غادر الواعظان الرؤيويان، السيّد والسيّدة بالتيمور، كوخهما في ألاباما، طوّرا آليّتهما التي لا يمكن أن تخطئ! فكلّ صباح، يقفان في زاوية شارعٍ ويضعان بين قدميهما وعاءً صغيراً ويتنبّأان بنهاية عرق الزنوج في رائحة خطيئته النتنة. ويضخّم السيّد بالتيمور، الأكثر إلهاماً، صوته:

– سارعوا! سارعوا! ها هو ذا عزرائيل ملك الموت يأتي وهو يحمل في يمناه منجله اللامع. تبرّعوا، تبرّعوا لإيقاف عربته!

فتنهمر قطع السنت والعشرة سنتات ونصف الدولار. وعندما يمتلئ الوعاء، يذهب السيّد والسيّدة بالتيمور لشراء بضع زجاجاتٍ مغلّفة بعناية ويودعانها في شقّتهما، قبل أن يأتيا إلى بيت السيّدة باستور ليتخفّفا من جهدهما النهاري. كان الزوجان بالتيمور يبثّان الرعب في نفس تيكلا، ولا سيما الواعظة التي تنظر إليها وكأنها فريسة، بعينيها المحمرّتين. كم ودّت لو تهرب من هذا الجحر الخالي من الهواء وتنزل إلى أسفل، دائماً إلى أسفل نحو تلك الجادات التي تعيش الحلم، أو تطير إلى تلك الضواحي الميسورة حيث تتزيّن الأشجار بألوان الصيف الهندي! لكن لا فائدة! إذ إنّ مانويل كان متشبّثاً بأهله مثلما يتشبّث المرء بمقلتيه!

في منتصف شهر أيلول، عاد إيرل من سجن سان كوينتين حيث أمضى عشر سنواتٍ بسبب قيامه بسرقةٍ مسلّحة. لم تكن تيكلا صادفت سابقاً لصّاً محترفاً، ورأته يدخل، رجلاً قصيراً، أقصر من مانويل، بعينين عقيقيّتين مشابهتين لعينيه، وصوتٍ عذبٍ كصوت طفل جوقةٍ في القداس. قبّل أباه العجوز على جبينه وعانق أمّه العجوز المنتحبة قائلاً: «هيّا، هيّا، انتهى الأمر!».

وقام أيضاً بأمرين مهمّين. طرد كما يجب السيّد والسيّدة بالتيمور

عندما أتيا وقت العشاء، وعند حلول الليل، انزلق في السرير القابل للطيّ الذي تنام عليه تيكلا مع مانويل الذي أخذ يشرح قائلاً: «لطالما تقاسمنا كلّ شيء!».

إلى هذه الحقبة يعود تاريخ ثاني تحوّلٍ لدى أمي. أنظر إلى الصور. اختفت المناضلة من دون تمهيدات! حلّت محلّها أنثى بهيّة، تُحرث مراراً وتكراراً، صوتها منخفض، أجشّ، يردّد الصدى مثل الساكسوفون في الأماكن المعتمة والقذرة التي تمضي فيها الليالي مع رجُليها.

لكن بين خطرين لجرعةٍ زائدة، لم يغب انشغالها الفكري تماماً. المفارقة أنّ إيرل، اللص، كان من مناصري اللاعنف وتلميذاً متحمّساً لمارتن لوثر كينغ، يتابع بحماسةٍ مسيراته في التلفزيون معلّقاً: «انظروا! لقد أفلتوا الكلاب! إنهم يريدون حقاً التخلّص منا!».

أمّا مانويل، فتابع تبجيل مالكوم إكس. لم يعد يحلم إلا بالنقاش معه حول نقاطٍ في الإسلام بقيت غامضةً عليه، وعلى أمل اللقاء به، بات من الروّاد المنتظمين لمعبده في الشارع 116. لكن لسوء الحظ، كان الرجل العظيم يحاول إشعال الحريق المخلّص في مناطق عديدة من البلاد أو يزور إفريقيا، أو أنّه كان مشغولاً جداً. لم تشترك تيكلا في خلافاته. فقد تخلّت عن ريتشارد رايت وبدأت تشعر في داخلها بولادة موضوعٍ أكثر طموحاً: «حول شرط السود في أميركا». ولهذه الغاية، حاولت سؤال السيّدة باستور. هل تحدّث لها أهلها عن حياتهم في فيرجينيا؟ ماذا وجدوا في الشمال؟ للأسف، لم تنبس السيّدة باستور ببنت شفة، إذ كانت تعيب على هذه الدخيلة أنها سرقت ابنيها منها!

«عزيزي جيسنير،

ما أراه حولي في نيويورك، في هذه المدينة التي يسيطر عليها تمثال الحرية، أمرٌ لا يمكن تخيّله. وفي المقابل، كم تبدو حياتنا وحياة أهالينا مزدهرةً وخاليةً من الأحداث...».

بعد بضعة أشهر، بدأ بطن تيكلا يتكوّر تحت أثوابها الفضفاضة.

ربّت تيما تيكلا على احترام الله والخوف من رأي الرجال، بيد أنّ تيكلا تحرّرت من تعاليم طفولتها. لكن ليس بما يكفي لتقبّل التردّد حول أبوّة الجنين الذي أخذ يتحرّك داخلها. تحوّلت إلى مزاجٍ سوداوي، زاد من سواده تنبّؤٌ من السيّدة بالتيمور التي صادفتها في الممرّ: «ثمرة الخطيئة لا تنضج!».

كان مانويل يبتهج ويتشقلب فرحاً: «زنجي صغير إضافي! يبدو لي وكأنّني أراه، عيناه تحتلان جزءاً كبيراً من وجهه رغبةً في الأشياء التي يمنعها البيض، لأنّهم يعلمون أنّنا نفعل كلّ شيءٍ أفضل منهم إذا ما أفسحوا لنا المجال!».

أمّا إيرل، فكان أكثر تحفّظاً، بل أحياناً سوداوياً بقدر تيكلا. يذرع الغرفة قائلاً: «لن نستطيع أن ندفع لابننا كلفة الحياة اللازمة ليصل إلى المراتب الأولى في هذا البلد البائس بالأجر الهزيل الذي يكسبه مانويل في جامعته!».

ثم بدأ يشحّم بندقيته ذات الماسورة القصيرة والموضوعة على قطعة أثاث، واختفى ذات مساء.

.4

الأمر هكذا دائماً! إذا سألنا أميركياً في الشارع عن الأمر الذي فاجأه أكثر من غيره في العام 1965 ذاك، فثمة احتمالٌ كبيرٌ أن يجيب قائلاً: اغتيال مالكوم إكس بُعيد اغتيال كينيدي في أميركا التي فقدت عقلها.

والحال أنّه على الرغم من إعجاب مانويل بالزعيم، فلم يبالِ تقريباً بموته ولم يتذكّر تلك السنة، 1965، إلا بسبب رحيل أخيه خلسةً، وعودته فجراً بعد ثلاثة أيامٍ وملابسه يصبغها الدم وآخر ابتساماته وهو ينظر إلى تيكلا:

– *Take care, baby!*(*)

بالنسبة إليه، ذلك كان عام 1965، في خضمّ حداد السكّان السود وثورتهم في بلاده! وكان عليه أن يلاحظ بذهولٍ أنّ مرور إيرل م. باستور الذي توفي في عامه الثالث والثلاثين لم تكن له أيّ قيمة!

شهد موت إيرل انتصار السيّد والسيّدة بالتيمور. فما إن أُعيد الجسد الدامي إلى البيت حتى ظهرا في القبو الذي يردّد فيه انتحاب تيكلا صدى انتحاب السيّدة باستور. لم يكن ثمة من يطردهما هذه المرة. وفي حين ركع السيّد بالتيمور، هاجمت السيّدة بالتيمور فرائسها، كأنها عنكبوتٌ مفترس. سرعان ما أهملت السيّدة باستور، لأنّها فريسة شديدة السهولة، وانقضّت على تيكلا. كان التشخيص في نظرها واضحاً:

– رائحة خطيئتك هي التي أزعجت منخارَيْ الربّ الأزلي. سوادها هو الذي أثار حنق قلبه المحبّ دائماً والمستعدّ للغفران. لقد نمتِ تحت

(*) «حظاً سعيداً يا حبيبتي!».

ملاءةٍ بين رجلين، بين أخوين! ما الاسم الذي ستطلقينه على الوحش الذي سيخرج من أحشائك؟

قالت تيكلا وهي تنتحب: «وأنتِ لا تعلمين كلّ شيء! لا تعرفين كامل جرائمي. أنا، تيكلا لوي، قتلتُ الأب والأم. غرست سيفاً في قلبيهما. تركت دمهما يسيل. تلمّظته شفتاي!».

- لماذا فعلتِ ذلك؟

- كنت أخجل بهما. ألومهما على أنهما أسودان بصورةٍ مفرطة. على أنهما غير متعلّمين. لم تكن أمي تعرف شيئاً. لم تكن تستطيع الحديث إلا عن وصفات الطعام وأحلامها. «كي تطبخي الدومبوي والبازلاء، خذي...» وفي الوقت عينه، كانت تظنّ أنها خرجت من فخذ جوبيتير. احتقرت الناس كلّهم بسبب ما تملكه من أموال. أمّا هو، أمّا هو...

- هيّا، هيّا، اهدئي!

- كنت أتمنّى أن يكون لي والدان آخران، عائلة أخرى! كنت أتمنى...

بعد أسبوعٍ من موت إيرل، وفي حين كانت تقرأ الكتاب المقدّس: «قال الجاهل في قلبه: "ليس إلهٌ!". فسدوا ورجسوا رجاسة. ليس من يعمل صلاحاً. الله من السماء أشرف على بني البشر لينظر: هل من فاهمٍ طالبٍ الله؟ كلّهم قد ارتدّوا معاً»، أصيب بطن تيكلا بآلامٍ شديدة وسال منه غزيراً دمٌ شديد السواد. انقلبت على ظهرها في حين كانت السيّدة بالتيمور تجهد لتجعلها تضمّ يديها وتكرّر من بعدها: «هوشعنا! فليتحقّق عدلك!».

في الوقت عينه، في لابوانت، اجتمعت مجموعةٌ من الأطباء حول سرير تيما التي تصرّ بأسنانها تحت تأثير مرضٍ غامض.

- إنه سن اليأس! وهو عسيرٌ على النساء. لماذا لا تصحبها للقيام بجولةٍ في البلد الأم؟

حسب يعقوب الكلفة!

بعد أن فقدت تيكلا جنينها وكفّرت عن ذنبها، امتنعت بصرامةٍ عن ارتكاب مزيدٍ من الذنوب.

تركت مانويل والشارع 130، واستأجرت غرفةً من عائلةٍ محترمةٍ في بروكلين، أصلها من هاييتي.

كما استأنفت دراستها.

.5

أجل، بعد أن أُلقيت كلّ هذه الجثث أرضاً، كان من الطبيعي أن ينفصل مانويل وتيكلا كي تستمرّ الحياة.

بقي مانويل وقدماه في ثلج نيويورك. في النهار، يشتغل على رسالة الدكتوراه التي باتت منذ بعض الوقت تؤثّر فيه مثلما يؤثّر إعلان نعي. وفي الليل، يقدّم مبولةً أو مبصقةً لعجائز في مستشفى، ويتلقّى في وجهه أنفاساً مقزّزة الرائحة عندما يحاولون الترويح عنه من حزنه البادي. لم يكن يسمعهم ولا يراهم. ففي كلّ لحظة، تشوّش تيكلا رؤيته.

أعثر على تيكلا في بورت أوبرانس، في هاييتي. لقد لملمت، والحق يقال، بقايا نفسها بصورةٍ سليمةٍ إلى حدٍّ ما، وسجّلت نفسها في جامعة كولومبيا لإجراء بحثٍ بعنوان: «تأثير نهضة هارلم في المثقفين الهاييتيين».

فعلت ذلك بنوعٍ من العادة، معتقدةً أنّ الدراسة تضفي معنىً على حياةٍ مجرّدةٍ منه.

سكنت في حيّ تورجو، في نزلٍ عائليٍ اسمه «لي بوانسيتيا» تديره السيّدات فولدر.

عانت عائلة فولدر الخلاسية كثيراً منذ مجيء الدكتاتور الزنجي دوفالييه. فهرب جميع الرجال بفوضى نحو أميركا الوسطى أو الشمالية أو الجنوبية هرباً من الطونطون ماكوت(*) ولم يبقَ إلا هؤلاء النساء الأربع: الأم. الخالة. الابنة البكر. الابنة الصغرى. الأربعة جميعهن، ببشرةٍ لونها لون عاج الصليب، ويرتدين الأسود حداداً على زوجٍ أو خطيبٍ أو أبٍ أو عاشقٍ لم يعلن عن عشقه، لكنهم كانوا سيمنحونهن أطفالاً جميلين. والوقت الذي لم يكن يمضي في زجر خادماتٍ صغيراتٍ خائفات يخفضن رؤوسهنّ كان ينقسم بين ترتيل الصلوات والتحدّث مع الزائرين. صلواتٌ للأحياء. صلواتٌ للموتى. صلواتٌ للغائبين. صلواتٌ للحاضرين. صلواتٌ بخاصةٍ لهايتي الحبيبة التي لا تني تتألم. زياراتٌ لجميع الآباء والأصدقاء ممّن هم في حالة حداد. موكبٌ يأتي من كلّ مكان. أرامل من الرجال والنساء. أيتام الأب والأم، يمحون تمرّدهم بالماء المقدّس.

أثناء خروج تيكلا من مكتبةٍ عامة، وقف أمامها خشب أبنوسٍ حقيقيّ، كان سيكلّف ثروةً في أوقاتٍ أخرى دونما شكّ.

– آنستي، اغفري لي جرأتي!

(*) Tontons Macoutes: ميليشيا شبه عسكرية تأسّست في هايتي بعد اعتداءٍ تعرّض له فرانسوا دوفالييه في عام 1958، مستوحاة من الميليشيا الفاشية. ثمّ استخدمها ابنه وخليفته جان كلود دوفالييه حتى سقوط النظام في عام 1986. [م].

يا الله! لم ترَ يوماً رجلاً مرتفعاً إلى هذا الحدّ! ومربّعاً! هي التي خفضت عينيها سنواتٍ نحو إيمانويل، ثمّ نحو إيرل الذي كانت تضمّه إلى ثدييها، ولم يكن وزنهما يزيد عن وزن الأطفال! انتابها دوارٌ من كلّ تلك القوة!

- أقدّم نفسي: إينوك ماجيستير!

لم يكن إينوك ماجيستير شخصاً رفيع المقام؛ إذ كان صحافياً في صحيفة «نوفيليست»، لكن بذراعين طويلتين تحيطان بجسد تيكلا، وفمٍ يلتهمها بالقبلات وقضيبٍ طويلٍ يحشره ملتهباً بين شفتيها أو بين فخذيها. إضافةً إلى ذلك، كان من مواليد بلدة جاكميل (Jacmel) ولديه أمٌّ طيّبةٌ وحنونةٌ على الغوادلوبية التي لم يكن لديها بيت. كانت السيّدة ماجيستير تبيع الخبز، الخبز الذي يصنعه زوجها الذي يُدعى إينوك، مثل الابن البكر، وتنظر إلى الدكتاتورية بفلسفة.

- نحن نعاني منذ قرون! قاتلنا لإخراج الفرنسيين وجلب الحرية. ذهب الفرنسيون، لكنّ الحرية لم تأتِ. ثمّ قاتلنا لإخراج الأميركيين وجلب الحرية. تكرّرت الحكاية. ذهب الأميركيون لكنّ الحرية لم تأتِ! تحرّكنا لطرد الرؤساء الخلاسيين. ذهب الرؤساء الخلاسيون. أتى زنجيٌّ والأمور أسوأ! أنا أقول لك إنّ عرقنا هو عرق الملعونين!

لم يكن الأب ماجيستير يحتفظ بمثل ذلك الهدوء، فيردّد بانفعال: «أعطوني بندقية! ضعوا دوفالييه في مرماها وسأقتله لكم! سترفعونه عن الأرض ميتاً!».

أمّا إينوك الذي أتاحت له بطاقته الصحفية الدخول إلى القصر، فيتخذ هيئات الأناس العليمين: «إنّه ليس مثلما يعتقده الآخرون، وفي حال غزرته بإبرة، لن يخرج منه دم! بل ماءٌ ممتزجٌ ببعض القيح. إنّه البارون

سامدي(*) وأنا أقول لكم، سواءٌ في أيام العمل أم خارجها، يجب أن ينال حصته من اللحم الطازج! وهذا هو السبب الذي من أجله يقتل الطونطون ماكوت كلّ هؤلاء الناس».

ذات يوم، أحضر إينوك لجميلته بطاقة دعوة، رغبةً منه في أن يكون مهمّاً في عينيها اللتين لا تبتسمان. كُتب على البطاقة بحروفٍ مذهّبة: السيّدة والسيّد الرئيس يدعوان الآنسة تيكلا لوي الباحثة الدولية (كذا) إلى حفلةٍ في حديقة القصر الرئاسي.

هذه المرّة، سوف أبدي بعض التسامح تجاه أمي. ليس هنالك شكٌّ في أنّها لو لم تشعر بهذا القدر من الوحدة والضياع وثقل جميع أولئك الموتى على ضميرها، والتخوّف من الوقت الذي تضيّعه قليلاً كلّ يوم، لما ذهبت لتلبية تلك الدعوة.

لكنها قبلت بها، وقد تعبت من الذكريات ومن الملل. وجدته جميلاً، ذلك القصر الرئاسي، بأسماكه الذهبية التي تسبح في حوضٍ من المرمر المشوب بالأزرق، وطيور البشروش التي تلتقط الطعام من أيدي المدعوّين، والببغاوات الخضراء التي تثرثر دون توقّفٍ في أقفاصها. رقصت بحماسةٍ مع إينوك الذي كان يتباهى، وقدّمها إلى رجالٍ آخرين لهم طوله وعرض منكبيه. آه! كم هو جميلٌ عِرق زنوج هاييتي!

أُشيع أنّ الرئيس مصابٌ بسلسٍ شديدٍ في البول بسبب البروستات، وأنّه شبه عاجزٍ عن الوقوف على قدميه. غير أنّه وقف وألقى خطاباً طويلاً

(*) Baron Samedi: في الديانة الفودوية، وهي ديانة نشأت في داهومي غربي إفريقيا، هو أحد مظاهر لوا الأموات. ولوا هي الأرواح، وهي وسيطة بين الخالق مباماوو أو السيّد الكبير والبشر. [م].

جدّاً، عدّد فيه محاسن ولايته. قوبل الخطاب بتصفيقٍ حادّ. ثم أتى ثلاثة عازفين إلى منصّةٍ وأُعلن عن أوتافيا.

بعد أن غنّت أوتافيا بصوتها العظيم مآسي شعب هاييتي على كلّ مسارح العالم، استغرب بعض الناس أن تغنّيها هذه المرة أمام أولئك المسؤولين عن تلك المآسي. توقّف الزمن بالنسبة إلى تيكلا التي تعلّمت الموسيقا على يد جيسنير، في حين كان تناغم الأصوات يتدفّق حتى باب السماء. انهمرت دموعٌ على خدّيها وهي تعيش خليطاً من ذكريات الطفولة والحب الأول وموت أحد رجالها وخسارة طفلها (يسرّني اعتقاد أنها فكّرت أيضاً بي أنا التي كنت أترعرع في منفاي في فينيستير!)، في حين تساءل إينوك ماجيستير مضطرباً أيّ سماءٍ أسقطت عليه تلك المرأة!

Souflé van
Souflé van
Pitit-mwen ka mo
Mari-mwen ja mo
Mwen mem an pa sav
Si sé viv an ka viv...(*)

عادت تيكلا في وقتٍ متأخرٍ جداً من القصر الرئاسي في تلك الليلة، مع صديقٍ لإينوك ماجيستير صادف أنّه وزيرٌ لشيءٍ ما. أو وزير دولة.

في اليوم التالي، لم تظهر السيّدات فولدر على الفطور الذي كان يُقدَّم دائماً في صالة الطعام القديمة ذات الحواجز الملوّنة بلونٍ أخضر باهت، تحت النظرات الطيّبة التي يلقيها السلَف ذو السالفين الأشقرين تريجف

(*) «اعصفي يا رياح، اعصفي يا رياح/ ابني يموت/ زوجي مات/ وأنا نفسي لا أعلم/ ما إن كنت ميّتةً أم حيّة».

فولدر الذي أتى من النرويج مع بعض الكرونات(*) المطويّة في حذائه. لم يظهرن لا على مائدة وجبة الغداء ولا على مائدة وجبة المساء التي جلست إليها تيكلا المدهوشة وهي تتوقّع المأساة. بين الحساء وفطيرة الجلاهب، قدّمت لها خادمةٌ وهي ترتجف ورقةً من السيّدة فولدر الأم تصرفها: «لا نستطيع أن نقبل تحت سقفنا أولئك الذين يعقدون حلفاً مع أعدائنا».

لم يخطر في بال تيكلا أن تبرّئ نفسها، فرتّبت حقيبتها وهي حزينة وذهبت إلى «فندق إيبو ليله». في الحجرة المجاورة لحجرتها، كانت تنزل أوتافيا.

.6

يمكن أن تتشابه الصداقة بين النساء مع الحبّ. إذ يكتنفها حب الامتلاك والغيرة والهجران. لكنّ التواطؤ فيها أكثر ديمومةً، لأنّها لا تستند إلى لغة الأجساد.

لكأنّ تيكلا وأوتافيا خُلقتا لتتحاورا. مثلما يتحاور ناي الحزن مع التيبوا في الموسيقا التي تدير دوّامات الأحصنة الخشبية. والد أوتافيا بنّاءٌ إيطالي أتى لتصليح بلاط، فدخل في سرير ميرالدا، أصغر بنات عائلة مالدن الأرستقراطية وأجملهنّ، وهم خلاسيّون من أصلٍ ألماني. كان سكّيراً. بعد أن أنجبت منه ميرالدا سبعة أطفال، سقط سقطةً مميتةً من على سقف. وميرالدا التي لم تفعل شيئاً بأصابعها العشرة، ارتمت على كتف الخبّاز الذي كان يعطيها الخبز بالدَّين، وكان أبنوسياً رائعاً ظلَّ

(*) الكرون: وحدة النقد في النرويج. [م].

يتساءل حتى آخر يومٍ في حياته ما إن لم يكن أفضل له لو أنّه ترك شاحنته الصغيرة في المرأب في صباحٍ معيّن. نشأت أوتافيا إذاً وسط كتيبة الإخوة والأخوات الأشقاء وغير الأشقاء، منخرطةً بالكامل مع صغار القرويين في كاي، ترمي مثلهم الأحجار على ثمار المانغا المخصّصة للفطور، لكنها تحتقرهم وتعتقد أنّها تنتمي إلى نوعٍ أسمى منهم. وهي قناعةٌ أزكتها ميرالدا التي تمتلك بعض المجوهرات الجميلة وأغطية طاولاتٍ دمشقية في سلّةٍ كاريبية. ثمّ تبنّتها كارلوتا، خالتها الكبيرة التي لم تتزوّج. سجنت كارلوتا جسدها البري في زيٍّ أبيض وأزرق، وسجّلتها في مدرسة داخلية في لالو (Lalue) حيث سخر أبناء البرجوازيين من لكنتها، وتهامسوا بأنّ والدتها عاشت في مساكنة. لذلك كانت أوتافيا، مثلها مثل تيكلا، تكره طفولتها وعائلتها وتكره كذلك، كما اعتقدت، بلدها الذي يرمز لهما. بيد أنّها كانت أوفر حظاً من تيكلا، فقد جعلت تلك الضغائن تتسامى، وتحرّرت من كلّ ذلك المزاج عبر انتقاد السلطات والبرجوازيات. هكذا، لم تعد أوتافيا تفكّر في أن تستقلّ الطائرة للعودة إلى نيويورك، رغم أنّه كان من المفترض أن تغني أمام اللاجئين الهايتيين، فباتت تتمدّد مع تيكلا جنباً إلى جنب وتفرغان عدداً كبيراً من زجاجات روم باربانكور. وطيلة الليل، تخوضان حواراتٍ متشعّبة حول العالم، والحياة وشرّها المتأصل، والزنوج، والخلاسيين، والمتعة، والدين، والموت، والسياسة. لذا، لم يعد المسكين إينوك ماجيستير يجد وسيلةً لمضاجعة عزيزته تيكلا، فأخذ يجرجر نفسه في الحديقة من دون كلل، برأسٍ وعضوٍ متدلّيين.

ليست لديّ معلوماتٌ دقيقةٌ حول طريقة تصميم الأمور وسيرها، وأعترف أنني في هذه النقطة لا أستطيع سدّ الثغرات. هل حقاً كلّف

أصدقاءٌ سياسيون أوتافيا بمهمة؟ إلى أيّ مدىً تجاوزت تلك المهمة؟ وإلى أيّ مدىً لعبت دور الساحر المتمرّن؟ هل صحيحٌ أنّها استندت إلى بعض كهنة الفودو ممن تعرفهم جيداً بفضل دراستها لموسيقا معابدهم ذات الأعمدة؟ هل صحيحٌ أنّها حرّضتهم على أمر الشعب بالنزول إلى الشارع والزحف إلى القصر؟ هل صحيحٌ أنها كانت في الوقت عينه تستفيد من تواطؤٍ في محيط دوفاليه؟ يبقى أنّ ذلك أدى إلى الحدث الذي يعرفه جميع المهتمين بتاريخ الأنتيل: قمع 1967 الوحشي.

بدأ كلّ شيء بحريق بيت وزير الداخلية، لوكنر داميداس، الراقص الممتاز الذي تحبه النساء. فعندما انتصف الليل، لامس اللهب المائل إلى اللون البرتقالي السماءَ السوداء. (قال قائلون إنّ تلك كانت إشارة). لم يُتَح للوكنر الوقت سوى ليرمي بنفسه من نافذة البيت البسيط الذي كان ينام فيه وحيداً. أمّا زوجته وأبناؤه الخمسة النائمون في الطابق الأول، فحُرقوا أحياء. استغلّت مجموعاتٌ لا تُعَدّ ولا تحصى الفوضى التي يغذّيها الحريق في بلادنا، فخرجت من الظلّ واجتمعت وسارت بموجةٍ غاضبة تهتف: «يسقط النظام!».

على الفور، قطع الطونطون ماكوت نومهم ولم يرحموا أحداً. بعد خمسة أيام، لأنّه مضت خمسة أيام، خمسة أيامٍ من الشغب، أُطلق العنان للكلاب كي تلحس دم البُرك وتقضم العظام. انتُزعت من بين أنيابها أجسادٌ ممزقة أُخذت لحرقها على أبواب المدينة. هكذا أنهت النار ما بدأته النار.

اعتُقلت أوتافيا. لكن سرعان ما أُطلق سراحها بفضل شهرتها والضغوط الحثيثة التي مارستها منظّمة العفو الدولية. أمّا أمي الأجنبية، فطُردت إلى

فرنسا بأقصى سرعة. بالإجمال، كانت ستنجو من دون خسائر لولا أنّ إينوك ماجيستير مات في تلك القضية.

آه، يا لدوار الحبّ!

كم أراد إينوك ماجيستير، الشاب القليل التعليم والذي لم يهتمّ يوماً باستغلال الإنسان للإنسان، أن تراه محبوبته بعين الرضا! تولّى إذاً قيادة عمليات أحد الأحياء، ووجد نفسه في الصف الأول عندما هجم الطونطون ماكوت والجنود.

أعتقد أننا نستطيع أن نعدّه من بين شهدائنا، إلا إذا طلبنا من الشهداء أن يكونوا حائزين على الشهادة الثانوية.

تعرّفت أمي من جديدٍ على باريس في مطلع عام 1968. ولئن كانت طريقتها في النظر إلى المدينة لم تتغيّر، لئن كانت أسطوانة ذاكرتها المشروخة تتكرّر وتتكرّر في مقاهٍ وفي صالات سينما وفي حدائق محدّدة، فإنّ المدينة نظرت إليها على نحوٍ مغاير. إذ شهدت عن قربٍ أحداثاً سياسيةً مهمّة. هل كان بوسعها تفسيرها؟

– تيكلا لوي، ما رأيك بسياسة تدخّل الأميركيين في هاييتي؟

– كنتِ أيضاً في الولايات المتحدة الأميركية عندما اغتيل مالكوم إكس. كيف كانت ردة فعل الجالية الأميركية السوداء؟

بدلاً من أن تصرخ تيكلا كي يتركوها بسلام، كانت تجلس باستقامةٍ أمام الميكروفون وتقرّب فمها منه وتتكلّم عن مبدأ مونرو والفودو والإسلام الأسود والسلطة السوداء...

في هذا الوقت، بدأت أمي تشبه أباها شيئاً فشيئاً. قيل عنها إنها جميلة لأنّ أحداً لم ينظر في قاع ثقبي عينيها السوداوين، حيث يختلط الخوف

والقلق واليأس، لأنّ أحداً لم يلتقط عدمَ التماسك والهذيان تحت كلماتها المتلعثمة والشديدة العذوبة.

مع انتشار صورة أمي في عددٍ لا بأس به من الصحف، تلقّت ذات يومٍ رسالة.

«ألبير لوي
فندق الشمال
2 ساحة أيس،
باريس الدائرة الثامنة عشرة

آنستي،

أسمح لنفسي بأن أكتب لك على أمل أن تستطيعي مساعدتي في حلّ مشكلةٍ خطيرة. خطيرةٍ بالنسبة لي بطبيعة الحال.

أنا غوادلوبي الأصل، وأحمل اللقب عينه الذي تحملينه، وأتخيّل أنّك تعرفين الأنساب المحلية أكثر مما سيمكنني معرفته في يومٍ من الأيام. كان اسم أبي هو أيضاً ألبير لوي. وقد وُلد في عام 1904(*)، وأتى ليدرس في المدرسة الصناعية في أنجيه. بعد زواجه بأمّي، قطعت عائلته كلّ اتصالٍ به، فانتحر يأساً. وأنا أحاول العثور على أقاربه الذين هم أقاربي أيضاً، وأرجو أن تطمئنّي إلى أنّني لا أفعل ذلك انتقاماً، بل لمجرّد معرفة الشجرة التي انحدرت منها. لا يستطيع المرء العيش إن كان يجهل من أين أتى. وأنا لا أعلم من أين أبدأ. هل تعرفين ذرية تاجرٍ اسمه ألبير لوي، توفي هو أيضاً حسب ما أتوقّع منذ سنواتٍ طويلة، وكان اسم زوجته إيلاييز؟

[...]

(*) هو مخطئٌ في الحقيقة. فقد وُلد بيرت في عام 1905.

إن كنت ترغبين في مقابلتي، فأنا موسيقيّ وأعزف كلّ مساء في «لاكابان كوبين». تستطيعين أيضاً مقابلتي في فندقي. سامحيني مرةً أخرى...».

لم تردّ أمّي قطّ على هذه الرسالة.

.7

ارتعدت باريس على وقع أيار 1968، ولن أتحدّث عن تلك الحكاية التي يعرفها الجميع معرفةً ممتازة.

ذات يوم، كانت تيكلا تمشي على غير هدى في الشوارع وكأنها مسرنمة، تصطدم قدماها بالحواجز وتحترق بالحرائق، فتلقّت حجراً في جبينها، ووُضعت مع جرحى آخرين في سيارة إسعافٍ انطلقت مسرعةً إلى مستشفى فال دوغراس. بيير لوفاسور هو الطبيب المقيم الذي خيّط لها جرحها بثلاث غرزات، وكان قد بلغ لتوّه الثانية والثلاثين من عمره.

بموجب تربيتها كلّها، اعتقدت تيكلا أنّ البيض ينتمون إلى جنسٍ خاص مثل القطط أو الثيران، وأنّه من غير الوارد التواصل معهم. والحال أنّها تزوّجت في 23 حزيران 1968 ببيير لوفاسور في كنيسة سان لوي ديزانفاليد. وبعد أسبوع رحلة العسل في ملْكيةٍ للعائلة، سلك العروسان طريق فينيستير الذي يصل إلى المكان حيث كنت أنشأ، كطفلةٍ نحيلةٍ ستبلغ العاشرة من عمرها قريباً.

لكن قبل الشروع في الحديث عن الانقلاب الذي تسبّب فيه هذا الزواج في حياتي، فلنتحدّث عن مفاعيله في غوادلوب ضمن عائلتنا.

كانت قد مرّت قرابة عشر سنوات لم يتلقَّ فيها جدّي يعقوب رسالةً من

ابنته، فبدأ يبكي كلّ دموع جسده. وعندما بدأت السعادة تجتاحه تدريجياً، أعاد قراءة الرسالة، إذ استغربت فطرته كشخصٍ عومل معاملةً سيئة أن يجد فيها حزن إعلان وفاة. لا يهمّ! صعد الدرج بسرعةٍ كبيرةٍ حتى تيما التي كانت تتأرجح في كرسيّها الهزّاز متألمةً وكتابها «تقليد المسيح» مفتوحٌ على ركبتيها.

«أمي العزيزة، أبي العزيز

على الرغم من صمتي الرهيب، يجب أن تصدّقوني حين أقول إنّني لم أتوقّف لحظةً عن التفكير فيكما وعن حبّكما...».

ذرفت تيما أيضاً دموعاً حارّة، وإذ استعادت عافيتها استعادةً مؤقتة، ألزمت نفسها بأن تعلن على رؤوس الأشهاد أنّ ابنتها بصدد الزواج في باريس من أبيض يمتهن الطب. أبيض؟ طار صواب العائلة. هذا يعني أنّها ستفقد تيكلا إلى الأبد مثلما فقدت سيرج المقيم في باس تير. ومهما احتجّ يعقوب بأنّ هذا الزواج هو تحديداً ما جلب أخباراً من تيكلا، فقد بقي القلق مخيِّماً على الوجوه.

– هذا يعني أنّها ستستقر في فرنسا نهائياً.

– لن تقول لي إنّ زوجها سيأتي إلى هنا، أليس كذلك؟ انتهى عهد غوادلوب!

أكثر من تأثّرا هما جان وجيسنير. كانا يأملان، خلافاً لكلّ منطق، أن تعود تيكلا إلى طريق البلاد القويم بعد أن ترتكب حماقات الشباب التي لا يمكن تجنّبها، وتكتشف أيّ جوهرةٍ هو في الحقيقة حبها الأول، وترافقه إلى المذبح قبل أن تمنحه أطفالاً أقوياء البنية. لكن لا! فقد أخذ هذا الهيكل

من الأحلام ينهار. انفعل جان لأوّل مرّةٍ أمام أخيه، ولامه على أنّه بتربيته «الغبيّة» مهّد سرير ذلك الأبيض. ووصف تيما، أمام يعقوب المندهش، بالبرجوازية الصغيرة المعقّدة والقميئة التي نقلت جنونها إلى ابنتها. فبكى يعقوب المسكين ثانيةً ولم يجد ما يدافع به عنها.

كان عمّ أمّي جان قد بات شديد الأهمية. إذ إنّ الوطنيين الذين كانوا يرفعون أصواتهم، على الرغم من زعمهم كونهم متخفّين، وينظّمون الفلّاحين تنظيماً رائعاً، جعلوه رمزاً. برجوازياً صغيراً انسلخ عن طبقته. يتعرّض لسوء المعاملة من الإدارة الفرنسية. مؤلّف كتاب «غوادلوب المجهولة»، وهو مؤلَّفٌ فريدٌ من نوعه من حيث معرفته بالتقاليد الشعبية. الأب الروحي لواحدٍ من أهمّ موسيقيّي البلاد، هو نفسه وريث معلّمٍ في الإيقاع.

لم يُفد ذلك كلّه في تحسين طباع عمّ أمي جان، مثلما كانت تشتكي مارييتا لمن يريد أن يستمع إليها. فبعد أن كان هذا الرجل في الماضي عذباً وحالماً ومسكوناً بالإحساس بالذنب الناجم عن انتحار امرأته الأولى، أصبح شخصاً فجّاً متباهياً يعتقد أنّه قديسٌ مثل يوحنا فم الذهب. يناقش في كلّ شيء: كوبا وكاسترو. غينيا وسيكو توري. أميركا ومارتن لوثر كينغ، على الرغم من أنّه لم يذهب يوماً إلى مكانٍ أبعد من ماري غالانت، مثلما توضح مارييتا باستهزاء.

من مكانة جان كرجلٍ رمز، وجّه رسالةً إلى ابنة أخيه، مذكّراً إياها بتجارة العبيد وفظائع العبودية واغتيال مالكوم إكس ومارتن لوثر كينغ (وغيرهما)، ومساوئ الاستعمار ومصائب إنهاء الاستعمار، وختم بالكلمات التالية: «لا أستطيع تصديق أنّك تتعاهدين مع جلّادي عرقنا».

مسكينة تيكلا! هل يمكن أن نلوم قبطاناً انقلب مركبه على ظهر البحر المقوّس، إذا ما تشبّث بزورق نجاة؟ كلّ ما حولها كان مجرّد حطامٍ وأسى، فشلاً وراء فشل. كثيراً ما كان يبدو لها أنّها تسير وحيدةً على الدروب السوداء في مقبرة. لكنّ بيير لوفاسور، بنظّارات طبيب العائلة ووجهه المربّع الطيّب، يُشعرِها بالثقة عندما تكون معه إلى حدّ أن تحدّثه عن كلّ شيء. حتى عني أنا. ويستمع إليها من دون أن يحكم عليها، وطبعاً من غير إدانتها، محاولاً فهمها.

تبدأ حياتي الحقيقية إذاً لا في تلك العيادة الواقعة في الدائرة الخامسة عشرة في باريس حيث صحت صيحتي الأولى، بل في صالة الطعام الصغيرة في بيت ماما بونوي. على الجدران نسخةٌ عن لوحة «أنجيليوس» للرسام ميه، وصورة زواجٍ كبيرة، وأخرى للزوج الذي اختفى في البحر كالبحّارة الصالحين. هناك فقدت أمي السائل الأمنيوسي قبل أن تطردني إلى الأبد. هناك وأنا أنظر إلى تلك المجهولة، صعد الدم الغاضب ليروي قلبي وجعَل الهواءُ رئتيّ تصابان بالفواق. أخذت ماما بونوي تجهش بالبكاء!

- قبّلي أمّك يا كوكو!

(أدّت محبّتها لي إلى تحويل اسمي، كلود، إلى تلك الكلمة التي تشير أيضاً بالمصادفة إلى ثمرة استوائية).

لم أتحرّك. فأتى الرجل الدبّ القطبيّ الذي يرتدي معطفاً بقبةٍ من الفراء نحوي، ورفعني عن الأرض وأمطرني بالقبلات.

- كم أنتِ جميلة!

استقررنا في باريس، في شقةٍ تسودها الفوضى وتطلّ نوافذها على

قطيع القبور في مقبرة مونبارناس. لم أكن عملياً أرى أمّي التي كانت بعيدةً عن متناول يدي لأنها تنام أو ترتاح أو تأكل أو تكتب أو تتكلّم على الهاتف. بيير هو الذي كان يغسلني ويلبسني ملابسي ويصحبني إلى المدرسة أو إلى السينما أو إلى صالون الشاي أو إلى عيد لوج أو عيد صحيفة لومانيتيه. وفي هذه الأثناء، يشرح لي: «لا تلوميها! في الواقع، هي ليست في أفضل حال. بل هي ليست بحالٍ حسنةٍ أبداً. ثمة أشخاصٌ أقوياء للغاية، وهي ليست منهم. أنت تفهمين، أليس ذلك؟».

فأوافق بهزّةٍ من رأسي، تقديراً مني لاهتمامه.

لا أعلم جيّداً كم من الزمن دام هذا الوضع. أسابيع؟ أشهراً؟ كان الزمن خرسانةً رماديةً كزنزانة محكوم. ذات صباح، فتحتُ الباب لشابٍّ صغيرٍ يحمل برقية. كانت أولتيما فيكتوار أبولين لوي التي وُلدت بلقب لوميرسييه قد توفّيت في عامها الخمسين.

شعرت تيكلا بألمٍ مرعب. وهي التي لم توجّه في عشر سنواتٍ ثلاث رسائل إلى أمها، ابتلعت علباً من الكينين، وأدّى ذلك إلى نقلها ليلاً بسبب الغيبوبة إلى قسم إسعاف. طيلة أشهر، لم نرها إلا في غرفة مستشفى، ويداها متصالبتان على ركبتيها. ثمّ بدأت تتعافى لأنّ الألم لا يقتل. هذا محزن! لكنّ الأمر على هذا النحو! إنّ موت جدتي تيما، الذي حدث من دون أن تستطيع ضمّي إليها لتجعلني أتلو دروسي أمامها ولتضفر شعري أو لتفركني بالباي روم، هو أولى الجرائم الكبرى التي أنسبها إلى أمي. قرّرت الذهاب إلى غوادلوب والندم يعذّبها، أقلّه لتركع أمام قبر. أجهل لماذا لم يرافقها بيير. أنا وحدي سافرت معها.

.8

كان بانتظارنا في مطار ريزيه رجل. مجهولٌ لم يكن وجهه غير معروفٍ لديّ، لأنّه كشف بأشدّ الفوضى بعض قسمات أمي التي رأيت على نحوٍ ما أصولها، واستطعت فجأةً وفي الوقت عينه أن أستبق شيخوختها. ليس لأنّ ذلك الرجل كان مسنّاً، بل لأنّه يعطي الانطباع بالديمومة، الانطباع بأنّه كان موجوداً دائماً ويجب أن يبقى عندما يموت الآخرون، عندما يُختزل العالم إلى لعبة ظلالٍ وأنوار. منحته تيكلا خدّها ليقبّله وقالت كما لو أنها غادرته البارحة: «طاب يومك، بابا!».

قبّلها وهو يمسك نفسه بوضوحٍ عن ضمّها بانفعال، في حين لم تغادرني نظراته. أخيراً، مسح ماء عينيه وسأل: «لمن هذه الطفلة؟».

رفعت ذقنها وقالت بنبرة تحدٍّ، لكنّني قرأت خزي عينيها: «إنّها لي!».

.9

منذ أن ارتقى عمُّ أمي جان إلى مرتبة الرجل الرمز، تأثّر موقع جوين لابورد الذي كان في الماضي نهباً للطبيعة وحدها. أثناء الأسبوع، لكن بصورةٍ خاصة في عطلة نهاية الأسبوع يومي السبت والأحد، بات يأتي شبابٌ وأشخاصٌ أكبر سناً ليحاولوا مقابلة المعلّم، أو لمجرّد تأمل البيت المتواضع الذي بناه ماريو (هو حالياً ميّتٌ ومدفون مع حبيبته أديليا في مقبرة جوين بيرتران) حيث التجأ بعد نزاعاته مع الإدارة الاستعمارية، وملحقات الأخشاب المصنوعة من العصي القصيرة والتي نصبها بيديه،

و«متجر المشروبات الكحولية» حيث كانت ماريتا السليطة اللسان لا تزال تسكب المشروبات. عندما غادر جيسنير غران فون ليمانغل في عام 1965 ليستقرّ قرب أبيه الروحي، بات جوين لابورد مكان حجٍّ مثلما هي مكّة للمسلمين ومدينة لورد للمسيحيين. (تعلّق الأمر بالطبع بالقوميين، إذ كان الآخرون يقومون بالتفافةٍ لتجنّب وكر الشيوعيين هذا [كذا]). آنذاك، قام أحد الماكرين ممّن يمتلكون حسّاً تجارياً بافتتاح مطعمٍ - مشرب اسمه «لاكورن دابوندانس»، تخصّص بالأطباق التقليدية التي لا يقاربها البرجوازيون، مثل ميغان ثمرة الخبز والبيبيليه وحساء كوغو، فنال جوين لابورد نجمتين في النشرات السياحية.

«التوقّف إلزامي في لاكورن دابوندانس حيث يمكنكم التلذّذ بآخر ابتكارات مان تين في الطبخ. وإذا حالفكم الحظ، ستتمكّنون من حضور تدريبٍ في صالة الاحتفالات الصغيرة الملحقة بالمطعم للموسيقي الكبير جيسنير أمبرواز، وهو من أبناء المنطقة».

لئن كانت الشهرة المتصاعدة تنزلق على جيسنير من دون أيّ تغييرٍ في طبيعته وتواضعه، فلم يكن الأمر مماثلاً، كما سبق أن قلت، لدى عمّ أمي جان. فبعد أن انتهى من كتاب «غوادلوب المجهولة» الذي باع رغم كلّ شيءٍ مئتين وخمسين نسخةً منه، شرع في كتابة عملٍ قدّر أنّه أكثر نبلاً: «الحركات الثورية في العالم الأسود». وبسبب النقص الكبير في المعلومات لديه وإدراكه هذا النقص، استعان بتيكلا التي بدلاً من أن تقول له الحقيقة حول وضعها، جلست هذه المرة أيضاً بهيئةٍ مهيبةٍ أمام أوهر(*) وحكت له كلّ ما أراده. ومن أجل تأدية هذه المهمة على نحوٍ أفضل،

(*) Uher: جهاز تسجيل.

استقرّت قريباً منه، أي عند جيسنير. والحقيقة أيضاً أنها لم تغفر لأبيها إدخاله تلك المرأة، فلورا لاكور، ولقيطيها إلى البيت بعد أقلّ من سنة على موت تيما! صحيحٌ أنّها حاولت، في ثورتها، السكن في جوستون. فقبل موت تيما ومن أجل التخفيف من أساها ووهنها، حوّل يعقوب كوخ السوبارو الخشبي في الشمال إلى بيت اصطيافٍ لا يقلّ في شيءٍ عن بيوت اصطياف المستعمرين البيض في سان كلود. وضع فيه سخّاناً كهربائياً للماء، وتمثّلت قمة الفخامة في تجهيز المطبخ ببرّاد. لكنّ وجود اللامرئيين جعل نوم تيكلا المحموم أصلاً يضطرب. شعر السوبارو وإيلاييز بسعادةٍ غامرة للقاء حفيدتهما، يلتويان على نفسيهما بعد أن يدورا حولها في طيّات ناموسيّتها، في حين لم تكن تيما التي اجتمعت أخيراً بطفلتها تغادرها قيد أنملة، وتلتفّ حول عنقها بحيث تكاد تخنقها. وأحياناً، تغني لها أغاني المهد مثلما تغني الأم لطفلٍ رضيع، فترتعب تيكلا بسبب تلك الأصوات الغامضة الخارجة من الجدران المحيطة بها ومن السقف فوق رأسها، وتشعل الضوء قرب سريرها لتتفحّص العتمة. أهو الخشب يعزف؟ أهو الصفيح يبرد بعد حرارة النهار المرتفعة؟

على الرغم من اتّسام أهالي جوين لابورد بالتسامح، إلا أنهم لم يحبوا تيكلا أكثر مما أحبها أنا. فأولاً، هي تدخّن مثل عسكري. وعندما يحدث أن تتنزّه عبر الحقول، يتبعونها مثلما يتبع قطاراً محمّلاً بقصب السكر عمودُ دخانه الأبيض. ثم إنّها تحتسي بإسرافٍ المشروبات الكحولية الصرفة. وماريتا التي أفرغت جعبتها هي التي تكفّلت بنقل الخبر إلى من يجهلونه. إضافةً إلى ذلك، لكأنّ لغة الكريول تجرح فمها. فهي دائماً تمشي على الطريق المستقيم، طريق الفرنسية القويمة! وأخيراً، لم تعجب الناس

طريقة طردها جيرتي من سرير جيسنير، بعد أن كانت تحتلّه منذ ثلاث سنوات. يا إلهي! كم يكون الرجال عمياناً أحياناً! تخرجهم عن صوابهم نساءٌ تخلو قلوبهنّ من الرحمة، ويعذّبون بسببهنّ قلوباً محبّة. بيد أنّ ما استكمل اشمئزاز أهالي جوين لابورد من أمّي هو طريقة معاملتها لي. كنت أمشي بشعرٍ كالمقشّة، بساقين وذراعين مرشومتين بقرصات الناموس التي سرعان ما تصاب بالإنتان فتتحوّل إلى ندباتٍ متقيّحة. لم تكن تحمّمني ونادراً ما غيّرت لي ملابسي. بماذا يفكّر الله أحياناً؟ ثمة نساءٌ يحججن إلى لورد على ركبهنّ للحصول على طفل، في حين أنّه يخصب بعض الأرحام! الأجدر به أن يضع فيها صخرةً، لا الهدية الثمينة التي يمثّلها الجنين! وإذ تأخذ نساءَ القرية الشفقة عليّ، يدخلنني إلى بيوتهنّ ليسرّحن شعري على شكل «قرون الفانيليا»، فيلوينها ثمّ يغلّفنها بقطعٍ من الأشرطة الشبيهة بالأغشية حول صاري الشراع الأمامي. وعندما تنتهي زينتي، أذهب لأقف أمام أمي التي تكون مشغولة، ليس أكثر من المعتاد، بمناقشة الثورة ومآل العالم الأسود، فلا تمنحني نظرةً واحدة.

لقد تبيّن لي بوضوحٍ على الرغم من يفاعتي أنّ عمّ أمي جان شرع في السيطرة مجدداً على تيكلا. ما هذا الزواج بأبيض؟ لا أحد يريد موت المذنب. يكفي أن يتوب وألّا يذنب مجدّداً. فلتترك ذلك الأبيض حيث هو ولتحمل مجدداً الشعلة من حيث ركنتها في لحظة يأس. فلتعمل ثانيةً من أجل الثورة وقضية الشعب.

على مدى السنوات، سنلاحظ أنّ الخطاب تعدّل نوعاً ما. فحيث كان السوبارو ويعقوب سيقولان «الزنوج»، «العرق»، يقول جان: «الشعب». (حول هذه النقطة وكما هي الحال حول نقاطٍ عديدةٍ أخرى، لم يكن فكر

عمّ أمي واضحاً تماماً. فلطالما تردّد بين النزعة الزنجية والنزعة السوداء(*) ونوعٍ من الشعبوية ذات الصدى الماركسي).

غير أنّ الإيعاز بقي كما هو: «لقد اتّبع آباؤنا درب النجاح الفردي الذي هو مجرّد خيانة. لا يستطيع المرء النجاح بمفرده».

لم يكن جان يرى العذاب في قاع عيني تيكلا:

- لم أعد أستطيع. لا أريد أن أعيش سوى حياتي، حياتي أنا! ليس كلٌّ منّا شجرة كابوك ملَكيةً ليمنح ظلّاً للآخرين!

ويواصل جان، الأصمّ والأعمى، خطابه الطويل!

لكن إذا كان هنالك من عرف بوضوحٍ حقيقة تيكلا، فهُم «الوطنيون».

لن أستطيع أن أنحاز في الخصام الذي استعر ولا يزال يستعر بين من يدعون أنفسهم بالوطنيين وأعدائهم. بالنسبة إليّ، سواءٌ أكانوا وطنيين أم لا، فقد كانوا قبل كلّ شيءٍ راشدين، أي غرباء عن عالمي! مرَّ أمام عينيّ رجالٌ مستعجلون متتالون يربّتون بسرعةٍ على خدّي قبل أن يمسكوني من كتفيّ: «اذهبي والعبي يا كوكو!».

في كلّ اجتماعٍ ينعقد في أحد الأكواخ المصنوعة من العصي القصيرة ويستغرق وقتاً طويلاً من الليل، أسمع ماريتا ترغي وتزبد وتقول إنّ أولئك الرجال لا يفكّرون أبداً بزوجاتهم الوحيدات في بيتٍ فيه أطفال، وتخلص إلى القول: «قبل تغيير البلد، يجب على المرء تغيير نفسه! ما داموا لا يحترمون النساء، فأنا...!».

(*) Noirisme: إيديولوجيا سياسية شعبوية ظهرت في هاييتي أواخر عشرينيات القرن العشرين بعد الاحتلال الأميركي، ومفادها الاعتزاز بالعرق الأسود والدعوة إلى استلامه مقاليد الحكم، في مقابل الاعتزاز بالخلاسيين (Mûlatrisme). [م].

هل كانت محقّة؟ لا أدري.

كلّ ما أعرفه هو أنّ الوطنيين وافقوا على مقابلة تيكلا في عصر أحد الأيام، إرضاءً لعمّها جان. وما كان من المفترض فيه أن يكون مجرّد تواصلٍ بسيطٍ وودّي سرعان ما أصبح لاذعاً. لماذا؟ كلّ شيءٍ يدعو إلى افتراض أنّ عدم قدرة تيكلا على التحدّث بالكريولية أثار حفيظة الطرف الآخر. وفاقم ذلك هوسُها بترصيع الفرنسية ببضع كلماتٍ إنكليزية: *«Well»*، *«I mean»*، *«Let's see»*...

سرعان ما تطرّق الحديث إلى الزواج المختلط، قمة الخيانات. إلى إفريقيا التي يكنّ لها الوطنيون إعجاباً أعمى من دون أن يطؤوا أرضها يوماً، والتي انتقدتها تيكلا، بتأثيرٍ من مانويل، من دون أن تعرفها أكثر منهم. وفسد كلّ شيءٍ نهائياً عندما تحدّث الوطنيون باحتقارٍ عن أميركا، فذكّرتهم تيكلا بعظمة الصراع الذي يخوضه السود فيها، مستغربةً جهلهم المطبق عملياً بمالكوم إكس ومارتن لوثر كينغ. في طريق العودة، لحظة الصعود إلى السيارة، سأل أحد الوطنيين ما إن كانت أمي عميلةً للمخابرات المركزية الأميركية، وقد حوّمت غيمة الشكّ هذه طويلاً فوق رأس أمي. لم يستطع حتى أولئك الذين هزّوا أكتافهم أمام حجم الاتهام الامتناع عن التذكير بسوء السوبارو وبالشكوك التي تحوم حول ذرّيته، باستثناء جان. هذه الثمار من تلك الشجرة! عرق المُستغِل دسّاس!

.10

مسكينٌ يعقوب! إذ لم يبهج حضور ابنته المنتظر طويلاً قلبه بالقدر المتوقّع، لأنّه لم يستطع أن يخمّن ما يعنيه عدم استماعها لمن حولها

واستدارتها وهروبها، فبات يجهش بالبكاء في الأصيل في أذن الأم الصغيرة إيلاييز.

وحده جيسنير، الذي يعلم ما يجري داخل تيكلا مثلما يعلم سكينٌ ما يختبئ في قلب الثمرة التي يخترقها ويقطعها، كان بوسعه أن يشرح لها مقدار ألمها. في الليل، وبعد ممارسة الحب، تنفرج شفتاها المغلقتان نهاراً عن قول الحقيقة بدافع الكبرياء والرصانة، فتتكلّم وتتكلّم. كنبعٍ لا ينضب.

عن أمها.

- كنت أعتقد أنني أكرهها، وها أنذا ألاحظ أنّه لم يعد لحياتي معنىً من دونها. لم تعد سوى ثفلٍ مجعّدٍ لقصب السكر. في كلّ نشاطٍ قمت به، كنت أستهدفها هي. كنت أريد معاقبتها وصدمها، أو على العكس من ذلك إثارة إعجابها. لأنها لم تقرأ شيئاً عدا ديلي أو ماكس دوفوزيت، أردت تخزين كلّ شيءٍ في ذاكرتي. ولأنها لم تكن تعرف عن الرسم سوى لوحتي «أنجيلوس» أو «جامعات بقايا الحصاد»، اتّبعتُ دورةً في تاريخ الفن في السوربون. ولأنّ عالمها كان شديد المحدودية، كنت لأودّ لو أحلّق في السماء كطائرة ورقية.

وعن أبيها.

- اقتطعَ من كلّ شيء. من شحم الخنزير. من الأرز. من البازلاء المجروشة. وذلك كي أقدّم له ما يفتقر إليه: تاج شهاداتٍ مصنوعاً من أوراق الغار. يا للمسكين التعِس الذي آمن بأنّ التعليم يفتح الأبواب كلّها لزنجي! واحسرتاه!

وعن زوجها.

- إنها أول مرةٍ يتقبّلني فيها أحدٌ ما من دون تطلّب، لا يطلب مني

أن أكون سوى ما أنا عليه، أن أؤدّي دوراً غير الدور الذي أستطيع أداءه. وبسببكم أنتم الذين تتوقّعون مني المستحيل، يجب عليّ تركه!

انهمر المطر مدراراً في شهر كانون الثاني ذاك. صار فلّاحو جوين لابورد يضعون على رؤوسهم أكياساً من الخيش، في حين تحفر أقدامهم في الحقول بركاً طينية. كان مزاج الطقس يستجيب لمزاج البلد، للاحتضار. إذ أخذت المصانع الكبيرة تغلق تباعاً. وقصب السكر يموت. والطلاب القلقون على المستقبل يستلقون أرضاً إضراباً عن الطعام. ذات صباح، أتت سيارةٌ مستأجرة تهتزّ تحت المطر الغزير وتوقّفت أمام البيت الصغير الذي يسكنه جيسنير الذي يشعر بالغمّ بسبب كلّ هذا الماء وبولادة لحنٍ حزينٍ داخله، كأنّه أغنية حبّ. نزل من السيارة رجلٌ قصير القامة، يعتمر قبّعةً إفريقيةً هائلة. مانويل باستور. الرجل الذي نزل من سيارة الأجرة، هنا تحت المطر، لم يكن يشبه تماماً ذاك الذي هجرته تيكلا في نيويورك. فبعد أن رأى مانويل السقوط المتتابع لجميع الرجال البيض أو السود الذين يتحدّثون عن العدالة في أميركا، أقنع نفسه بأنّ أيّ ثمرةٍ يمكن أكلها لا يمكن أن تنمو في ذلك البلد الأشبه بشجرة التين الملعونة. تجنّب إفريقيا حيث تتنامى قوة الدكتاتوريات، فاكتشف غير بعيدٍ عن ميامي جزيرةً صغيرةً في الشمس، يحتفي سكانها بمجيء إلهٍ أسود. جامايكا! أجل، اسم الأزليّ جاه، وماركوس غارفي نبيّه! متسلّحاً بهذا اليقين، قلب الدنيا رأساً على عقبٍ وعثر أخيراً على محبوبته تيكلا.

لم يكن جيسنير ليصمد في مواجه مانويل باستور. إذ كان الثاني يتمتّع بكثيرٍ من الثقة بالنفس، وبميزة معرفة ثلاث لغات، وبأنّه جال بلاداً ويعود في أصله إلى أرضٍ خاضت الثورة. لكنّ مانويل كان حاسماً بصدد أرضه

وتكلّم من دون مواربة: «ليس في كوبا مكانٌ للزنجي. في كوبا، يُعامل الزنجي مثلما يُعامل كلب. هناك كما في الأماكن الأخرى، لا مكان سوى للبيض والخلاسيين! سواءٌ أكانت كوبا شيوعيةً أم لا، فالعنصرية فيها لا تقل عن عنصرية الولايات المتحدة الأميركية!».

أخذ يهزّ كتفيه كلّما اعترضت تيكلا، في حين يكتب عمُّ أمي جان محموماً ما يمليه عليه. وكان جيسنير الذي نسيه الجميع يمشي بخطواتٍ واسعة تحت المطر. في هذه الظروف ألّف لحنه الشهير: ديي أو(*).

أمّا جدي يعقوب، المتشبّث بتيكلا أكثر من تشبّثه بمقلتيه، فقد اضطر على الرغم من ذلك إلى لومها، عندما علم أنّها تنتقل من حضن جيسنير إلى حضن مانويل في أحد أكواخ جان المصنوعة من العصيّ القصيرة والمفرطة في ترحيبها. تغاضى عن علاقتها بجيسنير، وهي انتكاسةٌ تكاد تكون مؤثّرةً في ذلك الحب الطفولي الذي لا يشفى المرء منه! لكن من أين ظهر هذا الرجل الثاني؟ لم يجارِ يعقوب فلورا لاكور، المستقوية بموقعها المحصن في بيت شارع فوبور دينري، بصدد سيول العبارات الجنونية الصادرة عنها وعن جميع نساء العائلة، لكنّ رأيه لم يكن مخالفاً لرأيهن. حضر إذاً إلى جوين لابورد، بائساً ومعذّباً، مع ظهور فرجةٍ في السماء الزرقاء. كبح الرعبَ الذي يثيره فيه حبّه العظيم لتيكلا، وبصعوبة تجرّأ على النظر إليها مواجهةً ولومها: «يجب ألّا نقدّم ذرائع للنميمة. ماذا كانت ستقول أمك المسكينة لو كانت على قيد الحياة ورأت ما أراه؟ نحن ننتمي إلى بلدٍ صغيرٍ يهتمّ أهله بشؤون الجيران أكثر ممّا يهتمون بمشكلاتهم الخاصة. أنت امرأةٌ متزوّجة، تذكّري ذلك! حتى إذا كان زوجك بعيداً...».

(*) *Dey o*: «حداد».

أخذت تيكلا تجمع كلماتها لتقديم إجابةٍ قاسية، عندما قفز مانويل من الحمّام ونصف وجهه محلوق اللحية، في حين غطت رغوةٌ بيضاء نصفه الآخر، وارتمى على يعقوب ليعانقه بحماسته المعروفة. وفي لمحة بصر، مثلما جرى مع جان الذي لم يعد يحلف إلّا باسم مانويل، بدّل قلب يعقوب. ثرثار جهنمي!

- يحكون إنّ جدّ أبي، جواكيم باستور، وكان من زنوج إيبو واشتُهر بكونه سانتيرو(*)، صعد إلى الجبل مع دزينةٍ من العبيد. وعندما وصل إلى القمة، حدّد مضلعاً أحاطه بخندقٍ عرضه قدمان، على حوافه أوتادٌ مطلية بالسمّ. هكذا وُلد كيلومبو(**) كاماغي الذي صمد أمام البيض اثني عشر عاماً بفضل رحمة آلهة إفريقيا، رغم أنهم أطلقوا كلابهم. لكنّ الكلاب التي اقتربت كثيراً سقطت وفي أنوفها لعاب، وقد أصيبت بالصرع! بابا، يجب إعادة إحياء الكيلومبو!

ردّ يعقوب بيأسٍ قائلاً: «كيف؟ كيف؟».

لم يكن مانويل يطلب سوى أن يشرح: «روح النضال لم تمت فينا. لقد نامت قليلاً فحسب! لذلك، على كلّ امرئٍ أن يصممّ على التمرّد ليتبعه الآخرون...».

أطلق يعقوب ضحكةً تشوبها المرارة ووجد نفسه، وهو الذي لم يكن يتكلّم عن نفسه البتّة لأنّ أحداً لم يكن يستمع إليه، يحكي عن ملحمة حزب نهوض الزنوج الحزينة وعن أوهامه التي غرقت. نعم، لقد تبعه بالفعل آخرون!

(*) Santero كاهن السانتيرية، وهو دين إفريقي في كوبا قريب من الفودو.

(**) Quilombo: مملكة أنشأها عبيد متمرّدون.

- كادوا أن يقتلوني قتلاً!

أعاره مانويل اهتماماً غير معهود، وخلص إلى القول: «كان يجب أن تحذَر الشيوعيين الذين يقال لي إنهم أقوياء في هذا البلد. إنهم الأكثر خطورة. وهم مخرّبو شعبنا بنظريّتهم عن أنّ العرق غير موجود ووحدها الطبقة ذات أهمية. لقد دمّروا ماركوس غارفي. ولا يزالون يواصلون تدمير آخرين».

طيلة ثلاثة أيامٍ بلياليها ومن دون انقطاع، أمسك مانويل بيعقوب تحت نار كلماته وسحرها، مثيراً تلك الوحدة العميقة بين مختلف أطراف الشتات، تلك الوحدة التي لم تظهر ليعقوب إلا لماماً. في عيني مانويل، السوبارو وأبوه توءمان، أدارا ظهريهما بحركةٍ متماثلة إلى القصب وانطلقا، واحدٌ نحو ذهب كاليفورنيا، والآخر نحو ناطحات السحاب في مانهاتن. خرجا من بطنٍ واحد، بطن الأسى والرفض. لكنّ السوبارو كان الأوفر حظاً... هنا احتجّ يعقوب، متذكّراً كلّ مرارة حياة أبيه:

- أوفر حظاً!

- بلى، لأنّ البؤس الجسدي انتهى بالنسبة إليه وإلى أهله! أمّا نحن، إخوتي وأنا، فكان لدينا أخٌ لا يتركنا أبداً: الجوع! في الشتاء، عندما تضع نيويورك كيلومتراتٍ من الفراء عليها، كنّا نرتجف برداً، والصقيع بين أسناننا. لم يكن لدينا سوى حذاءٍ واحد لنا نحن الأربعة يجعل قدمَي دوك أشبه بقدمي تشارلي شابلن، وقدمي إيرل كجدعتي بنتٍ صينية. عندما كنت أنا الذي أتحدّث إليك في الرابعة من عمري، بعت الكوكائين لمتعاطي المخدرات في حديقة سنترال بارك. نجوت، لكنّ شقيقي الأصغر مات بفعل جرعةٍ زائدةٍ بُعيد خروجه من السجن. أمّا الشقيقان الآخران، فقد نال

منهما الـ*cops*[*]. أقول لك يا بابا إنّه يجب إعادة إحياء الكيلومبو. سمعت بأنّ ثمة ما يجري في جزيرةٍ صغيرة قريبة جداً، جامايكا. فقررت الذهاب إلى هناك لمعاينة ما يجري!

.11

أسدل جدّي يعقوب جفنيه بالطريقة المرتبكة التي تميّزه عندما يحاول إخفاء مشاعره، وقال لي: «كم أتمنّى لو أنك تبقين هنا معنا! لكنّ أمك لا تريد ذلك».

قلت بصوتٍ متقطّع: «لماذا؟ الجميع يعلم أنّ العاطفة ليست ما يخنقها!».

فأصدر صوت انزعاجٍ خافتاً: «صه! صه! صه!».

ثمّ وضع بين يديّ علبةً قديمةً من الورق المقوّى.

- خذي، عثرت على هذه الصور في الكوخ. هل تريدين ترتيبها؟

كان يعلم أنّ الترتيب هوايتي المفضّلة.

تمتلك الحقيقة التي تنغصّنا دائماً، عندما ننظر إليها، جسداً يمتلئ بإبرٍ تشبه إبر الحشرات وأشواكٍ تمزّق في نهاية المطاف البياضات والأكفان التي نحيطها بها. وفي النهاية، لا نستطيع أن نمنعها من أن تتجوّل عاريةً في الشوارع مثل ملك الحكاية. «لمَن هذه الطفلة؟»، لم تكن هذه الصرخة البدئية من جدّي في المطار تعبّر عن تساؤل حقيقي، بل انبثقت بالأحرى من إقراره المذعور. ظهرت إشاعةٌ قويةٌ في وقتٍ ما حول أنّ تيكلا لوي

(*) رجال الشرطة.

الجميلة، الفخورة، حبلت سفاحاً شأنها شأن أيّ قرويةٍ نكرة. ثمّ لم تتغذَّ هذه الإشاعة ولم تُذكِها الألسن في النزُل التي يتجمّع فيها الطلاب الغوادلوبيون لتبادل أخبار الآخرين السعيدة والسيئة، وذلك لأنّ أحداً لم يرَ بعينيه البطن ولا الطفلة، إذ اختفت تيكلا بيسرٍ من باريس. بيد أنّ الإشاعة لم تنطفئ تماماً وكانت تحوم، يتناقلها الناس أحياناً همساً. عندما رآني جدّي في مطار ريزيه، كان كلّ ما عذّب قلبه المستعدّ جدّاً للنزيف هو تأكيد كلّ ذلك الألم الانفرادي الذي شعرت به ابنته وهوانها. آنذاك، ضمّ قبضتيه المسالمتين وهو يفكّر: «آه، لو كنت هناك حين كان ذلك الشاب يعبث مع ابنتي، لهرست وجهه هرساً! ولما كانت حتى أمه لتعرفه بعد تدخّلي الخاطف!».

لذلك، وفي الأسابيع الأولى، تجنّبتني نظراته ودارت بحذرٍ حولي، ونادراً ما كانت تقع عليّ حتى أتى يومٌ لا أعرف كيف أتى، وجدتُ نفسي فيه جالسةً على ركبتيه وخدّي ملتصقٌ بسترته البيضاء وأنا أستمع لحكاية.

«ذات صباح، خرج تي جان من بيته، بعد بضعة أيام من موت أمه التي حظيت بجنازةٍ جميلة، وأدار المفاتيح في بابه. استغرب الناس:

– إلى أين يذهب في مثل هذا الوقت الباكر؟ حتى الديكة لم تعطس بعد في الأقنان، ولا يزال الضباب يجرجر نفسه في قاع آثار الأقدام.

لم تستطع مان سونسون التي ولّدت أمّه أن تتحمّل، وصاحت من فوق سياج الصندل الهندي:

– إلى أين تذهب، وأنا متأكّدة من أنك لم تضع قطرة قهوةٍ في جوفك؟

– أنا ذاهبٌ للبحث عن أبي.

– عن أبيك؟

- أجل، وإذا لم أعثر عليه لأقول له ما فعله بأمي، فلا أريد الحياة...».

كان جدّي يعلم جيداً أنّه إن لم يتدخّل، فسأمضي ذات صباحٍ في رحلةٍ قاتلة، مثلما فعل تي جان. لذلك سعى إلى إبقائي، فأجلسني أمام دزينةٍ كاملة من الألبومات الكبيرة المصنوعة من الورق المقوّى، وفتح الصفحة الأولى من أول تلك الألبومات على وجه رجلٍ في حدود الثلاثين من عمره، وسيم وجمجمته على شكل بيضة، ذي ذقنٍ تحفرها غمّازة وفمٍ عريضٍ ينفتح على عددٍ لا متناهٍ من الأسنان القادرة على التهام العالم.

- هذا أبي، جدّ أمّك: ألبير لوي.

أجل، في ذلك اليوم حاول جدّي أن يغطي خطّ الهوان «وُلدت لأبٍ مجهول...»! أجل، حاول أن يمنحني جذوراً!

فتحتُ العلبة المصنوعة من الورق المقوّى والفواق لمّا يفارقني. تعلّمت التعرّف على وجوه كلّ أولئك الذين قضوا منذ وقتٍ طويلٍ وعادوا إلى التراب في ظلّ المدفن العائلي. تيودورا. ماروسيا. نيرفا. ألبير السوبارو. الأم الصغيرة إيلاييز. رينيه. كميل ديزير. وكان يستهويني تصنيف وترتيب هذه الصور التي تزداد بهوتاً وتختزل حياتهم بمتتاليةٍ من الاحتفالات الشعائرية، التعميد والزواج والمناولة الأولى، والتسليات المضحكة، السباحة في النهر والنزهات على شاطئ البحر. كنت أمضي في هذه المهمّة شاردةً عندما وقعت عيني فجأة ولأول مرةٍ على ذاك الذي سيأبى أن يتركني في ما بعد. صبيّ خلاسيّ. الشعر مقسومٌ إلى قسمين بفرقٍ على الجانب الأيسر ومجعّدٌ بعناية. بزّةٌ بياقة بحّارة. طارة. جزمة قصيرة. ينظر إلى العدسة من دون أن يضحك أو يبتسم. خلف الصورة كتبت يدٌ غير معتادةٍ على الكتابة ما يلي: ألبير لوي. أنجيه. 1934.

– من هذا يا جدّي؟

اكفهرّ وجه جدّي بفعل الخزي والألم وقال: «لا نعلم ما حدث له!».

ماذا؟! «لا نعلم»! في هذه العائلة حيث يُسجَّل أدنى حدث، حيث يستطيع كلّ فردٍ منها أن يتذكّر بيقينٍ في أيّ يومٍ ظهر ورمٌ أضخم من أضخم ثمرة قرع ماكسيما على خدّ ماروسيا التي خُطفت من عالمنا منذ عشر سنوات بسبب خرّاج سنّي، وفي أيّ ساعةٍ بدأت آلام المخاض لدى المأسوف عليها بالإجماع، تلك التي لا تزال حيّةً في صميم القلوب، حتى قلوب من لم يعرفوها، الأم الصغيرة إيلاييز، عندما كانت حبلى بأبنائها! «لا نعلم!!!».

غزا اليأس قسمات جدّي:

– العائلات كافةً تخفي جريمة، وهذه جريمتنا. أخي غير الشقيق ألبير الذي رُزق به أبي من زنجيةٍ إنكليزيةٍ عرفها في بنما...

وهكذا دواليك!

في الحقيقة، لم يبدأ بيرت وبيبير يسكنان مخيّلتي منذ عصر ذلك اليوم، لأنّ قلبي كان منشغلاً بحزنٍ شديد الأنانية. فقد كنت على وشك الرحيل، مغادرة الجزيرة التي أصبحت جزيرتي، مغادرة أولئك الذين زرعوني في تربةٍ من المودّة، وسقوني كلماتٍ صغيرةً مفعمة بالحنان بالكريولية:

- *Ti chabine an mwen!*
- *Coco doudou!*
- *Choubouloute!*
- *Douchérie!*

كنت سأمضي على غير هدى، مثلما فعلت تيكلا.

أجهل ما هي المناسبة التي احتلّ فيها بيرت وبيير حقّاً مخيّلتي. لكن بعد أن قرّرا فعل ذلك، لم يتركاني أبداً.

.12

«عزيزي بيير،

كلّ شيءٍ غامضٌ غموضاً شديداً! لا تسعَ للّحاق بي، سأخبرك ما إن تتّضح الأمور داخلي. سامِحني على الفوضى التي أقحمها في حياتك...

حبيبتك المسكينة تيكلا».

مسكينة؟ ثانيةً؟

.13

مدينة كينغستون الصغيرة، مثلها مثل كثيرٍ من المدن في الكاريبي، مصنوعةٌ من تراصف أحياء، بعضها يعبّر عن البؤس صراخاً في ألحان الريغي، وبعضها الآخر يداعب لون المسطّحات العشبية الأخضر على الطريقة الإنكليزية. تتجاور أراضي لعبتي الكريكيت والتنس مع الأراضي غير المزروعة الممتلئة بهياكل السيارات. وتقوم النفايات بالحراسة في بعض مفترقات الطرق.

عندما وصلت تيكلا ومانويل إلى كينغستون مع صحبهما، لم تكن استكملت بعدُ تعافيها من شغبٍ محمومٍ بسبب الجوع، لأنّ المخازن

خاوية. كان أرز الإغاثة الأميركية يباع في السوق السوداء مع الحليب المجفّف الذي قدّمه الصليب الأحمر. جمع القرويون غضبهم ونزلوا من الجبال، وتطلّبت إعادتهم إليها حشد كتيبتين.

كان لمانويل غرفته المحجوزة في دارةٍ على هضبة ريد هيل، تحتلها طائفة الراستا(*) التي تتميّز بوجود عددٍ كبيرٍ من السود الأميركيين في صفوفها. وفي الواقع، واحدٌ منهم، أتى إلى نيويورك ليبيع شقته ويودّع عائلته، هو الذي جعل مانويل «يهتدي».

يا لعذوبة نساء الراستا وجمالهنّ! فيلما زنجيةٌ تفوح منها رائحة الغانجا(**)؛ وقد رأيت دائماً تحت الوشاح الكبير الثلاثي الألوان الذي يحزم شعرها الكثيف لآلئ لامعة من العرَق، حول عينيها السوداوين سواد الليل - وكان لفمها عندما تلتهمني بالقبلات، بدلاً من تيكلا، طعم ثمار الجوافة البرية، المقطوفة قبل انتصاف النهار.

راستا روي، رفيق فيلما، هو الذي علّمني الإنكليزية، وكان يبقى هادئاً تماماً في مواجهة دزينة الأطفال المشاغبين الذين تعدّهم الطائفة. يصل شعره الأصهب كلُبدة الأسد حتى كتفيه، كما أنّ جلده الفاتح اللون موشّحٌ ببقع الكلف التي تتلوّن صباحاً بشيءٍ من الاخضرار، وبالبرتقالي مع تقدّم النهار. بعد انتهاء عمله كمعلّم مدرسة، يمسك بأقلامه الفحمية ويرسم. سمح لي بالدخول إلى الورشة الصغيرة التي جهّزها في ملحقٍ بالڤيلا، فأخذت ألمس كلّ شيء وأعود دونما مللٍ إلى لوحةٍ تمثّل رجلاً بديناً ممتلئ الخدّين يرتدي زيّاً رسمياً بأزرار ويعتمر قبعةً تعلوها ريشٌ بيضاء

(*) دين جامايكا.

(**) القنّب الهندي.

اسمها مألوفٌ لديّ، لأنّني سمعته من عمّ أمي جان أو مانويل أو تيكلا أو من ثلاثتهم...

- هذا؟ لكنني أخبرتك من قبل، هذا نبيّنا ماركوس غارفي!

لا بدّ أنّ أولئك الذين يعرفون فن الراستا يعلمون أنّني أنا التي كنت موديلهم لتلك اللوحة «بنت صغيرة» التي جابت جزرنا، وعثرتُ عليها في نيويورك داخل مكتبة هايتية في جادة أمستردام. متمرّدة صغيرة تصالب ذراعيها وهي تنظر أمامها بهيئة تحدٍّ وشعرها متشابكٌ بجلال. في الأيام التي يصرفنا فيها راستا روي، ننزل إلى السوق مع فيلما ونساءٍ أخريات لبيع المكانس والسلال التي يضفرنها باستخدام النجيل. وقبل سلوك طريق تلّتنا، يأخذنا إلى شاطئ هيلشاير حيث يصطبغ الرمل بلون الذهب المصهور. هناك، يسبح البرجوازيون وأطفالهم على شكل حلقةٍ حولنا ليتمكّنوا من النظر إلينا خلسةً والتعليق على بشاعتنا بصورةٍ أفضل. ثمّ ترمي علينا الذريّة الخبيثة أصلاً، لعلمها أنّها لن تعاقَب، الرملَ بمكرٍ لتدفع الدموع إلى عيوننا.

لماذا يكرهوننا؟

نمضي وعيوننا مشدودةٌ إلى عيني جاه، وأيدينا في يده الكبيرة الحامية. ندخّن عشب الحقول وفق تعاليمه. لا نضع في أفواهنا أيّ طعامٍ غير نقي. نجتمع لنقرأ مقاطع طويلة من التوراة ونعلّق عليها. نصدح بأناشيدنا أثناء قدّاس الأحد، أمام صورةٍ هائلة الحجم لهايلي سيلاسي(*) محاطةٍ بعلمٍ أحمر وأصفر وأخضر.

(*) Hailé Sélassié (1892-1975): آخر أباطرة إثيوبيا، ويعدّه أتباع طائفة الراستا مسيحهم المنتظر. [م].

منفيّون في بابل
حيث الأرض جافةٌ وكذلك القلوب
وكلّ أشجار التين الملعونة
نجأر إليك...

قليلاً ما كنت أرى مانويل وتيكلا اللذين كانت لديهما مداخلهما إلى طائفة بوب مارلي، لأنهما شرعا في تطوير كتاب «تاريخ الحركات القومية السوداء». يا للبؤس! كنت لأفضّل أن تتم الوشاية بهما لأنهما نصّابان! بدلاً من ذلك، عوملا بأشد الاحترام بوصفهما رفيقين من جنسٍ أسمى. لم يقدّما أيّ دخلٍ للطائفة لأنّهما لم يشاركا في أيٍّ من نشاطاتها، وعلى الرغم من ذلك تلقّيا الخدمات وكأنّهما نسختان عن هايلي سيلاسي نفسه. حتّى إنّ أختاً شابّةً بيضاء كُلّفت بتغيير الملاءات الملوّنة بالمني والتي يتضاجعان بينها، وبتفريغ منافضهما التي تفوح برائحة الرماد البارد الكريهة، وبغسيل الأقداح الملوّثة التي يحتسيان فيها مشروباتهما الروحية القوية. يوم رأيت فيلما تكوي بياضات أمي، اختنقت حنقاً. لكنّ راستا روي الذي كان يقرأ ما في داخلي كأبٍ لي طلب مني البقاء بعد الدرس:

– انظري! على هذه الأرض حيث نمرّ، يجب على كلّ شخصٍ أن يعبّر عن مواهبه على أفضل نحو. هذان الاثنان يعملان بطريقةٍ مختلفةٍ عني أنا أو عن راستا جيم. من واجبنا أن نعتني بهما مثلما نفعل لأنهما سوف يشهدان في وجه العالم المرئي بأننا لسنا ما يعتقد الناس بصددنا. بل نحن أبناء إسرائيل الحقيقيون!

فقلتُ ساخرةً: «هذا الكتاب الذي من المفترض أن يكتباه لن يُكتب أبداً! لا هو ولا غيره!».

أمسَك بيديّ وأرغمهما على أن تتشابكا على مستوى قلبه:

- كرّري من بعدي:

لدى الأب العادل فرحة كبيرة
وذاك الذي منح الحياة لطفلٍ
مطيعٍ سيسرّ بها.
فليبتهج أبوك وأمك،
ولتكن تلك التي ولّدتك فرِحة.

استكمل ذلك اللوم إثارة حنقي، فكتبت رسالةً لجدي يعقوب، كما في كلّ مرّةٍ يصبح قلبي فيها ثقيلاً كصخرةٍ في الصدر. لقد احتفظ بكلّ الرسائل بأخطائها الإملائية وخربشاتها في علبة بسكويت أصابع الست، وبعد نحو خمسة عشر عاماً، قرأتها مجدداً وأنا أشعر بالألم الذي كنت مفعمةً به في تلك الأيام وهو يولد من جديد.

في ظهيرة أحد الأيام، كان الدرس قد انتهى، وبدأت رائحة الطعام تتصاعد من المطابخ، عندما توقّفت شاحناتٌ خضراء قاتمة أمام دارتنا. نزل منها عشرات الرجال بالزيّ الموحّد الأزرق الغامق وهم يحملون عصيّاً وهراواتٍ وبنادق آلية. تسلّقوا في لمح البصر الأسوار، وانقضّوا علينا وهم يضربون ويعاملون بعنف من كانوا منّا الأشدّ ضعفاً أو الأصغر سناً ويرمون بهم أرضاً. كان مانويل وتيكلا (يا للسعادة!) في البيت ذاك اليوم. وبصرف النظر عن كونهما مثقفين، فقد ضُربا مثلما ضُرب الآخرون، ودُفعا تحت وابل ضربات أخامص البنادق نحو الشاحنات المنتظِرة وهي تفتح أشداقها لفرائسها من رجالٍ ونساءٍ وأطفال. وبما أنّ مانويل فقد عقله وهو يرى دم تيكلا يسيل، وأخذ يصرخ بأنّه سيُخطِر سفارة فرنسا وسفارة

الولايات المتحدة الأميركية ويستثير مفاعيل دولية، فقد تلقّى على وجهه ضربةً شديدةً هشّمته.

بعد ذلك، اندفعت الشاحنات نحو مركز الشرطة المركزي.

.14

بعد الأيام التي أمضيناها مكدّسين في زنزانة، لم يعد شيءٌ مثلما كان. أُطلق سراح تيكلا ومانويل، وكذلك جميع الأميركيين السود الآخرين بعد حلاقة شعورهم بالقوة بحيث بدت فروات رؤوسهم أفتح من بشرة وجوههم، ووُجّهت إليهم كلمات اعتذار، لكنّ راستا روي وراستا جيم والآخرين اتُّهموا بالسرقة والسطو وحُوّلوا إلى السجن وحوكموا وأدينوا. لم يستفيدوا من تخفيضٍ للعقوبة ولم يروا الشمس مجدّداً إلا عندما وصل مايكل مانلي إلى السلطة في عام 1972. واصلت النساء بشجاعةٍ الاهتمام بالأطفال، لكنّ حدادهنّ على رجالهنّ جعل أجفانهنّ سوداء. بين كوابيسي، كنت أسمع نحيب تيكلا. ذهبتُ ذات ليلةٍ للقاء مانويل تحت الماغنوليا في الحديقة. في المدينة، كان البرجوازيون قد أغلقوا بالأقفال أبوابهم ونوافذهم، وكانت كلابهم تنبح على القمر وعلى المتجوّلين. لم يكن ثمة حبٌّ مطلقاً بيني وبين مانويل. غير أنّ كلماته التي تكاد لا تسمع في تلك الليلة شقّت طريقاً حتى أذني، ومنها إلى قلبي:

– حياة الزنجي شربةٌ مرّة! لا نعلم أين نجد السكّر لتحليتها. الولايات المتحدة الأميركية، هاييتي، جامايكا... سيّان!

اقترحتُ بنبرة أمل: «ماذا لو عدنا إلى غوادلوب؟ هناك على الأقل نكون بسلام!».

داعب شعري الذي كان يعود للنمو خشناً وأصفر بلون التبن:

- أنت تمزحين! لا تنخدعي! ذات يومٍ قريب، ستتعرّض الجزيرة للدم والعنف. لن تكون الحياة فيها مريحة.. اسمعي، سوف أرحل.

- ترحل؟

- نعم. أحب هذا البلد وأعتقد أنّه لا تنقصه أماكن يمكن أن يكون المرء فيها سعيداً. سأعود حالما أجد أحدها. بانتظار ذلك، اهتمّي بأمّك!

لحسن الحظ، لم أضطرّ لأداء تلك المهمة!

فقد استقلّ مانويل حافلةً متجهةً إلى نيغريل (Negrill) التي سمع عنها أموراً رائعة، وبعد ثلاثة أيام، وصل إلى الدارة أميركيٌّ أسود على ظهره حقيبة. أخيراً، أسود! وجب استخدام كلّ الألمعية الأميركية لتعقّب القشة التي قصمت ظهر البعير ودفعته لاحتجاز نفسه في غيتو! كان تيرنس كليف براونسون ينتمي إلى واحدةٍ من عائلات واشنطن العاصمة، تلك التي تطلق على نفسها لقب «الأولى»، لأنّها عندما كانت أغلبية العائلات تحاول رغم العقبات الموضوعة على طريقها أن تتعلّم مهناً أخرى غير تلك التي تحدّب الظهر، كانت قد أنجبت معلّم مدرسة وممرضاً وموظّفاً في مجال التأمين. كان والد تيرنس طبيباً نفسانياً، وأمّه ابنة رجل دينٍ عزيزٍ على الله بفضل طلاوة مواعظه. لم يكن مستغرباً إذاً ألّا يتمكّن من الصمود بعدما بلغ السادسة عشرة من عمره، وأنّه انجرّ وراء المخدرات والسرقة، قبل أن ينخرط في الدعارة، بعد أن أدرك المفعول الذي يحدثُه في الرجال والنساء.

لكنّ ذلك كلّه بات من الماضي. فذات فجرٍ شاحب، وكان عائداً من حفلة جنسٍ جماعي بائسة، شعر بالملل من قرف عيشته، وقرّر اتخاذ قراراتٍ حاسمة، وتحوّل إلى الديانة الراستافارية.

عندما كان تيرنس ابناً مدلّلاً، كان يمضي خمس ساعات في تمرين الأصابع وفي عزف المقطوعات الصعبة، لأنّ أبويه لطالما حلما بابنٍ عازفٍ على البيانو في الحفلات الرسمية. وبطبيعة الحال، أدار ظهره لهذا المستقبل المهنيّ الرائع. غير أنّه لم يستطع تدمير سطوة الألحان داخله، وحاول خلق لغةٍ نصف موسيقية ونصف شعرية أطلق عليها المفسّرون منذ ذلك الحين تسمية «roots poetry». وقد أتى إلى جامايكا لإجراء أبحاث.

عندما دخل تيرنس حديقتنا، كانت الشمس قد نزلت نحو البحر لتستحمّ فيه كعادتها كلّ يوم، فأخذت العتمة والبرودة تريحاننا من قسوتها. فجأةً بدا أنّ تلك المستبدّة تعرّضت لنزوة، وقرّرت الصعود مجدداً إلى المكان الذي غادرته لتوّها، مبهرةً، ملَكيةً، لا تُقاوَم. كنت متعلّقةً مع ويلي على أغصان الماغنوليا. وعندما رأيت ذلك المنظر، تهدّلت ذراعاي ووجدتُني أرضاً وقد انقطع نفَسي. هرع إليّ وأنهضني، ثمّ عانقني:

- هل آذيتِ نفسك، *honey*؟

كذلك، أتت أمي التي كانت تتسكّع على الشرفة نحوي:

- لو أنّ ذلك يجعلك تهدئين على الأقل!

لكنها لم تكن تنظر إليّ، وهو أيضاً لم يعد ينظر إليّ. لست أدري ما إن كان تيرنس قد نام منذ تلك الليلة في سرير تيكلا. لكنّ المؤكّد أنّ الأمور لم تتأخر، وأنّ الجميع اضطرّوا لملاحظة صحّة المثل القائل «بعيدٌ عن العين، بعيدٌ عن القلب» على مانويل.

ثمة قواعد في كلّ جماعةٍ تصبّ الحياة من دونها في أخدود الإباحية الكبير. من هذه القواعد قاعدةٌ أساسية، هي الإخلاص للحبيب. صحيحٌ

أنّ الرجال لم يكونوا يحرمون أنفسهم من إدخال رفيقاتٍ أتين من الخارج (أمضت كنديةٌ من وينيبيغ ستة أشهر بيننا! وفي مرةٍ أخرى، كانت أميركيةً من ديترويت!)، لكن لم يكن رجلٌ من الراستا ليرفع عينيه إلى امرأة أحد إخوته. غير أنّ أحداً لم يتلفّظ بكلمة لومٍ أو صدٍّ بغياب مانويل، وتمكّن الرفيقان من أن ينخرطا في كلّ ما يمليه الوجد من ابتذال. البقاء مضطجعين وهما يضحكان، التأوّهات والمسارّات حتى ما بعد انتصاف النهار. الذهاب للسباحة عاريين في خليجٍ صغيرٍ خاوٍ. تأليف قصائد وقراءتها على نحوٍ ثنائي. تناول الطعام من الصحن عينه. النزول إلى الملاهي الليلية وإثارة الجلبة فيها. العودة في ساعات الصباح الباكر وقد أسكرتهما الموسيقا والكحول.

كانت فيلما تذهب وتجيء وهي تحمل بين ذراعيها طفلاً آخر لراستا روي، جميلة، نعم جميلة، في أثوابها الفضفاضة أكثر فأكثر، وعلى جبينها ثنية قلقٍ كبيرةٌ فوق عينين اسودّتا بسبب القلق. لكنّ صوتها لم يكن يشي بشيء.

– أخت تيكلا، أنا نازلة إلى المدينة. ألا تريدين شيئاً؟

– بلى! بلى! أحضري لي ماعونين من ورق الآلة الكاتبة!

أمّا أنا، فكنت أنتظر العنف. الدم. على الصفحة الأولى من ديلي غلينر(*): «اغتيالٌ رهيب في طائفة راستا في ريد هيل. منذ سنوات، لم يتوقّف مواطنو مدينتنا عن التشكّي من مساوئ الراستا. وفجر هذا الصباح، قَتل اثنان من المهاجرين الأميركيين الذين اجتذبتهم جنّة المخدرات والرذيلة هذه كلٌّ منهما الآخر، بسبب امرأة غوادلوبية...».

(*) Daily Gleaner: جريدة كنيغستون.

وعلى الرغم من ذلك، يجب أن أقول إنّ أحداً من الرجال الذين تتابعوا في سرير أمي لم يهتمّ بي بقدر ما فعل تيرنس. ليس بدافع الواجب مثل بيير، زوج أمي الشرعي. بل بدافع العاطفة. بدافع الحب. لقد أحبّني تيرنس. كان يؤلّف لي قصيدةً كلّ يوم. (إليكم ترجمةً بعيدةً عن الكمال لإحداها):

«في السافانا الخضراء
ذات أشجار الجوافة الوردية
ترعى الأبقار السوداء.
وبين قرونها بقعة بيضاء،
نقّار الماشية!»

(أو هذه القصيدة الأخرى):

«تعالي يا بهجتي الجميلة
ذات الخدّين المبقّعين بشمسها
ذات العينين المزروعتين بمسامير من النجوم
ضحكتك البيضاء
في وجهك الذهبي».

كنت أشبهه على صعيد الشكل. كان يمكن أن أكون ابنته، وعندما يعلّمني أن أغطس في هيلشاير، لم يكن ذلك يثير أيّ شكٍّ لدى أحد.

- انظر إلى الراستا وابنته الصغيرة! ألا يدعو ذلك للأسف رغم كلّ شيء؟

يصطاد السمك بالسنّارة ويضعه على سريرٍ من الجمر بعد أن يتبّله بالفلفل، فيسيل لعاب المرء. وأتسلّق على طول ظهره حتى الفواكه

المحرّمة على أطراف الطرقات. لكنّه ويا للأسف! ارتكب جريمتين لن أتمكّن يوماً من مسامحته عليهما!

بدا غياب مانويل وكأنه لا ينتهي، لكنّه لم يدم سوى شهرٍ وأسبوعين. بين حينٍ وآخر، كان يتصل بالهاتف من مناطق مختلفة في الجزيرة. يرنّ صوته من دون أن يتوقّعه المرء كصوت شخصٍ دُفن وخرج فجأةً من قبره، صادماً كصوت أرملٍ يصرخ معبّراً عن فرحه في قلب المقبرة.

– Hi, baby! نيغريل يغزوها المنبوذون من سان فرانسيسكو، «flower people»(*) الذين أصبحت بتلات أزهارهم أصداف محار. لن نبني بيتنا على هذه الأرض. أنا أتبع درباً آخر. اصمدي!

أخيراً، عاد صباح يوم أحد، وسط قدّاس. كان راستا موزس الذي يعلم الله وحده كيف نجا من السجن يتلو كلمات الكتاب المقدّس: «لكلّ شيءٍ زمانٌ ولكلّ أمرٍ تحت السماوات وقت: للولادة وقتٌ وللموت وقت. للغرس وقتٌ ولقلع المغروس وقت. للقتل وقتٌ وللشفاء وقت. للهدم وقتٌ وللبناء وقت. للبكاء وقتٌ وللضحك وقت. للنوح وقتٌ وللرقص وقت».

.15

عنف العناصر هو العنف الوحيد الذي رافق عودة مانويل.

ففي يوم الأحد ذاك، رفضت الشمس أن تشرق، وتلوّنت السماء منذ الصباح بلون الرصاص. فجأةً، قبيل انتصاف النهار (لحظة وضع مانويل

(*) أهل الزهور، والمقصود: الهيبيّون. [م].

قدمه في المعبد؟)، صارت السماء سوداء كالحبر. في الوقت عينه، سارعت الرياح من جهات الأفق الأربع في حين صرخ البحر، كامرأةٍ مجنونة، في هذيان الأمواج ودفقات الرذاذ قبل أن ينسكب على الصخور. المواشي خارت في الحظائر. الدواجن قوقأت وركضت الدجاجات بصورةٍ دائرية وهي تنفش ريشها كلّه. أمّا الكلاب، فقد توسّلت وتأوّهت وهي تخفض ذيلها كي يُسمح لها بالدخول إلى البيوت التي حصّن سكانها على عجلٍ أبوابها ونوافذها.

في جلبة بكاء الأطفال (والقلوب؟)، رفع راستا موزس صوتاً أراده مهدّئاً:

أقول للربّ: «ملجئي وحصني...».

بعد أن تغلغلت الريح في خليج كينغستون، خرجتْ من المدينة وسارعت بأقصى سرعة على طريق سافانا لامار (Savannah-la-Mar)، فقلعت الأشجار ودفعت الحافلات. آنذاك، تقدّم حصان المطر لطيفاً في البداية، من دون أن يبدو عليه أنّه يمسّ المدينة. ثمّ تزايد غضبه فحطّم وهشّم ولوى وسحق تحت حوافره.

دام عنف العناصر ثلاثة أيام. وفي اليوم الرابع، توقّف. كان ذاك إعصار بيفرلي، أحد أسوأ الأعاصير التي عرفتها جامايكا في تاريخها. بلغ عدد المفقودين مئتين، وتشرّد ثلاثة آلاف، وتحطّمت جسورٌ بسبب فيضان الأنهار التي تمرّ أسفلها، وانهارت طرق، وانجرفت تربة هكتاراتٍ وهكتاراتٍ من الأراضي. عندما انتهينا من تنظيف الحديقة، أعلن لي تيرنس إننا سنسافر في اليوم التالي إلى بلاك ريفر (Black River).

لم يشعر الناس في غوادلوب بذلك الإعصار سوى على شكل مطرٍ غير

معتادٍ في شهر نيسان. غير أنّ فلورا لاكور، امرأة جدّي يعقوب التي كانت تأتيها رؤىً أثناء نومها منذ بضع سنوات، استيقظت في منتصف الليل وهي تقول إنّ خطراً جسيماً يتهدّد تيكلا. لم تستطع أن تشرح تماماً طبيعة ذلك الخطر. على كلّ حال، قالت إنّ تيكلا تحتاج إلى أن يصلّوا كثيراً لأجلها. وما زاد من استغراب الآخرين لهذا الطلب هو أنّ فلورا تكره تيكلا بحقد، واستغلت الحميمية التي يمنحها النوم على الوسادة عينها لحثّ يعقوب على التحدّث بجدية مع ابنته.

– صحيحٌ أنّ المرء يشتري التعليم، لكنّ التربية لا تُشترى. هي أصلاً تجلب العار لاسمك بهذه الطفلة اللقيطة. لكنّها أيضاً تترك ذاك الذي أقالها من عثرتها في البلد الأم، لتأتي وتعيش مع زنجي نكرة مثل جيسنير. مهما فعلنا ومهما قلنا، أنت لم تربّها من أجل عازف غووكا! ولتزيد الطين بلّة، هي تضع له قروناً وتهرب مع زنجي إنكليزي أو إسباني [؟؟]. أحياناً عندما أفكّر، أتساءل عمّا إذا كان أخوك جان حرّض على هذا كلّه ليجرحك!

فيهزّ يعقوب كتفيه: «أنت تصبحين مجنونة! أنت تفقدين عقلك! جان وأنا متماثلان».

غير أنّ وجهة نظر فلورا، الصالحة عدا ذلك، وذات الموهبة في السرير خلافاً لتيما على الرغم من سنواتها الخمس والأربعين، كانت تستحقّ النظر فيها. بعد أن غيّر يعقوب ماء الأوعية وأشعل الشموع التي تصاعد الدخان منها لولبياً، جلس على قبر الأم الصغيرة إيلاييز:

– ماذا يحدث لطفلتي هذه؟ لماذا لا تجد ما تبحث عنه؟ وأصلاً، ما الذي تبحث عنه؟ أبي رغب في المال. وأنا في التعليم. أمّا هي، فلديها هذا وذاك. ما الذي تبحث عنه الآن؟ ولماذا لا تستطيع الحصول عليه؟

أخذت الأم الصغيرة إيلاييز تمسح عرقه بأصابعها المصنوعة من العتمة، وأجابت: «هوّن عليك، هوّن عليك يا تي كونغو! أقول لك، أنا، إنّك كنت أفضل الآباء».

تحسّباً، أمر يعقوب بتلاوة قدّاس، وطلب من إحدى نساء العائلة أن تقابل الشامان. ثمّ سلك درب جوين لابورد بعد انقطاعٍ دام أشهراً.

فعلى الرغم من احتجاجاته، وجدت كلمات فلورا صدىً في نفسه، وتساءل ما إن كان أخوه قد عمل على اختطاف ابنته منه. أوه، صحيحٌ أنّه لم يكن يمثّل شخصيةً مثيرةً حقاً للاهتمام. صاحب متجر، بائع شحم خنزير! بيد أنّ ثلاثةً من أبناء جان، عدا ديودونيه، يتابعون دراستهم في البلد الأم بفضل حوالات يعقوب المستمرّة والسخيّة. المال كالروث. قذرٌ ونتن الرائحة. لذلك نترك للبستاني أمر التعامل معه لجعل الزهور تنمو!

ركب يعقوب رأسه إلى درجة أنّه وصل إلى بيت جان وهو حانقٌ إلى أقصى الحدود، عازماً على التحدّث إليه بقسوة. لسوء الحظ، وجد كوخ الرجل العظيم فارغاً! اقترحت عليه ماريتا، متألمةً ومحمرّة العينين، الذهاب إلى منطقة سان فرانسوا لمعرفة ما إن كان عند امرأةٍ اسمها فابيين.

– آه، أقول لك إنه لم يعد الرجل عينه! ها هو ذا يركض وراء شابّةٍ الآن!

عاد يعقوب إلى سيارته وهو حزين. كان الطريق يمتدّ أسود بين سواد حقول قصب السكر. كانت الضفادع التي لا ترتوي تبحّ صوتها وهي تطالب بماءٍ انتهت لتوّها من ابتلاعه، والأبقارُ المربوطة بوتدٍ تخور ببؤس.

فجأةً، تمنّى يعقوب لو تتوقّف حياته هنا على طرف الإسفلت هذا الذي هبط منسوبه بسبب الأمطار الغزيرة الهاطلة مؤخراً.

أصابت ماريتا في غيرتها. إذ كان جان حقّاً مع فابيين في سريرٍ مزدوجٍ تحت ملاءةٍ من الكتّان المجعّد.

خلافاً ليعقوب الذي لطالما أساء إليه عضوه، كان جان من هذه الناحية هادئاً مثل نهر موستيك. لكن فجأةً، في اجتماعٍ يتجادل الحاضرون فيه على النشاطات المستقبلية لاتحاد عمّال قصب السكر، انقلب كلّ شيء. إذ أخذت خلاسيةٌ شابّةٌ متوهّجة العينين تشتُم الرفاق الذين جمدوا في أماكنهم: «إذا ما واصلنا التبعية برفقتكم وممارسة الامتناع الثوري عن التصويت وعدم الظهور بوضوحٍ في ضوء النهار الساطع، فسيأتي عام 2000 من غير أن تنال غوادلوب استقلالها. لا بدّ من الكفاح المسلّح!».

- أتقولين الكفاح المسلّح؟

- نعم، حرب العصابات! أيها العنيدون، هل تقرؤون الصحف لمعرفة أيّ رقصةٍ يرقص العالم؟ لا! أنتم هنا تخورون بارتياحٍ شعاراتكم: *«Palé kréyol! Dansé gwo-ka!»*[*].

لم يتحمّل الجمع أن تتوجّه امرأةٌ بمثل هذه العبارات لرجال، فأُبعدت فابيين. لكن كان لا بدّ من ملاحظة أنّ كلماتها لم تكن هباءً، وأنّ بعض الشباب تلقّوها كأنها تِبر الأنهار. بعد مدةٍ قصيرة، سيشكّلون حركةً من أجل تحرير غوادلوب الفوري، وهذا الانشقاق الكبير الأول في معسكر الاستقلاليين هو الذي يتحدّث عنه مؤرّخونا.

تبع جان فابيين مثل كلبٍ من دون حبل، خاضعاً بكامل إرادته. وبما أنّ عمرها كان يقلّ عن عمره بعشرين سنة، فقد بدا له أنّه صاغ تمرّدها لأنه أنجب هذا التمرّد. فابيين هي ما كان يمكن أن تكونه تيكلا!

(*) «تكلّموا بالكريولية! ارقصوا رقصة غوركا!».

ليس مرغوباً أن يعشق رجلٌ في الثامنة والأربعين من عمره شابةً لم تصل حتى إلى الثلاثين. إذ إنّه يشكّك في نفسه، فيتساءل ليلاً نهاراً كيف يبهرها. في السرير، خوف جان من عدم إرضاء فابيين جعله مملّاً! وعندما يخرج من السرير، يظهر الرعب من أن يخيب أملها فيه فكرياً. فينطلق في خطبٍ مسهبة عن الثورة والماركسية والعودة إلى الشعب والتوعية، تسمعها ساخرةً ثمّ تعلّق وهي تقاطعه: «يا مسكين يا جانو، أنت لا تعرف حقاً ما تتحدّث عنه! هل قرأت غرامشي؟».

ويكون على جانو المسكين الاعتراف بأنّ هذا الاسم جديدٌ عليه! أضف إلى ذلك أنّ أصدقاءه القدامى الساخطين يهاجمونه بانتظامٍ في زوايا مجلّتهم الأسبوعية، وستفهمون لماذا صار جان يجرجر قدميه مطرقاً، مثل جسدٍ عجوز، ويجفل عندما يوجّه أحدٌ الكلام إليه بسبب استغراقه في تأملاتٍ داخليةٍ مؤلمة. كانت مارييتا تراقبه وتتبرّم في سريرتها: «غريب! لم ألاحظ يوماً كم يشبه أخاه يعقوب! أقلّ سواداً، لكنه قبيحٌ بالقدر عينه تقريباً! حسناً، لا يستطيع المرء أن يكون في الماضي والحاضر معاً! لحسن الحظ، يبقى لنا الأبناء!».

وتلتفت إلى مانويلا، ابنتها المفضّلة التي تفتصّ البسلة الهندية وهي متجهّمة!

يقول الناس إنّ تلك السنوات، السنوات الأولى من السبعينيات، كانت رهيبةً في بلادنا. إذ رحل الرجال ليبحثوا في أماكن أخرى عن آمالٍ أخرى للحياة بعد أن يئسوا من قصب السكر. ومثل سلَفي ألبير، ذهب آخرون ليبيعوا عرَقهم في فرنسا، يشدّون براغي السيارات ويحلّونها.

ثمة حكايةٌ دفعت الناس إلى البكاء، من باس تير إلى غراند تير. إذ

فقدت عقلها امرأةٌ تدعى روزلين، وهي امرأةٌ بسيطةٌ من سان سوفور (Saint-Sauveur) يقطن أبناؤها الخمسة في البلد الأم، فبقيت وحدها في بيتها الكبير جداً. ذات مساءٍ وأثناء قداس منتصف الليل، وهي تستعد للذهاب إلى سريرها من دون تناول وجبةٍ من السجق ولحم الخنزير والبسلة الهندية، خرجت على عتبة بيتها وصاحت: «لا، ليست حياةً تلك التي نعيشها هنا! لم يعد هنالك رجالٌ ليعزقوا بساتيننا ويدفئوا قلوبنا! الوحش في مكتب الهجرة يفترسهم، ولم يعد لدينا سوى عينينا الاثنتين للبكاء! متى، متى سيعود قصب السكّر للإزهار؟».

ثمّ وقعت ميّتةً قبل أن يتمكّن الجيران من التدخّل.

القسم الرابع

.1

كان نزل واترلو العائلي الذي قرّر مانويل إدارته في بلاك ريفر بيتاً على الطراز الجورجي، بُني في عام 1799 من أجل عائلةٍ إنكليزيةٍ ثريّةٍ من أصحاب المزارع، آل باريت. بقي رائعاً على الرغم من التلف الذي حلَّ به والأضرار التي أصابه بها من اشتروه وخرّبوه. فقد استُبدلت بألواح إكساء السطح صفائح معدنية. كما سُدّت الشرفات بألواحٍ خشبيةٍ عريضة، وانتُزعت درابزيناتها المصنوعة من الحديد المشغول. وتمثّلت ذروة البشاعة في ثَقْب الواجهة لوضع مكيّفٍ من طراز ويستنغهاوس. انهار المشروع بين أيدي آخر المالكين، وهم أميركيون من بوسطن، لكنّ مانويل كان مصمّماً بالفعل على جعله مربحاً.

عندما فُتح الباب، تفرّق موكبٌ من الجرذان، في حين صعدت عناكب كبيرةٌ بسرعةٍ إلى شبكاتها لتراقبنا بعيونها الباردة. ساعدنا مانويل الذي كان لا يزال طلق اللسان، لكن بصوتٍ أجشّ بسبب حزنه المحصور، في استكشاف الطابقين، شارحاً الإصلاحات والترميمات التي لا غنى عنها!

– هنا يجب استبدال الجدران، لأنّ سوس الخشب يأكلها! وهنا يجب إضافة عارضتين. وهنا يجب سدّ مواضع التسرّب. وهنا...

بانتظار معرفة من أين سيأتي المال لذلك كلّه، أحصينا خمس غرفٍ

في الطابق الأول صالحةٍ للإقامة. كذلك، فإنّ صالة الطعام في الطابق الأرضي، وكذلك الصالة الملحقة بها والمطابخ، كانت في حالةٍ حسنة تقريباً. في المقابل، كان البستان جنةً من الأشجار المثمرة الجميلة. أشجار الليمون الإسباني والكرز والمشمش والليتشي والأفوكادو والبرتقال والمانغا والليمون والليمون الهندي... كلّ شيءٍ ينمو فيه!

بعد ظهر يوم وصولنا، ومن دون إضاعة دقيقةٍ واحدة، عادت تيكلا التي سحرها المكان إلى القرية لشراء لوازم منزلية، لكنّ كلّ الأبواب أُغلقت أمامها. فسكّان بلاك ريفر مجتمعٌ هانئٌ صغيرٌ ليس فيه أيّ شخصٍ غريب، بل يتكوّن من الصيّادين وبعض المزارعين النادرين وتاجرين أو ثلاثة تجّار، وطبيب، وخوري أُرسل إلى هناك بعد ارتكابه خطيئةً قاتلة، إضافةً إلى بعض عائلات البيض التي تعيش قابعةً خلف أباجورات نوافذها منذ الاستقلال وأعمال العنف التي حدثت مؤخّراً، وهم لا يعجبهم أمثالنا وأرادوا أن يُفهمونا ذلك. من دون أدنى شك.

صباح اليوم التالي، وجدنا ثلاثة ضفادع مقيّدة الأرجل بخيطٍ أحمر وبأشداقٍ مفتوحة، مثبّتةً بمسمارٍ على الشرفة. بعد يومين، أظهر كلبٌ نافقٌ أنيابه في حوض الماء. كانت أنماسٌ تُفلَت ليلاً ونهاراً تخنق دجاجاتنا، وكادت تيكلا تموت عندما وجدت وعاءً مصنوعاً من الثمار المجفّفة ممتلئاً بالعلقات على بابها. تولّى تيرنس الأمور ونزل بنفسه إلى القرية. وحده الله يعلم ما فعله هناك في ست ساعات! على كلّ حال، عاد ومعه فتاتان (جميلتان)، إحداهما للأعمال المنزلية والثانية للمساعدة في المطبخ. لكن سرعان ما ظهر أنّهما تحت مظهرهما الطيّع شرّيرتان رهيبتان. تردّان على تيكلا بفجاجةٍ إنّ عليها القيام بالعمل بنفسها، لأنّ استعباد الزنوج انتهى

ولله الحمد منذ وقتٍ طويل، وتهيلان على ملاحظاتها دفقاً من الشتائم بلغةٍ هجينة. بعد ذلك، وجب أن يبقى تيرنس معهما في غرفةٍ مغلقة لعدّة ساعات، بهدف تهدئتهما وجعلهما تضعان المريول مجدّداً حول الخصر. على أثر شجارٍ بأربعة أصوات، هيمن فيه صوت تيكلا هذه المرة على الأصوات الأخرى كلّها، وبقي مانويل هذه المرة صامتاً، رحلتا واستقرّ تيرنس بمفرده في غرفةٍ في الطابق الثاني، جدرانها مغطّاةٌ بالعفن. نام فيها أكثر من أسبوع، مغلقاً أذنيه أمام دعوات مانويل: «اسمع، لا تكن أحمق! لن نتحدّث عن الأمر بعد الآن!».

كثيراً ما دار الحديث عن الحياة الثلاثية استهجاناً أو إعجاباً حسب القناعات والمزاج. ونادراً ما أخذ أحدٌ بالحسبان رأي شخصٍ رابعٍ يمكن أن تكون له علاقةٌ بهذا الأمر رغماً عنه: الطفل!

سارعت الخادمتان اللتان طردتهما تيكلا إلى إشاعة المعلومة، وفي المدرسة، المختلفة كثيراً عن مدرسة راستا روي، كان الأطفال يتلوّون فور ظهوري. يسألون: «كم أباً لديك؟».

مطلقين عليّ لقب: «Double-Daddy»(*).

أو مدندنين وهم يسدّون أنوفهم:

– *Pass the dutchie by the left hand side...*(**)

غير أنّ الصداقة أزهرت في هذا الجحيم. حصلتُ على رفيقة، مرذولة، منبوذة، كبش فداءٍ مثلي، لكن لأسبابٍ مغايرة. ميليسا، جامايكية بيضاء صغيرة فضّل أبواها أن يذويا خلف أباجورات نوافذهما على الذهاب

(*) «أب مزدوج».

(**) أغنية جامايكية قديمة.

للاستقرار في ميامي في فلوريدا مثل مواطنيهما من اللون عينه. في دروس التاريخ، تجعلها المعلّمة تقف، شفيفةً قرب اللوح الأسود، وتتهمها كيفما اتفق بتجارة العبيد وسادية أصحاب المزارع وإعدام ويليام غوردون وجرائم أخرى عديدة نسيتُها الآن. كما أنّها اتُّهمت بقطع العلاقات الأميركية مع كوبا وبالتدخّلات في هايتي!

ليس مفاجئاً أن صرنا ميليسا وأنا نهرب، مفضّلتين الأدغال والبحر والتلال على ذلك السجن الذي نتعرّض فيه للاضطهاد. كم في الطبيعة من حبٍّ بالنسبة إلى الطفل المفتقر إلى الحب! ثمار المانغا والجوافة المكتنزة لإسكات الجوع، عيدان القصب للعطش، مخدّة أعشاب غينيا للنوم وبطن البحر الأمومي الدافئ لنلتجئ إليه! أحياناً نتوغّل في طريق سافانا لامار حتى بيت باسيانس التي عملت في الماضي عند أهل ميليسا. تعرض علينا صوراً لابنها الذي هاجر إلى مساحات الثلج الشاسعة في تورنتو، وعلى الرغم من راديو الترانزستور ومحمّص الخبز الكهربائي اللذين أرسلهما إليها، ينتهي حديثها على الدوام بالبكاء.

– البرد أمرٌ غير إنساني! الثلج أمرٌ غير إنساني! إنه غير مصنوعٍ لجسد الإنسان الذي ينتمي إلى بلداننا ولا لقلبه! أحياناً تنتابني الرغبة في أن أطالب السياسيين بأن يعيدوا لي ابني!

ثمّ تستردّ مزاجها الحسن، فتغسلني بالصابون وتفرك جسمي كلّه قبل أن تتسلّح بمشطٍ وهي تتبرّم: «شعرٌ جميلٌ كهذا، يفترض بأمك أن تقصّه إن كانت لا تعرف كيف تعتني به! أنا كنت ثمرة كوكو جافة(*) حتى عامي العشرين. ثم عندما وُلد ابني، نبت شعري! أصبح طويلاً إلى درجة أنني

(*) قرعاء.

كنت أجلس عليه! امرأة لا شعر لها هي باقة خضارٍ لصنع الحساء من دون حساء!».

وعندما أظهرُ مجدّداً قبيل أن تستحمّ الشمس بالبحر، أجد مانويل وهو يقطع الخشب في الباحة. يمسح عرقه ويقول: «أين تسكّعتِ اليوم أيضاً؟».

فأمرّ به من دون أن أنظر إليه، وأذهب لأجلس عند قدمي تيرنس الذي ينقر في الطابق الثاني بإصبعٍ واحدة على غيتارٍ قديم من ماركة أولمبيا. كان تيرنس ينقر من الصباح حتى المساء، وأحياناً في وقتٍ متأخرٍ ليلاً قبل أن يذهب ليتنزّه في مكان يعرفه الله وحده، ويعود متى شاء. وكان ذلك يدفع مانويل إلى الغضب الشديد، فقد أصبح، علاوةً على الرجل المكلّف بتقطيع الخشب، مكلّفاً بإشعال النار، وشراء الحاجات، ولوي أعناق الفراريج، وإفراغ السمك من أحشائه، وتقشير الجذور وقصّ العشب. أمّا تيكلا، فتضع منديلاً على رأسها ومريولاً أزرق كبيراً حول خصرها وتهتمّ بالمائدة، وأجد من واجبي الاعتراف لها بالمخيّلة وبمواهب في الطبخ.

فقد أتانا زبائن إلى نزل واترلو العائلي! شباب، أوروبيون وأميركيون، على الطريق بحقيبة على الظهر إلى فراديس نيغريل! وكلاء سياحة وبيئة بسيارات مرسيدس! وأحياناً عشّاقٌ لقضاء عطلات نهاية الأسبوع بعيداً عن الأنظار! بقيت فرنسيّتان شديدتا الأناقة، إيليان وفريديريك، راسيّتين فيه ستة أشهر. أضافت الأولى إلى قائمة الطعام ابتكاراتٍ من قبيل البطّ باللفت، ومارست الثانية الحب مع تيرنس وترجمت قصائده إلى الفرنسية. وبما أنّها بثّت الألم في نفس تيكلا، فقد أصبحنا هي وأنا أفضل صديقتين في العالم، متحدّثتين بصخبٍ ونحن نتنزّه في الحديقة.

- حبيبتي المسكينة، لطالما سمعت أنّ النساء السود لديهنّ فائضٌ من الحب الأمومي. وما تحمله هذه المرأة منه يعادل ما تحمله شوكة سمكة.

فأزيد عليها: «يتساءل المرء ما الذي يجدان كلاهما فيها. إنها شنيعة، أليس كذلك؟!».

فتتظاهر فريدريك بالحرد: «أنت تبالغين يا صغيرتي! يمكننا أن نقول كلّ شيءٍ عنها سوى ذلك. فهي لا تمتلك حتى القسمات الشبيهة بالزنوج!».

مسكينة تيكلا! إذ جعلها الهمّ الناجم عن خيانة أحد رجليها تذوب كالشمعة، فباتت تشدّ أكثر فأكثر حبلَيْ مريولها الذي يزداد اتساعاً. لم نعد نسمع صوتها، وبما أنها صارت تُخطئ بانتظامٍ في حساباتها، فقد أعفاها مانويل من مهمة تحضير الفواتير. فائضٌ من العمل بالنسبة إليه! لا يثير الدهشة أن يصرخ وهو ينظّف السمك من أحشائه ويلوي أعناق الفراريج وينظّف الأرض بالممسحة ويحمل براميل القمامة: «تبّاً! تبّاً! يا للحياة القحبة! ما الذي أتيت لفعله هنا؟ قولوا لي! قولوا لي!».

بعد أسابيع طويلةٍ لم نستقبل فيها في غرفة الطعام سوى اثنين أو ثلاثة من «حقائب الظهر» كما كنا نسميهم بازدراء، حبس مانويل نفسه في الصالة الملحقة بغرفة الطعام، ثم خرج منها وهو يعلن: «يجب أن نفعل شيئاً ما. لم يعد لدينا في الصندوق سوى مئة واثنين وثمانين دولاراً. جامايكياً».

.2

تجلد الشمس الأرضَ وترتمي ظلالنا تحت أقدامنا على نحوٍ دائري مثل كلبتين مطيعتين. وبما أنه ليس في بيتي ما يؤكل، تأخذني ميليسا

الجارة إلى بيتها. تضع إصبعاً على شفتيها المصطبغتين بلونٍ ورديٍّ باهت. هذه أول مرةٍ أدخل فيها إلى بيتها. جميلٌ هو بيتها، على الرغم من حاجته الحقيقية إلى الطلاء. الطابق الأول الفخم تحت سقفه الثقيل الأحمر الباهت يتجاوز بقليلٍ الطابق الأرضي، ويمتدّ بشرفةٍ مربّعة، تزدحم فيها الكراسي الهزّازة وطاولات الزينة وأصص النباتات. نجول في البيت وندخل المطبخ القديم المتضمّن مكاناً لتحضير الطعام ووضع الصحون مصنوعاً من الآجر، وبرّاداً يشتغل على النفط.

«بسبب الأعطال»، تشرح ميليسا بعقلانية.

تفتح الفرن. فخذ خروف وغراتان الشايوت. كم هذا لذيذ! أستعدّ للالتهام، لكنّ ميليسا بتربيتها الحسنة تصرّ على أن أغسل يديّ وأؤدّي دعاء الشكر.

– هل تريدين نبيذاً؟

نبيذاً؟

تفتح ميليسا بمكرِ البرّاد الذي يصدر صريراً قاتلاً وتستخرج زجاجةً مفتوحة. أقرأ بشيءٍ من الصعوبة: "gewurztraminer(*)! تعلّق ميليسا العليمة: «يجب عدم شرب النبيذ الأبيض مع فخذ الخروف».

لماذا؟

ترفع ميليسا كتفيها، فهي لا تعرف السبب. هنا، سجّلتُ نقطةً عليها. أتناول الطعام، وتنظر هي إليّ وأنا أتناول الطعام وفي قاع عينيها الممتلئتين بدمعٍ حزينٍ تبدو السعادة. أُقرّب قدحي، فتملأ قدحاً لنفسها وندقّ قدحينا كلّاً بالآخر. يا إلهي، كم هو لذيذٌ هذا النبيذ! لم أشرب يوماً نبيذاً بهذه

(*) نبيذ أبيض ألزاسي. [م].

اللذة! تسكب لي ثانيةً. من فخذ الخروف ومما تبقّى! نضحك. تسأل ميليسا ببراءة: «لماذا يطلق عليك الأطفال لقب: ذات الأب المزدوج؟».

غريب، السؤال لا يضايقني! أجيب عنه بمرح: «لأنّ أمي تنام مع رجلين!».

دهشة عظيمة، ثم تطلق ميليسا ضحكةً مدوية!

– كيف تفعل ذلك؟

أرفع كتفيّ: «لا أدري، لم أحاول يوماً أن أستكشف».

يزداد ضحك ميليسا. تتلوى من الضحك حرفياً: «أودّ فعلاً أن أرى أمي...».

تقول وقد أُصيبت بالحازوقة: «هي التي تستحمّ بقميصها وتغطّي شعرها لتنام!».

نقهقه. النبيذ يسيل، لزجاً ومنعشاً.

– لطالما تساءلت، لطالما تساءلت...

– ماذا؟

لا تجد كلماتها لشدّة ما تضحك. فجأةً، يُفتح الباب وتدخل امرأة. تحديداً الأم. بيضاء! لم أرَ قطّ امرأةً بهذا القدر من البياض، في حين أنّ الشمس تطبخ الأجساد في الخارج. شعرها مفروقٌ من المنتصف وعلى الجانبين خصل ملساء وسوداء، ملطّخة هنا وهناك بالأبيض، مثلما رأيت لاحقاً لدى جورج صاند. لديها ثقبان أخضران مكان العينين. يستعيد وجهها الشبيه بالزومبي الحياة عندما ترانا كما لو أنها أكلت ملحاً. تنفرج شفتاها الشبيهتان بالورق المجعّد وتصيح: «ميليسا! ميليسا! من هذه؟ اخرجي من هنا على الفور أيتها الزنجية الصغيرة القذرة! اخرجي!».

هل حلمت بهذا المشهد؟

.3

كانت تلك فكرة تيكلا.

بما أنّ الموسيقا اختارت جامايكا مملكةً لها، وأنّ الجماهير تعبد الملحّنين كأنهم آلهة، فلماذا لا ننظّم حفلات، ليس لموسيقا الريغي هذه المرة، بل لنوعٍ آخر من الموسيقا الشعبية، الغووكا مثلاً، موسيقا شوفال بوا(*)؟ باحة النزل كبيرةٌ بما يكفي لاستقبال ألف شخص. وإذا كان سعر البطاقة خمسة دولارات، فسيمثّل ذلك ثروةً صغيرة. في الوقت عينه، سيعمل ذلك على تمتين صلات المعرفة بين منطقة الكاريبي الناطقة بالإنكليزية وتلك الناطقة بالفرنسية. إلى آخره، إلى آخره... انقضّت تيكلا على قلمها ووجّهت رسالةً مطولة إلى جيسنير.

تلقّاها جيسنير، وقد هدّأته الأبوّة، أثناء انحنائه على مهد الصبي البدين الذي منحته إياه جيرتي، فأعادت تحريك كلّ ذلك الألم الذي عانى في السيطرة عليه كثيراً! آه، لم يجلب له آل لوي السعادة! دعك عن تيكلا، لأنّ هذه المرأة كثيرة التقلّب وقاسية بالولادة! لكن ماذا عن جان، أبيه بالتبني؟ عندما يفكّر جيسنير بأنّ جان فتح ذراعيه لمانويل، تحديداً الرجل الذي خطف منه تيكلا! لذلك، قبِل جيسنير قبولاً أعمى كحقيقةٍ هجمات صحيفة «ليبيتيه» التي تصوّر جان كبرجوازيٍ صغير، صغيرٍ جدّاً، سجين طبقته، دنيءٍ ووصوليٍّ وشرس. يجب أن يضاف إلى ذلك أنّ علاقته بفابيين أثارت قرف جيسنير الذي لم يركض يوماً وراء النساء. الثورة تبدأ بهذا التحكّم بالنفس. هذا صحيح، لقد تكشّف جان عن أنّه مثل أولئك

(*) chouval bwa: نوع من الموسيقا الشعبية في مستعمرات العبيد في المارتينيك. [م].

الدسّاسين في الأحزاب التقليدية، ممن يستغلّون مواقعهم لتشكيل حريمٍ حقيقي!

ردَّ جيسنير إذاً برسالة شديدة الجفاء، اخترع فيها كمّاً من الالتزامات. لكنّه بعد ذلك بقي ليالي ونهاراتٍ بأكملها حزيناً، يمشي كروحٍ متألمة على رواقه وقد فقدَ الاهتمام بابنه. كانت عينا جيرتي تتبلّلان. آه، تيكلا هذه! ألم يكفها ما تسبّبت به من ألم؟ من، من سيخلّصنا من المثقّفات؟ المثقّفات ليس لديهنّ قلب! لا يمتلكن إلا المخّ، وحبّ الرجال لديهنّ مجرّد تجارب. ليس لدى المثقّفات دمٌ حارّ! يبهرن فرائسهن ببرودٍ كالأفعى. أخيراً، تدارك جيسنير نفسه، وبوحيٍ من تأجّج ألمه ثانيةً، ألّف واحداً من أجمل ألحانه: *Déviré*.

انتاب تيكلا أيضاً الأسى بسبب رفض جيسنير، إذ عادت لتعيش حب مراهقتها المضيء في غران فون ليمانغل، وتساءلت ما إن لم يكن أجدر بها أن تنهل ببساطةٍ من تلك السعادة بدلاً من الذهاب للصيد في مياهٍ عكرة. غير أنّها تماسكت ولم تعلن هزيمتها بل توجّهت نحو أوتافيا. أوتافيا رفيقة الغرق الماضي! أوتافيا على مرمى حجر، في مونريال حيث تعاملها جالية الهايتيين كملكة، وقد استجابت بيسرٍ للدعوة.

وصلت أوتافيا إلى بلاك ريفر في يومٍ أُعلن فيه عن إعصار. ذهب الإعصار لينقضّ على شواطئ فلوريدا، مخلّفاً خمسة قتلى ودزينةً من الجرحى. غير أنّ أوتافيا خلقت المناسبة. فخرج الناس الذين يختبئون عادةً خلف أباجوراتهم إلى ضوء نهار الغيبة والسخرية، للتفرّج على غيتاريها، والبونشو الهندي الذي ترتديه، وجديلتها السوداء السميكة والصلبة كالوتد، وطولها الشبيه بطول إلهةٍ محاربة!

حبستُ أنفاسي بانتظار اللقاء بين تيرنس وأوتافيا وأنا مبتهجةٌ سلفاً بما سينتج عنه بالتأكيد، ويجعل تيكلا تتألم ألماً شديداً. أين كان عقلها؟ لكن يبدو أنّها استفادت من تقدّمها عني بسنواتٍ في السن، فكوّنت معرفةً أفضل مني بقلوب البشر. إذ لم يوجّه أيٌّ من هؤلاء الاثنين نظره إلى الآخر، ولم يتبادلا أكثر من كلمتي مجاملةٍ أو ثلاث.

– أنا معجبة كثيراً بما تفعله!

– وأنا أيضاً. سمعتكِ في نيويورك!

بسبب المداخل التي يمتلكها تيرنس إلى البيوت عبر النساء، كُلِّف بالدعاية للحفلة. لا أحد يعلم تماماً كيف توصّل إلى تفاهمٍ مع الخوري الذي ذكّر ذات أحدٍ من على المنبر بمآسي شعب هاييتي الشقيق، وامتدح الموهبة الاستثنائية التي تتمتّع بها تلك التي جعلت من نفسها ناطقةً باسمه. والنتيجة أنّ لافتةً عُلقت على واجهة الكنيسة:

«أوتافيا ديماغجيو تغنّي هاييتي».

ثمّ ذهب تيرنس ليحمل البشرى على مدى كيلومتراتٍ في محيط المكان، بين مستعمرات راستا نيغريل الكوسموبوليتية، وصغار التجّار في سافانا لامار، وموظّفي ماندفيل، بل إنه تدبّر أمره لنشر إعلانٍ في صحف كنغستون. عمل مانويل بمفرده، فقطع شجرتي ماهوجني في الباحة بمنشارٍ كهربائي استأجره من سافانا لامار، نشرهما طولانياً وصنع منصّة. ثمّ جهّز معدّات الصوت، وزيّن الأشجار بأشرطة زينةٍ عليها مصابيح كهربائية متعددة الألوان، وفي النهاية، أصيب بتشنّج عضليٍّ في ظهره، أرغمه على البقاء مضطجعاً ثمانية أيامٍ وهو يتلوّى ألماً.

في هذه الأثناء، استأنفت أوتافيا وتيكلا ثرثراتهما من حيث تركتاها،

متمدّدتين على بطنيهما فوق دواليب مطاطية، أوتافيا في الشمس وقد دهنت جسدها بزيت جوز الهند، وتيكلا في الظلّ، وكلتاهما على مسافةٍ واحدةٍ من إحدى زجاجات روم باربانكور التي كانت أوتافيا حصيفةً حين جلبتها معها. استنكرت أوتافيا زواج تيكلا بأبيض (أبيض!) وضغطت عليها بالأسئلة. وتيكلا، الماهرة في تقديم محاضراتٍ عن «العرق والطبقة في منطقة الكاريبي» أو عن «الموسيقا والسلطة الشعبية»، فضلاً عن موضوع «الحركات الثورية في العالم الأسود»، أخذت تضيع في تقلّبات قلبها وجرّبت التحليل الذاتي:

- بالنسبة إليّ، بيير ليس أبيض. إنّه.. بيير! لم يكن أحدٌ بهذا القرب مني، ربما باستثناء جيسنير، لكن أنا وجيسنير كنّا طفلين. لا أفهم لماذا تؤرّقنا إلى هذا الحد مسألة العِرق، الألوان.. ما الذي تعنيه؟

- سوف تُطلّقين، حسب ما آمل؟

- لا أدري، لا أدري.

وأنا، عندما لم أكن أركض، مقيّدة الحركة، مع ميليسا، عندما لا أكون نائمةً على المقعد الأخير في الصف إلى جانبها بعد أن أتعبني هروب اليوم السابق، أقتل الوقت بالتساؤل أيّهما أكره أكثر، أوتافيا أم تيكلا، قبل أن أمنح الأفضلية للأولى. فأقرأ «الزيف» في نظرتها المخملية الإيطالية. أسمع «الزيف» في صوتها الأرعن مثل الأرتيبونيت (Artibonite)، النهر الكبير في بلدها! «الزيف»، «الزيف»، «الزيف»، الزيف في كلّ مكان. بالنسبة إليّ أنا الطفلة المتطلّبة والظالمة، وأقرّ بذلك، مزيّفٌ هو ذلك الحرص الشديد على الشعب، هذا الحب للزنوج مثلما كان جدّي يعقوب سيقول، هذه الكراهية لاستغلال الإنسان على يد الإنسان مثلما

كان عمّ أمي جان سيقول. لا يدفعها سوى الرغبة في التفرّد والتعطّش لحلّ الحسابات الشخصية.

عندما يصبح منتصف النهار غير بعيد، يصيح مانويل من سرير آلامه، وقد ملَّ من كلّ تلك الثرثرة: «*Fuck you, women!*(*) اذهبا لتطبخا!».

فتنزل أوتافيا وتيكلا إلى المطبخ وتتبّلان كيفما اتّفق السمك واللحم، وهما تقهقهان كتلميذتي مدرسة.

اجتذب وجود أوتافيا بعض الزبائن إلى النزل، فرنسيين أو أميركيين سمعوها في باريس أو في نيويورك وأحاطوها بإعجابهم اللزج المرائي.

– سمعتك في الأولمبيا. كنت رائعة!

– أتعلمين؟ لديّ أسطواناتك كلّها!

نتيجةً لذلك، أخذ مانويل الموجود على الصندوق يضرب قيمة الفواتير بثلاثة، ويطلب سعر سمكة سلمون نرويجية من أجل شريحةٍ من سمك أبو سيف مشويةٍ بإفراط.

.4

بزغ نهار الحفلة أزرق فوق البحر المنبسط كبقعة زيت. تمرّنت أوتافيا طيلة ساعاتٍ في أقصى الحديقة، وكان صدى صوتها القوي يصل إلينا وهي تصدح:

«Mwen kouché malad
Pa sa lévé...»

(*) «تبّاً لكما أيتها المرأتان!».

وقد أضافت إلى برنامجها قصيدتين لتيرنس (كان من المفترض أن يوقظ ذلك ريتي، لكنني كنت منشغلةً بجولةٍ في النزل مع ميليسا التي لم تغامر بالقدوم إلى بيتنا قبل ذلك).

كان من المفترض أن تبدأ الحفلة في السادسة، وهي الساعة التي تنير فيها أولى النجمات. في السادسة إلا ربعاً، فرّغت حافلتان صغيرتان ملطّختان بالألوان الأربعين مراثياً أميركياً وفرنسياً الذين تذوّقوا قبلاً لذائذ وجباتنا. في السادسة والربع، هجم أولاد بلاك ريفر على الأشجار المجاورة لباحتنا، ليتمكّنوا من رؤية المنصة من أعلى. وفي السادسة والنصف، تجمّعت حفنةٌ من الشباب على مستوى البوّابات المفتوحة على مصراعيها، كما لو أنّهم يخشون من أن ينغلق عليهم فخّ، لتيسير أمر خروجهم. في السابعة، عندما بات جليّاً أنّه لن يأتي أيّ متفرّجٍ إضافيّ، وبقيت البطاقات التي رقّمها مانويل بعناية غير مبيعةٍ افتراضياً، قرّرت أوتافيا الغناء.

تماسكت يدي مع يد ميليسا. ومع الغناء، امتزج الملح والماء في قعر أعيننا المندهشة، وسال على خدودنا، راسماً دروباً منيرة. لم نعلم، لا أنا ولا هي، على ماذا نبكي. (ليس على بلدينا اللذين لم نكن ندرك بعد حدادهما وبؤسهما). على طفولتنا الممزّقة. على الحياة الآثمة التي ترقبنا ولا تقدّم لنا فرصةً واحدة، بسبب سوء انطلاقتنا. خلف شجرة لوزٍ محلّيّة، أجهش تيرنس بالبكاء كطفلٍ وضمّنا إليه. وفي الجوار، سار الليل على غير هدى.

من بين الأربعة، كان تأثّر أوتافيا بفشل الحفلة هو الأقلّ. وقد برهنت لتيكلا المنهارة ومانويل القلق وتيرنس القذِري سخفَ أن يتحدّث المرء

بالكريولية لجامايكين، وتبسيطيةَ تخيُّل أنّ الموسيقا نوعٌ من الإسبرانتو، لغةٌ عالمية يفهمها الجميع.

- كلّ موسيقا تحمل ثقافةً وكلّ ثقافةٍ جزيرة.

لهذا السبب على الأرجح، لم تستعجل وضعَ البحر بينها وبين هذه الذكرى، ملاقاةَ معجبيها في أميركا الذين يملؤون صالاتها. بل على العكس من ذلك، بقيت وقتاً طويلاً، لكنّها استعادت جدّيتها ثانيةً. انتهى الاستيقاظ المتأخر بعد شروق الشمس بكثير! انتهى التعطّل المراوغ والثرثار المصحوب بروم باربانكور! انتهت قهقهات التلميذتين اللتين ترتدي كلٌّ منهما مريولاً مربوطاً بشدّةٍ إلى حدّ أنه يسطّح الثديين! انتهت نزهاتها وهي تضع ذراعها حول كتف تيكلا، بين أشجار الإجاص وأزهار التوليب في الباحة! صارت تنهض في السادسة صباحاً والنهار لا يزال متردّداً خلف الأباجورات، وتستحمّ بماء الخزّان البارد، وتتسلّق إلى الحجرة في الطابق الأخير حيث تشتغل ويرتفع صوتها ويهبط، فتهتزّ الجدران ويصُرّ السقف وتهرب الحشرات مسرعةً، وتعلمني أنا بأنّ الوقت حان للاختيار بين الهروب والمدرسة. ويصعد إليها تيرنس الذي عاد هو أيضاً ليصبح جدّياً وفي يده قصعة قهوة، لأنها قرّرت تلحين قصائده بعد ترجمتها إلى الفرنسية، ثمّ إلى الكريولية. لم يكن ذلك أمراً بسيطاً! فكثيراً ما كانت تنحني من فوق الدرابزين وتطلب مساعدة تيكلا:

- قولي! كيف تترجمين إلى الكريولية: «القمر الهانئ الجالس على درجة السماء...»؟

لكنّ تيكلا، من الحجرة التي تخربش فيها محمومةً، لا تتنازل لتردّ. فقد ساد صمتٌ في المنزل، رفضتُ أن أسمعه. أردتُ أن أكون صمّاء وعمياء

وخرساء، ربما لأحمي نفسي. ثمّة شيءٌ تعفّن في مكانٍ ما ورفضتُ أن أشمّ رائحة تعفّنه البغيضة. ذات مساءٍ في غرفة الطعام التي تفوح فيها رائحة البحر والعفن وحيث لم يجلس أحدٌ منذ أسابيع، أرغمني تيرنس على أن أزيح نظري عن جهاز التلفزيون، وتلا على مسامعي القصيدة التي ألّفها بالفرنسية مباشرةً:

- استمعي، *sweetie pie*!(*)



في قرعة الماء التي لا قاع لها
وضعت الأزرق النيلي
الكثير الكثير منه
سكبت ملح الطبخ الأبيض
ودفعت إلى الولادة
البحرَ...

كنت أتأهّب للتصفيق لفرط سعادتي، عندما حوّلت تيكلا بصفعةٍ مذاق المديح إلى مذاق البكاء. بحركةٍ متماثلة، نهض تيرنس وأوتافيا، وحدثت فوضى حلبة صراع ديكةٍ، عندما تنقضّ الديكة والرجال الذين أسكرهم روم مونتيبيلو في خليطٍ من الأجنحة والأصوات، من المهاميز الحديدية التي تصِرّ والدم الفاتر الذي يسقط قطرةً قطرة على الأرض الخرسانية! انتصب مانويل أيضاً مثل نابضٍ، وضرب على الطاولة بكلّ قواه وهو واقفٌ بقامته الصغيرة إلى جانب قامة أوتافيا الطويلة. فجأةً، انسحبت تيكلا إلى قاع الحديقة ولحقنا بها. اضطررتُ حقاً لقبول وجود شيءٍ ليس على ما يرام!

(*) صغيرتي العزيزة!

لكن ما هو؟ الحقيقة كالرضيع في المهد الذي لا تريد الأم أن تراه يكبر. أو مثل قدمي الفتاة الصينية المعصوبتين بالشرائط لجعلهما مشوّهتين إلى الأبد.

ما الذي لا يسير على ما يرام في نزل واترلو؟

جلبت لنا ثلاث حفلاتٍ لبيتر توش في كينغستون حصّتها من حقائب الظهر الشباب الذين يجرجرون أحذيتهم الرياضية القذرة عبر الجزيرة. لم يكن ثمّة مفرٌّ من أن يغرموا ببلاك ريفر، فناموا عندنا. كانت تيكلا وأوتافيا، كتفاً بكتف لكن من دون أن توجّه إحداهما الكلام أو النظر إلى الأخرى، تحضّران السمك على شوّاية الفحم قبل تغطيته بصلصة الفلفل الحار. أضاف مانويل إلى وظائفه وظيفة النادل التي مارسها في مطعمٍ في الجادة الخامسة، وأخذ يمضي من طاولةٍ إلى أخرى بوجهٍ متجهّم. لكن أين تيرنس؟

لم أحتفظ سوى بذكرى غياب تيرنس، في الأيام التي تعمي البصر، وهو غيابٌ لا يقل اجتياحاً وخنقاً وإقلاقاً عما يفعله حضور بعض الأشخاص. لم يكن موجوداً بلحمه ودمه، لكن كان واضحاً أنّه يملأ الفضاء بأكمله، مثل أولئك الموتى الذين انتقلوا إلى الجانب الآخر من العالم المرئي ويبقون مع ذلك قاطنين في الأماكن والكائنات التي يحبونها. حاولت ميليسا مساعدتي في حلّ هذه المعادلة غير القابلة للحل، لكننا كنا نعود على الدوام إلى السؤال الأبدي: «إذا انتهى الحبّ بينهم، فلماذا يبقون معاً؟».

بالفعل، عندما يكون المرء في الثانية عشرة من عمره تقريباً، كيف له أن يدرك أنّ الانفكاك أصعب من الارتباط؟

في عصر أحد الأيام، وبعد أن بكت ميليسا كثيراً في درس التاريخ، كنا نبحث عن ملاذٍ في باحة النزل، لتبادل الحديث حول الشرّ الذي لا يمكن سبره في قلوب الراشدين، عندما تعثّرت أقدامنا بجذور شجرة مطاط، متشابكة ومعقودة.

جذور شجرة مطاط؟

ها هي ذي، بعد أن مسّتها عصا إحدى تلك الساحرات المستعدات دائماً للتجوال حيث ليس من المفترض فيها التجوال ولإلقاء تعويذتها الشريرة، تتخذ شكل رجل وامرأة، آخر من كانت سذاجتنا تتوقّع أن تراهما في هذه الهيئة، وهي هيئةٌ لم تترك مجالاً للشكّ في الفعل الذي يقومان به وجعل وجهيهما أحمرين ومتعرّقين، زاد من بشاعته المخيفة أنهما كانا جميلين، هذا الرجل وهذه المرأة، عندما لا تحوّلهما الرغبة التي زرعتها فيهما الساحرة إلى خنزيرين تحت أقدامنا.

أطلق أحدهم صرخة (أعتقد أنّني أنا من فعلت ذلك!) اهتزّ سهمها وطار، فأصاب أسطحة القرية ومراكب الصيّادين وتموّج البحر وحتى قلب الشمس الدامي!

ثمّ نبتت في كعبيّ أجنحةٌ وطرت في خطٍّ مستقيم، يحملني الرعب والتمرّد والألم!

.5

قسمت باسيانس شعري بفرقٍ في وسط رأسي، مرّرت على طوله سبابتها المدهونة بزيت الخروع ثم قالت: «يجدر بك رغم كلّ شيء أن تعودي إلى بيتك يا كوكو. سوف يقلق أهلك».

أجهشتُ بالبكاء. لم تلحّ واكتفت بالتنهّد بقوة.

– هل يعلم الله ما يفعله؟ أنا التي لطالما تمنّيت بنتاً صغيرة!

عندما سرّحت شعري في جديلتين وضعت في نهايتيهما شريطتين، مددت لها خدّي لتقبّله، وقلت لها: «شكراً خالتي!».

كانت تلك إحدى التصرّفات اللطيفة التي عوّدتني عليها. ثمة كثيرٌ غيرها ولم أكن أجيد تمييزها. صباحاً على سبيل المثال، يجب بخاصةٍ عدم التكلّم معها قبل غسل الفم بكمية كبيرة من الماء. وعدم ابتلاع الطعام قبل رمي بعض فتاته أرضاً. يجب عدم تناول الموز عندما يشعر المرء بالحرّ، ولا الليمون الإسباني عندما يشعر بالبرد، ولا الأفوكادو من دون سمك القدّ، ولا التين من دون أحشاء. يجب فرك الجسم كله بالباي روم لمكافحة قرصات الحشرات، وفرك الساقين بزيت الخروع لجعلهما تلمعان. وما إلى ذلك. وبما أنني لم أتلقَّ يوماً دروساً من تيكلا، فلم أطلب سوى أن أتعلّم وكنتُ تلميذةً ممتازة.

يتكوّن كوخ باسيانس من حجرتين، غرفة بسريرٍ كبيرٍ من خشب الماهوجني تغطّيه ناموسية، وصالة طعامٍ فارغة إلى حدٍّ ما، إضافةً إلى مطبخٍ يحتوي على برّادٍ جميلٍ من نوع نورج ورواقٍ يضع فيه بِن، زوجها نجّار البحرية، جزءاً من ألواحه وأدواته. كان بِن يتخلّع في مشيته على طول الدرب قبيل غروب الشمس وفي يده أسماكٌ ملوّنة بالوردي والأزرق والأصفر، ويهتف لي من دون أيّ سوء نيّة: «ما زلتِ هنا؟!».

ثمّ يذهب ليفرك جسمه كلّه بصابون لايفبوي، ويضع غليوناً بين أسنانه بانتظار الوجبة التي تسارع باسيانس إلى طهيها. بين حينٍ وآخر، يتبادلان أخبار اليوم:

- رطل الطماطم بنحو دولار في السوق. لو أنكِ استمعتِ لي...

- اضطرّ جو لتغيير محرّك زورقه.

- أنجبت لورين توءمين!

وبعد الطعام، نستمع عبر خشخشة الراديو إلى أخبار حربٍ انتهت أخيراً في فيتنام، بعد أن تجاوز عدد الموتى عددَ الأحياء. أخيراً، ترطّب باسيانس سبابتها وتفتح كتابها:

هل أنت من يصطاد فريسةً للّبوة
التي تشبع جوع أشبالها
حين تترصّد في عرينها
متيقّظةً في الأجمات؟

كنت أنام على سريرٍ قابلٍ للطيّ تحت ملاءةٍ قاسية وجارحة كلوح توتياء.

آه، يا لها من صورةٍ للسعادة!

لكن لسوء الحظّ، لم تدم تلك السعادة سوى أسبوع! فذات صباح، سمعت صوت ذاك الذي كنت أريد شطبه من خريطة الأحياء! تحديداً ذاك الذي أحلم ليلةً بعد ليلةٍ بقتله بإحدى تلك الضربات الشريرة والقوية التي يوجهها مانويل لسمك البينيت(*). وقف حاسر الرأس في هالة الشمس الوليدة، وعلى كتفيه اللوك(**) وعيناه طافحتان بحبٍّ لم أعد أريده، وإلى جانبه الخائنة ميليسا:

(*) نوعٌ من سمك التونة.
(**) خصل الراستا.

- كوكو، كوكو! يجب أن تعودي إلى البيت: حدثت مصيبةٌ كبيرة! يجب أن تكوني إلى جانبها!

.6

يقول الناس إنّ موت عمّ أمي جان لوي في أولى سويعات صباح 24 آذار 1971، كان موتاً معلناً. يقول الناس إنّ نيزكاً، كلّ أضوائه مشتعلةٌ كطائرةٍ، عبَر ذات ليلةٍ سماء جوين لابورد، وذهب ليقع على طرف جزيرة أنتيغوا. في ظهيرة أحد الأيام، تحوّل لون نصف الشمس إلى لون الحبر، في حين هطل مطرٌ إعصاريٌّ خلف خطٍّ مرسومٍ شمالي غران فون ليمانغل. وعندما سالت آخر قطرة، وُجِدت في الوحل ضفادع وحيواناتٌ مائيةٌ أخرى متكلّسةً وأشداقها فحمية اللون. في جوين برتران، أخذت ديليس، وهي زنجيةٌ في الأربعين من عمرها لم تعرف رجلاً في حياتها، تهذي لدى عودتها من قدّاس الفجر حيث تلقّت كما في كلّ صباح القربان المقدّس، وأعلنت عن إبادة أحد الصالحين. وبما أنّ زمن عيد الفصح كان قريباً، فقد اعتقد الناس أنّ الأمر يتعلّق بآلام سيدنا يسوع المسيح المتكرّرة على الدوام، ولم تلقَ نبوءتها الاهتمام الذي تستحقّه.

لاحقاً، أكّدت فابيين أنّ بابلو، الطفل الذي كانت تحمله وفتح عينيه بعد أربعة أشهر ليبكي كيتيم على عالم الأحياء، ارتمى بقسوةٍ ثلاث مراتٍ على جدار بطنها كما لو أنّه أراد إعلان حدوث المأساة.

يقول الناس أيضاً إنّ الديكة صدحت في عتمة منتصف الليل، وإنّه على الرغم من الركلات والشتائم، صاحت الكلاب طيلة ساعاتٍ، وأنّ شجرة

القابوق الخماسي الأسدية، شجرة سوكوغنان(*)، المنتصبة على قمّة تلة زاندولي، فقدت أوراقها وبقيت عاريةً مثل شجرة كزوارينة كنبائية الأوراق.

في رأي الجميع، عاش جان آخر أيامه كرجلٍ يستعدّ لعبورٍ صعب. زار جيسنير وماريتا بعد انقطاعٍ دام عدة أشهر. لن ينسى جيسنير أبداً كيف رآه في وقتٍ باكرٍ صباحاً، أثناء إعطائه الفوسفاتين لطفله الممتلئ الخدّين، يدفع الحاجز ومحيّاه مقلوبٌ رأساً على عقب، وملابسه مجعّدة كما لو أنّه نام وهو يرتديها. غصباً عنه، صعد مجدّداً كلّ الودّ الذي يحمله له إلى فمه، مستشعراً كارثةً، وسأله: «صديق جان، ما الخطب؟ يبدو لي أنّك مهموم! لماذا؟».

بقي جان صامتاً وقتاً طويلاً وهو يصقل رأس الطفل الذي أخذ يمنع نفسه عن البكاء، الشبيه بالحصى الدائرية، ثمّ قرّر:

- صحيح! بدايةً، أنا مهمومٌ على عزيزتنا تيكلا. وأنا لست الوحيد. فقد كتب ذاك الأبيض، زوجها، ليعقوب قائلاً إنّ أوضاعها سيّئة، ويسأل ما الذي بوسعنا أن نفعله. لكن ما الذي بوسعنا أن نفعله؟

بقي جيسنير صامتاً، إذ صعب عليه كثيراً أن يسمع الحديث عن تيكلا، وتنهّد جان: «غريبٌ هذا الأبيض! يبدو كأنه متمسّكٌ بها مثلما يتمسّك المرء بمقلتَيْ عينيه! عجيب! يستطيع رجلٌ أبيض إذاً أن يحبّ زنجيةً بقلبه؟ كنت أظنّ أنّ الأمر متعلّقٌ بالجنس، بالغرابة...».

لم يقل جيسنير شيئاً، إذ كان هذا الحديث يعذّبه حقاً، وأشعل جان لفافة تبغ: «عزيزتنا تيكلا لا تفعل سوى ارتكاب الحماقات! ثمّ إنني مهمومٌ على بلادنا. فابيين لا تقول إلا الحقيقة المرّة. إذا لم يضع الوطنيون استراتيجيةً

(*) الروح الليلية.

أخرى، فسنجد أنفسنا في عام 2000 ونحن لا نزال ننظّم مؤتمراتٍ لآخر المستعمرات».

خرج جيسنير أخيراً عن صمته، وسأل بسخرية: «ما الذي توصي به أنت أيضاً؟! العنف؟ قنابل؟».

رفع جان عينيه حيث تدور نجوم: «نعم يا عزيزي! لا بدّ من الشهداء!».

اعتقد جيسنير أنّه لم يسمع جيداً. عمَّ يتكلّم هذا الرجل الذي بدأ يظهر له كرش؟ هذا الوالد؟ كرّر قائلاً: «شهداء؟».

- أجل، يجب أن يريق رجالٌ دمهم الخصب كي ينهض آخرون.

ترك جان جيسنير لذهوله، وتابع إلى حيث تقيم ماريتا.

منذ أن تخلّى جان عن ماريتا مع أطفالهما الخمسة الأصغر سناً، وهم الذين لم يكن آخرهم يتجاوز السابعة من عمره، لم يعد لرجُلها السابق وجودٌ في قلبها. وفي متجر المشروبات «اسكب دائماً»، كانت تنصّب زبائنها شهوداً:

- ما هو الرجل؟ لا، لا تحبّوا على هذه الأرض! في زهوة سنواتي الثماني عشرة، لم يكن أبي، الأبيض الفرنسي، يريد أن ألوّث ملاءاتي مع هذا الزنجي الأسود. لكنني قلت له: «مكانك! لا أريد سخافاتٍ من هذا النوع. هو من أريده. لا غيره!». انظروا إليّ الآن! لقد كوفئت جيداً! بعد شهرين سأبلغ الأربعين من عمري، وفراشي باردٌ كفراش عجوز. قلبي مهملٌ وكأنه حقلٌ سيّئ!

وتهاجم فابيين، تلك التي لن تأخذه إلى الجنة! أمّا الزبائن الذين سئموا من تلك الأحقاد الأزلية، فلا يرفعون أنوفهم عن كؤوسهم.

لكن عندما رأت ماريتا والد أبنائها يدخل بوجهه الواجم، تصاعد

إلى قلبها كلّ حبّها له. عاشت من جديد أول لقاءٍ بينهما عندما كان على متن بغلته، وأنّبته بكلّ صراحة قبل أن تلتجئ بين ذراعيه على سريرٍ من السراخس. سألت: «جانو، ما الخطب؟!».

لم يقل جانو كلمةً واحدة. ولأنها تعرف ما يطلق لسان الرجال، فقد دفعت إليه بزجاجةٍ من الروم الفلّاحي، فشرب ثلاث كؤوسٍ من المشروب الصرف، وهو ما لم تره يوماً في عشرين سنةً من الحياة المشتركة، وقال: «دعيني أقُل لك إنني كنت مجنوناً ومتكبّراً. إذا ما حدث لي خطب، اجعلي كلّ الأبناء الموجودين في فرنسا يعودون. اطلبي من يعقوب حصّتي في الميراث، واشتري لهم هكتاراتٍ من الأرض، يزرعونها بالأرز الأخضر والبطاطا الحلوة والطماطم الحمراء والريّانة...».

رأت ماريتا جيداً آنذاك أنّ جان كان لا يزال غارقاً في جنونٍ مطبق، فقالت بانزعاج: «أتعتقد أنّهم سيوقفون دراستهم الطب والحقوق والصيدلة لتصيب السكاكين الكبيرة أيديهم بالفقاعات؟».

– لا بدّ من ذلك! لا بدّ من ذلك!

توسّلت ماريتا الله أن يمنحها الهدوء والصبر. كرع جان كأساً صرفاً جديداً وكرّر: «لا بدّ من ذلك! هنا الخلاص! لم يفهم آباؤنا شيئاً. يجب ألّا ندير ظهرنا للأرض. يجب امتلاكها فحسب من أجل الجوع والعطش!».

آنذاك، استعادت ماريتا مزاجها السيّئ، وقالت مؤنّبةً: «أتظنّ نفسك خورياً في الكنيسة وتأتي لتعظ هنا؟».

أدّى ذلك إلى انفصال الزوجين متخاصمين مرّةً أخرى، ولم تكفِ ماريتا كلّ السنوات التي بقيت لها للتأسّف بسبب ذلك الخصام.

بعد ذلك، ذهب جان للقاء المتواطئين معه.

الظلم يكمن هنا. فقد انتشر خبر موت عمّ أمي كعنوانٍ رئيسي في كلّ الصحف الدولية الكبرى. حتى في صحيفة نيويورك تايمز التي كرّست له بضعة أسطر: «اغتيالٌ سياسيٌّ مشين في جزيرة صغيرة من جزر الأنتيل».

فهذا البرجوازي الصغير الذي لا يتقن الكتابة، المنسلخ عن طبقته، مثّل فرصةً طيّبةً لمقالات الصحافيين. لكن لم يفكّر أحدٌ بالاثنين الآخرين اللذين انتهت حياتهما معه، وكانا أيضاً ربَّي عائلة، عاشقين مهتمّين وابنين محبّين. فيليكس ثالاسا وروني كانداسامي.

كان الأول يعلّم الفيزياء والكيمياء في جوين برتران. كان ابناً لمدير، شخصاً سيّئاً منذ الطفولة، حنق لرؤية أبيه الصارم وقد عاد أشبه بالطفل، صاغراً، يدير الباكوا(*) بين أصابعه ويدندن للأبيض: «نعم يا معلّم!». تعلّم بمفرده صناعة زجاجات صغيرة من خليط المولوتوف، وأصبح يفجّرها في المظاهرات. أثناء الإضراب الكبير الذي قام به عمّال البناء، رأى أنّ الوضع مؤاتٍ، فأخفى تجهيزاته الجهنمية في أكوامٍ من الرمل كي تنفجر بين سيقان قوات الأمن. أمّا روني كانداسامي، فكان هندياً. وُلد في بورت لويس وترعرع على أراضي مصنع دارنيل، وكان عاملاً زراعياً نموذجياً. ثمّ تعب من كماله وذهب إلى باريس في الوقت المناسب لتذوّق طعم أيار 68. وعندما عاد إلى البلاد، كان عاطلاً عن العمل منذ ما يقارب أربع سنوات، لأنّه رفض تصديق أبيه الذي كان يكرّر قائلاً: «الكولي(**) مخلوقٌ لقصب السكّر. قصب السكّر مخلوقٌ للكولي».

رغم تحرّياتي، لم أتمكّن من اكتشاف كيف التقى أولئك الرجال الثلاثة

(*) قبّعة من القش.
(**) Coolie: الهندي.

المتغايرون إلى هذا الحدّ في العمر والمسار والوسط الاجتماعي، ووقّعوا عهد الصداقة. كلّ ما أعرفه هو أنّهم وضعوا مشروعهم معاً.

كان من المفترض أن يضعوا في يوم السبت ذاك قنبلةً صنعها فيليكس في سيارة لوبروتون، مدير المنطقة، في ماتوبا، المعقل القديم لكبار البيض. كان لوبروتون يزوّج ابنته. أتى مدعوون من المارتينيك وسان مارتان وحتى من فرنسا. كان من المفترض أن تنفجر سيارة العرس، المزيّنة بالأزهار كعربة كرنفال، في اللحظة التي تسلك فيها درب أشجار جوز الهند وعلى متنها لوبروتون الأب، منشرح الأسارير، وابنته. يا لها من رمزٍ جميلٍ، فرنسا النازفة هذه! ما الذي جرى تحديداً؟ لا يزال النقاش يدور حول ذلك الأمر حتى الآن في الكاريبي.. غير أنّه في الرابعة صباحاً، حدث في المرأب انفجارٌ أيقظ لوبروتون وعائلته وضيوفه الذين خرجوا إلى الشرفة بهيئاتٍ مذعورة، هيئات رجالٍ ونساءٍ انتُزعوا فجأةً من نومهم، فرأوا ألسنة اللهب المستعرة تقفز نحو السماء. مضت أيامٌ قبل التمكّن من معرفة أصحاب أشلاء الأجساد المتفحّمة.

سارع الوطنيون إلى تنصيب عمّ أمي شهيداً. سارعوا ليحفروا له موقعاً لائقاً إلى جانب زنوجٍ آخرين، ماتوا في زمانهم فقراء ومهمومين ولم يكترث أحدٌ بهم، في حال لم يفقدوا حياتهم بفعل فاعل. توسان لوفرتور، ديسالين، ماركوس غارفي، أميلكار كابرال، مارتن لوثر كينغ، مالكوم إكس؛ ستكون القائمة طويلة. وأولئك أنفسهم الذين أنكروه في اليوم السابق بجَلوه، ما دفع إلى إعادة تذكّر كتاب «غوادلوب المجهولة» الذي كان ينام في غبار المكتبات، وبيعت منه في شهرٍ أو اثنين ألفٌ وسبعمئة وخمسون نسخة. بل ثمة ما هو أخطر، إذ إنّ الشيوعيين الذين لطالما اعتبروا عمّ أمي مجنوناً يثير الضحك، لكنّه غير مؤذٍ، أدركوا الأثر الذي أحدثه موته في شعبنا الذي

يحتاج إلى شهداء، وهذا صحيح، فتلقّفوه. هكذا بدّلت بلدية لابوانت اسم ساحتنا القديمة، فيكتوار، لتصبح ساحة جان لوي. لكنّ السكّان لم يهتمّوا كثيراً بتلك التغيّرات السياسية، وواصلوا استخدام اسمها الذي كرّسته العادة! حتى إنّ بعض المستشارين البلديين مضوا إلى حدّ اقتراح الاستحواذ على أجمل منزلٍ في المدينة، منزل تجّار عبيدٍ سابقين، منزل فوكييه بارا، مبنى من الحديد والآجر الوردي يعود إلى أواخر القرن الثامن عشر، لتحويله إلى متحفٍ للفقيد. لكن ما الذي سيُعرض في طابقيه؟ بضع نسخٍ من كتاب «غوادلوب المجهولة»؟ قبعة باكوا المصنوعة من القشّ والتي كان يحب الاحتماء بها؟ العكّاز الذي كان يستند إليه عندما يتنزّه في الأدغال؟ بدت تلك الأشياء قليلةً جداً وفي نهاية المطاف، أُهملت الفكرة. أمّا جدّي يعقوب، فكانت له وجهة نظرٍ حول تلك الوفاة. فهو لم يأخذ يوماً على محمل الجدّ خُطَب أخيه المسهبة، وظنّ أنّه يعلم لماذا مشى جان إلى موته، بفضل مخالطته الحثيثة له في الأشهر الأخيرة. في الواقع، أناييز، المرأة - الوردة المستهزأ بها، هي التي استدرجته. آثام الشباب أشبه ببركانينا، سوفريير أو بيليه. نعتقد أنّهما انطفأا. ثمّ ذات صباح ومن دون أيّ صوت، يستيقظان ويغطيان مزارع الموز بكفنٍ من الرماد يمنع الحياة.

لم تغادره ذكرى أناييز أبداً. فكيف ينسى جمالها حين كانت في السادسة عشرة من عمرها، جسدها الأشبه بعكازٍ من طراز كونغو، الذي يعلوه تزيين وجهها - الوردة؟ شفتيها اللذيذتين بلونهما الخبازي مثل البرقوق البني؟ لكن في أربعينياته، عادت بقوةٍ ولم يعد يعيش إلا معها. قبل جهجهة الضوء، عندما يحلّي قهوته، كانت هناك. وهناك عندما ينزع الغطاء عن قلمه ليكتب ترّهاته. هناك عندما يتحادث مع قروين فطِنين، يتحسّسون لخواء نظرته، فيتهامسون بأنّ صديقهم استُبدل. وهناك بخاصةٍ

عندما يستعدّ لممارسة الحب مع فابيين، ولأن يراها مجرّدةً من الغضب أو الحقد، لكنّها متنبّهة، تلتفّ على نفسها داخل الناموسيّة، فتنطفئ رغبته مثلما ينطفئ اللحم المدخّن تحت المطر. وأثناء نومه، يلتقي بها وهي تمسح عرَق أحلامه المزعجة. ويبذل يعقوب، موضع سرّه، كلّ جهده وهو يكرّر له إنّه ليس هنالك ما هو غريبٌ أو غير طبيعي في ذلك.

– الأمر مشابهٌ لما هو عليه بالنسبة للأم الصغيرة إيلاييز! إنها لا تغادرني أبداً. هي التي تنصحني بصدد كلّ ما يجب عليّ فعله. لولا وجودها، لكنت مثل روحٍ متألمة! والآخرون أيضاً موجودون هنا...

لكنّ جان لم يشأ أن يستمع إليه، بل فسّر بطريقته هذا الحضور واعتبره نداءً، فأطاع. أجل، لقد هيّأ لضربته جيداً! لم ينزلق خلسةً في نهرٍ فاض، فجرف العجول والأبقار والأعشاش على طريقه. لم يمضغ بسرعةٍ جذور منيهوت سامةً ولا ثمار المنشينيل ليدخل السرير الأزلي وهو باردٌ برودة الصقيع. لا! لقد اختار دعاماتٍ لموته ريشةً مدهشةً حمراء في سماء الجزيرة، وما رسمته تلك الريشة! ولأنّ يعقوب يعرفه جيداً، فلم يستغرب تلك المغالاة النهائية! هذا الأخ الصغير، المولود في عام إعصار، لم يتمكّن يوماً من العيش كالناس جميعاً! في نهاية المطاف، لقد أخفى زهدُه الظاهر مغالاةً في الفخر، مغالاةً في التكبّر! لم يكن بوسع الموت أن يأتيه على سرير المرض ليأخذه ببطءٍ شديد، أمام أرملةٍ وأطفالٍ محزونين، إلى قبرٍ عادي. لا! بل احتاج إلى ألفي شخصٍ أو ثلاثة آلاف خلف تابوته، وغوادلوب مذهولة، تتساءل إلى ما لا نهاية:

هل يستطيع المرء حقاً أن يموت من أجل Lendependans(*)؟

(*) تعني: الاستقلال l'indépendance، لكن بكتابةٍ مطابقة للفظها في غوادلوب. [م].

.7

وقفت تيكلا إلى جانب المدفن المفتوح كما لو أنها تريد الدخول إليه والتكوّر على نفسها لتموت هي أيضاً. لم تكن عيناها العمياوان قرأتا الصحف التي أجمعت هذه المرة على التأثر والأسف. لم تسمع أذناها الصمّاوان العظة المرتبكة التي ألقاها الخوري الحائر بين تعاطفه وخوفه من المطران. لم تستطع شفتاها اللتان ملّحهما ملح عينيها تقبيل الأرملتين (إن جاز قول ذلك!) اللتين طالبت كلٌّ منهما بكامل الاحترام والتعاطف. لم ألاحظ قبل ذلك كم شاخت أمّي، والحال أنّها باتت مسنّةً يمكن أن يراها المرء واقفةً تحت الشمس، حاسرة الرأس بين الرؤوس المعتمرة قبّعة كابلين أو قاووقاً، لكن الغارقة في حداد فستانٍ فصّلته بخراقةٍ ابنة العمة نيرفا. انحفرت شريحتان طوليتان من جناحي أنفها إلى ذقنها المطبوع بغمازةٍ معترضة. كان خدّاها رخوين ومنخمصين. وانطفأت عيناها بين أهدابٍ مطليّةٍ بالكحل، إذ إنها لإصلاح ما لا يمكن إصلاحه، دهنت وجهها بمستحضر تجميل «جنغل لاين» (الخاص بالمرأة السوداء). تحت مظهر قناع القطران في الكرنفال(*)، كانت تيكلا تعاني عذاباً شديداً. فكما هي الحال دائماً، أدركت لحظة خسارتها لعمّها كم تحبه وكم جحدته وكم خيّبت أمله. أجل، كانت حياتها مسودةً لا تنتهي، بما فيها من بقع حبرٍ وشطبٍ وكلماتٍ مخربشة! ما الذي تفعله في جامايكا؟ ما الذي تبحث عنه هناك؟ لم تعد تعلم. في حيرتها، ارتكزت بكلّ وزنها إلى أبيها الذي انتابه

(*) يتميّز كرنفال غوادلوب السنوي بوجود مجموعاتٍ تضع أقنعة، ومن بينها قناع القطران (بالكريولية: mas a goudwon) الذي يرمز إلى الزنوج المستوردين من إفريقيا وإلى الحضور الأسود حالياً. [م].

اضطرابٌ شديد لهذا التواصل، فذاب حناناً وحلم بأن يلفّها بين ذراعيه كما في الماضي، أثناء تلك السنوات الوجيزة التي كان فيها مع تيما كلّ شيءٍ بالنسبة إليها. يا للأبوّة من خبزٍ قاسٍ! سوف يخوضان حديثاً مطولاً بعد انتهاء قرع غووكا الموت! سيجلس في الكرسيّ الهزّاز، وتجلس هي عند قدميه، وبينهما تيما غير المرئية، وسيحثّها على الاستسلام، على أن توقف تيهها، على أن تعود إلى زوجها رغم كلّ بياضه، وعلى الاعتناء بطفلتها. باختصار، سيحثّها على التخلّي! التخلّي عن الأحلام، عن الطموحات، عن الانشغال بالزنجي، بالشعب (فلنسمّه ما شئنا!) ما دام في كلّ الأحوال يصطدم بهذا الصندوق المستطيل ذي التزيينات المذهّبة الثقيلة.

بما أنّ الموت يمتاز بقدرته على أن يسدّ مؤقتاً الثغرات في جبهة العائلات، فقد نزل عمُّ أمي سيرج من غوربير مع ناديج وبعض الأطفال، آخرهم. كان يضع وسام جوقة الشرف في عروته، نحيلاً بفضل سباحة الفراشة التي يمارسها في مسبحه والهرولة على سفح جبل سوفريير وحمّامات الساونا في شارع سابل في باس تير؛ بدا غريباً وناشزاً في العائلة، وتساءل الناس من أين خرج هذا الشخص من آل لوي، هذا الذي لا يشبههم في شيء. لكن بهيئة الأجنبي تلك، كان سيرج يعاني هو أيضاً من موتٍ عبثيٍّ في نظره، موت الشقيق الصغير الذي وُلد في سنة الإعصار، ويلوم نفسه على أنّه وصفه بقسوةٍ بالديماغوجي والمحتال. فبعد كلّ حساب، لا بدّ من الشجاعة ليعيش المرء هذا القدر من الزمن في كوخٍ من العصيّ القصيرة ليس فيه ماءٌ جارٍ ولا كهرباء، إلى جانب قرويين يتناقشون بالكريولية الفجّة عن قَطع قصب السكّر والنقل إلى المصنع بعربةٍ تجرّها الثيران وعزق بساتين محاصيلهم الغذائية! هل كان جان قدّيساً لم يقدّره حقّ قدره؟

أمّا أنا، فكنت وحدي من يحلّق بسرورٍ في هذا الغمر الحار من الحداد

الذي غطسنا فيه. بدايةً، لم أكن أحبّ كثيراً عمّ أمي، إذ كنت أراه جافاً ومدّعياً، لم يقل لي يوماً سوى: «اذهبي والعبي!»، أو: «اهدئي!».

والأهمّ من كلّ شيءٍ أنني عثرت على نفسي. أخذت أضمّد جراحي. بالحب أحاطتني فلورا لاكور التي كنت أناديها طواعيةً «صديقة فلورا»، كراهيةً لأمي، فأنام بعد أن تحمّمني وتلبسني منامةً من قماش الفينيت كانت لواحدٍ من ابنيها (خاليّ، لكنهما كانا يبدوان وكأنهما مولودان من بذارٍ غير بذار جدّي، ويطرقان برأسيهما عندما يتوجّهان بالحديث إلى أمي، أختهما) في ملاءاتٍ تفوح برائحة بتلات الكانانغا العطرية! بالنسبة إليّ، لم أكن أمانع في أن يموت موتاً عنيفاً شخصٌ من آل لوي يومياً، إذا نجمت عن موته مثل هذه النتيجة!

في الليلة السابقة أثناء السهر على المتوفّى، وفي حين كانت النساء يرتّلن «أبانا» و«السلام عليك يا مريم» والمسابح في أيديهن والرجال يشربون الروم الأبيض وهم يتبادلون النكات، تسلّلتُ إلى مكتب جدي وفتحت مجدداً ألبومات العائلة. لم تكن تلك الألبومات قد تحرّكت من مكانها. وجدتها كلّها في مكانها بانتظاري. من الزنجي الوسيم الذي يبلغ قرابة الثانية والثلاثين من العمر، الوسيم برأسه الذي يشبه شكله شكل بيضةٍ، وبذقنه المحفورة بغمازة (غمازة أمي!) وفمه الواسع الذي ينفتح على عددٍ لا متناهٍ من الأسنان القادرة على التهام العالم... حتى هو. حتى أنت. ألبير الصبي ذي الشعر المقسوم بفرقٍ على الجانب الأيسر والمجعّد بعناية. بزّة بحّارة. طارة. جزمة. تنظر إلى العدسة من دون ضحكة أو ابتسامةٍ ولم يعد أحدٌ يعرف عنك شيئاً.

- كان ابن صبيٌّ أنجبه سلَفكِ ألبير من زنجيةٍ إنكليزيةٍ عرفها في بنما...

أخذت أستعدّ لأن أبدأ دونما تأخيرٍ عملي الشبيه بعمل النملة، فأجمع وألتقط فتات المعلومات لتخزينها في مكانٍ آمنٍ من رأسي.

لكن سرعان ما بدأ الاندهاش:

- يا لها من متطفّلةٍ صغيرة!

والاحتجاج:

- بماذا يهمّك ذلك؟ أمّك نفسها لم تكن قد وُلدت بعدُ آنذاك!

وعقد الحاجبين:

- انتظري، انتظري! أنا نفسي كنت لا أزال صغيراً (صغيرة). لقد سمعتُ الحكاية من الآخرين. في رأيي، كان ذلك قبل الحرب. أم أنّه كان أيام الحاكم سوران؟ على كلّ حال، كانت لا تزال هنالك أشجار عنّابٍ على تلّة المستشفى وأشجار تمر هندي. يوم الخميس لم يكن لدينا دوامٌ في المدرسة، فنلعب لعبة «حار» أو لعبة «القفز»...

.8

ما إن استلقى عمّ أمي جان في حفرته إلى الأبد، حتى وُلد من جديدٍ ليعيش حياةً أخرى في عالم الأحياء. ومما قيل، إنّ إيلاييز ولدته في اليوم عينه الذي ضرب فيه إعصار 1928 الرهيب. كان المطر يهطل حانقاً على الصفيح الهارب، فأتت السيّدة فيديليوس، القابلة، وهي تخوض في الوحل بجزمتها المشمّعة والمرتفعة، لتنقذ من الماء الوليدَ الذي كان يصرخ ووجهه مضغوطٌ حتى الذقن بغشاءٍ مصمت. ثمّ أخذ أول رضعةٍ نهمةٍ بحماية مظلّةٍ تحملها بيدٍ مرتجفةٍ الخادمةُ الواقفة قرب رأس السرير. لطالما كان الماء

عنصره المفضّل، ربما لهذا السبب. وقيل إنّه في الرابعة من عمره، العمر الذي يفلح فيه الطفل تقريباً في المشي بثبات، كان يسبح بخطٍّ مستقيمٍ حتى جزيرة غوزييه. لاحقاً، تسابق مع مراكب الصيد في جوين لابورد، وكان من المفترض فيه أن يهزِمها. وصعب المراس فوق هذا كلّه! ففي السادسة من عمره، وقت ترديد الحكاية الخرافية الشهيرة: «أسلافنا الغوليون...»، انفجر ضاحكاً وصرَّ على أسنانه بوقاحة. كذلك، في السادسة عشرة، لم يشأ أن يصبح خادماً مثل غيره، وعاد إلى الطريق الذي هجره الآخرون، طريق الشعب. وهكذا وهكذا... نشأ تنافسٌ بين غران فون ليمانغل وجوين لابورد، حيث نسبت كلّ منطقةٍ منهما لنفسها أحداثاً متعلّقة بحياته. ففي غران فون ليمانغل أدار ظهره للإدارة الاستعمارية. أجل، ولكنّه في جوين لابورد ألّف كتاب «غوادلوب المجهولة»! أتت امرأته الأولى الوردة أنابيز من غران فون ليمانغل. أجل، لكنّ زوجته من مواليد جوين لابورد! وهكذا وهكذا... ويتنهّد العجائز وهم يسحبون الدخان من غلايينهم ويقولون إنّه كان زنجياً عظيماً، زنجياً بنّياً في الحقيقة! لم يرَ أحدٌ زنوجاً مثله منذ... منذ أن دفع المدير سيميدور، وقد تعب من قول «نعم يا معلّمي»، العمّالَ الزراعيين لمهاجمة مسكن بيرتان ديماريه. كان ذلك في عام 1914، العام عينه الذي بدأ فيه البيض القادمون من فرنسا في أداء لعبتهم المفضّلة. وهكذا وهكذا... حتى ماريتا التي كانت تعرف أكثر من أيّ شخصٍ آخر قامة رجُلها الحقيقية لم تنجُ من ذلك الإغراء:

– كان بوسعه أن يبقى أياماً من دون أن يشرب أو يأكل. من دون حتى قطرة قهوةٍ في معدته. كان يكتب، ويكتب. وإذا أتيتُ مصادفةً لأقدّم له شيئاً ما، شريحةً من الأفوكادو أو بعضاً من طحين المنيهوت أو شيكتاي(*) من

(*) طبق أنتيلي.

سمك الرنجة المدخّن والمملّح، ترسل عيناه برقاً: «عجبي يا امرأة! هل تعتقدين أنّ فكرة تناول الطعام هي التي تدور في رأسي؟!».

أمّا الخاتمة، فقدّمها جيسنير الذي نسي احتفاء جان بغريمه، وألّف على شرفه مقطوعةً موسيقيةً لآلتي فلوت ولآلة تيبوا وآلتي غووكا، عُزفت ذات أحدٍ في الحادية عشرة صباحاً في كنيسة جوين برتران! ذرف الحضور دموعاً حارةً قبل أن يتدفّقوا نحو المائدة المقدسة. ولدى انتهاء الصلاة بعبارة «Ite Missa est»(*)، طار عقعقٌ دخل الكنيسة خطأً عبر صحن الكنيسة، وأقسم كلّ شخصٍ من الموجودين أنّه المرحوم، أتى ليتواصل مع أولئك القادمين تكريماً له.

ما إن انصرفت العائلة إلى أمرٍ غير البكاء على المرحوم، حتى ظهرت استحالة تعايش فلورا وتيكلا في البيت عينه في شارع فوبور دينري. فالأولى لم تفهم كيف يمكن أن يعيش شخصٌ يحترم نفسه بأسلوب حياة الثانية.

– عزيزتي، إنها ليست امرأة! إنها رجل إطفاءٍ يعيش دائماً في الدخان! عندما تقرّر الخروج من سريرها، أدخل إلى الغرفة وأفتح النوافذ على مصراعيها. بعض الهواء، بعض الشمس! ولو تعلمين كم تفرط في الشرب!

كاد جدّي يعقوب، المخلص لابنته، أن يأمر فلورا بالصمت أو بترك بيته، لكن تيكلا بادرت وغادرت إلى جوستون.

أفهم الآن أنها في الحقيقة رغبت في أن تختبئ، ملتقطةً أنفاسها بين ألمَين، بين موجتين من المعاناة، كسبّاحٍ مرهقٍ يتأرجح على البحر. آنذاك، رأيت فحسب أنّني تخلّصت من حضورها!

كنت قد تجاوزت الثانية عشرة من عمري، لكنني لم أكن أعرف القراءة والكتابة إلا لماماً، وكذا الأمر بالنسبة إلى ثلاث لغات، قبل أن أضيف إليها

(*) تُعلن هذه العبارة اللاتينية اختتام القداس. [م].

لغةً رابعةً هي الكريولية التي كان أبناء أخوالي لا يتكلّمون إلا بها فور أن يجدوا أنفسهم على مسافةٍ كافيةٍ من أسماع البالغين. لذلك أوكل أمري إلى السيّدة لاكور، وهي معلّمة صفٍّ استثنائية متقاعدة حققت نتائج باهرة مع الأطفال المتأخرين دراسياً.

شكراً صديقة أنطونين، مثلما تلقّيت الأمر بأن أخاطبها! شكراً لكلّ ذلك الكمّ من الجهود والصبر!

1 زهرة عباد الشمس + 2 زهرة غرنوق
3 أزهار شوك + 4 أزهار أقحوان
5 أزهار قنطريون عنبري + 6 أزهار نرجس
7 زنابق + 8 أزهار أذن الفأر
9 أزهار خشخاش منثور + 10 أزهار أضاليا...

لكنني كنت للأسف أضيع في هذا البساط من الأزهار التي لم يسبق لي أن رأيتها أو شممتها، بحيث أنّ الصديقة أنطونين استجمعت شجاعتها وكتبت بخطّها الجميل المائل، خطّ المعلّمة الاستثنائية المتقاعدة، رسالةً لجدّي يعقوب تفيد بضرورة حصولي على رعاية مربٍّ متخصّص. ربما في البلد الأم؟ بانتظار أن يستسلم جدّي المحزون لضغوط فلورا، ويقرّر التحدّث جدّياً مع ابنته، بتُّ حرّةً في تكريس وقتي لولعي: البحث عن بيير.

دونما عناءٍ كبيرٍ، تتبّعت خطا أبيه. المدرسة الثانوية. الصداقة مع جيلبير دوسان سنفوريان. الرحيل إلى أنجيه. لكن عندما وصلت إلى هناك، تعثّرتُ ولم أعد أفهم شيئاً. ما الذي جرى حتى يُمحى من خارطة آل لوي هو وابنه الذي سيولد؟ كرّر لي جدي يعقوب، وفاءً لأبيه، بأسلوبه المغمغم: «حدث حادث!».

حادث؟ حادث؟

كنت أمضي النهار بالتفكير ملياً في ذلك اللغز، لكنني أتوقّف عن ذلك مساءً. إذ يناديني جدّي في السادسة والربع تماماً من الطابق الأرضي ونذهب معاً إلى المقبرة. وتقطع الرحلةَ القصيرة إلى حيّ سان جول ثلاثُ محطاتٍ إلزامية. في متجر صانع أحذيةٍ من الأقارب اسمه سيرافان شيراديو، يبصق مساميره ليسألني عن دروسي. وفي لولو[*] تفوح منه رائحة كبش القرنفل يعود لقريبةٍ اسمها ميريتا بلانشدان، تطرح السؤال عينه. وفي صالون خالةٍ لجدّي اسمها ألتاغراس سوفوكل، أرملة عمياء، تطرح السؤال عينه، لكنها فضلاً عن ذلك تمرّر أصابعها النحيلة على وجهي. بعد هذه المحطات الثلاث، ندخل مدينة الموتى. تتبدّل ملامح جدّي ويصبح ماهراً وسريعاً كصبيٍّ صغير، فيغيّر ماء الأوعية، ويقطع بسكّينٍ رفيع ساق الأزهار التي لا تزال صامدة، ويستبدل بالذابلة منها غيرَها، يشعل الشعلات المنطفئة، ويكنس القبر بمكنسةٍ صغيرةٍ من أوراق الأشجار وهو يثرثر بصوتٍ منخفض، مزامناً حديثه إلى شخوصه غير المرئية مع تنهّداتٍ وهزّات رأس. وأنا أنظر إليه جالسةً على حجرٍ أحرقته الشمس الساطعة، سعيدةً لسعادته قبل أن أفكّر في سعادتي وقبل أن أصلّي: «أنت يا من في الأعالي، يا إله أو يا جاه، سواءٌ أكنت أبيض أم أسود، فلتكن مشيئتك أن تتركني أمي هنا!».

غوادلوب هي بلدي!

لا يختار الناس بلدهم. هم يتلقّونه مع أمٍّ وأبٍ وإخوةٍ وأخوات... في صباح ليل الرحم. أمّا أنا، فقد اخترت بلدي المفضّل على بروتاني الرمادية والمبلولة، على الرغم من أنني أمضيت أياماً عذبةً مع ماما بونوي، وعلى جامايكا، الكيلومبو الذي تحرسه كلاب البحر ليبقى متمرّداً!

(*) Lolo: متجر صغير.

لكن ما فائدة الصلاة إلى الله أو جاه؟ لديهما كليهما ما يشغلهما عن الاستماع إلى بكائيات البشر! إذ على الرغم من ترداد صلاتي يومياً، فذات مساء، أثناء العودة من المقبرة، وفي حين كانت فلورا تنتظرنا عادةً في ظلّ الشرفة، قبل أن تنزل لتسخين الوجبة وتقديمها، رأينا المنزل مناراً في كلا طابقيه وكأنه سفينة شحنٍ في الليل. فزع جدّي وسرّع خطاه:

- تيكلا! تيكلا!

أي نعم، كانت هنا بطِلاء أهدابها اللزج وشعرها المشعّث، ممسكةً بجيسنير المستكين مثلما يمسك المرء كلباً بحبل. قالت من دون أن تتلفت يمنةً أو يسرةً: «سنرحل غداً، أنا وكوكو!».

لطالما تساءلت ما إن كانت تيكلا تعلم ما ينتظرها في بلاك ريفر. أفهم الآن أنّها لم تكن تجهل شيئاً عنه، وأنها مشت بعينين مفتوحتين نحو التباس ألمها وكأنّها تمشي نحو عقابٍ على ذنبٍ لم ترتكبه، لكنّه يجري منذ الأزل في دم عائلتنا التي لا تشعر بالرضا أبداً، والعاجزة دائماً عن الحصول على ما تسعى إليه والاستمتاع به، المال، الشرف، السعادة!

أمضيت الليلة وأنا أبكي وأصرّ على أسناني، مجهِّزةً ألف مشروع. ماذا لو ذهبت للاختباء في جوستون؟ لا شكّ أنّ المزارعين سيقدّمون لي عن طيب خاطرٍ جذورهم(*) في حين سيمنحني الصيّادون العائدون من فيار بعضاً من البالاروس(**) الذي اصطادوه. وماذا لو قطعت الستين كيلومتراً أو السبعين التي تفصلني عن غوربير، لأشرح حالتي لعمّ أمي سيرج الذي بدا أنّه نهل من المكان الذي يقيم فيه وأفاد من ذلك، والاستثناء ليس قاعدةً؟ لم أكن أخاف من كائنات الليل. سأعرف كيف أبطل ألاعيب تي

(*) ثمار الأرض.

(**) Balarous: نوعٌ من السمك.

سابوتي(*). أمّا الحصان ذو القوائم الثلاث في حكاية «دابة مان هيبيه»(**)، فسأسمعه يأتي من بعيدٍ، وأرتمي في حفرةٍ بعيدةٍ عن أعشاب غينيا. وماذا لو ركضت حتى باب جهنّم حيث صمد قاطع الطريق تيسميه ثلاثة أشهرٍ أمام رجال الدرك القادمين لاعتقاله؟

لكنّ الصباح فتح عينه، زرقاء رمادية، ورآني متكوّرةً في سريري.

نحو الساعة الثامنة، دخل جدي إلى غرفتي بوجهٍ أكثر بؤساً من أيّ وقتٍ مضى، وهو الذي سمح لنفسه -منذ أن أخذ ابناه غير الشرعيين رودريغ وكارميليان في التنافس على تولّي منصب اليد اليمنى في المتجر- ببعض الطيّبات التي لم يذق طعمها من قبل، كالتأخّر في النوم حتى الساعة السابعة، وارتشاف القهوة في السرير وهي ساخنة، تقدّمها فلورا مرفقةً برغيف خبزٍ مضفورٍ وقطعةٍ من فاكهة القشطة الشائكة. مسح عينيّ:

– حاولت الحديث إليها. هي لا تريد.

– لماذا؟ لماذا؟

هزَّ كتفيه بهيئة من لا يفهم شيئاً مما يجري في رأس طفلته وقلبها. ثمّ قال بصوتٍ أجشّ: «ستعودين! ستعودين! سنبقى هنا في انتظاركِ! الأموات والأحياء هنا!».

.9

في الطائرة، ولأوّل مرةٍ منذ ثلاث سنوات نعيش فيها جنباً إلى جنب،

(*) Ti-Sapoti: الأرواح الليلية.

(**) Man Hibè: شخصية من الفولكلور الغوادلوبي، ساحرة تتجوّل مساءً على حافة الطرقات، لها قدمٌ بشرية وقائمة حصان وتجرّ خلفها سلسلةً طويلة. [م].

أخذت أمي تتحدّث إليّ من خلف جدارها بذلك الصوت الذي لا يمتلكه أحدٌ سواها، الأجشّ قليلاً لكن الموسيقيّ، المنساب لكن المتلعثم، المضيء لكن المفعم بالظلال:

- صحيحٌ أنّكِ طفلة عاري وحزني. وهذا أمرٌ لا أستطيع نسيانه. عندما تكونين أمامي، من أراه ليس أنت، كوكو، بل أرى أباك، بابتسامة الشاب الحسن التربية، المنفرجة عن أسنانٍ بيضاء جميلة، في حين أنّ أصغر عاملٍ يقطع قصب السكر لديه نزاهةٌ أكثر منه. وأرى أيضاً أمّه تستشيط غضباً وهي تسأل عن أصلي وفصلي، وتستنشق بهيئةٍ مشمئزّة رائحة الرنجة المملّحة الملتصقة باسم عائلتنا. إذ لم يتحدّث أحدٌ عن لوني الذي كان في الواقع هو المشكلة الحقيقية. لا أحد يتحدّث عن اللون، حتى إذا كان يفقأ العيون: هذا لا يجوز! اللون أقذر من الإسهال الأخضر الناجم عن الزحار الأميبي أو من البول الأصفر الكبريتي الناجم عن السلس! أجل، عندما أراكِ أرى ذلك كلّه، وهذا ليس ذنبي! أراهم! أراه! الغباء القذر، الوقاحة الضيّقة الأفق، الدناءة، آهٍ من الدناءة! ربما يوجد خلفها كثيرٌ من الأمور الأخرى التي لا أستطيع أنا نفسي رؤيتها، وهي أمورٌ يمكن أن تكون جميلةً إذا ما سلّطنا عليها قلبينا. لكن هذا هو الحال للأسف، ولا نستطيع فعل شيءٍ بصدده، لا أنا ولا أنت. نحن محكومتان بالسير حتى آخر حياتنا من دون أن تمسك إحدانا يد الأخرى! فلنأمل أن يكون الأمر مغايراً في هذا اللامرئي الذي لطالما تحدّث عنه أبي، جدّك!

ثمّ أدارت رأسها المتعب نحو الشكل البيضوي الأزرق في الكوّة المجاورة لها.

لدى وصولنا إلى كنغستون، كنت لا أزال أبكي، ولم يخطر على بالي

أن أشعر بالدهشة وأنا أرى مانويل يستقبل تيكلا بمفرده، ويقودها بالقوة نحو سيارة مرسيدس مستأجرة وكأنها مريضة!

بتاريخ 12 تشرين الأول 1971، تزوّج تيرنس كليف براونسون وأوتافيا دي ماغجيو في الكنيسة المعمدانية الواقعة في شارع شيبرد في واشنطن العاصمة. حضر الاحتفال ثمانمئةٍ وخمسون شخصاً، ومن بينهم كلّ الجالية الهاييتية في المنطقة، ومنها شخصان كانا في الماضي ضمن قوة الطونطون ماكوت شبه العسكرية، استعادا الاحترام بعملهما في مصبغةٍ في نيويورك. قبل تناول القربان، صدحت أوتافيا بأغنيةٍ من تأليف زوجها، ترجمتها إلى الكريولية ولحّنتها، وأضع هنا كلماتها بالفرنسية:

... السماء تصنع عشّها
والشمس كثورٍ تأتي لتريح لسانها
وتنام العناكب في طيّاتها(*)...

بدءاً من ذلك اليوم، لم يكن لها أن تصعد على منصةٍ وتؤدي أمام جمهور، إذ عليها أن تكرّس نفسها لتربية أبنائها. أربعة أبناءٍ وُلد أوّلهم بعد أقل من خمسة أشهر من ذلك العرس المبهر.

طيلة سنوات، رفضتُ الردّ على الرسائل الحنونة والمثيرة للشفقة التي كان تيرنس يرسلها لي. لم أقرّر فعل ذلك إلا منذ ثلاث سنوات، وهذا برهانٌ على أنّني بلغت سنّ الرشد في وقتٍ متأخرٍ بالمقارنة مع معظم الناس. بل إنني زرته. يسكن الزوجان ضاحيةً سكنيةً في فيلادلفيا، لأنّ تيرنس يدرّس في جامعة تمبل، بعد أن نشر ثلاثة دواوين شعرية أو أربعة لقيت استحساناً كبيراً من النقاد. وعنوان المقرّر التعليمي الذي يجتذب

(*) فليسامحني جان ريستا على هذه الاستعارة الصغيرة من قصيدة: «قبر السيّد آراغون»!

عدداً كبيراً من الطلاب ويوفّر له شعبيةً هائلةً في الحرم الجامعي هو: «الموسيقا والسلطة الشعبية في منطقة الكاريبي. حالة جامايكا وهاييتي». ذهب مرّاتٍ عدّةً إلى جامايكا، وكذلك إلى هاييتي التي لم تضع أوتافيا قدميها فيها إلا في عام 1986 عندما أُطيح بدوفالييه الابن. آنذاك، نكثت عهدها وقدّمت حفلةً مجانيةً أمام ألفي شخصٍ أسكرتهم الحرية. حلق تيرنس الذي لا يزال وسيماً جدائله (كلّ هذا هو مجرّد ذكريات طفولة!). ها هو ذا باللباس الرياضي يمرِّر ذراعه تحت ذراعي، ويأخذني إلى حديقةٍ تغطيها الثلوج التي تتكسّر تحت جزمتينا.

– كيف حالها؟

– بخير! بخير!

صمْت. هواء الصقيع القاسي يخدش شفاهنا. يقرّر أخيراً أن يتكلّم: «أعرف ما تفكّرين به. أنا لا أنكر كلّ المسؤولية. لكن عليكِ أن تحاولي الفهم. لقد تربّت تيكلا على الاقتناع بأنّ كلّ شيءٍ حقٌّ لها...».

قاطعته: «ليس هذا ما أحاول فهمه. أنا أمضي وقتي متسائلةً عن اللعبة التي كنتما تلعبانها إن لم تكونا مجرّد غشّاشين، محتالين!».

فكّر طويلاً جداً: «لا، لم نكن غشّاشين ولا محتالين. بل كنّا برجوازيين صغيرين ساذجين! وشديدي الغطرسة!».

صمتٌ مجدداً. ثمّ وضع عينيه في عينيّ:

– أيّ نوعٍ من الأشخاص هو زوجها؟

– شخصٌ رائع!

صمت. أخذت أخمّن كمّاً كبيراً من الأسئلة التي تدور في ذهنه مراراً وتكراراً. لكنه لم يطرحها وأمسك بيدي:

- ابقي معنا يا كوكو! ابقي معنا! سيكون سروري بالغاً لو فعلتِ!

ربما كنت سأقبل الدعوة لولا وجود أوتافيا. ففي مواجهتها، أستعيد على حالها مشاعري كطفلة. هي أمٌّ حنونٌ بأناقة، تحضن أبناءها. وعندما أرسلَتهم إلى السرير، باستثناء البكر جوليان الذي رافق أباه وهو يرتدي ما يغطيه حتى عينيه إلى مباراة كرة سلةٍ ليلية، وجدنا نفسينا منفردتين أمام مسلسلٍ تلفزيوني. وهي أيضاً، حاولت تبرئة نفسها:

- أعرف ما تفكّرين فيه، لكن يجب عليك أن تفهمي... وهكذا دواليك.

بعد مدةٍ قصيرة، في الليل الأميركي، مسحتُ دموعي وخطرت في بالي أفكار. ماذا لو أدّيتُ مشهداً مقتبساً من روايتَيْ «المدعوّة»(*) أو «الصيف القاتل»(**)؟ ماذا لو آلمتهما، لو انتقمت لنفسي، لو انتقمت لها؟ فهذان الاثنان، مهما دفعا التهمة عن نفسيهما، اغتالا أمي.

.10

عندما أحرقت تيكلا أصابعها حتى بانت عظامها بسبب وضعها لها على الشوّاية بدلاً من السمك، عندما وقعت أربع مراتٍ من دون أن تنهض مجدّداً وثوبها مرفوعٌ حتى عانتها، عندما بدا كأنها لم تعد ترى ولا تسمع ما يجري حولها، قرّر مانويل استشارة طبيب بلاك ريفر الذي أعلن عجزه واقترح الذهاب إلى ميامي في فلوريدا. ساعة ونصف الساعة بالطائرة على متن شركة الخطوط الجوية الجامايكية. رفض مانويل ذلك وقرّر معالجة

(*) L'invitée: أولى روايات فرانسواز ساغان. [م].

(**) L'été meurtrier: رواية بوليسية لسيباستيان جابريزو. [م].

تيكلا بطريقته. ما الذي تحتاجه؟ كثيراً جداً من الحب ورعاية شامان فيه شيءٌ من الراستا ويعرف فوائد النباتات.

بدأت تيكلا تشبه تيما. فكانت تمضي الوقت من الصباح إلى المساء وهي جالسةٌ على كرسيٍّ هزّاز، تنوس من الأمام إلى الخلف ومن الخلف إلى الأمام ويداها معقودتان على ركبتيها، وعيناها مفتوحتان على اللامرئي. يطعمها مانويل ويسقيها بيده كأنها طفلة، ويجلس عند قدميها، يقرأ لها الصحف أو يسرد أمامها مونولوجاتٍ لا تنتهي.

- سوف تشفين، *querida*. سيعود الجمال ليضيء في قاع عينيك مثل نار اللحم المدخّن. ستستعيدين ابتسامتك وسينال أولئك الذين آذوك العقاب. أعرف، لا يقتصر الأمر عليهم. الحياة بأكملها هي التي يجب إعادة صياغتها من جديد. الولادة مجدّداً من عالمٍ جديد. ستكون شعوبنا مختلفة، راضية، سعيدة، ولن يكون علينا أن نزعم بأننا نمنحها السعادة.

ولأنّ تيكلا تهزّ برأسها مع كلامه، يتخيّل أنها موافقةٌ عليه، فيقبّل يديها بانفعال.

يأتي الشامان أيام الخميس، وهو يومُ سعدٍ بالنسبة إلى الأرواح، وهو يحمل في كيسه تشكيلةً من ثمار القرع المجوّفة والزجاجات الصغيرة، المسدودة بعنايةٍ بالقشّ، والمحتوية على مساحيق ومراهم وغسولاتٍ ومحاليل يجب ابتلاعها أو استنشاقها أو استخدامها كغرغرة، أو يجب فرك الرأس أو الجسد أو الأطراف بها. بعضها ذو رائحة زكية كرائحة الماغنوليا وزهر البرتقال. وغيرها مثيرٌ للاشمئزاز كلعاب الضفدع وروث الماعز، وأخيراً بعضها حامضٌ كسمّ أفعى توا-لانغ التي تختبئ خلف أوراق شجيرات العنب المحلّيّة. يرعد الشامان ذات اليمين وذات الشمال،

متوجّهاً إلى محادثين لا تراهم إلا عيناه: «إلى الوراء! إلى الوراء! ارفع يديك عنها! ثقل رأسها واسوداده لا يمنحانك الحق في أن تستغلّ ذلك! اتركها، أقول لك اتركها!».

أنظر مع ميليسا من على أغصان شجرة جوافة إلى هذا المشهد المسرحي الهمجي، فأضحك أنا ساخرةً وترتجف هي مردّدةً: «أنت هنا تضحكين وتسخرين! على كلّ حال، هذا ما أنقذ أبي الذي كان مدرجاً على لائحة الموت، والازرقاق قد بلغ منه كلّ مبلغ. جعله الـ *obeah-man*(*) يقف على قدميه الاثنتين. وعندما فتح مجدداً عينيه، لم يتذكّر أيّ شيء. ثمة ثقبٌ كبيرٌ أسود في رأسه حتى الآن. وإذا ما تحدّثتِ إليه عن أشياء معيّنة، يبقى أمامك وكأنه زومبي!».

إنّ خبر رحيل تيرنس وأوتافيا بسبب الحبّ والزواج، ومرض أمّي الذي أعقبه، كانا أشبه بإعلان وفاةٍ موشّحٍ بالسواد. على أثر ذلك، لم يعد ثمة زبونٌ واحد في غرفة الطعام. ولا حتى قطٌّ عابرٌ في ممرّات الحديقة أو عظاءة صغيرة خضراء على المزاريب! لكأنّ رائحة البؤس القذرة تنفّر الحيوانات والناس!

لكنّ انهيار نزل واترلو أدّى على صعيدٍ ما إلى انقلابٍ كاملٍ في الأذهان. فبعد أن كنت طفلةً منبوذة، أصبحتُ طفلة الجميع! انفتحَتْ بفعل السحر أباجورات النوافذ التي كانت لا تزال حتى ذلك الحين مغلقةً على حميمية الأسر التي لا يمكن اختراقها. انفتحت الأبواب وأدخلتني ألف أمّ طيّبة لأتقاسم معهنّ الآكي والأرز مع سمك الرنجة(**). وضعن على جروحي ضماداتٍ صغيرةً من أوراق الشجر. قدّمن لي صنوفاً من الشاي

(*) شامان.

(**) طبق واسع الانتشار.

المحلّيّ الممدّد بالروم لتخفيف سعالي. حتى المعلّمة، تلك التي وضعتني قيد الإقامة الجبرية في آخر مقعدٍ من الصف، صمّمت على أن تسمّع لي قائمة الأبطال الجامايكيين الوطنيين.

رقم واحد: ناني من مارونز.

رقم اثنين: ماركوس غارفي.

رقم ثلاثة: بول بوغل.

رقم أربعة... رقم أربعة...

وحدهم أطفال المدرسة رفضوا الاستسلام أمام هذه الدُّرجة وواصلوا تجاهلي كما في السابق.

بما أنّ ميليسا كانت ملزمةً بأن ترتدي كلّ مساءٍ زيّ الطفلة النموذجية لحضور العشاء العائلي، فقد كنت أذهب من دونها حتى نيغريل حيث ألتقي أعزائي من الراستا، القابعين كأعشاب البحر في تجاويف الخلجان الصغيرة.

كان زمناً مباركاً.

امتداداً لا حدود له من بحرٍ تحت السماء.

فهمتُ متأخرةً أنّ أمّي التي لم تكن تستطيع، باعترافها، منحي الحب، حاولت على الرغم من ذلك أن تمنحني شيئاً ما. طفولةً معاكسةً لطفولتها. فقد اعتقدت أنّه بسبب اعتيادي على نبش الأرض الوعرة للبقاء على قيد الحياة وعلى اكتفائي بالفتات، سيكون لي قلبٌ قاسٍ كالخشب الصلد. مثلما يجب أن يكون. ففي نظرها، الأحلام في قعر الرؤوس هي التي تقتل، وكذلك الهوامات الطامحة إلى التغيير وإعادة الصنع وتأدية دورٍ وقصص الأبطال، النموذج!

«فوضع تي جان في جعبته خطّاف صيادٍ وأخذ سكّينه الكبير وربط أسفل ظهره جيداً ومضى قائلاً: أنا ذاهبٌ لقتل الوحش الذي التهم الشمس؛ وهذا البلد، بلدي، سيكون في النور».

للأسف، لم تنجح في هذه النقطة أيضاً! فأنا أنزف الدم عينه! لكن بعد مدةٍ في نيغريل، انتابني ندمٌ شديدٌ لأنني أدرت ظهري لها وهي في حالتها البائسة، دفعني للعودة إلى بلاك ريفر.

كانت تيكلا واقفةً على الشرفة وقد تخلّت عن كرسيّها الهزّاز الكئيب في إحدى الزوايا. نحلت وأصبحت يداها وساقاها أشبه بعيدان شجرة جوافة، وغارت مقلتاها وأصبحتا بلون الحمم في قاع فم البركان، لكنّها شُفيت وباتت في حالةٍ تسمح لها تماماً بأن تصيح: «أين ذهبتِ هذه المرة أيضاً؟ هل تعلمين أنّ مانويل أبلغ الشرطة بغيابك؟».

لمن يجب أن ننسب شفاء تيكلا الباهر؟ سارعت ميليسا، منتصرةً، إلى نسبه للشامان. أمّا أنا، فلديّ تفسيرٌ آخر. فقد قالت الأغنية: «على المرأة التي سقطت ألا تيأس أبداً».

لكننا وصلنا إلى نهاية أمرٍ ما. فلبضعة أشهرٍ أو بضعة أسابيع، لم أعد أتذكّر، قام مانويل وتيكلا بالتظاهر. إذ أتاحت لهما الأيام الخالية من الزبائن الوقت للعمل على كتابهما الكبير: «الحركات الثورية في العالم الأسود». وبموازاة ذلك، أخذت تيكلا تجمع ذكرياتها وتكتب لجدّي يعقوب الذي سُرَّ كثيراً لأنّ ابنته تراسله على هذا النحو بهدف كتابة سيرة ذاتية عن «جان لوي، الوطني الغوادلوبي»، في حين يقدّم مانويل خدماته كباحثٍ دولي (كذا) لبعض البلدان التقدمية في إفريقيا. لكن كان جليّاً أنّ تلك المعركة خاسرة، وأنّها استعراضٌ أخيرٌ قبل الاستسلام وترك الحياة الآثمة تقترف آثامها بسلام.

.11

عندما عدت من فيلادلفيا، زرت مانويل في جامعة لوس أنجلس الرديئة حيث يدرّس. هو يعيش في شقّةٍ من أربع حجرات، على طرف الحرَم الجامعي، تزدحم بالقطط وبالطلاب السود القادمين للانتحاب من عنصرية البيض، وبمخطوطات مراسلات ماركوس غارفي التي يُعِدّ نفسه لنشرها مصحوبةً بالتذييلات. ولأنّه ذو قلبٍ مخلص، فقد بقي عازباً. لم أكن أحبّ مانويل أبداً، لكن عندما رأيت عينيه الشبيهتين بالعقيق الأحمر، بقصّة شعره المشعّث الرمادي التي لم تعد دارجة، صعدت إلى قلبي بعذوبةٍ كلّ طفولتي الخالية من العذوبة. قال وهو يتأتئ: «كيف حالها؟».

– بخير، بخير!

تحدّثنا وهو يتألم عن أمورٍ وأمور، عن «الرسوم الجدارية» في لوس أنجلس، عن ألفين أيلي (Alvin Ailey) الذي يعرض رقصاته في باسادينا، عن حدائق الصبّار في مكتبة هنتنغتون، ثمّ حزم أمره وقال:

– من المعروف على نطاقٍ واسعٍ أنّه في الثنائيات، أحد الطرفين يحبّ أكثر من الطرف الآخر. وأنا كنت الطرف الأول في علاقتنا. كانت تيكلا ترى في عينيّ نسخةً طبق الأصل عمّا تتمنى أن تكون. مناضلةً ذات موهبةٍ فائقة في حين أنّ الأمر كان مغايراً تماماً في الواقع. لقد دفعها أهلها للاعتقاد أنّها وُلدت لتكون ملكة. وعندما أدركت أنّ الأمر بعيدٌ عن الحقيقة بالنسبة إلى معظم الناس، ذُهلت فأرادت أن تقلب كلّ شيء! أمّا أنا، فقد رأيت أمّي تستهلك جسدها كلّه وهي تلمّع أرضيات البيض. رأيت أبي بعد خروجه من العمل في قصب السكر يخرّف بسبب الركلات في المؤخرة وتكراره

«نعم سيدي». إخوتي: جرعة زائدة + سجن + موت. لا أمزح عندما أقول إنّ هذا العالم متعفّن وإنّه يجب الإطاحة به! لو لم تكن لديّ قناعةٌ بأنّ هذه الحال ستتغيّر ذات يوم، لقتلت نفسي منذ وقتٍ طويل!

أمسكت نفسي عن تقديم تعليقٍ صغيرٍ ساخر، لم يكن ليسمعه أصلاً لأنّه كان يجابه الماضي:

– لم تكن يوماً لي أنا، حقاً لي أنا، إلا أثناء تعافيها من ضربةٍ دنيئة وجّهتها لها الحياة. في البداية، تخلّي والدك عنها، ثم اغتيال أخي. ثم اغتيال عمّك المتزامن تقريباً مع رحيل تيرانس. وغير ذلك أيضاً... كنت ممرّضاً، أشبه بمربّيةٍ أو بعكازةٍ حتى أدركَتُ أنّ ساحرها الطويل الأبيض أقوى مني! عندما أفكّر في الأمر، أجد أنّ القضية لا تستحقّ كلّ الانزعاج الذي شعرت به والشعرَ الأبيض الذي ملأ رأسي. ربما تيكلا مجرّد عاهرة!

صمَت. استأنف:

– لقد قال الشامان حقاً: «أتريد أن أجعلها تقف على قدميها مجدداً؟ ستستخدمهما من فورها لتتركك». حبّرتُ وحبّرتُ أوراقاً حتى انتهى بي الأمر للعثور على عملٍ في جامعة دار السلام. جننت فرحاً وأخذت أتصوّر حياتنا الجديدة. أوهورو (Uhuru) وأماكن من هذا القبيل... أتذكّر الأمر كما لو أنّه حدث البارحة أو هذا الصباح، لأنّ حياتي اتخذت منذ تلك اللحظة طعم الشراب المرّ ولا تزال تحتفظ به حتى هذا اليوم. كان لدينا زبائن، أميركيّان من شيكاغو ومعهما رضيعٌ عمره بضعة أشهر. دخلت الأم لتسخين رضّاعةٍ في المطبخ. وعندما انتهت من الدوران مراراً وتكراراً وهي تثرثر بغباءٍ كعادة القوقازيين، خرجتُ إلى الشرفة وأنا ألوّح بالرسالة التي أخفيتها لتكون مفاجأةً لها وقلت: «حبيبتي، أعتقد أنّنا على وشك

النجاح! أخيراً، سوف نرمي المرساة في البحر الذي هدأ! يوجد رئيسا دولةٍ إفريقيان لا يشبهان الأوغاد الآخرين. الأول انقلبوا عليه، وكان اسمه كوامي نكروما. والثاني هو جوليوس نيريري...». تركتني أتحمّس وأبني لها بالكلمات عالمَ الغد هذا ثمّ قالت لي: «لن آتي معك يا مانويل. لم أعد أتحمّل! أنا عائدة إلى فرنسا. سوف ألتحق بزوجي». يبستُ في مكاني، شتمتها، بكيت، توسّلت إليها، وطوال ذلك كانت تنظر إليّ كحصانٍ رمى سيّده! ثمّ نهضتْ وصعدت إلى إحدى غرف الطابق الأول حيث أغلقت على نفسها بالمفتاح. بعد ذلك، أمضينا بضعة أيامٍ شديدة العذوبة. كانت مثقلةً بالأمور التي تحتاج إلى أن أسامحها عليها، فلم تعد ترفض لي شيئاً ممّا رفضت منحه لي على الدوام. نامت بين ذراعَيّ كطفلةٍ، وكان القمر، في منزلته السماوية السابعة، متطاولاً مثل برتقالةٍ من بوربون. وأنا، أنا لم أذهب إلى دار السلام. لم أذهب إلى أبعد من طرف وحدتي وحزني. لم أستسلم كما ترين. في هذه الجامعة الصغيرة، أفعل ما أقدر عليه لتضميد جراح قرابة أربعين طالباً أسود، بمساعدة رفيقي القديم ماركوس. طوال سنوات، لم تصلني أخبارٌ عنها. كنت أتخيّلها بين ذراعَي رجلها الأبيض بعد كلّ ما حلمنا به، ووجب عليّ أن أقرص نفسي بأقصى شدّةٍ كي أتأكّد من أنّني مستيقظ. فجأةً، في السنة الماضية، تلقّيت منها رسالة. أتريدين رؤيتها؟

أثناء بحثه عنها وعدم عثوره عليها في الدروج الطافحة بصورٍ عن رسائل جامحة من ماركوس غارفي إلى زوجته آمي، وإلى كوجو توفالو وغراسيان كانداس وأدولف ماتورين...، أستعرض هذا الجزء من المسار.

كثيراً ما كان أميركيا شيكاغو يوكلان لي أمر ديبي، طفلتهما الشاحبة

ذات العينين اللتين لا لون لهما، وذات الفكّين اللذين بدأت تبرز فيهما الأسنان كحبّات الأرز، وأجرّب عليها الحكايات التي كانت تقصّها عليّ الصديقة فلورا:

«عندما مدّدوا جسد مانو بأطول ممّا مدّده قبل ذلك، وحملوه إلى التراب بحلّة الموت التي خيطت وطويت منذ سنواتٍ ووضعت في سلةٍ كاريبية، بوجنتين حليقتين حلاقةً ناعمة وقد شُدّ جفناه بعنايةٍ على عينيه البنّيتين...».

لكنني لم أكن قاصّةً جيدة وهي لم تكن تستمع إليّ أبداً، ديبي تلك! كانت تفضّل أن تضحك باطمئنان وهي تنظر إلى الخنفسة الذهبية في السماء. في عصر أحد الأيام، كنت عائدةً إذاً إلى النزل وديبي بين ذراعيّ، عندما خرجت تيكلا من المطبخ. لم تكن متماسكةً بعدُ على ساقيها النحيلتين، والتفّ على خصرها مريولٌ كبيرٌ عليها، لكنّها قادرةٌ تماماً على أن توجّه الأوامر لي: «توقّفي عن لعب دور الطفلة المطيعة واتركي هذه الطفلة من يديك!».

لم أفعل شيئاً بطبيعة الحال وألقيتُ عليها نظرةً بغيضة. تلعثمتْ، مستعيدةً ككلّ مرةٍ تغضب فيها لهجتها الأنتيلية المدفونة تحت طبقاتٍ من الجهود الصبورة: «اخفضي عينيك من فضلك!».

بطبيعة الحال، لم أفعل شيئاً من ذلك، فقرّرتْ التظاهر بأنها لا تأمرني، وانتقلت إلى موضوعٍ آخر: «نحن راحلتان. سنغادر جامايكا».

تنفّست الصعداء وقد غار قلبي:

- إلى غوادلوب؟

أدارت ظهرها لي منتصرةً وعازمةً، وهي تعلم أنّها رابحةٌ في هذا

المجال، واتجهت نحو المطبخ، حيث وشت الرائحة بأنّ سمك النفاش يتفحّم على مشواته.

- لا. إلى باريس!

.12

إذاً، ربيع عام 1972، عندما ظهرت البراعم على أشجار الكستناء في حديقة اللوكسمبورغ، استعاد بيير لوفاسور ملكيّته لتيكلا وابنتها. ولئن كان لا يزال يحتفظ داخله بما يكفي من الحب للأولى، فإنّه لم يكن لديه القدر عينه ليقدّمه للثانية. ثمّ ماذا يفعل بها، هي التي لا تعرف القراءة والكتابة إلا لماماً، وتعرف بالسوء عينه ثلاث لغات؟ بشيءٍ من التأخير، رجحت نصيحة الصديقة أنطونين وبحثوا لي عن مربٍّ متخصّص.

في هذه الأثناء، دارت تيكلا حول العالم وهي تتأبّط ذراع زوجها المستعاد، لأنّ السفر لا يقوّي عود الشباب فحسب، بل إنّه يشفي أيضاً من الاكتئاب. وبالفعل، إذا نظرتَ إلى انعكاس واجهة تاج محلّ المرمرية في الماء، فسيتخفّف قلبك قليلاً من اللاجدوى.

كان ذلك الأمر بالنسبة إلى يعقوب مناسبةً أخرى لإفساد دمه! ما الذي تبحث عنه تيكلا تحت هذه السماوات كلّها؟ ألم تمشِ بما يكفي على أرضٍ غير ممهّدة؟ كان يتمدّد في السرير الكبير المصنوع من خشب البلوط، السرير الذي نام عليه ألبير والأم الصغيرة إيلاييز وحيث حملت أمه به، ويرتفع صوته بنبرةٍ واحدة، كما لو كان يرتّل صلاة: «لو قال لي أحدهم إنّ تلك الطفلة ستدفعني إلى العذاب بهذه الطريقة، لما صدّقته ولطردته!».

فتهزّ فلورا كتفيها، وقد تعبت من سماع التشكّي عينه ليلةً بعد ليلة، وتقول: «نمْ! أنت تمنعني أنا نفسي من النوم!».

كان جدّي يعقوب مشغولاً جدّاً، فضلاً عن هذا الهمّ الذي تتسبّب به ابنته له. فقد عاد ديودونيه، ابن جان البكر، من كليرمون فيران حيث أجرى دراسةً رزينة في الحقوق. ليس سهلاً أن تكون ابن شهيد! لأنّ دم أبيك يستدعيك ولا يمكن أن يكذب. هكذا، وبدلاً من أن يمكث ديودونيه هادئاً في المكتب الذي اشتراه له يعقوب، قرّر الدفاع عن الفلّاحين الفقراء والعمّال المنهوبين، أي عن البؤساء الكثر في بلدنا، هو الذي كان في ما مضى صبياً شديد الهدوء، بل لا يقدّر بثمن، قارئاً نهماً لبروست الذي اكتشفه في الرابعة عشرة من عمره، أثناء تعافيه من إصابةٍ بالتيفوئيد.

يثير هذا التحوّل حيرتي. إذ لم يكن ديودونيه قد أظهر أيّ علامةٍ على هذا الميل منذ أن كان طفلاً. وأعتقد أنّه استيقظ داخله بسبب أقوال أهالي لابوانت. رأوه يترعرع عند يعقوب، لذا اعتقد كثيرون أنّه ابنه، في حين كان هواة علم الأنساب يهزّون رؤوسهم: «كلّا، إنه ابن جان من امرأته الأولى...».

ثمّ يخفضون الصوت: «تلك التي قتلت نفسها...».

فيستغرب الأوّلون: «ابن جان الشهيد؟».

(هكذا اعتادوا أن يلقّبوا عمّ أمي). ثمّ يعلّقون بدهشةٍ بالغة: «لم يأخذ عنه شيئاً!».

انتهى الأمر بأن ألحّت تلك التعليقات على ديودونيه، فقد أراد إظهار ما هو قادرٌ على فعله، ورفض أن يكون زبائنه الوحيدون سارقي ثيرانٍ، أو الجيران الميّالين إلى الشجار بعد احتسائهم نوعاً رديئاً من الروم.

منحته قضية سورلان الفرصة التي كان يبحث عنها.

تبعد سورلان بضعة كيلومترات عن سانت آن؛ وكان خليجها المتألق، عندما لم تكن السياحة قد تنبّهت إليها بعد، أرضاً تقارب مساحتها مئة هكتار، يملكها المصنع الذي أصبح صدئاً ومهجوراً، مركباً شبحياً غرق في أشجار الأيكة الساحلية الجافة في الدغل. رفض الفلّاحون البقاء دون عملٍ والموت جوعاً، فقرّروا مواجهة التحدي وزراعة الأرز والبطاطا الحلوة المجنّحة أو الكايينية. كانت جمعيتهم التعاونية مزدهرةً ومنتجاتهم تباع في أسواق سانت آن، حيث يتجاور القرع المسكي الضخم مع الطماطم، عندما خرجت الشركة المغفلة المالكة لسورلان من غفليّتها للمطالبة بأملاكها وإقامة دعوى. أجل، لقد ردَّ الأستاذ الشاب ديودونيه لوي دعوى الشركة حقاً وفعلاً. ومنذ ذلك الحين، لم يعد أحدٌ يتحدّث إلا عنه، من غراند تير إلى باس تير، في حين نقلت صحيفة «لافوادوباليه» الخاصة بالمحامين مقاطع طويلةً من مرافعته.

آنذاك، أعلن ديودونيه عن تأسيس حزب، حزب غوادلوب الجديدة، مستغلّاً الحديث الدائر حول اسمه.

عندما تنامت إلى سمع يعقوب مشاريع ابن أخيه، أجلسه في مقعدٍ مواجهٍ له ونعق قائلاً: «لطالما تسبّبت السياسة بالألم لعائلتنا. فقبل أبيك، أنا الذي تراني أمام عينيك، في شبابي...».

كان في ذهنه أن يحكي عمّا تعرّض له من فشلٍ أثناء محاولته تأسيس «حزب نهوض الزنوج». لكن كان لدى ديودونيه ما يفعله أفضل من الاستماع إلى تلك السخافات، فهزّ كتفيه وقال: «عمّي يعقوب، أنت كنت مخلوقاً لممارسة السياسة بقدر ما أنا مخلوقٌ لتجارة شحم الخنزير. لكلٍّ مهنته! في أيامك، كنتم تقسمون البلد إلى ثلاثة أقسام. البيض الذين كنتم تخافون منهم، أجل، كنتم تخافون منهم. والخلاسيون الذين كنتم تغارون

منهم، أجل، أجل، كنتم تغارون منهم! وأنتم الزنوج الذين كنتم تكرهون بعضكم بعضاً، تحت غطاء الخطابات الجميلة عن الواجب تجاه العِرق. لم يكن بوسعكم أن تدفعوا البلد إلى الأمام بمثل تلك الأفكار...

أصرَّ يعقوب بتواضع: «وما هي أفكارك؟».

لكنّ ديودونيه كان قد ابتعد ووصل إلى عتبة الباب، ونخر يعقوب بحزن.

فور تأسيس حزب غوادلوب الجديدة، أُزيلت دروع الحماية، وتعرّض ديودونيه لهجمةٍ شرسةٍ وعامة. يمكن أن نفهم ردّ فعل الأحزاب التقليدية التي يثير حنقها أيّ قادمٍ جديدٍ إلى حقل شهيّتها المغلق. لكنّ ما يبدو أكثر إثارةً للدهشة هم الوطنيون الذين كان بإمكانهم التغاضي عن ابن رمزهم السابق! سأحاول استجلاء الأمر. يبدو أنّ ديودونيه أثار حنق أصدقاء والده القدامى. فقد قلّل من شأن تحرّكهم بين الفلاحين، وانتقد بعنفٍ شعاراتهم: «*Palé Kréyol, dansé gwoka*». (هو نفسه لم يكن يتكلّم إلا بالفرنسية المنمّقة، وكان يعشق بروست -سبق لي قول ذلك- ولا يستمع إلا إلى مقطوعات براندبورغ لباخ).

- وعلى الرغم من ذلك، أنا غوادلوبيٌّ بقدركم!

ناصر استقلالاً أكثر انفتاحاً، أقلّ فئويةً، أي استقلالاً إنسانيّ الوجه!

أمّا الوطنيون من الضفة الأخرى، فقد عادى عنفهم ووبّخ واضعي القنابل.

- يجب التحاور مع السلطة الاستعمارية! التحاور!

أنا لن أتحيّز في هذه النزاعات. كلّ ما أعرفه هو أنني كنت أكُنّ ودّاً لابن عمّ أمي ديودونيه. وأثناء إقاماته في باريس، كان يزورني كلّ مرّةٍ

في دور التربية المتخصصة تلك حيث أفقد ابتسامتي. يجلب لي رسائل طويلةً بالحبر البنفسجي من جدّي، والأطايب التي صنعتها فلورا بحبٍّ لي. «تشاديك»، «دوسليه»، «سوكاكوكو غراجيه»[*]. يحكي لي عن بعض الحقائق مثلما لم يكن أحدٌ قد حكى لي عنها (ولا سيما أمي التي ربما كان ذلك واجبها، نظراً لماضيها «النضالي»):

- بلدنا يتمتّع بمذاق ثمرة مانغا مطعّمة بنكهة اليود. لماذا يجب أن يجرجر كلّ أولئك الناس المنتمون إليه حياتهم في ضواحٍ بائسة ولا يستطيعون تذوّقها؟ هل تعلمين كم من الغوادلوبيين يتوزّعون في منطقة باريس؟

أجل، كنت أكُن الودّ لابن عمّ أمي ديودونيه!

بعد مدّةٍ قصيرة، أتى ليراني وبصحبته فتاةٌ اسمها مونيك، شقراء يناديها قائلاً «حبيبتي»، وتمطره بنظرات الغرام.

خمّنتُ أنّ عائلتنا ستضمّ إليها هذه المرة أيضاً دماً من لونٍ آخر.

لم أكن مخطئةً. فبعد ثلاثة أشهر، تزوّج ديودونيه بمونيك في كاتدرائية لابوانت. لم أحضر ذلك العرس، لكنني علمت بكلّ تفاصيله عبر رسالةٍ من الصديقة فلورا. علمتُ من أيّ خيّاطةٍ أتت فساتين وصيفات الشرف، وأنّه وجبت التوصية على حذاء العروس من بورتوريكو.

ما لم تكتب عنه الصديقة فلورا هو الخلاف العائلي. لم يكن مختلف فروع آل لوي قد هضموا تماماً بعدُ زواج سيرج، وبالأخص زواج تيكلا، وكانت الأسئلة لا تزال تدور في أذهانهم. إلى أين سيصل هذا الغزو الشامل للبيض بينهم؟ لذلك حَرِد بعضهم ورفضوا قطعياً حضور حفلة

(*) حلويات من منطقة الأنتيل.

العرس. وحضرها آخرون، لكنّهم بقوا متصلّبين ومعاندين، فشربوا بأطراف شفاههم شمبانيا أيالا التي حصل يعقوب على تخفيضٍ في ثمنها. أخيراً، فتح آخرون أذرعهم واسعةً لمونيك وأهلها، هامسين بانبهارٍ بأنّهم ليسوا مثل غيرهم من البيض. وأدّى ذلك إلى نقاشاتٍ لا تنتهي:

- ماذا يعني ذلك؟

- يعني أنّ البيض مثل غيرهم. بينهم من هم طيّبون وبينهم من هم سيّئون. ومن عرفناهم هنا كانوا الأسوأ، البيكيه!

- تستطيع قول ذلك! كانت جدّتي تحكي لي إنهم إذا أرادوا ضرب عبدةٍ حامل، يحفرون حفرةً كبيرةً في التراب لحماية بطنها، ويسوطونها على الظهر والإليتين.

هكذا عادت إلى السطح من قاع الذاكرة حكاياتٌ قديمةٌ عن العبودية، فأظلمت الوجوهَ ولوّثت الحفلة. أجل، بات بعيداً زمن تلك الحفلات المفعمة بالفرح، عندما كان آل لويِ متّحدين وكأنهم جسدٌ واحد، فيشربون ويأكلون ويرقصون على أنغام ستيليو أو مافونزي!

أمّا يعقوب، فقد وجد في ذلك الزواج فرصةً جديدةً لذرف الدموع السخية وهو يرى سلالة الأم الصغيرة إيلاييز تتخذ لوناً جديداً، في حين تعظه فلورا: «ما الذي تريده؟ يجب على المرء مسايرة زمانه. لم تعد حكاياتكم عن الزنوج تهمّ أحداً».

- توقّفي عن قول السخافات!

- هذه ليست سخافات! قريباً سيختلط الناس جميعاً بعضهم ببعض. أصلاً الزنوج السود في غوادلوب ينقرضون!

فيغادر يعقوب الحجرة لكيلا يضطرّ للاستماع إلى تلك الترّهات.

مساءً، في المقبرة، حاول أن يستشعر رأي أحبّائه اللامرئيين، لكنه لاحظ بذهولٍ أنهم باتوا عمياناً تجاه اللون. لم تكن الأم الصغيرة إيلاييز ترى سوى أنّ قلب مونيك حارٌّ كالخبز الطازج وقد خرج من الفرن توّاً. ورأى جان أنّها ستكون زوجة متفانية، لن تترك أبداً ذراع زوجها في درب السياسة الوعر، الدرب الذي اختاره، وأنها تبنّت بلده إلى درجة أنّ بعض الناس ربما يلومونها على أنّها «غوادلوبية أكثر من الغوادلوبيين». (الناس لا يعجبهم العجب). أمّا السوبارو الذي اتّصف في حياته بقدرٍ كبيرٍ من التصلّب، فقد هزّ كتفيه ومضى وهو يطلق ضحكةً مدوية. لا، لم أحضر العرس، لكنني حلمت به. مثلما حلمت بالجزيرة.

كل ليلة، كنت أنزل من مركبٍ في طرف القصور. أو في نقطةٍ أخرى. تخرج الجزيرة من الماء لتطيع صوتي. أقفز على ردفها وأطير فوق الغابات السرية لعانتها أو فوق فخذي شواطئها المفتوحين قبل أن أخوزق نفسي حيّةً على أسهم قصب السكر الخبازية اللون. يقطر دمي على الأرض الخصبة والمعروقة. أطوف في المصانع المثقلة بعصير قصب السكر.

أحياناً يتبدّل الفصل دونما إنذار. نكون في الأسابيع التي تسبق عيد الميلاد ونصدح بالأناشيد. أتذكّر اختلاطي بجمهرةٍ صغيرةٍ تنشد أغانيها من على رواقٍ بصحبة مثلثٍ موسيقي وضرباتٍ من طبلِ غووكا. أعتقد أنّ المكان هو سان سوفور.

يا جار، ما هذا الضجيج المرتفع
الذي أيقظني هذه الليلة
وجميعَ من يعيشون في جواري
كنت حقاً شديد الغضب...

في الصباح، ومثل جان غاجيه(*) الذي يستعيد جلده اليومي، أرتدي ملابسي البالية وسط أطفالٍ يعانون صعوبة الكلام، مضطربين، متأخرين، مصابين بسلس البول، تيبّسوا بفعل كلّ مخاوف عتمة الليل، ووحدها ذكريات أحلامي تساعدني على الصمود.

كم عدد دور التربية المتخصصة من النوع عينه التي طُردت منها؟ لم يكن أحدٌ يتوصّل إلى شيء. وفمي كان صندوقاً ضاع مفتاحه. لم يعد أيّ صوتٍ يخرج منه. لم يكن نادراً أن أسهو فأتبرّز على نفسي.

لم ييأس زوج أمي الذي لا يمكن لومه، بيير لوفاسور، وهو الذي تولّى أمري. وكلّ أسبوع، كان يرسل إلى جدّي يعقوب الذي يتآكله العذاب رسائل تبعث على الاطمئنان.

لم أعد مطلقاً أرى تيكلا التي أفترض أنها كانت هي أيضاً مضطربة. فبعد أن طمحت إلى تغيير وجه الأشياء وتسجيل اسمها على غلاف كتابٍ شديد الأهمية من قبيل «دفتر عودة إلى البلد الأم» أو «منبوذو الأرض»، اضطرّت للاكتفاء بأن تكون زوجة الدكتور لوفاسور المارتينيكية! (يا له من طبيبٍ ممتاز، وبالأخص، أيّ علاقةٍ رائعة مع مرضاه!) قيل لي إنّ تيكلا لم تعجِب عائلة بيير لوفاسور، وهي عائلةٌ خاليةٌ من العنصرية منحت رفيقاً لفيديرب(**) وراهباً حافياً من تلاميذ القديس فرانسوا الأسيزي، في أحد أديرة بروفانس. لا محادثة. يبدو أفرادها متعبين باستمرار. لم يكونوا يستيقظون إلا إذا مسّ أحدهم تلك المواضيع التي يحبّها البرجوازيون حبّاً جمّاً: الانقلابات في إفريقيا، الجوع في العالم، التفرقة العنصرية. في أعياد

(*) شخصية من الأدب الشعبي.

(**) Louis Léon César Fedherbe (1818-1889): جنرال وحاكم استعماري فرنسي، حكم السنغال. [م].

الميلاد والاحتفالات الأخرى، يتهامسون: «ما الذي يعجبه فيها؟ لكن ما الذي يعجبه فيها؟ لا يتزوّج المرء امرأةً لمجرّد أنها جميلة!».

.13

في الأحلام يُعلَن عن الأحداث المهمة في الحياة. وفي باطن الليالي نأخذ علماً والدم يجمد في عروقنا ونحن نرتجف برحيل الأم المكتوب، أو بسوء حظ الأب، أو بالقدوم الضاحك للطفل الصبي! كلّ صباحٍ يخلقه الله، تعقد نساء العائلة حواجبهن لفكّ رموز الرسائل التي تلقّينها أثناء النوم وفتح طيف التفسيرات.

- حلمتُ بأنني أضعت سنّاً!

- أضعتِ سنّاً! هل هو سنٌّ أمامي؟ ضاحك؟ رحى؟

يؤكّد جدي يعقوب إنّه كان يكفيه في الأسابيع التي سبقت موت جان أن يضع رأسه على غطاء الوسادة المطرّز ويغلق عينيه ليعيش المشهد عينه. أثناء تنزّهه في دربٍ تحيط به أدغالٌ من الأشجار، فيخفي السقف الذي تشكّله أوراقها سقف السماء، يسمع صرخات خنزيرٍ يُذبح، لا يمكن تقليدها. يشعر بالدهشة لأنّه يعلم أنّه بعيدٌ عن أيّ مسكن، فيمشي في دربٍ ينفتح فجأةً ويفضي إلى فُرجة. وهناك، يرى جان، مربوطاً ومشنوقاً من قدميه، ورأسه في العشب...

- أجل، كنت أعلم أنّ مصيبةً ستصيبه. لكن من أيّ جانبٍ ستضرب؟ من أين ينبغي تجنّب الضربة؟

أمّا أنا، فنمت تلك الليلة نوماً خالياً من الهواجس! لا شيء أكثر من

النزهة الشعائرية الليلية التي أستعيد في نهايتها صباحاً بشرة المُراهِقة ذات المشكلات التي تركتها في سريري. ومع ذلك!

أتتنا أستاذةٌ جديدةٌ للّغة الفرنسية، صغيرة السنّ، عيناها مليئتان بالتبشير، مائلةٌ إلى السمرة، لها لاحةٌ عربيةٌ نوعاً ما، خلاسيةٌ بكلّ تأكيد! كنت أستمع إليها لماماً، وأستعدّ لوضعها في خانة الفئة المملّة التي تضمّ مربّينا المتخصّصين، عندما استبْقتني في نهاية أحد الدروس.

- حسبما أرى، اسمك لوي وأنت من غوادلوب؟ أنا أيضاً! أقصد تقريباً! إنّها حكاية طويلةٌ جداً ومؤلمة، سأقصّها عليك عندما نصبح صديقتين. فسوف نكون صديقتين، أليس كذلك؟ أشعر بذلك حقاً.

نظرتُ بدايةً من دون إبداء ردّ فعلٍ إلى تلك البنت الضئيلة التي تزعم فكّ قفل قلبي بسحرها وعذوبتها. فقد سبق أن تعرّضتُ لمثل هذا من قبل! لكن كان في عينيها المجهولتين بلونهما البني الفاتح وفي قسمات وجنتيها شيءٌ يبتسم لي بألفة. فتنحنحتُ قائلةً: «تقولين إنّ اسمك لوي وإنك من غوادلوب؟ كيف ذلك؟».

فلتسامحوني على إلحاحي الضيق الأفق! لا، لم أرَ بوضوحٍ على الفور. فمع هموم حياتي، أهملت نوعاً ما بيرت وبيبير. بل نسيتهما. لم يكن جدّي يعقوب حاضراً ليضع بين يديّ ألبومات العائلة، ويحكي لي أثناء رؤية صورةٍ قديمةٍ الحكاية الرائعة التي تبدأ على النحو التالي: «كان ابن زنجيةٍ إنكليزيةٍ عرفها والدي ألبير، سلَفك، في بنما...».

إنّ لقائي غير المعلن، لكن المكتوب بالتأكيد في مكانٍ ما، بأوريليا لوي في زنزانةٍ كئيبةٍ تقع في مدرسةٍ متخصصة، هو الذي شفاني، فتح أذنيّ المسدودتين، فكّ الختم عن فمي المختوم وأطلق نشيد صوتي المطفأ،

عالياً وواضحاً. فقد احتجنا إلى الهمس والصوت لنجمع ما نعرفه ونرتّبه ونقارنه ونسدّ الثغرات ونستنتج ونستقرئ ونفهم لماذا يختفي شخصان ميّتان من اسم عائلتنا. ميّتان. منتحران.

إليكم حكاية أوريليا.

حكاية أوريليا

عندما وصل ألبير، الملقّب بيبير، ابن ألبير الملقّب بيرت، إلى باريس المدينة الكبيرة في نهاية الحرب الثانية وليس لديه من متاعٍ سوى كمان، لم يوفّره البؤس. يا إلهي كم كشّر عن أنيابه في وجهه! كان يملأ معدته بصلصة فياندوكس، ويتدفأ بشرب نبيذٍ أحمر رديء، ويغسل قميصه الوحيد بماءٍ باردٍ في مغسلة فندق. من أين أتاه الميل إلى الموسيقا؟ لم يكن هو نفسه يعلم. بالتأكيد ليس من الأم ماري التي بذلت قصارى جهدها للوقوف في وجه ميوله، ولجعله فتىً يمكن أن يفخر أبوه به! فما إن يتوافر لديه ما يكفي لدفع ثمن بطاقة حتى يسارع إلى ملهى لاسيغال الواقع في الجادات، وحيث يتدفأ الأنتيليون بنار موسيقاهم والروم الخاص بهم. يتذكّر بعضهم هذا الخلاسي الذي لم يكن يتحدّث، ولم يكن المرء يستطيع أن ينتزع منه إلا كلماتٍ وحيدة المقطع.

– وأنت، من أين أنت؟

– لوي؟ أيّ فرعٍ من آل لوي؟ لأنّ آل لوي يا عزيزي كثيرون جداً!

بوبي ألفريد، وهو عازفٌ عجوزٌ في الملهى، هو الذي جعله يعزف على الساكسفون الأوسط بعد أن تعاطف معه. وفي الواقع، فإنّ بوبي الذي

لا يندم على ثرثرته تحدّث له عن أقاربه، فمنحه من دون أن يدري قرابةً وشرعية.

- بدأت مثلك بالكمان. أول كمانٍ لي صنعته بنفسي لأنّ أهلي وضعوني لأتدرّب عند السيّد لوتيليه، صانع الآلات الوترية في كابيستير. لا تستطيع أن تتخيّل ما كانت عليه الحياة عندنا آنذاك. لم يكن أبواي يعرفان القراءة ولا الكتابة. كلّ ما كانا يعرفانه هو قيادة العربات لنقل قصب السكر إلى مصنع ماركيزا. اثنتا عشرة رحلةً يومياً. ستٌّ صباحاً وستٌّ مساءً. وخارج موسم قصب السكر، كان أبواي خلف حيواناتهما. كان ذلك في مسكن بواران ديروزييه. كانت الشمس تشرق وتغرب على البؤس عينه. وهذا هو السبب في أنّ أبي ألبسني ذات يومٍ بزّة الأحد، وهي بزةٌ صغيرةٌ مصنوعةٌ من الجوخ الأزرق مع جزمةٍ قصيرةٍ وجرابٍ أبيض، وأخذني معه في جولةٍ على الأماكن التي ثمة حاجةٌ فيها إلى متدرّبين. لم يشأ أن أموت مثله وأنا أعمل بقصب السكر. كان السيّد لوتيليه رجلاً ممتازاً، على الرغم من كونه أبيض! (أتعلم؟ بين البيض أخيارٌ وأشرار). وما إن بلغت السادسة عشرة من عمري حتى وجد لي مكاناً في سينما - مسرح «لارك أنسيل» حيث كنت أرافق عروض الأفلام الصامتة. كنا ثلاثة. الثاني على البيانو. الثالث على الفيولونسيل. هكذا بدأ كلّ شيء... عندما أتيت لأول مرة إلى فرنسا، كانت المناسبة المعرض الاستعماري، ثمّ بقيت فيها... ديوك، ديوك إيلينغتون، هو الذي جعلني أعزف على الساكسفون عندما أتى إلى باريس في عام 1932. فقد مرض أحد عازفيه. فارتجلتُ. هكذا! باريس آنذاك لم تكن سوى السياسة! الغالبية العظمى من الغوادلوبيين كانوا شيوعيين! بل إنّ بعضهم ذهبوا إلى موسكو، في روسيا! لكن أنا عازف. لم أحشر نفسي يوماً في مثل هذه الأشياء! تصرّف مثلي!

لم يتبع بيبير حرفياً تلك النصيحة الثمينة. فقد ذهب إلى المجلس الوطني أثناء السجالات الصاخبة حول الهند الصينية. وذهب إلى الملعب الشتوي للاستماع إلى لامين غيي وهو يستنكر المجازر في مدغشقر. غير أنّ همّه الحقيقي الوحيد تمثّل في بلده الصغير غوادلوب. فعلى رأس كلّ سنة، ومثلما علّمته أمّه، يرسل أمنياته بالصحة والازدهار والنجاح في كلّ مشاريعكم إلى السيّد ألبير لوي وعائلته، التاجر، لابوانت، ولم يكن الصمت يثبط عزيمته.

– ليس مهمّاً، سيحدث ذلك في المرة القادمة!

على مدى تآلفه مع وسط العازفين الأنتيليين إلى حدّ أنّ الاسم الذي درجوا على إطلاقه عليه كان «الخلاسي»، يسأل كلّ شخصٍ باهتمام.

– احكِ لي عنها! ماذا تشبه، برسوّها وسط البحر؟ أنت لا تعرف معاناة من لا يعرف الأرض التي أتى منها! أحياناً، يملأ القلب فمي حتى يخنقني. أمشي خبباً كحصانٍ من دون صاحبٍ في المدينة!

في رأي بوبي الذي أحبّه كأنّه ابنه، بدأت الأمور تسوء جدياً في نهاية 1953، بعد رحيل جيلبير دوسان سنفوريان، كما لو أنّ آخر شعاعٍ من الأمل انطفأ بالنسبة إلى بيبير!

– لم أشعر يوماً بالحب تجاه هذا السيّد الطويل الذي كان يأتي أحياناً ليتفرّج علينا ونحن نعزف مثلما يتفرّج المرء على الحيوانات في حديقة الحيوان، ولا يمانع من أن يحطّ من قدره فيرقص البيغوين(*)! آنذاك، وظّفني أحد أبناء بلدي لأعزف في كازينو كوتنفيل. بطبيعة الحال، طلبت توظيف بيبير الذي دعا عرّابه، فأتى مع بعض أصدقائه! ليتك رأيتهم يتخلّعون. يا للبؤس!

(*) beguine: رقصة غوادلوبية. [م].

(لماذا قطع جيلبير دوسان سنفوريان كلّ ضروب التواصل مع ابنه بالمعمودية بعد عودته إلى البلد؟ يبقى ذلك الأمر غامضاً).

بدأ تدهور بيبير بعد اختفاء جيلبير دوسان سنفوريان من حياته، من دون أن يترك أثراً غير الحلم. فقبل بضعة شهورٍ من ذلك، دمعت عيناه بعد أول كأسٍ تعيسٍ «صرفٍ» يشربه، لكنّه بات متحمّساً إلى درجة اضطرار بوبي لزجره!

- أنت لا تعرف الروم، يا عزيزي! هل تعتقد أنّه مشروبٌ عادي، أكثر سخونةً بقليلٍ من المشروبات الأخرى؟ لكن اسمح لي أن أقول لك، عندما يسيطر الروم على رأسك، فهو يتمكّن منك. لا يفلتك بعد ذلك وتنتهي أنت.

لم يستمع بيبير إلى هذه النصيحة السديدة أيضاً، ولم يتمكّن أحدٌ من تخفيف سرعة سقوطه. بدأ يتأرجح ويتمرّغ أرضاً في كلّ الأوقات، ليلاً نهاراً، وفي الوصول متأخراً إلى الملهى أو في عدم الوصول أبداً، بحيث طُرد في نهاية المطاف. وذات فجر، رفعوه عن الأرض حيث كان ممدّداً على بركةٍ من البول في جادة بون نوفيل، فغضب بوبي ومنعه من دخول جناحه في أوبرفيلييه.

- في البداية، غفر له الناس كلّ شيء، لأنه كان عازفاً رائعاً! أقول لك أنا إنّه في العزف على الساكسفون الأوسط، كان يعادل ألف عازفٍ مثل تشارلي باركر! ولو أنّه استمع إلى الاقتراحات التي قُدِّمت له، لذهب إلى أميركا ولتذكّر الناس اسمه حتى يوم الدينونة! لكنّه بقي هنا يترع جوفه بالروم ويتباكى على عائلته! وفي نهاية المطاف، تعب الآخرون منه.

أين وكيف التقى بيبير، العازف الآيل للانحدار، بلوسيت لوجاندر،

العاملة لدى خيّاطٍ كبيرٍ، وأنجب منها بنتاً؟ يبدو أنّ ذلك اللقاء لم يكن له كبير أهميةٍ في حياته، كما يبدو أنه لم يقف كثيراً أمام مهد طفلته! فبعد أقلّ من عامين على ولادة أوريليا، تزوّجت لوسيت بفرانسوا باولي، وهو كورسيكي، عاملٌ متخصص في شركة بيجو، عامَل الطفلة كابنته، كما تقول العبارة المعروفة! تتألم أوريليا حتى هذا اليوم:

- كيف نبقى على قيد الحياة بعد ما عشناه في طفولتنا؟ ففي عيد ميلادي، تُلبسني أمي أفضل ملابسي وتأخذني بيدي قائلةً: «يجب أن يراكِ! يجب أن يخجل من أن يهتمّ بك شخصٌ آخر غيره!»، فنذهب من فندقٍ بائسٍ إلى فندقٍ أكثر بؤساً ونحن نتتبع أثر هذا الرجل المنهك الذي يقول متلعثماً: «كيف دراستك؟»، ويمنح أحياناً بعض النقود لأمي، الجالسة على كرسيّها باستقامة. في الواقع، لم أرَ يوماً أبي بمفرده ولم أعلم إلّا بعد سنواتٍ كيف أنهى حياته. علمتُ أولاً أنّ أمي تلقّت ذات يوم اتصالاً هاتفياً، وأنّها بكت كثيراً لأنّها أحبّت أبي كثيراً (لكنّه كان عديم النفع!). وأخذ زوج أمي الذي لا يمكن لومه على شيءٍ يكرّر: «هوّني عليك يا لوسيت، الوضع أفضل هكذا!». حتى عامي العاشر، لم تكن لذلك أهميةٌ كبيرةٌ لديّ. في المدرسة، كان الأطفال يشكّلون أحياناً دائرةً حولي ويغنّون:

زنجيةٌ تشرب الحليب
قالت، آه لو أنني أستطيع!
نقع وجهي في قصعة الحليب هذه
لأصبحتُ أكثر بياضاً من جميع الفرنسيين!

كنت أعلم إذاً أنني مختلفةٌ عن الآخرين، عن إخوتي وأخواتي الشقر، لكنّ الأمر كان مشوّشاً جداً في ذهني. ثمّ تلقّت أمي ذات يومٍ رسالةً من

جدّتي المقيمة في أنجيه، بعد أن فقدنا أثرها تماماً، تتوسّل فيها أن ترسلني لقضاء بضعة أيامٍ معها. لم يكن زوج أمي الخالي من العيوب موافقاً. لكنّ أمي صمدت. وإلى ذلك الزمن يعود بدء تعلّقي بالجزيرة. كان لدى ماري بعض الصور المصفرّة، لكنّها لم تكن تعلم عنها شيئاً. والصور التي أثارت اهتمامي لم تكن صور عائلتها وزواجها، ولا حتى صور أبي بأعمارٍ مختلفة حتى آخر صورة، قبل هرمه الكامل، صموتاً وسط مجموعةٍ من العازفين الأنتيليين ذوي الابتسامة المنفرجة عن أسنانٍ جميلة تحت قبّعاتهم المصنوعة من القش وفي قمصانهم المزهرة. لا، الصور التي كنت أفضّلها هي صور البلد. صورتان أو ثلاث صور.

مراهقٌ نحيل، بفرقٍ مرسومٍ بالقوة في شعره المشعّث، بيده كتاب، على درج: «هذا جدّك ألبير، لكنّ الجميع كانوا يطلقون عليه اسم بيرت، في ثانوية كارنو في لابوانت».

بيتٌ تحيط به شرفة وعلى الشرفة، في أرجوحة، امرأةٌ لا يمكن تمييز وجهها، بين ذراعيها رضيع: «زوجة أبي جدّك، إيلاييز».

صبيّان أميل إلى القبح، بسترةٍ مدرسية، أحدهما يمصّ إبهامه: «هذان أخوَا أبيك غير الشقيقين، ولا أعرف اسميهما».

لم يعد أيّ شيءٍ مثلما كان منذ ذلك الحين! لكن من أين أبدأ؟ كيف أتصرّف؟ كانت أمي تكرّر: «هؤلاء الناس رفضوا أباك. وهم الذين قتلوه إلى حدٍّ ما. احتراماً له، يجدر بك عدم السعي إلى معرفتهم».

وأصلاً، ما السبيل إلى ذلك؟

لذلك، بقيت لي الأحلام! وهذه الأحلام منحتني الرغبة الجارفة في أن أدير ظهري لمسكن الأسرة الشعبي. كانت أمي تبكي: «ليس لديها

قلب. هي مجرّد رأس». فمن أجل الهرب منهم، لكيلا أسمعهم، لكيلا أراهم، كنت أشتغل وأشتغل باستمرار. الأولى في كلّ مكان. كانت المعلّمات يتعجّبن لعلمهنّ أنّ أيّ شيءٍ مطبوعٍ لم يكن يدخل شقتنا ذات الغرف الثلاث، باستثناء صحيفة «فرانس ديمانش»! ختاماً، وفي حين كان بإمكاني أن أصبح طبيبةً أو محامية... وأن أسبغ المجد على آل باولي، اخترت هذه المهنة الصعبة، مهنة المربّية، لأنني لم أعد أستطيع نسيان طفولتي ومراهقتي الإشكالية، الخالية من الكلمات والعبارات، الخالية من النظرات والابتسامات، أمضيتها محنّطةً خلف جدار العزلة. ويا للغرابة، في أول وظيفةٍ لي، أصادفك! يكاد الأمر أن ينسيني كلّ تلك السنوات!

بعد استماعي، استولت عليّ مهمةٌ، وخطر في بالي أن أضيف عليها في توصيفاتي، لعلمي اليقيني أنّ الحقيقة لا يمكن أن تتجاوز الخيال. استمعت إليّ أوريليا بشغفٍ، وأدهشني أنّها اهتمّت بالبلد أكثر من اهتمامها بالكائنات، وقاطعتني بالأسئلة التي حكمتُ عليها بأنها ساذجة:

– قولي لي، هل صحيحٌ أنّ الشيطان عندما يزوّج ابنته يستطيع أن يصنع الشمس بعينٍ والمطر بالعين الثانية؟

– قولي لي، هل صحيحٌ أنّ البحر حارٌّ مثل جيب مياه الرحم؟

في الواقع، من كلّ معرض الصور الشخصية التي رسمتُها لأوريليا، ثمة صورةٌ واحدةٌ لفتت انتباهها، وهي التي لم يرفّ لها جفنٌ عندما سردت عليها موت عمّ أمي جان المأساوي والمعلن، بل الموت الذي كنت أضمره بفظاظة، موت تيكلا.

– كم عانت!

فقلت ساخرةً: «لقد عرف رجالها كيف يواسونها!».

آنذاك، ألقت عليّ أوريليا نظرةً لائمة: «رأيي معاكس لرأيك! هلا تأخذينني لزيارتها؟».

فلم أنبس ببنت شفةٍ وبانتظار إجابةٍ مواتية، أخذتني أوريليا لمقابلة آل باولي.

هذا ظلم! يجب أن يتمكّن المرء من اختيار أهله! يجب أن يكون للمرء رأيه في الغيب العظيم الذي تُصنع فيه البنات الصغيرات والصبيان الصغار:

- لا، لا أريد هذين الاثنين!

- لا أتذكّر شكلهما!

احتفظت لوسيت لوجندر التي أصبح اسمها لوسيت باولي حول عينيها الجميلتين، الملوّنتين بلون النعناع الطازج، ببقيةٍ من رغبة الهرب التي رمتها في أحضان خلاسيّها العازف. غداة زواجها، تركت دار جاك فات للأزياء، ومنذ ذلك الحين، لم تعد تخيط على آلة الخياطة من ماركة سينجر التي اشترتها باثني عشر قسطاً إلا في زاويةٍ من زوايا غرفة المعيشة. كانت تخيط كلّ شيء: المعاطف والمشامل والسراويل والملابس الداخلية... ولم تعد تتلقّى من المديح سوى ملاحظاتٍ عذبةٍ لاذعة:

- ضيّقٌ قليلاً تحت الذراعين!

- الطول غير كافٍ!

في الجانب الآخر من الحجرة، يلوذ فرانسوا باولي بصحيفة «باري بريس لانترانسيجان» ويعلّق على السباقات.

أمّا طفلا الزوجين اللذان لا يزالان يحتلّان المراتب الأخيرة في المدرسة، فينبطحان أمام التلفزيون ويتفرّجان على ألعاب جان نوهان.

تخيّلتُ أوريليا العذبة وهي تكبر في ذلك الحيّز المغلق، وانتابتني

الرغبة في الركوع أمامها لأطلب منها الصفح عن كلّ الألم الذي تسبّب به لها أهلنا!

فهذا كلّه يعود في تاريخه لنا، لقسوتنا الأصلية! أوريليا المحرومة من الشمس والدفء، المجروحة الذهن والقلب!

يحتّم عليّ واجبي تجاه الحقيقة أن أقول إنّ الزوجين باولي أبديا لي لطفاً شديداً، وإنّني ندمت تقريباً على حكمي عليهما من سحنتهما كبروليتاريين غير مثقفين. كثيراً ما تختفي الطيبة في هذه الأوساط، وقد تعلّمت لاحقاً كيف أكتشف ذلك. قدّم لي فرانسوا باولي الذي حصل على حصته من الغربة، عندما أدّى خدمته العسكرية في مدغشقر، وصفاً مطولاً لجمال النساء ولطف الأهالي وروعة المناظر. وأطعمتني لوسيت طبق حلوى من إعدادها، وقالت لي: «هل يزعجونك في المدرسة بسبب لونك؟».

وعندما أجبتها بالنفي، امتلأت عيناها بالماء المالح العائد لألمٍ بالغ القِدم، لم يُشفَ أبداً: «الزمن يتغيّر! كم عانت ابنتي أوريليا!».

ثمّ التفّ آل باولي حولي: «حدّثينا عن بلدك!».

عن بلدي؟ ها هم يقدّمون الجزيرة لي!

ردّاً للجميل، جعلتهم يحلمون. تسلّقنا على طول منحدرات البركان الذي تلتهم فوهته المفتوحة الغيومَ، وسبحنا في بحرٍ شديد الزرقة يخفي أحشاءه الباردة، واصطدنا القريدس العملاق في كريستال الأنهار.

بعد هذه الزيارة، اصطحبتني أوريليا إلى بيت ماري، جدّتها القاطنة في أنجيه. خفق قلبي بشدّةٍ أثناء السفر. كيف سيكون ردّ فعل هذه المرأة التي عانت بسببنا كلّ تلك المعاناة؟ ألزمت أوريليا نفسها بتهدئة مخاوفي:

– جدّتي هي تجسيدٌ للطيبة. طيبتها هي التي أنارت طفولتي ولم تصدر عنها يوماً كلمةٌ ضدّكم. كانت تفضّل أن تصف زوجها المحبوب بيرت: «عندما دخل صالة الحفل الراقص، اختلّ توازن جميع الرجال الآخرين وباتت سحناتهم شاحبة، غير صحية، وأنا التي اختارتها نظراتُه: "آنستي، هل تتفضّلين بالسماح لي بهذه الرقصة؟". آنستي، أتصدّقين؟ أنا التي لم يكن أحدٌ يناديني إلا باسم البنت ماري!».

لكنني لم أكن مستعدّةً لما ينتظرني بصدد نقطةٍ أساسية.

من المفضّل ألّا يصل المرء أبداً إلى عمر الشيخوخة، عندما تتسرّب المياه إلى سفينة الجسد من الجهات كلّها. يجب أن يُرسل الموت الرحيم هذا الجسد ليرتاح في القاع قبل ذلك بكثير.

في الواقع، لم يكن بين معارفي مسنّون. فجدّي يعقوب ذو جسدٍ عتيقٍ قويّ، على الرغم من كلّ الضربات، ينحني لكنّه لا ينكسر، وليس لديه سوى بعض الشعر الرمادي. ووالد بيير لوفاسور يستطيع قتل الحمام البري بيدٍ أكثر ثباتاً من يد أبنائه.

في نهاية رحلةٍ بدا لي أنها لا تنتهي بسبب قلقٍ جامحٍ جعل المسافة تتضاعف، وصلنا إلى أنجيه صباح يوم السوق الأسبوعي، ووجدنا الشوارع ممتلئةً بالناس. باعةٌ متجوّلون يشيدون بخردتهم وطابورٌ يمتدّ لتذوّق نبيذٍ فوّارٍ من صنع المنطقة. تسكن ماري في حيٍّ منذورٍ للهدم منذ غابر الزمن. رأيت في كرسيٍّ وثيرٍ على الطراز الرعوي دميةً ممتقعة الوجه، ملفوفةً كأنّها طفلٌ أو مومياء، وتثبت أنظارها أمامها في فضاء ذكرياتها المغلق. ثمّة أنبوبٌ من المطاط يمتدّ من نقطةٍ في جسدها إلى دلوٍ للأقذار، مغلقٍ على ما لا يمكن تسميته. قبّلت أوريليا هذه الكومة من اللحم الآيل للتعفّن،

وحثّتني على أن أحذو حذوها، وهو أمرٌ لم أتمكّن من إرغام نفسي عليه. ثمّ فتحت رزمةً من الأشياء السخيفة التي أخذ الفم العجوز يسحنها بجلبة ازدراد مرعبة. أخيراً، توجّهت العينان الباليتان اللتان بهتتا بسبب الدموع والتقدّم في العمر إليّ، وارتفع صوتٌ دهريٌّ برهن بسرعةٍ على أنّ العقل يستمرّ في العيش بعد هرم الجسد.

– لا أدري ما الذي خطر في بال أوريليا كي تأتي بكِ إلى هنا وتجعلك تظهرين أمامي. أنت، ابنة أولئك الذين قتلوا رجُليّ الاثنين. بيرت المسكين أولاً. ثمّ ابني بيبير ثانياً. لم أكن لائقةً بكم، أليس كذلك؟ هل تنسون ما أنتم عليه؟ زنوج، زنوج! من دوننا، كنتم تسيرون وأعضاؤكم التناسلية مكشوفةٌ للهواء. كنتم تأكلون بعضكم بعضاً نيئين! أنتم آكلو لحوم البشر! بسببكم رمى حبيبي بيرت بنفسه عن عموده الكهربائي. قال لي: «لا تقلقي يا ماما. سنذهب لنبني حياتنا في جزيرة مدغشقر المباركة. لقد تقدّمت بطلب...». أتى الردّ على الطلب بعد ثلاثة أيام من موته. لذلك ترعرع حبيبي بيبير من دون أبٍ مثلما تترعرع نبتةٌ من دون شمس. شديد النحول. كثير المرض. وعلى الرغم من كلّ زيت كبد السمك الذي أعطيته إياه، فإنّ الطبيب كان يقول لي مراراً وتكراراً إنّ قلبه ضعيفٌ جداً. عندما كان حبيبي بيبير صغيراً، كان ملاكاً من ملائكة الله، ثمّ مع تقدّمه في العمر، أخذ يتغيّر! انقلب عليّ. انحاز إليهم. يبدو أنّه كان يشعر بالعار مني لأنني عاملة، أنا التي ضحّيت بنفسي وأفنيت يديّ في مشغل الزجاجات. حتى اليوم الذي رحل فيه من دون أن يودّعني. ذات صباح، دخلت إلى غرفته لترتيب سريره وكانت الغرفة خاوية. لم يترك حتى كلمةً مثلما يحدث في الأفلام. طوال سنوات، بقيت وحدي والقلق يأكلني. ذات يومٍ أحضر لي شخصٌ صورته

التي رآها في الجريدة. ثمّ لا شيء. حتى أحضروا لي جثمانه. رمى بنفسه تحت قطارٍ للضواحي. في ماسي باليزو. حبيبي بيير. وهذا كله بسببكم. زنوج قذرون! قتلة! قتلة!

نزلتُ الدرج راكضةً تحت وابل صرخاتها، ووجدت نفسي تحت أشعة الشمس في الشارع الضاحك.

.14

– لماذا تحكين لي هذه الحكاية؟ ما علاقتي بها؟ لديّ جرائم أخرى تثقل ضميري وأتحمّل مسؤوليتها بالكامل. لكنني لا أتحمّل مسؤولية هاتين الجريمتين! لا أتحمّل مسؤولية هاتين الجريمتين!

قلتُ صامدةً: «هل ستوافقين على استقبالها؟».

هزّت كتفيها: «وما الغاية؟ تغيير طفولتها؟ لو كان ذلك ممكناً لغيّرتُ طفولتي عن طيب خاطر!».

كم كانت جميلةً، زوجة الدكتور لوفاسور المارتينيكية! كان جول جولييت، حلّاق الذوات الأنتيلي في شارع ماتوران، قد خلّصها من شعرها المشعّث الإفريقي وقصّه على شكل خصلٍ قصيرةٍ ولامعة. وأزرق الجفنين المتقن جعل عتمة عينيها، المخطّطتين بلمعة الغضب في تلك اللحظة، تبثّ الاضطراب في النفس.

– ماذا تريدين؟ أنت تزعمين بأصابعك الطفلية إطفاء الأحقاد والثأر للموتى، في حين أنّنا لا نستطيع تغيير العالم! لقد فشل آخرون فشلاً ذريعاً قبلك وهم يحاولون! العالم مريع! شنيع!

فجأةً، في واحدةٍ من تلك الانقلابات التي اعتادت عليها، باتت أكثر لطفاً: «صحيح، تذكّرتُ! ثمّة شخصٌ كتب لي، أعتقد أنّه كان أباها. كان ذلك... كان ذلك، لم أعد أتذكّر متى كان ذلك! لكن كانت لديّ آنذاك مشاغل أخرى، صدّقيني!».

عندما سمعتُ تلك الكلمات، دوّت في مسمعي مجدّداً صرخة «قتلة». تخلّيت عن إلحاحي (ما الفائدة؟ الأوغاد يذهبون إلى جهنم!)، لكنّها أوقفتني وأنا في طريقي إلى الباب: «كوكو، جدّك مريضٌ جداً».

ترنّحتُ وأنا مقتنعةٌ بأنّ الحياة الآثمة توجّه لي إحدى ضرباتها، لكنّ تيكلا هزّت رأسها: «لم يعد في خطر. فلورا تؤكّد ذلك في رسالةٍ إلى بيير، مليئةٍ عدا ذلك بالملاحظات المسيئة لي... هو يطالب بك كهديةٍ لشفائه! تستطيعين الذهاب بعد بضعة أسابيع فور انتهاء دروسك!».

جمدتُ في مكاني، ثمّ انخرطتُ في دموع الذهول وقلت: «لماذا؟ لماذا؟ لماذا تمنحينني ما رفضتِ دائماً منحه لي؟».

لم تردّ على سؤالي، بل قالت: «بوسعك على الأقل أن تقولي شكراً. مثلما نقول في بلادنا، لو جلبنا لك القمر بأسناننا لما رضيتِ!».

مع ازدياد طولي، أخذت أدرك كم أنّ تيكلا قصيرة. في صور طفولتها، كانت الأمور تبدو مختلفة، لأنّها كبرت دفعةً واحدةً ووصلت في الرابعة عشرة من عمرها إلى طولها كبالغة. لكن الآن، باتت عيناها تقريباً في مستوى عينيّ، وفي ذلك اليوم انتابتني الرغبة في هدم الجدار الذي يفصل بيننا لأضمّها، لأسرّح شعرها، لأغسل بالملح والماء حمرة التزيين عن خدّيها! أيّ ألمٍ في أن تبقى دائماً مسافةٌ بيننا! ولا سيما عندما أشعر بمثل هذا الألم! «قتلة!»، «قتلة!» في ذلك اليوم، عدتُ بالقطار ويداي مخضّبتان

بالدم من دون أن أنتظر أوريليا التي لم أرها ثانيةً إلا في اليوم التالي في المدرسة، عذبةً ولم تتغيّر، تجهد للتخفيف من تعقيد الأشهُر التي نمضيها هناك.

– لا تفكّري فيها بعد الآن. لقد عانت إلى حدّ أنها تهرف أحياناً. صدّقيني، لقد بكت كثيراً وأسِفت لانفعالها. لكنك كنت قد أصبحتِ بعيدة!

أجل، على الرغم ممّا كنت أعتقد أنّه قلّة حبٍّ مني لتيكلا، فقد تمنّيت في تلك اللحظة أن أضمّها، أن أوقظ لمرّةٍ وميضاً من العاطفة في عينيها اللتين تحتفظان من فوق رأسي بحنانهما لبيير لوفاسور، وأن أهمس وأنا متكوّرةٌ في زاوية عنقها المحظورة عليّ: «أخبريني عن حياتك! احكي لي عن جرائمك، الكبيرة منها والصغيرة! عن خطاياك بسبب ما فعلتِه وما أحجمتِ عن فعله! عن خذلاناتك، عن خياناتك، عن فظائعك العظمى أو الصغرى! عن الأفخاخ التي وقعتِ فيها ورأسك نحو الأسفل! عن الجبال التي عجزتِ عن رفعها! عن الوحوش التي ابتلعت شمسك! احكي لي لكيلا أكون متفكّكةً مثلك عندما أصبح في عمرك!».

بدلاً من ذلك، عاد بيير لوفاسور من نهار عملٍ مثقَلٍ بالأعباء، سكب لنفسه كأساً من الويسكي وهو يتحدّث إلينا على نحوٍ ظريفٍ عن اثنين أو ثلاثةٍ من مرضاه، وأنهى حديثه بدعوتنا إلى أن نرى مجدداً فيلمه المفضّل «إيزي رايدر»!

نزل نبأ رحيلي على أوريليا نزول الصاعقة، إلى حدّ أنّها لم تعد تولي أيّ اهتمامٍ بشرح النصوص المثير للشفقة الذي كنا نقوم به.

«نستطيع القول إنّ لامارتين في هذه القصيدة يُظهِر لنا أنّ الطبيعة تستطيع أن تقدّم لنا السلوان عن عذاباتنا».

أخذت تذكّرني بما بقي غامضاً من مسائل إعادة تركيبنا للأحداث، ويجب أن أحصل على توضيحاتٍ لها.

- تؤكّد أمي أنّها ذات مرةٍ يئست من سلوكي في البيت، ومن الحرب القائمة بين زوج أمي وبيني، إلى درجة أنّها كتبت إلى لابوانت، بل وأرسلت صورةً لي وأنا أتناول القربان المقدّس. المفروض أنّ ذلك حدث في عام 1960 أو 1961. هل تلقّوا تلك الرسالة؟ ما الذي حدث لها؟

- يجب أن تحصلي على سجلٍّ مدنيٍّ دقيق لوالدة جدي. تقولون ببساطةٍ إنها كانت زنجيةً إنكليزيةً عرفها في بنما! لديّ إذاً أقارب في بنما؟ في جزيرةٍ إنكليزية؟ معرفة ذلك أمرٌ مهمٌّ بالنسبة إليّ!

وفي نهاية المطاف، أعادت أوريليا، الطيّبة والعذبة والتي لا يقلّ جمالها عن طيبتها وتعفو عن الإساءات، كتابة رسالةٍ مطوّلةٍ إلى جدّي يعقوب ثلاث مرات، وملأتها أيضاً بالصور! ثمّ في نهاية ذلك الجهد كلّه، أجهشت بالبكاء:

- سأعود إلى بلدنا، إلى غوادلوب. قريباً، قريباً!

.15

واصل المسنّون الذين أبقوا في ذاكرتهم أنّ يعقوب وجان خرجا من بطن الأم الصغيرة إيلاييز استغرابهم:

- هل تستطيع شجرةٌ حمل ثمرتين مختلفتين؟ هل يمكن أن نرى جنباً إلى جنبٍ على الغصن عينه ثمرة خبزٍ وحبّة كستناء؟

كيف أمكن أن يكون جان، الشهيد الذي أخذ حتى أولئك الذين

يكرهون كلمة «Lendependans» يبجّلونه ويضعونه على قدم المساواة مع سلفادور أليندي أو وولتر رودني، شقيقاً ليعقوب، صاحب الدكّان المجرّد من المشاعر؟ فلأنّه يجب على المرء أن يساير زمانه، مثلما كانت فلورا تقول، ونتيجة الأضرار التي أُصيب بها يعقوب بسبب اللاكو، انتهى به الأمر إلى بيعه للبلدية التي كانت تشتري ضمن مشاريعها العمرانية بعض الأراضي. بدلاً من ذلك المسكن المتهاوي، أنشأت البلدية إذاً تلك الأقفاص الخاصة بالأرانب، المصنوعة بالخرسانة المسلّحة، والتي تُطلق عليها تسمية المساكن الشعبية. في البدايات، سارع جميع من يستطيعون دفع إيجارٍ شهريٍ للسكن في المباني الجديدة، لأنّه يكفي فيها الضغط على زرٍّ كي تأتي الساحرة الكهرباء، وشدّ حبلٍ لطرد ما اعتادوا على حمله على ظهر رجلٍ حتى حفرة الفضلات، وفتح صنبورٍ كي يظهر نبعٌ بارد. لكنّ الآمال خابت بسرعةٍ كبيرةٍ عندما أعادت الأعطال المتواصلة في التيار الكهربائي المجدَ للشمعة القديمة، بعد أن أُزيحت قبل الأوان إلى مرتبةٍ ثانوية، وسُدّت المراحيض فباتت رائحة الهواء نتنة، ورفضت الصنابير التنقيط قبل حلكة منتصف الليل. يا حسرتاه على كوخ الزمن الغابر، المصنوع من الخشب الشمالي!

على الرغم من الانتقادات القادمة من كلّ حدبٍ وصوب، من الوطنيين والاشتراكيين وأنصار ديغول والوسطيين (وليس من الشيوعيين بطبيعة الحال! فقد استولوا على المدينة قبل خمسةٍ وعشرين عاماً!)، اشترى يعقوب سراً الكتلة C من مجمّع الأيكة الساحلية الواقع على بعد خطوتين من جسر لاغابار الجديد، وأعاد تأجيرها شقةً فشقة بسعرٍ مرتفع. وعلى الرغم من شجب الصحف لسلوك هذا الشايلوك (مرةً أخرى!)، فقد كان يقبض كلّ شهرٍ مبلغاً معتبراً!

يقول الناس إنّ تجمّعاً من المستأجرين الغاضبين بشدّةٍ هو الذي سعى للانتقام. لكن ما من برهانٍ على ذلك!

على كلّ حال، بعد ظهر يوم سبت، في الساعة التي يكون فيها يعقوب جالساً في الظلّ على شرفته وهو يقرأ عدداً قديماً من مجلة «لابريزانس أفريكين»، تركته تيكلا أثناء مرورها قبل سنواتٍ من ذلك، تلقّى فطيرةً بجوز الهند وشريحةً رائعةً من كعكةٍ على صينيةٍ جميلةٍ يغطّيها سماطٌ مطرّز، أرسلها أحد الزبائن. فوجئ يعقوب، لأنّ الذين يُبدون له المودّة قلائل، لكنّه التهم الفطيرة وشريحة الكعكة من دون أن تراوده الشكوك. بعد ساعتين، أصيب بالإقياء والإسهال والآلام المبرحة إلى درجة أنّه بات هنالك خطرٌ على حياته، وأنّه طُلب من الطبيب والخوري في آنٍ معاً أن يأتيا. وصل الثاني قبل الأول، وعندما وصف ليعقوب الذي لم يكن يسمعه أصلاً لهب جهنّم الذي ينتظر الزناة، زوّجه شرعياً بفلورا. وأدّى ذلك إلى أن يغيّر كلٌّ من رودريغ وكارميليان اللذين كانا في السابعة والعشرين والرابعة والعشرين من عمرهما على التتالي اسمه ويتخذ لنفسه اسم لوي. وصلت آثار التغيير إلى مولود جديد رُزق به رودريغ الذي تزوّج فتاةً بالغة الجمال من ماري غالانت، وهي أصلاً قريبةٌ بعيدةٌ لجدّتي تيما وتُدعى إيليزا بيكوك.

وفق التعبير المتعارف عليه، خابت كلّ الجهود التي بذلتها الشرطة للعثور على أثر من قاموا بذلك التصرّف السيّئ الذي كاد يودي بحياة رجل.

عندما وصلتُ إذاً إلى لابوانت، كان جدّي يعقوب يطوف في منامته الكبيرة عليه، وقد مُدَّ على جلده الأسود ضمادٌ من الكلس والكبريت على نحوٍ مثيرٍ للاستغراب، لكنّه كان قادراً تماماً على البقاء جالساً في سريره

وهو يستند إلى جبلٍ من الوسادات. أمّا فلورا لاكور، عفواً فلورا لوي التي منحتها رتبتها كزوجة شرعية هيئةً جميلةً مرتاحة، فكانت جالسةً قربه وهي تمرّر بين أصابعها حبّات مسبحة، لأنّها لم تنتهِ من شكر الله على أنّه حفظ لها زوجها الذي تحبّه كما هو.

حكيا لي أدقّ تفاصيل هذا الحدث الذي ستحفظه ذاكرتنا، وسيحتلّ مكاناً مختاراً في تاريخنا العائلي. كيف وصلت صينية ذات مظهر بريء، قدّمتها خلاسيةٌ سوداء هنديةٌ نحيلة ترتدي ثوباً أصفر وتتكلّم الفرنسية بطلاقة. كيف مدّت تلك البنت وجنتها بأدبٍ كي تتلقّى قبلةً، قبل أن تشرح أنّ ذلك اليوم يصادف عيد ميلاد ابن سيّدها... وهنا يأتي خلطٌ غير مفهوم... وأنّه طُلب منها أن تحمل الحلوى إلى السيّد لوي. لم يكن أحدٌ يستطيع التخفيف عن فلورا:

– عزيزتي، لا أعلم ما الذي أصابني في ذلك اليوم. لم يجفل قلبي لحظةً واحدةً كي أرتاب! كان وجه تلك الطفلة بالغ العذوبة والنزاهة. كنتِ ستمنحينها الثقة بسهولة. في حين كان يجب أن أسألها عن اسم الشخص الذي أرسلها. ثمّ حين يقضي الله أمراً، يكون قد قضاه! لم يستحسن يعقوب يوماً الحلويات! هو لا يأكل السكر مع الجنتوم الإفريقي ولا الدوسليه ولا التشاديك. ويكاد لا يضع ملعقة سكر في قهوته. والحال أنّه هذه المرة التهم الفطيرة وشريحة الكعكة التهاماً! التهمهما قبل أن يتسنّى الوقت لي لأقول «أوف». نظّف كلّ شيء! لكن من كان يتوقّع وجود أناسٍ في لابوانت تأتيهم أفكارٌ كهذه! أنا أتساءل ما إن لم يكن أحدٌ قد أرسل ذلك من أجل ديودونيه! فزوجته مونيك في مرحلةٍ متقدمةٍ من حملها. لذلك هو يتغدّى معنا. لا يعود إلى بيرجيت حيث يسكنان. يتركها ترتاح قليلاً.

وأحياناً، ولا سيما عندما يكون اليومُ السبتَ ولا تكون هنالك أشغال، يبقى حتى الرابعة أو الخامسة وهو يتناقش مع عمّه. لا تنسي أنّ يعقوب هو الذي ربّى ديودونيه! فأبوه جان كان منشغلاً بسياسته وكتبه! يعقوب ربّى كلّ أطفال أخيه، واحداً بعد الآخر! كلّ شهر، تذهب تحويلاتٌ لهذا أو تلك! بل هنالك واحدٌ منهم يدرس في... في أميركا. لذلك يا عزيزتي إذا أتى أحدهم ليقول أمامي إنّ هذا الرجل ليس طيّباً، فسأعرف كيف أردّ عليه، أتسمعينني؟ يعقوب ليس وسيماً، كلا، لقد نسيته الوسامة عرَضاً، لكنّه طيّب. هو من طينةٍ طيّبة.

عند هذه النقطة، مسحت فلورا دمعةً واستردّت أنفاسها، وتابعت مجدّداً:

- أجل، كلّما فكّرت في الأمر، رأيت أنّ تلك الصينية أُرسلت من أجل ديودونيه! مع السياسة، يصبح الناس كالكلاب المسعورة. مستعدّين للعضّ حتى سفح الدم، مستعدّين ليقتل بعضهم بعضاً! إنهم بالتأكيد أناسٌ يزعجهم إصراره على الاستقلال. يا عزيزتي، لقد سبق أن تسبّبت لنا قضية الاستقلال هذه بمشكلات! ونحن لا نزال في البداية! لقد قلت لديودونيه: «اسمع، عندما تصبحون مستعدّين، أخبِرني كي أحزم متاعي!»، لديّ أختٌ تعيش في فرنسا في ماكون، وسأذهب لأعيش عندها!

ثمّ شابت عينيها الكبيرتين المضيئتين والحنونتين فور أن تقعا عليّ ظلالٌ من الشرّ، في حين أصبح صوتها حاقداً بالمعاني المستترة:

- كيف حال أمّك؟

- بخير! بخير!

- وزوجها؟



- بخير! بخير!

فقالت بصوتٍ يرتفع وينخفض: «عسى أن يدوم ذلك!».

صحيحٌ أنّ فلورا كانت تكره تيكلا مثلما يكره الملح الماء، لكنّها لم تكن تستطيع أن تنتقص من شأن أمٍّ أمام طفلتها، فاكتفت بتنهّداتٍ محمّلةٍ بالمعاني.

وأنا نفسي أُصبت بإحساسٍ غامضٍ وجديدٍ بالواجب فلم أقل شيئاً، وأنا على يقينٍ من أنني سأجد أذنيها متنبّهتين ومستعدّتين للموافقة.

كان بيت شارع فوبور دينري يفوح بأكمله بروائح الأنجدان والتربنتين وصبغة الراتنج الجاوي المضافة إلى ألف نوعٍ من الأوراق والجذور، لأنّ فلورا لم تكن تثق مطلقاً بالأطبّاء، فعالجت جدّي يعقوب بطريقتها، تفركه وتدهنه وتضع له العلقات واللبخات والكمادات.

علاوةً على فلورا، استخدمت جميع نساء العائلة وصفاتهنّ الطبية. فابنة العم ماروسيا الصغيرة التي تواصلت مناداتها بهذا اللقب على الرغم من أنها جدّةٌ لحفيدين، بسبب حملها لاسم أمها التي تنام منذ سنواتٍ قرب زوجها معلّم صنع الأشرعة في مقبرة بورت لويس البحرية، صارت تأتي كلّ أحد في منتصف النهار تماماً وهي تحمل معها علاجاً عجائبياً مخبّأً في سلّة، وتغلق على نفسها الباب مع فلورا لتصف لها خواصه. ثمّ تصعد إلى غرفة جدي ولا تنزل منها إلا بعد ساعةٍ لتسخين فطائر المحار التي تطنب في مديح مذاقها، وتنظر إليّ وأنا آكلها بحزن.

- هذه الطفلة رأت أموراً لم ترها عيناي. لكنّها لا تعرف كيف تجلس إلى المائدة!

- والأسباب موجودةٌ يا عزيزتي!

وتتنهّد فلورا.

ما إن خرجنا من القلق على صحّة جدّي، حتّى أتى قلقٌ آخر ليقضّ مضاجع العائلة. ففي حين انفجرت قنابل (للأسف! بات ذلك أكثر فأكثر شيوعاً في بلادنا، وكأنّ دم عمّ أمي جان أخصب!) فأصابت بالجروح (الطفيفة وللّه الشكر!) سائحين إيطاليين ضاعا في مقهى «ريشبانس»، رفض ديودونيه التوقّف على حاجزٍ للشرطة، وتجاوز دور ذوي القبّعات الحمراء! كان ذلك كافياً كي يوضع في السجن بعد القبض عليه قرب «تروا شومان أبيم»!

(في الحقيقة، لم يجد ديودونيه في تلك الحادثة الفرصةَ التي ربما كان يبحث عنها، وسرعان ما أُخلي سبيله. على الرغم من ذلك، بلغ الانفعال أقصاه لبضع ساعات، إذ تخيّلته العائلة ممدّداً إلى جانب أبيه ليرقد رقاده!).

هذا كلّه، إضافةً إلى فكرة أنّ بعض الناس يكرهون جدي إلى درجة الرغبة في تسريع نهايته، ومع ضعف أعضائه التي أصابتها هزّةٌ قاسية، أثّر في مزاجه تأثيراً كبيراً. فبات يهزّ برأسه ووجنتاه تلتمعان بفعل الدموع، ويكرّر كلامه الأزلي: «في هذا البلد، لا يريدون أن ينجح الزنوج! يريدون حتى هذا اليوم أن يروهم يعملون في قصب السكر وعلى رؤوسهم قبّعاتٌ مصنوعة من الكاذي!».

فأغامر قائلةً: «ربما لا يقبلون أن يفعل الزنوج ما يفعله الآخرون في الدوس على أقرانهم من أجل النجاح؟».

فيفغر فاه بفعل المفاجأة، ثم يتأوّه: «من أين أتيتِ بهذه الحماقات؟ تغيّرتِ كثيراً يا كوكو! هل بدأتِ أنت أيضاً تقرئين ماركس هذا؟».

بانتظار استعادته العافية، وجدتُ صعوبةً كبيرةً في الاحتفاظ إلى

النهاية بالخبر السارّ الخاصّ بنجاحي حيث أخفق هو، في ألا أتحدّث له عن أوريليا. لكنّني كنت أنوي التلذّذ بذلك الخبر، الابتهاج به معه. لم أشأ أن أقدّمه إلى ذهنه الذي لا يزال ضعيفاً بقدر ضعف جسده المغذّى بلحم الفرّوج الأبيض المرشوش بالشاي المحلّيّ! فرغ صبري مثل أمّ طفلٍ غبيّ، أخذت أراقبه وأقيس مدى تحسّنه، قلقةً من بقائه في بعض الأيام متكوّراً على نفسه كجنينٍ تحت ملاءاته. أتى اليوم الذي نزل فيه إلى صالة الطعام، تسنده فلورا من اليمين وكارميليان من اليسار، فعلمتُ أنّ وقت الاعتراف اقترب. لقد علمتُ، وأنا أعرف جدّي بالحبّ والحدس، أنّ هذا المرض، وعلى الرغم من خاتمته السعيدة، قد عيّن بالنسبة إليه بداية النهاية. فمنذ تلك الحادثة، لم يعد يهتمّ بمتجره وبالشقق التي يؤجّرها وبتجارته التي احتلت مكانةً عظيمةً في حياته، وتَخفَّف من كلّ الهمّ الذي تسبّب به، ووضعه على أكتاف رودريغ وكارميليان، بعد أن بدأ يعتبرهما «ابنَيه» وليس «لقيطَيه». وفي النهاية، تخلّى عن لابوانت، حيث تبصق السيارات المتزايدة العدد قدراً مفرطاً من أحادي أوكسيد الكربون في رأيه، وانسحب مثل أبيه، السوبارو، إلى بيت الاصطياف في جوستون. هناك، لم يعد يلاحق العمّال الزراعيين، فأخذ ينصب بنفسه دعامات البطاطا الحلوة ويقلّم شجيرات الكرمة ويقطف ثمار البازلاء الهندية، إلى جانب فلورا المتيقّظة التي ترغي وتزبد بسبب فضلات دجاجاته.

صحيحٌ أنّ جدّي كان برفقةٍ يوميةٍ ودائمة مع الأم الصغيرة إيلاييز وأخيه المحبوب جان. صحيحٌ أنّه التقى بحبيبته تيما، الناعمة كقماش الساتان. صحيحٌ أنّه كان يشعر بالوجود الحزين لأبيه يحوم حوله، خجِلاً من قساوته أثناء حياته، يحاول أحياناً بدء محادثةٍ بينهما. لكن كان هنالك أمران يحزنانه، يلحّان عليه، فيسبغان الكآبة على أيام شيخوخته.

بدايةً غياب عزيزته تيكلا. فيتأوّه عشر مراتٍ في اليوم: «الماذا، لماذا أخرجت هذه الطفلة غوادلوب من قلبها؟».

وفي كلّ مرّة، ينتاب فلورا غضبٌ شديد: «هذا يكفي! هل ستلتهم روحك من أجل تلك الجاحدة؟».

وثانياً، نهاية العائلة. أين ذلك الزمن الذي كانت تجتمع فيه أخوات ألبير وأزواجهنّ وأنسباؤهن وأطفالهن يوم الأحد لتذوّق أطباق تيودورا، ثمّ أطباق الأم الصغيرة إيلاييز؟ حين كانت الولادات والزيجات ذريعةً لتناول الطعام والشراب بشراهة؟ وكانت الوفيات ذرائع للسهر طوال الليل؟ باستثناء ديودونيه من دون مونيك ولا أطفالهما، نادرون أولئك الذين كانوا يذهبون إلى جوستون ويجلسون على الرواق مدةً تكفي لحديثٍ مطوّل. وبات الولْدان يأتون لمواجهة النور من دون علمه. كذلك، أخذت الأجساد المتعبة تنزلق في عتمة الموت، وكثيراً ما لا يعلم بذلك إلا وهو يستمع إلى إعلانات النعي بعد نشرة الأخبار. آنذاك يبكي:

- ها أنذا أشبه بسلطعونٍ ذكرٍ في جحره!

في نهاية حياته، أخذ يتحدّث باستفاضةٍ عن إقامته في نيويورك، وهي فاصل راحةٍ في حياته المتعبة. يتحدّث عن ماركوس غارفي الذي لم يلتقِ به أبداً وكأنّه من المعارف القدامى:

- هو الذي قال لي: «عد إلى بلدك واجعل اسمي يتألّق!». وهذا هو السبب في أنني أردت تأسيس حزب الزنوج الجدد. «سأعلّم الزنوج أن يروا الجمال داخلهم». يا إلهي!

عندما أتى الموت ليأخذه، كانت تيكلا في بانكوك برفقة بيير لوفاسور لحضور مؤتمرٍ طبّيّ. لذلك اضطرّ التابوت لانتظارها أربعة أيام وأربع

ليالٍ، وقد وُضع بنباهةٍ في مكانٍ بارد، تحيط به رائحة الشموع الذائبة والأزهار الذابلة، بفضل نظامٍ طوّرته مؤسسة دفن الموتى التي يمتلكها الأبناء إيركول. سارت بعينين جافتين خلف النعش، وعادت إلى طائرة البوينغ رافضةً التحدّث عن تقاسم التركة مع فلورا. لكنّها وجدت وسيلةً لقضاء بضعة أيام في سان مارتان مع جيسنير، واستنكر الجميع ذلك!

أمّا سيرج الذي لم يعد يتعاطى مع يعقوب، فقد نزل من غوبيير، إذ كان لا يزال مستشارها البلدي وقريباً من حزب ديغول، ورافقه إلى المقبرة، بوجهٍ يبدو عليه الحداد بقدر ما تدلّ عليه ملابس فلورا. قدّم لها العزاء وهو يقبّلها ويجهش بالبكاء:

– لو كان لونه مغايراً ولو وُلد في بلدٍ آخر، لنجح نجاحاً باهراً!

يا له من تكريمٍ مأتمي غريب بالنسبة إلى هذا الرجل الذي جمع في قلبٍ واحدٍ الطيبة الساذجة والبخل الغبيّ، المثالية والحقارة، حبّ أقاربه وحسّ الاستغلال الضاري!

.16

بقيت عينا جدّي يعقوب مثبّتين لوقتٍ طويل، طويل، على نقطةٍ في الفضاء، ثمّ عادتا لتقعا عليّ: «هل قالت "قتَلة"؟ هل هذا ما قالته؟!».

بحثت عن تبديدٍ لهذا الحزن الذي رأيته مستعدّاً ليفيض على وجنتيه:

– الأحرى بك أن تقرأ رسالة أوريليا!

لكنه واصل التمتمة وكأنّه يتلذّذ بقسوة الكلمة والألم الذي تتسبّب به لديه: «قتلة. قتلة. تلك هي!».

ثمّ سقط رأسه ثانيةً إلى الأمام وأجهش بالبكاء. تراجعت إلى الخلف وقد ضايقني ذلك الإجهاش من شخصٍ راشد. في كلّ الأحوال، كان ديودونيه ينتظرني ليصطحبني إلى بيته في بيرجيت.

كان ديودونيه يكره ما فعلوه بلابوانت، المساكن الشعبية ذات العوارض المتوازية وما إلى ذلك، وأراد أن يبقى في منطقة بوتي بور تلك حيث أمضى عطلاته عندما كان طفلاً، فاشترى مسكناً قديماً أعاد له روعته بزراعة العشب على الطريقة الإنكليزية، وجلْب طيور القيق والطواويس، ووضع التماثيل الحجرية، وزراعة أشجار الحماية وتربية كلاب الحراسة. كان الأشخاص الذين يمرّون على الطريق في الحافلات السريعة يهزّون رؤوسهم:

– انظروا إلى هذا! عندما يسكن الوطنيون في أكواخ، آنذاك، سآخذهم على محمل الجدّ!

ديودونيه واحدٌ من أفراد العائلة النادرين الذين يحبّون تيكلا، ولا يملّ من أن يقصّ عليّ كيف حمته أثناء طفولته، من تيما ومن خادمات تيما، ومن الأطفال في المدرسة الثانوية الذين أطلقوا عليه لقب «زنجي بنّي»، ومن ماريتا الخلاسية التي تضع بين يديه على الدوام فرشاة تنظيف الأرض، ثمّ يخلص إلى القول: «تيكلا شخصٌ استثنائي! لو أنها تمكّنت من أن تكتب لنا كلّ تجاربها!».

فأضحك ساخرةً بيني وبين نفسي: أمّي كاتبة! لا سمح الله!

كان في بيت ديودونيه ارتباكٌ كبير، لأنّ مونيك أنجبت جان لوي جديداً، لا يدرك عبء اسم الشهيد الذي يحمله، ويصرخ مثل أيّ وليدٍ في مهده. من أجل تلك المناسبة، أتى الجدّان من كليرمون فيران، وتساءلتُ كيف ستكون قسمات وجه السلَف ألبير وهو الذي أقصى بيرت بكلّ

صرامةٍ من أجل خطأٍ مشابهٍ لخطأ ديودونيه و.. تيكلا! وعندما أسررت بأفكاري (الساذجة) لديودونيه، استفاض في الكلام لأنّه استقى من مهنته ميلاً مزعجاً إلى حدٍّ ما للكلام المنمّق:

- يثبت لنا العلماء أنّ الأعراق غير موجودة. لا يوجد سوى الثقافات. لقد تحرّك أهالينا وأجدادنا مستندين إلى فكرةٍ خاطئةٍ سوف تفنى من تلقاء ذاتها. لكن في الحالة التي تشغلنا، أعتقد أنّ سلَفنا، على الرغم من كلّ ما اتسم به من وضاعةٍ ونتانةٍ في عيون البرجوازية الصغيرة والمتوسطة الراسخة، أظهر أحكاماً مسبقةً طبقية! لو لم تكن ماري عاملة مصنع لتغيّر وجه العالم!

صحيحٌ أم خطأ؟ لم تكن سنواتي الأربع عشرة والنصف قادرةً على الحكم!

أجل، ديودونيه هو الذي وضع في قلبي ذلك الحبّ لمنطقة بوتي بور. ليست فيها مواقع مذهلة. ليست فيها جمالياتٌ تقطع الأنفاس. فيها سحرٌ منتشر. يمكن أن يعبرها المسافر الذي يستعجل الوصول إلى باس تير من دون أن ينتبه إليها. هنا، قصب السكر ليس ملكاً. فهو يتقاسم مملكته مع البطاطا الحلوة الملتفّة على دعاماتها وأشجار الموز المبرنقة الأوراق. بين الحقول ينام نهرٌ أو نهران. وكنت أقول في نفسي إنني إذا ما عدتُ ذات يومٍ لأعيش «في البلد»، فهناك سأغرس جذوري!

عندما كنت أتمشّى في دروب بيرجيت، كان الفلّاحون يتفحّصونني بقسوة، فتترك النساء المكواة على الجمر الأحمر، وينسى الرجال رمي أوراق الشدّة وفي عيونهم أقرأ التساؤل عينه.

- *A ki ta la enko?*(*)

(*) «من أين أتت هذه أيضاً؟».

فمثلما لم يحبّ فلّاحو جوستون السوبارو الذي لم يكن يستحيي من استغلالهم، كذلك لم يحب فلّاحو بيرجيت ديودونيه الذي يعلن أنّه ليس ثمة ما يشغل قلبه سوى همومهم. ليس سهلاً أن تكسب الفلّاحين إلى صفّك! فهم يرتابون تقليدياً بأولئك السادة القادمين من المدينة، زنوجاً كانوا أم خلاسيين، لا فارق بالنسبة إليهم! يرتابون بأولئك السادة الذين هم كما يجب! حتى إذا خلعوا ستراتهم واستمعوا إلى الحكايات في السهرات! لقد شكّ فلّاحو بيرجيت بأنّ ديودونيه يشرب كأساً صرفاً بعد آخر من دون أن يكون عطشان، ولاموه على أنّه لا يتحدّث الكريولية. بل مضى بعضهم إلى حدّ التلميح إلى أنّه دافع عن فلّاحي سورلان من أجل أن يتحدّث الناس عنه بقدر ما تحدّثوا عن أبيه! ذاك كان وطنياً حقيقياً! (كأنّه ليس هنالك وطني حقيقي إلا إذا كان ميّتاً!).

السيّدة نيرمال، مديرة المدرسة المتقاعدة التي كانت تمضي بقية حياتها بعذوبةٍ قرب زوجها المفتّش، في الدارة التي بنياها بمدّخراتهما وهرب منها الأبناء ليحصلوا على التدريب في إفريقيا، لم تعد تستطيع تمالك نفسها، فنادتني ذات يوم من فوق سياج الجهنمية: «ابنة من أنت؟».

في البداية، كان سؤالي على هذا النحو يعني أن أطرح السؤال على نفسي، لأنّ جوابي يكشف النصف الغامض والمفتوح بصدد هويتي. أبٌ مجهول. غائب. هارب. غير مبالٍ. دنيء. أمّا الآن، فلم أعد أكترث بهذا الفراغ في جنبي! إذ إنّ جدي يعقوب وفلورا وديودونيه والآخرين ملؤوه بكمٍّ كبيرٍ من الحبّ! لذلك، أجبت بجراءة: «أنا الابنة الطبيعية لتيكلا، وهي نفسها البنت الشرعية والمرغوبة طويلاً لتيما ويعقوب، وهو نفسه الابن المفضّل لأحد الجانبين وغير المحبوب من الجانب الآخر لكلٍّ

من الأم الصغيرة إيلاييز الملقّبة بابنة الله، وألبير الملقّب بالسوبارو الذي ذهب ليسيل عرقه ويتألم ألمه في بنما، ليكسب الذهب ويكتشف في نهاية المطاف أنّ الذهب لا يشتري شيئاً!».

وتركتها تضيع في السياقات. لم أشعر بالعار. فقد غرستُ عَلَمي في الجزيرة.

أتيتُ لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في بيرجيت، لكنّني بقيت أسبوعاً، إذ استُبقيت قرب مونيك التي لم تتمكّن أمها من مواساتها، ولا من جعلها تهتم بأولى ابتسامات ابنها وبعلامات ذكائه المبكر. فالأم الجديدة لم تتوقّف عن الأنين:

– من تزوّجته ليس رجلاً يا كوكو، إنه تيّار هواء! ألا تعلمين أنه ينسى أعياد زواجنا؟ أنه لم يكن موجوداً عندما شعرت بأولى الآلام واضطررت لاستدعاء فيران، صاحب المرأب؟ أنا لا أراه طوال النهار. وعندما يكون هنا، تأتي معه دزينة رجالٍ من أجل اجتماعاتٍ مزعومةٍ لا تنتهي...

أقول (من دون أن أكون مقتنعةً حقاً): «هذا هو الوضع. إنّه همّ البلاد...».

فتهزّ كتفيها: «ما الذي تقولينه يا كوكو؟ ألسنا نحن النساء من يبني البلد ويهدمه؟ ما داموا يزيحوننا جانباً، فلن يتوصّلوا إلى شيء! وستبقى غوادلوب لوقتٍ طويلٍ طويل آخرَ مستعمرة!».

بعد أسبوعين، وصحيحٌ أنني لم أرَ ديودونيه أبداً، ها هي ذي سيارة السيتروين من طراز «DS 19»، يغسلها بالصابون ثم برشّاشٍ من الماء ويلمّعها بعد ظهر كلّ أحدٍ شباب العائلة، تتوقّف أمام البوابة، ويعلن القريب الفقير الذي يشتغل سائقاً عليها أنّ جدّي يطلبني. على نحوٍ عاجل.

.17

وجدته ينتظرني واقفاً على عتبة الصالة، مرتدياً إحدى أفضل بزّاته، بزّة سوداء مخططة بالأبيض، ومنتعلاً جزمةً قصيرةً سوداء، وهو ما منحه أناقة الحانوتي، ووجنتاه حليقتان حلاقةً ناعمة، لكنّهما كانتا رغم ذلك خشنتين، تحت قبّعةٍ من اللباد، لها حافةٌ عريضةٌ تنشر الظلّ على عينيه المترعتين بالحزن. ابتهجت عندما رأيته بهذه الهيئة المقدامة، إذ في آخر لقاءٍ لي به، بدا كأنّه هيكلٌ عظمي في منامته المخططة. قال لي بنبرة غضبٍ غير معهودةٍ لديه: «لماذا بقيت كلّ هذا الوقت عند ديودونيه؟ أنت تعلمين جيداً أنّه ثمّة أمورٌ يجب القيام بها!».

ومن فوره، سلك وأنا على أثره الطريق الذي لطالما سرنا فيه، طريق المقبرة، بتوقّفاته الإلزامية. عند سيرافان شيراديو. عند ميريتا بلانشدان، وفي الختام عند ألتاغراس سوفوكل التي غمست هذه المرة أصابعها المعروقة في ثدييّ الناهدين وصاحت: «إذاً يا عزيزتي، أنا أشعر بالبراعم منذ الآن. متى الأزهار؟!».

لدى خروجنا من بيت هذه الأخيرة، وسط الشارع الذي تعبره ركضاً تحت أنف السيارات والعربات الآلية والحافلات السريعة أسرابٌ من الفتيات الصغيرات، بفراشاتٍ تملأ جدائلهن، ومن الصبيان المشاكسين، لأنّ ذلك كان وقت الخروج من مدرسة سان جول، وكانوا يتقدّمون مطيعين بقيادة راهبةٍ حتى البوّابات المطلية حديثاً باللون الأخضر الفاتح، بدأ يكلّمني بصوته الصدئ:

– سألت الأم الصغيرة إيلاييز. وهي التي طلبت مني ألّا أشغل نفسي.

المهم هو غفران الموتى. فإذا ما غفروا لنا، هذا هو الأمر الأساسي! هي تستطيع أن تطلق علينا الصفات التي تريد! «قتلة» أو أيّ شيء. أعلم ما تعتقدينه. تعتقدين أنّها على حقّ وأنّ أبي، سلَفك، كان زنجياً رهيباً، لا قلب لديه ولا مشاعر! هذا ما كان جميع الناس في لابوانت يعتقدونه وحتى العائلة! عندما مات، لا أدري ما إن كان هنالك شخصٌ واحدٌ ذرف دمعة! بل على العكس، قال الناس: «آه، الشيطان يعود إلى جحيمه!». أنا نفسي كنت أفكّر على هذا النحو عندما كان كلّ ما أعرفه هو طعم عكازه على ظهري! ذات مرّة، كاد يفقأ عيني. هل ترين هذه العلامة؟ هو من تسبّب بها لي! ثمّ فهمت ما جرى في قلبه لجعله مرّاً كالعلقم، قاسياً كالصخر! لم أكن أعلم أنّني أنا نفسي، من يكلّمك، سأصبح مثله! لأنني أنا أيضاً حلمت في زمني! كانت الأحلام تملأ رأسي. وعندما أستيقظ، تجعل نهاري معتماً. أمّا في الليل، فتؤرّقني وتجعلني أتقلّب وأتقلّب حتى الرابعة فجراً. تبدأ الديكة في الصياح وأنا لا أزال أسبح في مياه تلك الأحلام! وهكذا، وهكذا... عندما فهمت أنّه لن تكون لي حياةٌ أخرى غير تلك التي أعيشها، حلمت أحلامي من أجل تيكلا. وآنذاك، باختصار، فلنتجاوز ذلك! هل تعتقدين أنها سعيدة مع رجلها الأبيض؟ لن يُكشف السرّ. يا للحياة! دعيني أخبرك بأنني أفهم أبي، سلَفك، عندما تنتابني هذه الأحاسيس. أنت ما زلت يافعةً جداً. لقد قال في نفسه: «سيفعل ابني ما لم أفعله، سيسير حيث لم أسر! ستسطع شمسه...»، وهكذا، وهكذا. ما أقوله لك الآن فهمته من الأم الصغيرة إيلاييز. لأنني أنا أيضاً كنت أثور عندما أفكّر في هذين الميّتين الاثنين! الميّتين بعيداً. لقد فهمت على الدوام عزيزها ألبير لأنّها أحبّته. لأنّ هذا ما يعنيه أن يحبّ المرء: أن يفهم! أن يفهم ما يجعل الشخص سيّئاً وكذّاباً ويحبّه رغم ذلك. أجل، الأم الصغيرة إيلاييز هي التي شرحت

لي أنّ ما يهمّ هو صفحهما. صفحهما هما. هما وحدهما! وضعتُ ركبتيّ أرضاً لأطلبه منهما. أشعلت شموعاً. سكبت الماء المبارك ثمّ أتتني هذه الفكرة. سترين...

كنا قد وصلنا.

صادفنا موكب دفنٍ يخرج من المقبرة. كان عازفو الفرقة الموسيقية يتفرّقون ويركضون مستعجلين، مستعجلين خلف حافلاتهم السريعة، والأصدقاء يتبعثرون، لأنّ الوقت بدأ يتأخر، تاركين الأرملة بحدادٍ كاملٍ واليتامى يسلكون طريق عزلتهم. ومثلما يحدث كلّما دخل يعقوب إلى مدينة موتاه، أصبح أكثر شباباً وفقد ظهره المحدودب حدبته، باتت خطواته أكثر خفّةً، بل مرفرفةً. سارع كالطفل المستعجل لقاء أمه ورائحة قبلتها الزكية. أمّا أنا، فتبعته بسرعتي الخاصة، أَمْيَلَ إلى الخوف كما في كلّ مرةٍ، بسبب تلك الواجهات الجنائزية المرتفعة تحت القبّة السوداء التي تشكّلها أشجار الكزوارينة.

يحتلّ مدفن عائلة لوي زاوية الزقاق رقم 4. وقد بنى ألبير لعزيزته إيلاييز، الزوجة التي لم يعرف أبداً أن يُظهر لها حبّه، تاج محلّ من المرمر جلبه بكلفةٍ مرتفعة من إيطاليا، وينتصب ضخماً خلف بوّابةٍ جديرةٍ بمتحف اللوفر، يحرسها كلبان سلوقيان حجريان. أمّا تيودورا التي رقدت بدايةً في قبرٍ متواضعٍ إلى حدٍّ ما، فقد نُقلت إلى جانب زوجة ابنها قبل أن يلتحق بها ابنها. منذ ذلك الحين، سار آل لوي جميعاً على الدرب عينه وتمدّدوا تحت البلاطة عينها إلى أبدهم.

مثلما جرت عليه عادة جدّي، بحث في جيبه عن رزمة مفاتيحه، جرّب نصف دزينةٍ منها بيدٍ نافدة الصبر قبل أن تنزلق البوّابات بهدوء، بهدوء! وبعد

أن رسم إشارة الصليب على صدره، ركع أرضاً. لكنّه لم يمكث طويلاً هذه المرّة وهو راكع، فقد نهض بسرعةٍ وقال لي: «أرأيت؟ أرأيت؟!».

ماذا؟

نظرتُ كالعمياء حولي. فأشار إلى مقدّمة القبر التي نُقش عليها موكب موتانا. بدت لي الأحرف وكأنها دُهنت مؤخراً. بالأسود على أبيض نقيّ. وبما أنني لم أرَ شيئاً إضافياً، فقد أمسكني جدّي بيدي وبدأ يعلن بصوتٍ مرتفع، وهو يضغط يدي مع كلّ اسم:

تيودورا بونافنتور لوي المولودة باسم براسدور — 1856-1925.

إيلاييز ماري أبولين لوي المولودة باسم سوفوكل — 1895-1937.

ألبير كانتان لوي — 1875-1948.

أولتيما ماري مادلين لوي المولودة باسم لوميرسييه — 1917-1969.

ألبير الملقب بيرت فورتونيه لوي — 1905-1925.

ألبير الملقب بيبير جاك لوي — 1926-1970.

جان إسماعيل تيودور لوي — 1928-1971.

- أرأيت؟ جميعهم هنا. جميعهم. لقد طلبت منهم الصفح. طلبت منهم الإذن بأن أضع اسميهما هنا. مع أسماء الآخرين. جميع الآخرين. معنا. عندنا.

بقينا وقتاً طويلاً جداً في المقبرة في تلك الأمسية!

عدا أصوات الصرير وحفيف أجنحة الخفّاشات التي تطير فوق القبور وهي مصطفّةٌ كشجر الكزوارينة، لم يكن يُسمع صوتٌ يطغى على هدير البحر في الخلفية سوى نحيب جدي. أمّا أنا، فلم أبكِ. أخذت أعيش ثانيةً

لقائي العرَضي (العرَضي؟) مع بيبير عبر صفحات ألبومٍ عائلي. الصورة المصفرّة. ومن هناك، كلّ المسار حتى هذا الموعد النهائي، أمام هذا الصرح المكرّس للموتى.

كم من الطريق مشينا منذ ذلك اللقاء الأوّل. كم من الأسئلة المطروحة. من الأسئلة المتجنّبة. من الأسئلة التي بقيت دونما إجابة. من الظلال المُزاحة. من الأمور الغامضة الجليّة. من الأمور الجليّة الغامضة. من التشربكات المفكوكة. من اللحم المدخّن المحروق. من دلاء الماء المحمولة بالعربات. إلى أن تُظهر الحقيقة جروح وجهها وندوبه. لقد آمن جدي بأنّ الحياة أقلّ أهميةً من الموت، فاعتقد أنّه سدّد ديونه. ومثلما اعتقد أنّه ضمّد جراحي بحبّه، اعتقد أنّه يستطيع تضميد الجروح التي تسبّب بها غيره. أنّه يستطيع أن يجمع أطراف الجروح المفتوحة بعضها إلى بعض. يستطيع جبر الكسور. يا له من أملٍ متوهَّم! لكن ها هو ذا إيمانه يجتاحني أنا أيضاً بدلاً من أن أضحك على هذا الساذج الأبدي.

هل يجب أن أحكي هذه الحكاية؟ هل يجب أن أدفع ديوني أنا أيضاً، حتى لو أدّى ذلك إلى أن أواجه الاستياء وأن أتسبّب بالصدمات؟ ستكون تلك حكاية أناسٍ عاديين جداً تسبّبوا على الرغم من ذلك بإراقة الدماء، بطريقتهم العادية جداً. (قتلة! هذا ما قالته!) يجب أن أحكيها، وسيكون ذلك هو النصب الذي أبنيه أنا للأموات. سيكون كتاباً مغايراً تماماً لتلك الكتب التي حلمت أمي بأن تكتبها: «الحركات الثورية في العالم الأسود» وما إلى ذلك. سيكون كتاباً خالياً من الجلّادين الكبار ومن الشهداء المبجّلين. لكن سيكون له مع ذلك وزنٌ من لحمٍ ودم. حكاية أهلي.

نهض جدّي أخيراً، أشدّ قتامةً من الليل حولنا. رسم إشارة الصليب

على صدره، ونفض بعنايةٍ ركبتيه ثمّ قال: «فلنعد إلى البيت الآن يا كوكو! ألا تعرفين فلورا؟ لا بدّ أنها قلقة».



.18

لم تنتهِ العطلة من دون حدثٍ جديرٍ بالذكر.

يوم الأحد 15 آب، زوّجت ماريتا ابنتها المفضّلة مانويلا. ليست المفضّلة لأنها تألقت في المدرسة أو أظهرت مزايا متعلّقة بالقلب. لا! المفضّلة باعتراف أمها لأنها نسيت سواد آل لوي وبشاعتهم ولم تتذكّر سوى عائلة أمها ومضت، هي الخلاسية المذهّبة ذات التكوّرات البارزة والوجه المنمّش لأنها أفرطت في النظر إلى الشمس عبر ثقوب غربالٍ وجديلتُها الشقراء تخفق في الهواء. وقد أغوت هذه الشقرة أيضاً إفريم روبير، وهو طبيبٌ شابٌ من بور لويس، انتهى الأمر به إلى طلب الزواج بها رسمياً في مشرب «اسكب دائماً». ها هي ذي ماريتا أكثر انتفاخاً من الضفدع في الحكاية، تذكّر من يريد الاستماع إليها كيف عانت وعرقت دماً وماءً لتربية أطفالها، في حين كان جان يحيك مشروعاتٍ خياليةً قبل أن يلاقي الموت الذي استحقّه في بداية نهار، وكيف ترى في ذلك الزواج مكافأتها أخيراً. انتقلت هذه الأقوال وضُخّمت بشائعات قصب السكر، ووصلت إلى لابوانت وبيرجيت وبور لويس وأبيم... حيث يقيم آل لوي، فتسبّبت لهم بحزنٍ عظيم. لكنّهم صمتوا بفعل الإحساس بأنهم لم يعودوا يشكّلون جسداً متجانساً، يرويه الدم عينه ويجتمع تحت جلدٍ واحد. كلا، لن يسكبوا ثانيةً الزيت فوق النار ولن يفكّكوا روابط متفكّكة أصلاً! فلنترك ماريتا تتفوّه بحماقاتها!

في يوم الأحد 15 آب إذاً، شوهد جميع أقاربنا المتبقّين، يرتدون أجمل ثيابهم ومنفعلين، باستثناء أقاربنا في باس تير بطبيعة الحال، لأنّه لم يعد لهم حقاً وزن. آخر مربّعٍ من النعجات التي تتبع عصا الراعي يعقوب، الذي ارتدى في تلك المناسبة ملابس فاتحة وإلى جانبه فلورا، تعتمر قبّعة قشٍّ إيطالية.

مثّلت تلك المناسبة بالنسبة إليّ فرصةً لأرى مجدّداً جيسنير أمبواز، بعد مدّةٍ وجيزة من حصوله على الأسطوانة الذهبية بفضل أغنيةٍ للكرنفال، ساخرة وراقصة بعنوان: *Dévlopé péyi-là*[*]. ربما كان جيسنير أكثر رجلٍ كرهتُه من بين جميع رجال أمّي. لأنّه كان خاضعاً لها إلى حدّ أنّه لم يمنحني يوماً اهتماماً سوى للتأسّف بوضوحٍ شديد على وجودي على هذه الأرض. ثمّ إنني، بتأثيرٍ من العائلة ولا سيما من الصديقة فلورا، كنت أجده ثقيلاً وأخرق وفقير الكلمات ومرتبكاً.

– ما الذي يعجب تيكلا فيه؟

لأوّل مرّة، تحسّست للسحر الكثيف والسرّي لدى هذا المروّض العملاق للألحان! بماذا تفيده الكلمات؟ لم يكن لديه ما يفعله بها بما أنّه سيّد لغةٍ أخرى. ليس بوسعي مقارنة شعبية جيسنير لدينا إلا بشعبية شخصٍ مثل بوب ديلان في أميركا الستينيات، أو مثل بروس سبيرنغستين في أيامنا هذه. غير أنّه كان هنا، متواضعاً وواثقاً بنفسه، أليفاً وبعيداً، قدماه في أرض الشعب الخصبة، يستلهم منه. رمش بعينيه وابنته الصغيرة بين ذراعيه، وقال بنبرةٍ تخفي ألماً بالغ القِدم: «كيف حال أمك؟».

– بخير! بخير!

(*) «تنمية البلد».

لم يسألني أكثر من ذلك، ومضى للجلوس بعيداً تحت شجرة مانغا.

بدأ حفل الغداء بدايةً حسنةً نوعاً ما. ربما كان متكلّفاً بعض الشيء! إذ كان المرء يشعر حقاً أنّه تحت مظهر الوحدة توجد توتّرات وتباينات جاهزة للانفجار في الهواء في وضح النهار. بدت هيئة يعقوب حزينة، وقد جلس في أبعد مكانٍ من الطاولة، في حين أنّه كان يُفترض فيه ترؤسها بوصفه شقيقاً لأبي العروس المتوفّى.

خرِب كلّ شيءٍ لحظة ظهر سمك النهاش المشوي على الفحم والمقدّم على سريرٍ من البطاطا الحلوة المسحوقة. حتى ذلك الحين، دار الحديث عن أمورٍ متنوّعة. فتُقدِّم النساء وصفة فطيرة الجلاهب. ويحكي أحد الرجال كيف كاد عشّ دبابير يلتهم وجهه أثناء عمله في حقله. من الذي تلفّظ باسم مصنع دارنيل؟ لا شك أنّه والد إفريم الذي كان يعمل فيه بعد أبيه وجدّه، ويخشى محقّاً أن يخسر مصدر رزقه. آنذاك، وبعد أن كان ديودونيه صامتاً حتى ذلك الحين وغيرَ مرتاحٍ، كما يحدث له دائماً بحضور زوجة أبيه، انطلق في نقدٍ لاذعٍ ضدّ أصحاب المصانع الذين يغلقونها واحداً واحداً، وضدّ السلطة الاستعمارية الفرنسية التي تريد تحويل البلد إلى حقلٍ من أيدي الرجال لصناعاتها.

لم يعجب هذا الخطاب جميع الحاضرين. ولا سيما إفريم الذي شنّ بدوره نقداً لاذعاً ضد جميع أولئك الوطنيين المزعومين الذين ليس لديهم سوى الشعارات في أفواههم، وسيودون بالبلد حتماً إلى المستشفى في حال أُفسح لهم المجال للتصرّف. أنجده أحد الأشخاص بذكر مثال هاييتي، الجارة التعيسة المستقلة التي يرى الناس لاجئيها بالمئات يشقّون في البساتين.

الاستقلال، تلك الكلمة الخطرة أُطلقت واشتعل الجالسون إلى المائدة!

وصل التنافر إلى أقصاه عندما أخذت النساء يصرخن بصوتٍ أعلى من صوت رجالهنّ لاتهام السياسة، الأكثر خطراً من سكّينٍ ذي حدّين، بتقسيم العائلات.

لكن عندما قُدّم طبق الخنزير الرضيع المحشو، ساد هدوءٌ لشدّة ما أسال لعابَ الحاضرين الحيوانُ المترع بالفلفل والبصل الشتوي وأوراق خشب الهند.

نيزيدا، ابنة قريبٍ صاحب مرأبٍ في أبيم، ساعدت طوال أربعة أيام ماريتا في المطبخ، وشرحت أنّها اكتشفت تلك الوصفة أثناء تصفّحها دفتراً كان لجدّتها، وأخذ كلٌّ يقدّم رأيه:

– لم يعد الناس في أيامنا هذه يعرفون كيف يأكلون!

كيف اندلع الشجار ثانيةً؟

عاد كلٌّ من إفريم وديودونيه إلى صوابه، بل إنهما شربا نخباً مشتركاً، لكنّ شخصاً ما تلفّظ بكلمة قصب السكر. استعاد إفريم عنفه من فوره، وأكّد أنّ ذلك ميراثٌ مشينٌ من الماضي، مخلّفاتٌ لا تفيد إلا في وضعها في المتحف مع العصائب وحديد الوسم التي تنتمي إلى الزمن الماضي الجميل.

– قصب السكر هو موت الزنجي!

فقال ديودونيه منفعلاً إنّه يجب على الرغم من كلّ شيء معرفة ما يتحدّث المرء عنه، وذكر حالة أستراليا حيث تزدهر صناعة قصب السكر. أتى أحدهم لنجدته، مذكّراً بمثال كوبا الجارة التي تستقي مواردها الرئيسية من السكر.

– *Cuba si! Cuba no!*

(كنت لا أزال أجهل إلى أيّ مدىً تمثّل هذه الجزيرة نقطة خلاف! جمرة على بحر الأنتيل!).

وبما أنّ أحداً لم يتمكّن من إسكاتهم، فقد انتصبت ماريتا بكلّ طولها، ولعنت آل لوي الذين يفسدون كلّ شيءٍ دائماً. أجل، لقد سئم الناس منهم! من بخلهم، من غرورهم، من انتهازيتهم. احتفظ جدي يعقوب بهدوئه وهو يكرّر في سريرته بأنّها أرملة أخيه المحبوب! لكن فاض الكيل عندما بالغت في غضبها، فتجرّأت على الزعم أنّ هذه التيكلا التي يوليها الناس كلّ تلك الأهمية هي في الواقع أمٌّ غير متزوّجة، وأهمّ البغايا اللواتي عرفتهنّ ولم تتمكّن من العثور سوى على أبيض فرنسي بائس لغسل عارها! انطلق يعقوب، لكنّ ديودونيه وجيسنير سبقاه في الانقضاض بحركةٍ واحدةٍ على ماريتا التي سال دمها أحمر قانياً!

لقد كان هذا الدم الأحمر السخيّ بمثابة التوقيع على افتراق عائلتنا. مسكينٌ جدّي يعقوب الذي بذل كلّ ذلك الجهد ليعيد إلى الوطن قتيلينا الاثنين في حين يتجنّبه الأحياء!

صحيحٌ أنّه حدثت جلبةٌ من الاعتذارات والصفح والأسف والدموع والعهود بعدم تكرار ما حدث. صحيحٌ أنّ الموكب انطلق في الموعد المحدد باتجاه كنيسة جوين برتران حيث جلست مانويلا، متوّجةً بأزهار شجر البرتقال، على يمين عمّها في سيارةٍ مزيّنةٍ بالأزهار كما في الكرنفال. لكنّ ذلك كان مجرّد تصليحٍ بسيطٍ وطلاءٍ بماء الكلس لمبنى على وشك الانهيار. فاعتباراً من ذلك اليوم، لم تطأ قدما يعقوب أو ديودونيه أرض جوين لابورد. أمّا أبناء جان، فقد أجمعوا على أنّ أمّهم محقّة. ومن منهم

لم يفتحوا عيادةً أو صيدليةً أو عيادة طب أسنان في أميان أو كليرمون أو سوسي أنبري أو أماكن حزينة أخرى في بلدهم الأمّ عادوا على عجلٍ لتحيّة عمّهم، قبل أن يبتعدوا عنه إلى الأبد.

قريباً سيأتي زمنٌ لن يعود أحدٌ فيه قادراً على سرد الماضي العائلي بسبب نقص المعرفة. حين لن يظهر الأحياء إلى النور بعد فترات حملٍ لا تنتهي من رحمٍ إلى رحمٍ للتزوّد برأس مالٍ وراثي متقادم. حين لا يكون الحاضر سوى الحاضر. ولا يكون الفرد سوى الفرد!

أنهيت العطلة بحزنٍ نوعاً ما، غير أنّني أنجزت المهمة التي حدّدتها لنفسي، وسيكون عليّ تقديم جرد حسابٍ عنها لأوريليا، مغتنمةً كلّ ما يمكن اغتنامه.

أحياناً، كان صبري ينفد:

- تريد أن تقول لي إنّك لا تعلم كم من الوقت بقي ألبير في سان فرانسيسكو؟

وأُلِحّ: «ما الذي تعرفه عن زنجيّته الإنكليزية؟».

وببطء، ببطءٍ تخرج الذاكرة من نومها، وتنحلّ عقدة اللسان.

كان ذلك الصيف شديد الحرارة. حول جسر غابار، ارتفعت رائحة الأيكة الساحلية المقرفة حيث تأتي الضفادع لتموت وبطنها إلى الأعلى. والثيران تلهث في الحقول، وتمدّ إلى الخارج ألسنتها الكبيرة البنفسجية ولعابها يسيل. والكلاب تُظهِر أنيابها وتعضّ الأطفال من أعقابهم وقد جُنّت بفعل الحرارة. الأنهار جفّت والبحر نفسه تراجع في الأفق.

كما توفّيت عجوزٌ اسمها إسبيرانس متفحّمةً تحت سقف كوخها المصنوع من الصفيح.

.19

صباح يوم رحيلي، وكان جدّي قد سلّمني رسالةً لأوريليا أمضى الليل في كتابتها، ووضعت فلورا في قاع حقائبي أوعيةً ألصقت عليها بعنايةٍ توضيحاتٍ، واحتوت على البيسكيت(*) ومربّى البوتو(**) والبوملي والجلاهب المكبوس بالخلّ، الطبق الذي تشتهر به، ناسيةً على الأرجح أنني سأكون مباشرةً بين جدران مدرسة داخلية حيث ستتنبّه مراقباتٌ مخلصاتٌ في عملهنّ إلى تلك الأغذية المشبوهة كلّها، تلقّيت زيارةً لم أكن أتوقّعها. زيارة جيسنير، ممسكاً بيده صبيّه الصغير المزعج والذي يلمس كلّ شيء. وعلى الرغم من أنّ فلورا لم تكن تُكنّ له أيّ ودّ، فقد فتحت له أبواب الصالة وجلس في مقعدٍ وثير، تغطّي مسنديْ الذراعين فيه تلك المثلّثات المتساوية الساقين المصنوعة بالسنارة، إذ تضعها في كلّ مكانٍ تقريباً، على البيانو وعلى مقاعد الكراسي وعلى طاولات الزينة. بقي صامتاً وقتاً طويلاً، يحدّق في طرف حذائه الرياضي المطلي بعنايةٍ بأبيض إسبانيا، ثمّ استجمع أمره وبدأ بصوتٍ خفيض:

– عندما أراكِ، أمّك هي التي أراها أمام عينيّ. بلونٍ أفتح بالطبع! أمّا تيكلا، فهي زرقاء مثل البرقوق القطني، وفمها ذو لونٍ وردي خبازي مثل عنبٍ ينبت على شاطئ البحر! لكنّك تمتلكين كلّ قسمات وجهها. ابتسامتها. هيئتها المتعنّتة عندما لا تفعلين ما تريدين فعله. وبما أنّني أعرفها عزّ المعرفة، فأتساءل ما إن كانت حكت لك عني يوماً ما. أنا لا أخجل من قول ذلك: لقد أحببتها عندما كنت في الثانية عشرة من عمري، وهذا الحبّ

(*) طبق محبوب.

(**) نوع من الموز.

لن ينتهي إلا بنهاية حياتي ليولد مجدداً في حياتي الأخرى. عندما تركتْني، واصلتُ السير وأنا أعرج في درب حياتي المثلّم. لحسن الحظ بقيت لي موسيقاي. هل تعرفين كيف أتت الموسيقا للإنسان؟

نظرت إليه. هل يحسب أنني طفلة يمكن أن يحكي لها المرء حكاياتٍ لا تُصدّق؟ ارتسمت على وجهه ابتسامةٌ مفعمةٌ بطيبة قلبه الساذجة نوعاً ما.

- في تلك الأزمنة، على الأرض المسطّحة مثل صخرة، حيث لا ينمو سوى صبّار ضخم وشموع، كان لكلّ كائنٍ لغته. للرجل وللمرأة الكلام والدموع. للبقرة الخوار. للضفدع النقيق. للعصفور التغريد! لم يكن أحدٌ من تلك الكائنات يسمع الآخر، وسرعان ما أتى الموت لتقصير تلك الحيوات الخالية من التبادل. في غران فون كاكاو عاشت نورا، وهي زنجيةٌ جميلةٌ تضحك من الصباح إلى المساء في كوخها، على الرغم من قسوة الحياة. جُنّ كيسكيدي(*) كان يقف على غصن شجرة مانغا جولي غراماً ورغبةً بها. ذات مساء، لم يعد قادراً على الصبر، فنزل عن غصنه وجمع ريشه وتخبّأ في سرير نورا. عندما اضطجعت، اقترب بكلّ هدوءٍ وأدخل منقاره في عضوها مثلما يدخله في مدقّة زهرة. كرّر مناورته عدّة ليالٍ إلى أن انتهى به الأمر إلى الموت سعادةً، ووجدت نورا بين ملاءاتها بدهشةٍ كرةً صغيرةً ساكنةً وحارّة. بعد بضعة أشهر، دُهش الجميع عندما بدأ بطنها يتكوّر. ألا تعرفين أهل بلدنا؟ «ماذا؟ بطن؟ لكن من كوّره لها؟...»، بعد تسعة أشهر، وُلد ابن نورا وسط الزغاريد...

انتهى الأمر بجيستير إلى إدراك تأثير حكايته الساذجة في نفسي، فقاطع نفسه بخرَقٍ وقال:

(*) Keskedee: شحرور من منطقة الأنتيل.

- كانت أمّك تحبّ كثيراً هذه الحكاية، هي التي لم تكن أمها تحكي لها شيئاً! أمّك! لا يمرّ يومٌ إلا وأصلي كي تكون سعيدةً على الأقل في كلّ هذا الأسى المحيط بنا! سعيدةً مع رجلها الأبيض. رغم كلّ بياضه. الحياة، هذه الحياة كالت لها من الضربات ما يجعلها تستحقّ السعادة. حسناً، ما أريد قوله لك هو أنّك أنت ابنة غدنا. انظري إلى هذا البلد، بلدنا، بلدك، المعروض للبيع بالمزاد العلني. ربما لن يعود قريباً سوى ذكرى تتقلّص مساحتها في الذاكرة شيئاً فشيئاً. ما أحاول أنا فعله هو أن أحفظ له صوته. وأنت أيضاً تستطيعين فعل شيءٍ ما، يجب عليك فعل شيءٍ ما. لستِ تعلمين بعدُ ولا أستطيع توجيهك، أنا الذي لم أرتدْ مدارسكم كلّها. عمل عمّ أمّك جان لم ينتهِ. بل أقول إنّه بدأ بدايةً خجولة. الحقل بأكمله يحتاج إلى فكّ رموزه، بما ينمو فيه من قرّاصٍ وأعشاب غينيا، وكذلك شجيرات المستحيّة التي تشوّك أخمص القدمين. نحن تعبنا. أمّا أنتِ، فإنك ابنة غدِنا. فكّري في ذلك!

لم أجد ما أردّ عليه به، فقد شعرت سرّاً بالتمرّد والخشية أمام هذا الوعد الذي أراد انتزاعه مني. هذا الدور الذي ينوي إثقال كاهلي به. هذه المهمّة التي ينوي تكليفي بها. لكنني في الوقت عينه علمتُ في خافية قلبي أنّ عمري الذي سيبلغ عمّا قريبٍ سنّ الرشد لن يتمكّن من تجنّبها، بعد دفع الفدية لموتاي.

وهل بوسعي أصلاً أن أجعل دم سلالتي كلّها يكذب -وهذا هو الملمح الآخر لهذه الحكاية، حكايتي- منذ سلَفي ألبير، بأسنانه الجميلة القادرة على التهام العالم، سلَفي الذي ذهب ليسيل عرَقه في بنما وليزرع الذهب، ثم لاحظ أنّ الذهب في نهاية المطاف لا يشتري شيئاً، حتى أمي،

أجل، حتى هي وبالأخص هي، هي التي نزفت من كلّ الهزائم واحترقت بكلّ خيبات الأمل، قبل أن تلتجئ إلى الطرف الآخر من العالم، من دون أن أنسى جدّي المسكين يعقوب الممدّد على أرضية متجره، وعمّ أمي، عمّ أمي جان، الوطني البطل الشهيد الذي روى أرضنا بدمه السخيّ؟



ماريز كونديه

كاتبة روائية ومسرحية وناقدة من غوادلوب، المستعمرة الفرنسية الواقعة في منطقة البحر الكاريبي. بدأت نشر كتبها بعد أن تجاوزت الأربعين من عمرها، وتراوحت أعمالها بين الرواية، والمسرحيات، والأدب الموجّه للأطفال، والدراسات النقدية والسياسية. تستكشف في أعمالها موضوعاتٍ متعددة: الزنوجة، علاقة السود في منطقة الكاريبي بالقارة الإفريقية، الاستعمار، حقبة ما بعد الاستعمار، الكاتبات النساء... تنقّلت بين بلدانٍ عديدة وحازت عدداً من الجوائز، آخرها جائزة نوبل البديلة للآداب في عام 2018، لأنها «تصف ويلات الاستعمار وفوضى ما بعد الاستعمار بلغة دقيقة وبالغة التأثير. وهي تستحضر في رواياتها الأموات إلى جانب الأحياء، في عالمٍ يدور فيه الجندر والعِرق والطبقة باستمرار في تشكيلاتٍ جديدة».

من أبرز أعمالها: ملحمة «سيغو» بجزأيها، «بانتظار السعادة»، «آخر الملوك المجوس»، «هجرة القلوب»، «ديزيرادا»، «الحياة الآثمة». وقد نشرت آخر رواياتها بعد تجاوزها الثمانين من العمر.

رندة بعث

مترجمة سورية، حائزة على شهادة ماستر في الترجمة الفورية، وعلى شهادة دبلوم في الترجمة. تعمل وتقيم في دمشق.

من بين الكتب التي ترجمتها:

في الرواية: «الطربوش»، و«مزاج» لروبير سوليه.

في العلوم الاجتماعية:

- الأشكال الأولية للحياة الدينية - المنظومة الطوطمية في أستراليا، لإميل دوركايم.
- الباب - مقاربة إثنولوجية، لباسكال ديبي.
- أزمة الهويّات - تفسير تحوّل، لكلود دوبار.
- بؤس العالم (الجزء الثالث)، لبيير بورديو.
- مسألة الحرية في الفكر الإسلامي - الحل المعتزلي، لأبو عمران الشيخ.
- شيخ الليل - أسواق صنعاء ومجتمعها، لفرانك ميرمييه.



إصدارات دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع





تصميم الغلاف خاح طاهر

محاولةً التصالح أخيراً مع ماضٍ ظلَّ يطاردها طوال حياتها، تروي "كوكو" حكاية عائلتها عبر عدّة أجيال، بدءاً من السلف "ألبير لوي" الرجل الطموح الذي غادر أرضه محاولاً إعادة تكوين نفسه كرجلٍ يتمتّع بثروة، مروراً بأبنائه وأحفاده، وصولاً إليها هي ذاتها: "كوكو"، الراوية التي تشعر أنها يجب أن تحكي هذه الحكاية، وسيكون ذلك هو النصب الذي تبنيه للأموات. هو الدَّين الذي يجب أن تسدّده.
حكايةٌ خالية من الجلّادين الكبار ومن الشهداء المبجّلين، لكنه سيكون لها مع ذلك وزنٌ من لحمٍ ودم، لأنها حكاية أهلها، بأحلامهم وآمالهم؛ بأوهامهم، بإخفاقاتهم، وبإرثهم المعقّد الذي يعاني منه العِرق كله.

"الحياة الآثمة" روايةٌ تفيض بالحكايات المتشابكة، وتعجّ بالتفاصيل التي تقدّم شهادة مهمة عن حياة عائلات الطبقة الوسطى في منطقة الكاريبي، كتبتها "ماريز كونديه" الروائية الغوادلوبية التي حازت جائزة نوبل البديلة لعام 2018، بعذوبةٍ ودفءٍ لا متناهيَين، مستندةً إلى حدٍّ كبير على تاريخ عائلتها ذاتها. كتبتها لتكون نصباً تبنيه للأموات، مسدّدةً بذلك الدَّين هي أيضاً.


ISBN 978-9933-641-50-4
9 789933 641504





